عيون الأدب الأجنبي

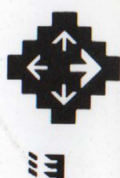
6

ترجمة : د. جمال شحيد

مارسيل بروست
البحث عن الزمن المفقود

الشاردة

محيي الدين اللباد



شرقيات

البحث عن الزمن المفقود

مارسيل بروست

ترجمة: المرحوم إلياس بديوي (الأجزاء من ١ إلى ٥)

A la recherche du temps perdu

Marcel Proust

Gallimard, Paris

الجزء السادس:

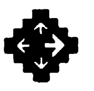
Albertine disparue

الشاردة أو ألبرتين المختفية

(القسم الثاني من سادوم وعامورة)

ترجمة: د. جمال شحيد

© الطبعة العربية الأولى لترجمة الجزء السادس من
" البحث عن الزمن المفقود". دار شرقيات، ٢٠٠٣
رقم الإيداع ٢٠٠٣/١٣١٣٣
الترقيم الدوليISBN 977-283-141-4



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي، ١١١١١ باب اللوق ، القاهرة
ت : ٣٩٠٢٩١٣ فاكس ٣٩٣١٥٤٨

تصميم الغلاف : محي الدين اللباد

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع



المركز الفرنسي
للثقافة والتعاون العلمي
قسم الترجمة والنشر

مارسيل بروست

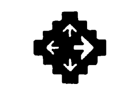
البحث عن الزمن المفقود

ترجمة: د. جمال شحيّد

6

"الشاردة" أو "ألبرتين المختفية"

(القسم الثاني من "سادوم وعامورة")



دار شرقيات للنشر والتوزيع

الشاردة

أو

البيرتين المختفية [1]

(القسم الثاني من " سادوم وعمورة")

"إن الآنسة البيرتين قد رحلت!" كم يكون الألم النفسي أعمق غوراً من علم النفس ذاته. منذ لحظة! بينما كنت أحلل نفسي، ظننت أن هذا الفواق النهائي هو ما رغبت فيه فعلا ؛ وقارنت المتع التافهة التي كانت تؤمنها لي

---

[1] نُشِر هذا النص عام ١٩٢٥، أي بعد وفاة مارسيل بروست بثلاثة أعوام. لقد اعتُمد هذا المتن (بالفرنسية)، بناءً على مخطوط الكاتب نفسه. ولكنّ فقدان بعض الصفحات جعلنا نعتمد لحلّها على الطبعة الأصلية. أما النسخة المضروبة على الآلة الكاتبة التي اعتمدتها هذه الطبعة فلم نحصل عليها.

إن مخطوط "الشاردة"، شأنه شأن جميع دفاتر بروست، مليء بالإضافات والقصاصات التي أُلصقت بالنص الأصلي والتي ضاعفت حجمه مرتين أو ثلاث. ويبدو أن المخطوط مؤلف من جمع نصّين صدرا في فترتين مختلفتين. وكُتب النص الأول، وهو الأقدم على الأرجح، بأسلوب دقيق ومكثّف وغير مجهَد ولكنه رصين. أما الثاني ـــ ويشكّل المتن الأساسي في النص ـــ فقد كُتب بأسلوب فضفاض وأكثر تسرعاً، ونجده أيضا في عدد من التصويبات والإضافات التي أجريت على صفحات النص الأول. ونستطيع الافتراض أن بروست، الذي عكف بعد سنوات عديدة من وضعه نص " الشاردة"، قد أدخل بعض المقاطع المأخوذة من الصياغة الأولى، واعتبر من غير المفيد إعادة كتابتها. ومهما يكن من أمر، فإنه لم يحظ بالوقت الكافي ليُعنى بتعشيق النصين فعرف المتن بعض التشابكات والقطوع. ولنذكر أن أحدث الإضافات والتصويبات أوردت أن الموسيقي الذي كان يرعاه "السيد دى شارلوس" يدعى "موريل" أو "شارلي". وكان اسمه في كل النصوص السابقة "سانتوا" أو "بوبي".

وحول حادثة الإقامة في مدينة البندقية، اعتمد الناشرون، مع بعض الفوارق الطفيفة، النص الذي ظهر في العدد الرابع من " صفحات الفن" (الصادر في ١٥ ديسمبر ١٩١٩) بعنوان " إلى البندقية"، وكان جزء من هذا النص قد صدر في صحيفة " لو ماتان" بعنوان " السيدة فيلباريسيس في البندقية" وظهر في زاوية " ألف صباح وصباح" في ١١ نوفمبر ١٩١٩، وهو اليوم الذي حصل فيه بروست على جائزة غونكور لكتابه " الفتيات". إذن اعتمدوا هذا النص بدل أن يعتمدوا نص المخطوط. ونرى أن نص " الدفاتر" هو أغنى وأكمل من نص " صفحات الفن" والنص الأصلي. وسندرجه مغفلين نقطة واحدة؛ فحول حادثة العشاء الذي جمع "السيد نوربوا" والسيدة "فيلباريسيس"، لا تقدّم " الدفاتر" سوى نص أقل تطوراً من النص المطبوع. وسنعتمد إذن هذا الأخير، مدرجين نص المخطوط في الحاشية (ص ١٠٥١ ـــ ١٠٥٤ من النص الفرنسي).

"البيرتين" بغنى الرغبات التي كانت تمنعني من تحقيقها (وبينــــها أن تـــأكيد حضورها في بيتي، وضغط الجو الأخلاقي لدي، قد شغلا مكان الصدارة فــي نفسي. ولكن عندما وافاني أول خبر عن رحيلها لم يعودا يستطيعان الدخــول في منافسة معها، لأنهما تبددا دون تأخير)، فوجدت نفسي في وضـــع دقيــق واقتنعت أنني لم أعد أريد رؤيتها وأنني لم أعد أحبها. ولكن هذه الكلمات "إن الآنسة البيرتين قد رحلت!" راحت تثير ألما في قلبي، ألما يخالجني لن أقــوى على مقاومته طويلا . كان علي أن أوقف هذا الألم حالا . ولأنني أعطــف على نفسي كما تعطف أمي على جدتي المحتضرة، كنت أقول بنفــس النيــة الطيبة التي تدفعنا إلى تجنيب أحبابنا آلامهم: "أصبر لحظة أخرى، ســيجدون لك دواء، كن هادئا، لن يتركوك تتألم هكذا". وخمنــت تخمينــا غامضــا أن رحيل البيرتين ، عندما قرعت الجرس، كان قد بدا لي غــير مــهم، لا بــل مرغوبا فيه، إلا لأنني ظننته مستحيلا ؛ ووفقا لطريقة التفكير هذه، بحثــت غريزة البقاء عندي عن المسكنات الأولى التي ستوضع فوق جرحي المفتوح: "لا أهمية لهذا كله، لأني سأرجعها فورا. سأنظر في الوسائل، ولكنها ســتكون هنا هذا المساء على كل حال. إذن من العبث أن أشغل بالي بذلك". "لا أهميــة لهذا كله"، لم أكتف بهذا القول، بل حاولت أن أشعر "فرنسواز" بذلك، دون أن أظهر لها ألمي، لأن حبي المبرح كان يجب أن يظهر لها حبا سعيدا و متبادلا ، لا سيما وأن فرنسواز لم تكن تحب البيرتين وكانت تشك دائما في صدقها.

نعم، قبل وصول فرانسواز بقليل ظننت أنني لم أعد أحب البــيرتين، وظننت كمحلل دقيق ألا أترك شيئا جانبا؛ كما ظننت أيضا أننــــي أعــرف أعماق قلبي تمام المعرفة. ولكن ذكاءنا، مهما كان ثاقبا، لا يستطيع أن يــرى العناصر التي تؤلفه والتي لا يخامره بشأنها أي شك، ما دامت هناك ظــاهرة تستطيع تحويلها من حالة التبخر التي غالبا ما توجد فيها هذه العناصر إلـــى عزلها دون أن تخضعها لبداية تجمد. لقد أخطأت عندما ظنـــت أننـــي أرى بوضوح في قلبي. ولكن هذه المعرفة التي لم تتحـــها لـــي أدق الادراكـــات العقلية، قد تجلت لي قاسية ساطعة غريبة، كذرة ملح متجمدة، تجلــت هكــذا بسبب لاعجة الألم المفاجئة. كنت معتادا أن أرى البيرتين إلى جانبي، وفجــأة رأيت وجها جديدا لهذا الاعتياد. وقبل ذلك كنت أعتبر الأمر بخاصة كسـلطة ماحقة تلغي الابتكار لا بل تلغي وعي الادراكات. أما الآن فأراه كإله رهيــب

يحملق فينا ويغوص وجهه التافه في قلبنا، وعندما ينفصل عنا ويتنكب لنـــا، تسبب لناهذه الألوهة التي لا نكاد نتبينها آلاما لا أفظــع منـــها وأقســى آلام الموت.

وكان الأمر المستعجل هو أن أقرأ رسالتها، لأنني كنت أريد التفكـير في وسائل إرجاعها. كنت أشعر بأنني أملك هـذه الوســائل؛ ولكــن ـ لأن المستقبل لا يزال في تفكيرنا ـ يبدو وكأنه قابل للتعديل إذا ما تدخلت إرادتنا في اللحظة الأخيرة. إلا أنني في الوقت ذاته تذكرت أن قوى أخـــرى غــير قوتي تؤثر فيه ولا أستطيع صدها، مهما أتيح لي من وقت. مـــاذا يفيدنـــا أن الوقت لم يحن بعد، إذا كنا لا نستطيع شيئا حول ما سيحدث فيه؟ عندما كانت البيرتين في البيت كنت قد قررت اتخاذ زمام المبادرة بالنسبة لانفصالنا. ثـــم ذهبت. فتحت رسالة البيرتين. وكان نصها كالتالي:

"سامحني يا صديقي لأنني لم أجرؤ على أن أقول لك بالصوت الحـي الكلمات الوجيزة التالية، ولكنني جبانة جدا، وأمـــامك كنـــت أشـــعر دائمـــا بالخوف؛ ومع بذل الجهد، لم أملك الشجاعة في ذلك. إليك ما توجب علي أن أقوله لك: صارت الحياة بيننا من رابع المستحيلات، وقد لاحظت في المشادة التي وقعت ذلك المساء أن شيئا ما قد تغير في علاقتنا. ما استطعنا تدبيره في تلك الليلة قد لا نستطيع إصلاحه في الأيام القادمة. وبما أننا حظينا بفرصـــة المصالحة، من الأفضل إذن أن ننفصل كأصدقاء أعزاء. لذا يا عزيزي أرسل لك هذه الرسالة، وأرجو أن تسامحني طيبتك إن سببت لك بعض الحزن، مـع العلم أن حزني سيكون شديدا. يا كبيري العزيز، لا أريد أن أصبح عدوتـــك، سيشق علي أن أصبح مع الزمن والوقت المتسارع مـــن ســقط المتـــاع. إن قراري حازم، وقبل أن أعطي رسالتي لفرانسواز كي تســلمها إيـــاك،كنـــت سأطلب منها حقائبي. وداعا، أترك لك أفضل ما في. "البرتين".

فقلت لنفسي إن كل هذا لا يعني شيئا، لا بل هذا أفضل مما فكـــرت فيه، ولأنها لم تفكر إطلاقا في كل هذا فإنها بالطبع لم تكتبه إلا لتخبط خبطـــة كبيرة كي تخيفني. ولكن يجب أن أفكر في ما هو أكثر استعجالا، أي فـــي أن البيرتين وصلت هذا المساء. من المحزن الظن أن عائلة "بونتـــان" (Bontemps) هم أناس مشبوهون يستخدمون بنت أخيهم لتبتزني في مالي. ولكن لا بـــأس. حتى لو اضطررت إلى إعطاء السيدة "بونتان" نصف ثروتـــي، كــي تبقـــى

البيرتين هنا هذا المساء، سيبقى لنا، لالبيرتين ولي، ما يكفينا لكـــي نعيــش برغد. وفي الوقت نفسه كنت أحسب وقتي لكي أوصي هذا الصبـــاح علـــى اليخت والسيارة الرولزرويس التي كانت تشتهيها، ولم أعد أفكر، بعد أن مات كل تردد لدي في أن إعطاءهما لها يفتقر إلى الحكمة. حتى ولو كان قبـــول السيدة "بونتان" غير كاف، في حال أن البيرتين رفضـــت أن تطيـــع عمتـــها واشترطت ــ لكي تعود ــ بأن تحصل على استقلالها الكامل؛ سأترك لها هذا الاستقلال، مهما غمني ذلك، فستخرج وحدها وكما تشاء. يجب على المـــرء أن يعرف كيف يقوم بتضحيات، مهما كانت أليمة، من أجل ما نتعلـــق بـــه أكثر، على الرغم مما طرأ ببالي هذا الصباح من أفكار دقيقـــة وعبثيـــة أن ألبرتين تعيش هنا. هل أستطيع بالتالي أن أصرح بأن إعطاءها هذه الحريـــة سيكون مؤلما لي؟ لا، سأكون كاذبا. غالبا ما شعرت بأن تركها حرة لتفعل الشر بعيدة عني كان أقل من ذلك الألم الذي ينتابني لما كنت أشعر أنها ملـــت معي وعندي. بلا شك في الوقت ذاته الذي طلبت مني فيه الذهاب إلى مكـــان ما، كان السماح لها بذلك، مع العلم أنها كانت تعقد حفلات مجون، شيئا شنيعا بالنسبة لي. ولكن إذا قلت لها: "اذهبي بمركبنا أو بالقطار وابقي شـــهرا فـــي ذلك البلد الذي لا أعرفه ولن أعرف شيئا عما تفعلينه هناك"، كان يعجبني في أغلب الأحيان أن أفكر في أنها إذا أقامت المقارنة وهي بعيدة عني فستفضلني وستكون سعيدة بالعودة. أضف إلى ذلك أنها تبغي ذلـــك بالتـــأكيد؛ إنـــها لا تفرض إطلاقا تلك الحرية، فبتوفيري لألبيرتين متعا جديدة، سأصل بيسر إلى الحصول يوما بعد يوم على شيء من التقتير. كلا، ما أرادته البيرتين هو أن أكف عن إزعاجاتي غير المحتملة لها وأن أقرر بخاصة الزواج منها، كمـــا فعلت "أوديت" (Odette) في الماضي مع "سوان". وعندما نتزوج، ستتخلى عـــن التشبث باستقلاليتها، وسنبقى كلانا هنا في غاية الســـعادة. علـــى الأرجـــح سنتخلى عن مدينة "البندقية". ولكن كم ستصبح المدن التي نحبها حبـــا جمـــا شاحبة ولا مبالية وميتة ــ وأكثر من البندقية بكثير، دوقـــة "دى غيرمـــانت" والمسرح ــ عندما نرتبط بقلب آخر ارتباطا ممضا يمنعنـــا مـــن الابتعـــاد. والبيرتين محقة تماما في مسألة الزواج هذه. وكانت أمي نفسها تجد كل هـــذا التسويف مضحكا. كان علي أن أتزوجها منذ زمن طويل، وهذا ما يـــترتب علي الآن أن أفعله، وهذا ما دفعها لكتابة رسالتها دون أن تفكر في كلمة مـــن

كلماتها. ولإنجاح ذلك تخلت لبضع ساعات عما عليها أن ترغب فيه وعمـــا أرغب في أن تفعله: أي العودة إلى البيت. نعم، هذا ما أرادته، وهـــذا مـا صممت على فعله، حسبما قال لي عقلي المتعاطف. ولكنني كنت أشعر بــأن عقلي عندما قال لي ذلك كان يضع نفسه في الفرضية نفسها التي تبنتها منـــذ البداية. والحال أنني شعرت بوجود فرضية أخرى أكدتها لي الأيـــام، ولكـــن ربما لم تكن هذه الفرضية على درجة كافية من الجسارة لتعبر بصراحة عـن وجود علاقة لألبيرتين مع الآنسة "فانتوي" (Vinteuil) و صديقتها. ومع ذلـــك، عندما غمرني هذا الخبر الجديد واجتاحني أثناء دخولنا إلى محطة "أنكارفيل"، تم التثبت من الفرضية الثانية. ثم أم الآنسة " فانتوي" لن تفكر قـــط فـــي أن البيرتين قادرة على هجري وحدهـــا وبـــهذه الطريقـــة، أي دون إخطـــاري وإعطائي الوقت الضروري للحؤول دون هذا الهجر. ومع ذلك كـــان واقـــع الحياة الذي يفرض نفسه علي، بعد القفزة الجديدة الهائلة التي طـــرأت فـــي حياتي، جديدا كذلك الواقع الذي اكتشفه أحد علماء الفيزياء، وأقوم فيه بتحقيق يشبه ما يفعله قاضي التحقيق، أو أصل إلى اكتشاف كما يفعل مؤرخ وجـــد خلفية الجريمة أو الثورة، إن هذا الواقع كان يتجاوز التوقعات الهزيلـــة فـــي افتراضي الثاني، ولكنه كان مع ذلك يحققها. لم تتأسس هذه الفرضية الثانيـــة على الذكاء، فالهلع الذي أصابني في ذلك المساء الذي لم تقبلني فيه البـــيرتين وفي ذلك الليل الذي سمعت فيه صوت النافذة، لم يبن على العقل. وبمـــا أن الذكاء ليس الوسيلة الأدق والأقوى والأنسب لفهم الحقيقة ــوتتمة الأحـــداث ستظهر ذلك أكثر ــ فالأولى البدء بالذكاء وليس بحدسية مرتبطة بـــاللاوعي وبإيمان بالاستشعارات الجاهزة مسبقا. إن الحياة هي التي تسمح لنا تدريجيـــا وحسب الحالات أن نلاحظ أن أهم شيء لقلبنا أو بالنسبة لعقلنا، لا نتعلمه من التفكير بل من قدرات أخرى. وعندما يلاحظ الذكاء تفـــوق هـــذه القـــدرات يستقيل أمامها من التفكير ويقبل بأن يصبح مشاركا لها وخادما. إنـــه إيمـــان تجريبي. وبدا لي أن البؤس غير المتوقع الذي واجهته، قد عرفته وقرأته فـــي إشارات عديدة (كانت البيرتين تقيم علاقة صداقة مع سحاقيتين؛ بالرغم مـــن تصريحات عقلي المتعارضة المستندة إلى أقوال البيرتين نفسها)، وكنت قـــد تبينت مللها وهلعها من أن تعيش عيشة العبيد. وكم من مرة ظننت أن هـــذه الإشارات مكتوبة، ولكن بحبر غير مرئي، خلافا لما ينم عن ناظري البيرتين

الحزينين والخفيضين وعن خديها اللذين كانا يتأججان فجأة بحمرة لا مـبرر لها، لدى انفتاح هذه النافذة بغتة وصريرها. ويبدو أنني لم أجرؤ على تفسير هذه الإشارات بشكل كامل وعلى تكوين فكـرة صريحـة عـن مغادرتـها المفاجئة. وبروح جهلها حضور البيرتين تتوازن، لـم أفكـر إلا بمغـادرة أعددتها أنا بنفسي في وقت غير محدد، أي في وقت ينتمي إلى زمـن غـير موجود. وبالتالي لقد توهمت فقط أنني فكرت بمغادرة، شأني في ذلك شـأن الناس الذين يتصورون أنهم لا يخشون الموت عندما يفكرون فيه وهم فـي عافيتهم، فيرمون في الواقع بفكرة سلبية جدا ــ مع العلم أنهم يتمتعون بصحة جيدة ــ يفسدها فعلاً اقتراب الموت. أجل إن فكرة رحيل البـيرتين الـذي أرادته هي كان من الممكن أن تخطر إلف مرة ببالي، وبكل جلاء ووضـوح، بحيث لم أشتبه أكثر من ذلك بما سيحدثه في فعلا هذا الرحيل الـذي صـار بالنسبة لي شيئا جديدا وشنيعا ومجهولا، وصار علة مستجدة. لو كنت أتوقـع هذا الرحيل لرأيت دائما، وخلال سنوات وسنوات، أن جميع هـذه الأفكـار المتناثرة قد تركت تأثيرا خفيفا لا يضاهى في الجحيم غير المتصور الـذي كشفت "فرانسواز" النقاب عنه عندما قالت لـي: "إن الآنسـة البـيرتين قـد رحلت". لكي يتصور الخيال موقفا مجهولا نراه يلجأ إلى عناصر معلومـة، ولذا فإنه لا يتصورها. ولكن الإحساس، مهما كان ماديا، فإنه كخط الصاعقة يتطبع بالحدث الجديد على جدته ورسوخه. وأكاد أتجرأ على أن أقول لنفسـي إنني لو توقعت هذا الرحيل لعجزت ربما عن تصور شناعته كلـها، ولكـن البيرتين ــ حتى لو أعلمتني به ــ لما استطعت أنا ــ بعـد تـهديدي إياهـا وتوسلي إليهاــ أن أحول دونه. ما أبعد الرغبة في الذهاب إلى مدينة البندقيـة عني الآن! كأنها تشبه رغبتي في التعرف على السيدة "دى غيرمـانت" فـي "كومبري" سابقا، عندما لم أكن أحرص إلا على شيء واحد، ألا وهو وجـود أمي في غرفتي. أجل إن جميع التوجسات التي شعرت بـها فـي طفولتـي هرعت لتعزز هذا التوجس الجديد ولتندمج فيه فغدت كتلة متجانسـة تشـد خناقها علي.

صحيح أن طعنة القلب الناجمة عن فراق كهذا والتي يمتلك الجسـد قدرة هائلة على تسجيلها، تجعل من الآلام شيئا يعايش جميع مراحل حياتنـا التي عانينا فيها؛ صحيح أن طعنة القلب هذه التي قد تنظر لها قليلا (وقلمـا

يكترث الناس بألم الآخرين) تلك التي ترغب في تكثيف الندم تكثيفا أعظميا، إما لأن المرأة التي بدأت انطلاقة خاطئة تريد فقط أن تطلب شروطا أفضل، وإما لأنها في رحيلها النهائي ـ نعم النهائي ـ تريد تسديد ضربة إما لتنتقم أو لتبقى معشوقة أو (حسب نوع الذكرى التي ستتركها) لتحطم بعنف تلك الشبكة من صنوف الملل وعدم الاكتراث التي شعرت بتشكلها ـ صحيح أننا قد تواعدنا تجنب هذه الطعنة القلبية واتفقنا على الانفصال حبيا. ولكن من النادر جدا أن يفترق الناس حبيا، ذلك أنهم إن كانوا على وئام لما افترقوا. يضاف إلى ذلك أن المرأة التي نعاملها بكثير من اللامبالاة تشعر في دخيلتها أن الآخر عندما يمل منها بحكم العادة نفسها، يتعلق بها أكثر فأكثر، فتظن أن أحد العناصر الرئيسية في الفراق هو الفراق بعد إخطار الآخر. ولكنها بإخطارها تخشى منعه. وكلما تشعر امرأة بأن سلطتها على الرجل كبيرة ترى أن الوسيلة الوحيدة في الهجر هي الهروب. وهكذا تكون الشاردة سلطانة. صحيح أن هناك فاصلا هائلا بين ذلك الملل الذي أثارته منذ برهة وبين حاجة الرجل المهتاجة لأن يمتلكها من جديد، لأنها رحلت. ولكن لهذا الأمر أسبابا غير تلك الأسباب المذكورة في هذا الكتاب أو التي ستذكر لاحقا. ـ وفي البدء غالبا ما يحدث الرحيل عندما تشتد اللامبالاة ـ الفعلية أو المتخيلة ـ أي عندما يبلغ تحرك النواس درجته القصوى. فتقول المرأة: "كلا، لا يمكن أن تستمر الأمور هكذا"، لأن الرجل لا يتكلم إلا عن الهجر، ويفكر فيه، ولكنها هي التي تهجره. وعندئذ يعود النواس إلى حده الأقصى الآخر، ويبلغ الفاصل درجة قصوى. وخلال لحظة واحدة يعود إلى هذه الدرجة، بمعزل عن جميع الأسباب المذكورة، وهذا أمر طبيعي جدا. فيختلج القلب وتكون المرأة الراحلة مختلفة عن المرأة التي كانت هنا. فترى فورا أن حياتها التي قضتها إلى جانبنا وعرفناها بإفراط، تنضاف إلى الحيوات التي ستمتزج بها حكما، وربما أنها رحلت عنا كي تمتزج بتلك الحيوات. وهكذا فإن الغنى الجديد لحياة المرأة الراحلة يفعل فعله طردا على المرأة التي كانت في كنفنا، وقد تستبصر رحيلها. وتتناسب سلسلة الأحداث النفسية التي يمكننا استخلاصها والتي تشكل جزءا من حياة المرأة ومن مللنا المعلن منها، ومن غيرتنا أيضا (وهي التي دفعت الرجال الذين هجرتهم نساء عديدات أن يتصرفوا بالطريقة نفسها بسبب طباعهم وردود أفعالهم المتماثلة دائما والتي

نستطيع تبينها، أي أن كل رجل له طريقته في مواجهة الخديعة، كما أن لـــه طريقته في مواجهة الزكام)، تتناسب على الأرجح مع سلسلة من الأحـــداث التي جهلناها. لا بد أنها كانت منذ فترة تقيم علاقات مكتوبة أو شفهية، عـــن طريق الوسطاء، مع ذلك الرجل أو تلك المرأة، وتنتظر إشارة معينة قمنا بها عفويا إذ قلنا لها: " لقد أتى السيد فلان أمس لرؤيتي"، ذلك أنها اتفقت معـــه عشية ذلك اليوم الذي كان عليها أن تلتحق به، ليأتي ويقـــابلني. مـــا أكـــثر الفرضيات الممكنة! أقول "الممكنة" فقط. كنت أبني الحقيقة ولكنني كنت أبنيها في الممكن فقط، إلى أن فتحت ذات يوم وعن طريق الخطأ رسالة موجهـــة لإحدى عشيقاتي، وكانت رسالة مكتوبة بأسلوب متفق عليه وتقول: "انتظـــر دائما إشارة للذهاب إلى "المركيز دى سان لو" (de Saint-Loup)، اخبرني غدا عن طريق الهاتف" فأعدت بناء رحيل متفق عليه. لم يرد اسم "المركيز دى ســان لو" هنا إلا للدلالة على شيء آخر، لأن عشيقتي لم تكن تعرف "سان لو" ولـم تسمع باسمه؛ يضاف إلى ذلك أن التوقيع كان كناية عن لقب، دون أي شـكل لغوي. والحال أن الرسالة لم تكن موجهة إلى عشيقتي، وإنما إلى شخص من البيت كان له اسم مختلف وقرىء خطأ. ولم تكن الرسالة مؤلفة من إشـارات متفق عليها، بل كانت مكتوبة بلغة فرنسية رديئـــة، لأن صاحبتـــها كـانت أمريكية، وأخبرني "سان لو" أنها كانت صديقته فعلا. وكانت هذه الأمريكيـــة قد خطت بطريقة غريبة بعض الحروف مما أعطى انطباعـــا بـــأن الاســم الحقيقي والأجنبي كان لقبا. في ذلك اليوم أخطأت خطأ فادحا في هواجســي. ولكن عتادي الذهني الذي ربط بين هذه الأحداث، الخاطئة كلها، كان الشكل المصيب الصارم للحقيقة؛ فبعد ذلك بثلاثة أشهر وعندما هجرتني عشـــيقتي (وهي التي كانت تظن أنها ستمضي حياتها كلها معي)، كان هجرهـــا لـــي مشابها تماما للهجر الذي تصورته في المرة الأولى. فوردت رسالة تحمـــل الخصائص نفسها التي نسبتها خطأ إلى الرسالة الأولى، ولكنها هنـــا كـــانت تتحمل معنى إشاريا، إلخ...

لقد كانت هذه المأساة أفدح مأساة في حياتي. ورغـــم ذلـــك، كـــان فضولي لمعرفة أسباب هذه المأساة قد جعلني أتجاوز الألم الذي سببته لـــي: فمن اشتهت البيرتين؟ وبمن التقت؟ ولكن منابع هذه الأحداث الجسام كمنـــابع الأنهار، ومهما جبنا سطح الأرض، فلن نجدها. هـــل كـــانت البـــيرتين قـــد

صممت على رحيلها منذ أمد طويل؟ لم أقل إنها منذ أن كفت عن تقبيلـــي (إذ بدا لي الأمر وقتئذ من قبيل التكلف وسوء الطباع، وهو مـــا كـــانت تسـميه "فرانسواز" "العناد والحرد")، بدت وكأن شيطانا تلبســـها، فكـــانت مســتقيمة وجامدة في وقفتها، وكان صوتها حزينا حتى في أبسط الأشياء، وكانت بطيئة في حركاتها ولم تعد تبتسم البتة. لا يسعني القول إن أي حدث لا علاقة لـــه بالخارج. وأخبرتني "فرانسواز" بعد مدة طويلة أنها عندمـــا دخلـت غرفـــة البيرتين عشية رحيلها بيومين، لم تجد فيها أحدا، وكانت الســـتائر مســدلة، ولكنها شعرت من رائحة الهواء ومن الصوت المنبعث أن النافذة مفتوحــــة. ووجدت البيرتين فعلا على الشرفة. ولكننا لا نرى مع من كانت تتراسل مــن ذلك المكان؛ وفعلا يفسر إسدال الستائر مع انفتاح النافذة بأنها كانت تعلم دون شك أنني كنت أخشى مجاري الهواء، وحتى لو كانت الستائر تحميني قليـــلا من مجاري الهواء، فإنها حالت دون أن ترى "فرانسواز" مـــن الممشـــى أن درفات النافذة قد فتحت في وقت مبكر جدا. لا، لا أرى شيئا ســـوى حــدث صغير يثبت فقط أنها في العشية كانت تعلم بأنها سترحل. أجل إنها في تلـــك العشية قد أخذت من غرفتي دون أن أدري، كمية من الورق وشريط ترزيـــم كان موجودا فيها، وبها صرت خلال الليل كله مناشفها العديـــدة وقمصانـــها الليلية كي تغادر في الصباح. كان هذا هو الحدث الوحيد، وهذا كل شيء. لا أستطيع أن أولي أهمية إلى أنها ردت لي بالقوة في ذلك المساء ألف فرنـــك كانت قد استدانتها مني، ولم تكن في ذلك أية غرابة، لأنها كانت موسوســـة للغاية في الأمور المالية.

نعم لقد أخذت في العشية ورق الترزيم، ولكنها لم تكن فـــي العشـــية فقط تعلم أنها سترحل. ذلك أن الحزن لم يدفعها إلى الرحيل، وإنما عزمـــها على الرحيل والتخلي عن الحياة التي كانت قد حلمت بها والتي أعطتها هــذه المسحة الحزينة. كان حزنها باردا معي ويكاد يكون صريحا، ما عدا المســاء الأخير بعد بقائها عندي أطول مما أرادته ـــ مما أدهشني عندها لأنها أرادت دائما الاستدامة ـــ، فقالت لي عند الباب: "وداعا يا صغــــيري، وداعـــا يـــا صغيري". ولكنني لم أحفل عندئذ بما قالت. وقالت لي "فرانسواز" في صبـــاح اليوم التالي، عندما قالت لها إنها راحلة (وقد يشرح الأمر أيضا بسبب التعب، فإنها لم تخلع ملابسها إذ أمضت الليل في الـــترزيم، ولكنـــها طلبـــت مـــن

"فرانسواز" الأشياء التي لم تكن في غرفتها وحجرة زينتها)، وكانت شديدة الحزن، شديدة الاستقامة، شديدة الجمود أكثر مما في الأيام السابقة، بحيث ظننت "فرانسواز" أنها ستسقط أرضاً عندما قالت لها: "وداعاً يا فرنسواز". عندما نتعلم هذه الأشياء نفهم أن المرأة التي تهاوى إعجابنا بها الآن بعكس جميع النساء اللواتي نلتقي بهنّ بسهولة كبيرة في النزهات العادية جداً واللواتي نلوم أنفسنا على التضحية بهن من أجلنا، تصبح على عكس ذلك المرأة التي نفضّلها ألف مرة. فلم تتعدَّ المسألة مسألة متعة (أمست شبه غائبة، بحكم العادة وربّما بحكم التفاهة) أو متع مغرية وساحرة، بل مسألة علاقة تلك المتع بشيء أقوى منها، أي الشفقة على الألم.

عندما وعدت نفسي أن البيرتين ستكون هنا هذا المساء، هرعت إلى ما هو أهم وعالجت بفكرة جديدة انسلاخ تلك التي عشت معها حتى الآن. ولكن ما أن تحرّكت غريزة البقاء عندي، حتى أرتج عليّ لحظة عندما كلمتني "فرانسواز"، وسعيت جاهداً لأقنع نفسي بأن البيرتين ستكون هنا هذا المساء، تولّدَ لدي ذلك الألم الذي شعرت به لحظة إقناع نفسي بهذه العودة (أي اللحظة التي تلت هذه الكلمات: "لقد طلبت الآنسة البيرتين حقائبها، ورحلت الآنسة البيرتين")، وعاودني ذلك الألم شبيهاً بما كان، أي كأنني ما زلت أجهل عودة البيرتين القادمة. وكان يترتب عليها أن تعود، ولكن من تلقاء نفسها. ففي جميع الاحتمالات يؤول التظاهر بالتساعي وبالطلب إليها أن تعود، يؤول إلى عكس المرتجى. أجل لم أعدْ أقوى على التخلي عنها كما استطعت التخلي عن "جيلبرت". ما كنت أريده، أكثر حتى من رؤية البيرتين ثانية، هو وضع حدّ للقلق الجسدي الذي لم يعد قلبي المكلوم يستطيع تحمّله. ثم إنني لكثرة تعوّدي عدم الإرادة، إن في العمل وإن في مجالات أخرى، أصبحت أكثر جبناً. زد على ذلك أن هذا القلق صار أشدّ بشكل لا يضاهى ولأسباب عديدة ليس أهمها أنني لم أشعر قط بأية متعة جنسيّة مع "السيدة دى غيرمانت" ومع "جيلبرت"، ولأنني لم أكن أراهن كل يوم وكل ساعة، إذ كنت أفتقر إلى التمكن من ذلك وبالتالي إلى الحاجة إليه، فقد اعتورت حبي لهما الطاقة الهائلة للعودة. ولأن قلبي الآن عاجز ربّما عن الإرادة وتحمّل الألم طوعاً، فإنه لم يجد سوى حل واحد ممكن، ألا وهو عودة البيرتين بأي ثمن؛ وربما كان الحل المعاكس (أي التخلي الطوعي والإذعان التدريجي) حلاً

روائياً لا يمكن أن يحدث في الواقع، لو لم أكن في الماضي اختـرت هـذه الفتاة، عندما حدث ما حدث مع "جيلبرت". وكنت أعلم بالتالي أن هذا الحـل الآخر قد يكون مقبولاً أيضاً، ويقبله رجل واحد، لأنني بقيت نوعاً مـا كمـا كنت. ولكن الزمن لعب لعبته، الزمن الذي أهرمني، الزمن الذي وضع أيضاً البيرتين قربي دون انقطاع عندما كنا نعيش حياتنا المشتركة. ولكن ما بقـي لي ممّا شعرت به نحو "جيلبرت"، دون التخلي عنها، هو إبائي أن أكون لدى البيرتين لعبة مستكرهة إن طلبت منها أن تعود؛ كنت أريد أن تعـود دون أن أبدو مصرّاً على ذلك. فنهضت كي لا أضيّع الوقت سدى، ولكنّ الألم منعني، وكانت المرة الأولى التي أنهض فيها بعد رحيلها. بيد أنه كان عليّ أن أرتدي ثيابي بسرعة كي أذهب لأستعلم من بوّاب منزل البيرتين.

عندما يكون الألم امتداداً لصدمة أخلاقية قسرية، فإنه يصبـو إلـى تغيير شكله؛ فنأمل القضاء عليه بإقامة المشاريع وبالبحث عن المعلومـات؛ نريد أن يمر الألم بتحولات عديدة، وهذا يتطلب شجاعة أقل من المحافظـة على الألم الصريح؛ ويبدو هذا السرير في غاية الضيق والقسوة والـبرودة، عندما يرقد المرء فيه مع ألمه. لقد نهضت إذن مرة ثانية على قدميّ، ومشيت في الغرفة بحذر لا متناه، وتقدّمت بحيث لا ألمح كرسيّ البـيرتين والبيـانو الصغير الذي كانت تضع بابوجها فوق دواستيه؛ وكان هذا البابوج هو الشيء الوحيد الذي كانت تستعمله من بين الأشياء التي تبدو ــ باللغة الخاصة التـي علمتها إياها ذكرياتي ــ وكأنها تقدّم ترجمة ونصاً مختلفاً ينبئني مرّة أخـرى برحيلها. ولكنني، دون أن أنظر إليها، كنت أراها، فخارت قـواي ووقعـت جالساً على أحد الكراسي ذي الساتان الأزرق، وقبل ذلك بساعة، مـا بيـن الظلمة والضوء داخل الغرفة التي خدّرها شعاع من النور، أهاج فيّ الدهـان أحلاماً كانت مدغدغة ونأت عني الآن. من الأسف أنني لم أكن ــ سوى منـذ دقيقة ــ قد جلست على هذا الكرسي، إلا عندما كانت البيرتين ما زالت هنـا. فلم استطع البقاء عليه، فنهضت. وهكذا استفاقت "أنا" متواضعة من أنواتـي الكثيرة التي تشكلني والتي ما زالت تجهل رحيل البيرتين، فتوجّب علـيّ أن أنبئها ــ وكان هذا أكثر ضراوة مما لو كانت هذه الأنوات غريبة ولم تـأخذ حساسيتي لتتألم ــ بالكارثة التي حلت على جميع الكائنات، على جميع هـذه

الأنوات التي لم تعرفها بعد. وكان يتعيّن على كل "أنا" منها أن يسمع للمرة الأولى تلك الكلمات: "لقد طلبت البيرتين حقائبها" (تلك الحقائب التي تشبه النعوش والتي عاينت تحميلها مع حقائب أمي عندما كنا في "بالبيك")، "إن البيرتين قد رحلت". وكان عليّ أن أعلم الجميع بحزني، ذلك الحزن الذي لم يكن قطعاً نتيجة متشائمة مقتبسة بحرّية من انطباع خاص يأتي من الخارج ولم نختره نحن. وكان هناك بعض هذه الأنوات التي لم أرها ثانية منذ أمد طويل. والمثال على ذلك هو "الأنا" التي كنتها عند قصّ شعري (ولم يخطر ببالي أن اليوم هو يوم الحلاق). فقد نسيت ذلك هذا الشهر، فجعل وصولها تأوهاتي تنفجر، شأنه في ذلك شأن وصول أحد الخدم المتقاعدين إلى مأتم وكان قد عرف المرأة التي توفيت مؤخرا. ثمّ تذكرت فجأة أنني، منذ ثمانية أيام، أصبت بهلع مريع لم أكن قد اعترفت به من قبل. ومع ذلك كنت وقتها أناقش قائلاً لنفسي: "من العبث أن أفكر بإمكانية رحيلها المفاجيء، أليس كذلك؟ لو بحت بذلك لرجل حصيف وذكي (وقد أفعله لأطمئن على نفسي، اللهمّ إذا لم تمنعني الغيرة من البوح)، لقال لي بكل تأكيد: "ولكنك مجنون، هذا مستحيل". (والحقيقة أننا لم نتخاصم مرّة واحدة). يغادر المرء لسبب، فيقوله. ثمّ نعطي الآخر حق الإجابة. لا يغادر الإنسان بهذا الشكل. لا، هذا تصرّف صبياني. هذه هي الفرضيّة الوحيدة العبثية". ومع ذلك كنت كل يوم، عندما أجدها ثانية في الصباح بعد قرع الجرس، أشعر بارتياح عميق. وعندما سلمتني "فرانسواز" رسالة البيرتين، تأكدت على الفور أن الأمر يتعلق بما لا يمكن أن يكون، أي بذلك الرحيل الذي أدركته بشكل ما قبل عدة أيام، بالرغم من أن الأسباب المنطقية كانت مطمئنة. لقد قلت لنفسي، وكأنني ارتحت لتبصّري في غمرة يأسي، كقاتل يعلم أنه يستحيل اكتشافه، ولكنه يخاف ويرى فجأة اسم ضحيّته مكتوباً على أعلى ملف طلبه قاضي التحقيق...

وكان كل أملي أن تكون البيرتين قد ذهبت إلى منطقة "التورين" (Touraine) لتزور عمّتها، وهنا كانت في المحصلة تشعر بأنها مراقبة جدا وأنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً، حتى آتي وآخذها من هناك. وخشيت كثيرا أن تكون قد بقيت في باريس أو ذهبت إلى امستردام أو "مونجوفان" (Montjouvain)، أي أنها فرّت لتنهمك بورطة معينة فاتتني مقدماتها. ولكنني في الحقيقة عندما

أذكر باريس أو امستردام أو مونجوفان، وهي أمكنة متعددة، لا أفكر إلا في أماكن ممكنة. وأيضا عندما أجابتني بوابة البيرتين أنها ذهبت إلى "التورين"، بدا لي ذلك المكان الذي ظننتني أحبه أبشع مكان، لأنه كان حقيقيا ولأنني، بعد أن عذبني يقين الحاضر وليس يقين المستقبل، تصورت البيرتين تبدأ حياة أرادتها مفصولة عني، ربما لمدة طويلة وربما إلى الأبد، فتحقق هناك ذلك المجهول الذي طالما بعث في الاضطراب سابقا، مع العلم أنني كنت سعيدا بامتلاكها وبدغدغة ذلك الوجه العذب الذي لا يسبر والذي فتنني. أجل كان ذلك المجهول هو الذي خلق حبي العميق. أما البيرتين نفسها فلم تكن موجودة في إلا باسمها، ما خلا تلك الهنيهات النادرة أثناء الاستيقاظ حيث كانت تنغرس في مخي ولا تبارحه. لو فكرت بصوت عال، لكررت وكررت ولكان هذري رتيبا ومحدودا، كأنني تحولت إلى طائر يشبه طائر الحكاية الذي كان صراخه يقول دون انقطاع اسم حبيبته التي عشقها عندما كان انسانا. يقول المرء ذلك لنفسه، ولأنه يبوح به فإنه يكتبه في ذاته على ما يبدو، ويترك أثره في مخه؛ ويترتب على هذا المخ أن يصبح في آخر المطاف مغطى تماما باسم الحبيبة الذي كتبه ألف مرة، شأنه في ذلك شأن جدار تسلى بعضهم بالكتابة عليه. إن المرء يكتب الاسم مرارا في ذهنه ما دام سعيدا، ويكتبه أكثر إن كان تعيسا. وعندما يكرر الاسم الذي يقدم له شيئا أكثر مما يعرف، يشعر بحاجة تتجدد دون انقطاع، ويشعر في النهاية بالتعب. لم أكن أفكر وقتها في المتعة الحسية، لا بل أنني لم أكن أرى في ذهني صورة هذه الألبيرتين، مع أنها أحدثت تغيرا كبيرا في كياني، لم أكن ألمح جسدها، ولو أنني أردت فصل الفكرة المتعلقة بالألم عندي ـــ مع العلم أن هذه الفكرة موجودة ـــ لأصبحت بالتناوب، فمن جهة أشك في الاستعدادات التي غاصت فيها مفكرة بالعودة أو غير مفكرة، ومن جهة أخرى ما هي الوسائل لإرجاعها. قد يكون هناك رمز وحقيقة في الحيز الضئيل من قلقنا، مرده ذاك الذي نربطه بها. صحيح أن شخصها ليس له إلا تأثير ضئيل؛ أما الذي يلعب الدور شبه الكامل فهو الانفعالات وأشكال القلق التي جرعتنا إياها قديما هذه الصدفة أو تلك بالنسبة لها أو بالتي ربطتنا بها العادة. ما يثبت ذلك فعلا (وأكثر من الملل الذي نشعر به أثناء السعادة) هو كم نرى هذا الشخص بالذات أو كم لا نراه، وكم يقدرنا أو لا يقدرنا، وكم هو تحت تصرفنا أم لا،

فيظهر لنا لا مباليا عندما نكف عن طرح المسألة (ولخمولنا نكف عن طرحها) ما خلا طرحها نسبيا عن الشخص ذاته ـ ذلك أننا ننسى عملية الانفعالات وأشكال القلق المرتبطة بها على الأقل، لأن هذه العملية استطاعت أن تتطور من جديد ولكنها انتقلت إلى شخص آخر. ومن قبل، أي عندما كانت لا تزال مرتبطة بها، كنا نظن أن سعادتنا منوطة بشخصها لأنها ترتبط فقط بنهاية قلقنا. وكان لاوعينا إذن أكثر حصافة منا عندئذ، إذ إننا قزمنا صورة المرأة المحبوبة، وهي الصورة التي ربما نسيناها، والتي لا نستطيع أن نسيء معرفتها أو نظنها تافهة، ففي مأساتنا المريعة نستطيع الالتقاء بها ثانية كي نكف عن انتظارها، أن ما سيكلفنا حتى حياتنا بالذات. إنها حجوم مقزمة لصورة المرأة، وتأثير منطقي وضروري لتطور شكل الحب، ومجاز واضح لطبيعة هذا الحب الذاتية.

إن العقلية التي دفعتها إلى الرحيل قد تشبه عقلية الشعوب التي تعد عمل دبلوماسيتها باستعراض جيوشها. لا شك أنها رحلت لتحصل مني على شروط أفضل وعلى مزيد من الحرية والرفاهية. ففي هذه الحال، أكون أنا الذي انتصرت بيننا، لو استطعت أن أنتظر وأنتظر أن تعود بذاتها، بعد أن تكون قد أدركت أنها لم تحصل على شيء. ولكن المرء يستطيع أن يقاوم الغش في لعبة الورق أو الخداع في الحرب ـ إذ المهم فيها هو الربح فقط ـ، إلا أن الشروط في الحب والغيرة والألم أيضا مختلفة تماما عن شروط لعبة الورق أو الحرب. ولو أنني ـ لأنتظر و"أبقى"ـ تركت البيرتين بعيدة عني أياما عديدة وأسابيع عديدة ربما، لدمرت الهدف الذي صبوت إليه منذ أكثر من سنة ألا وهو منعها من أن تكون حرة ساعة واحدة. ولو تركت لها الوقت والسهولة لكي تخدعني ما شاءت، لذهبت كل احتياطاتي أدراج الرياح؛ ولو أنها استسلمت في آخر المطاف، لما استطعت من بعد أن أنسى الزمن الذي كانت فيه وحيدة؛ وحتى لو انتصرت أخيرا، لكنت في الماضي المهزوم بالتأكيد.

أما وسائل إعادة البيرتين فقد كسبت حظا من النجاح أكثر من الفرضية القائلة بأنها ما رحلت إلا لأنها كانت تأمل أن تستعاد بشروط أفضل، وتبدو هذه الفرضية أكثر اقترابا من المنطق. ولا شك أن الناس الذين لم يؤمنوا بصدق البيرتين، ومن بينهم مثلا "فرانسواز"، وهذا مؤكد، فإنهم

أخذوا بهذه الفرضية. ولكن بالنسبة لعقلي الذي بدا له أن التفسير الوحيد لبعض الطباع السيئة ولبعض التصرفات، قبل أن يطلع على أي شيء، فإن مشروع رحيلها النهائي الذي أقدمت عليه يصعب تصديقه ويجب اعتباره، بعد أن حصل رحيلها، على أنه محض تظاهر. أقول هذا بالنسبة لعقلي، لا بالنسبة لي. إن فرضية التظاهر، على ريبيتها، أصبحت عندي أكثر ضرورة، واكتسبت القوة التي فقدتها في احتمال وقوعها. فعندما يجد المرء نفسه على شفير الهاوية وعندما يبدو لك أن الله قد تخلى عنك، فإنك لا تتردد في أن تنتظر معجزة[1] يجترحها لك.

بعد أن أكدت لنفسي ــ وكان علي أن أفعل ذلك ــ أن البيرتين ستعود إلى البيت هذا المساء بالذات، علقت الألم الذي سببته لي "فرانسواز" عندما قالت لي إن البيرتين قد رحلت (ولأن كياني أصيب بالمفاجأة فإنه ظن لأول وهلة أن هذا الرحيل كان نهائيا). ولكن الألم الأول، بعد برهة الانقطاع، وبزخم حياته المستقلة، عاد تلقائيا إلي، وكان بنفس الشناعة لأنه سبق الوعد العزائي الذي قطعته على نفسي بأن أعيد البيرتين في ذلك المساء بالذات. ولكن ألمي كان يجهل تلك الجملة التي قد تهدئه. ولتحريك الوسائل التي تكفل تلك العودة ــ لأنني أفلحت مرة أخرى في مثل هذا التصرف بل لأنني تصرفت دائما هكذا منذ أن أحببت البيرتين ــ كتب علي أن أتصرف

---

(١) أعترف أنني في كل الأحداث كنت أقل الشرطة تأثرا، مع أنني كنت أكثرهم تألما ولكن هروب ألبرتين لم يعد لي الصفات التي أفقدتني إياها عادتي في مراقبتها عن طريق الآخرين. لم أكن أفكر إلا في شيء ألا وهو تكليف شخص آخر ليقوم بهذا التحري. فوقعت على "سان لو" الذي قبل بالمهمة. وعندما سلمت القلق الذي لم يبرحني أياما طويلة لشخص آخر شعرت بالفرح، ولتأكدي من النجاح فركت راحتي يدي اللتين جفتا فجأة كما يحدث لي في الماضي، وفقدت العرق الذي تبلل مني عندما قالت لي "فرانسوا" : "الآنسة البرتين قد غادرت".

أتذكر أنني عندما عزمت على العيش مع ألبرتين لا بل الزواج منها، كان ذلك لإبقائها ولمعرفة ممارساتها ولمنعها من الرجوع إلى عاداتها مع الآنسة "فاتوي". وحصل ذلك عقب بوحها الشنيع والجارح في "بالبيك"، عندما قالت لي بشيء من الطبيعية ونجحت في التظاهر بأنه طبيعي جدا، مع أنه أثار في أكبر شجن عرفته في حياتي. قالت ذلك الشيء الذي لم أجرؤ على تصوره حتى في أسوأ الافتراضات. (من المدهش أن الغيرة التي تزجي وقتها في الافتراضات الصغيرة الخاطئة، ضعيفة الخيال عندما تسعى لاكتشاف الحقيقة). والحال أن هذا الحب الذي نشأ من حاجة، وهي منع ألبرتين من ممارسة الرذيلة، حافظ على مساره الأصلي. لم أكن أكترث كثيرا بالبقاء معها، بشرط أن أقدر على منع "الهاربة" من أن تشرق أو تغرب. ولكي أحول دون ذلك، لجأت إلى العيون وإلى صاحباتها اللواتي كن يذهبن معها، وكانت هواجسي تتلاشى راضية مرضية، عندما كن يقدمن لي تقريرا صغيرا مطمئنا.

كما لو أنني لا أحبها ولا أتألم لرحيلها، فكُتب عليّ أن أستمر في الكذب عليها. قد يكون بوسعي أن أُثبت حزماً أكبر لاتخاذ الوسائل الكفيلة بإرجاعها بحيث أتظاهر شخصياً بالتخلي عنها. ونويت أن أكتب لألبيرتين رسالة وداع أعتبر فيها رحيلها رحيلاً نهائياً، بينما قد أرسل "سان لو" (Saint-Loup) ليمارس، على غير علم مني، أشد الضغوط على "مدام بونتان" كي تعود البيرتين على جناح السرعة. لا غرو أنني قد جربّت مع "جيلبرت" خطر الرسائل على اللامبالاة التي تكون في البداية مخاتلة ثم تصبح في النهاية حقيقية. وكان يترتب على هذه التجربة أن تمنعني من أن أكتب لألبيرتين رسائل على شاكلة تلك الرسائل التي كتبتها "لجيلبرت". ولكن ما نسميه تجربة ليس في نظرنا إلا كشفاً لصفة في طبعنا يظهر عفوياً من جديد، ويظهر بقوة شديدة لا سيما عندما نميط اللثام عنه ذات مرة، بحيث تصبح الحركة العفوية التي وجّهتنا في المرة الأولى مدعّمة بجميع اقتراحات الذاكرة. فالخداع البشري الذي يصعب على الأفراد تجنبُه (ويصعب أيضاً على الشعوب المواظبة على أخطائها وعلى الاستزادة منها)، هو انتحال الذات.

كنت أعلم أن "سان لو" في باريس، فدعوته فوراً، فهرع بنفس السرعة والفعّالية التي أثبتها سابقاً في "دونسيير" (Doncières)، وقبل بأن يذهب حالاً إلى منطقة "التورين". وأعطيته التعليمات التالية. عليه أن ينزل إلى "شاتيليرو" (Châtellerault) ويستدل على منزل "مدام بونتان" وينتظر خروج البيرتين لأنها قد تعرفه. فقال لي: "ولكن هل تعرفني إذن الفتاة التي تتكلم عنها؟" فقلت له لا أظنها ذلك. لقد ملأني مشروع هذا المسعى بحبور لا متناه. ومع ذلك كان المسعى يتناقض تناقضاً مطلقاً مع ما قطعته على نفسي في البداية، أي أن أتدبر أمري فلا أبدو وكأنني أبحث عن البيرتين. وسيكون هذا المسعى هكذا قطعا، ولكنّ له مزية عظيمة على "ما كان يجب فعلهُ" تخولني أن أقول لنفسي إن شخصاً أرسلته أنا سيرى البيرتين وسيعيدها على الأرجح. ولو عرفت في البداية أن أرى بوضوح في قلبي، لاستطعت توقع هذا الحل الخبيء في الظلام والذي كنت أعتبره حلا زريّا بحيث يتقدّم على كل حلول الصبر التي قررت إعتمادها لعلّة في إرادتي. ولأن "سان لو" بدا متفاجئاً من أنني لم أكلمه سابقاً عن الفتاة التي سكنت معي شتاء بكامله، ولأنه من جهة أخرى حدثني كثيراً عن فتاة "بالبيك" دون أن أجيبه قط: "إنها تسكن

هنا"، فقد أخذ ربما على خاطره لقلة ثقتي به. صحيح أن "مدام بونتـــان" قـــد تكلمه عن "بالبيك". ولكنني كنت على أحرّ من الجمر ليذهب ويصل لأنـــوي التفكير ولأقوى على التفكير في النتائج المحتملة لهذه الرحلة. أما أن يتعـرّف على البيرتين (التي تجنب دائماً أن ينظر إليها عندما صادفها في "دونسيير")، فيستحيل ذلك، لأنها ــ كما يقول الجميع ــ قد تغيرت كثيراً وسمنت. وسألني إن كنت أملك صورة لألبيرتين. فأجبته أولاً بالنفي كي لا تتسنى له من خلال الصورة الضوئية التي التقطتها لها في فترة "بـــالبيك" تقريبـــاً، أن يحظـــى بالتعرف على البيرتين التي لم يشاهدها إلا مواربة داخـــل عربـــة قطـــار. ولكنني فكرت أن البيرتين "بالبيك" مختلفة جداً عن الصورة وأنها مختلفة عن البيرتين الحيّة الآن، وأنه لن يتعرّف عليها لا في الصورة ولا فـــي الواقـــع. وأثناء بحثي له عنها، مرّر يده بنعومة على جبيني كي يعزينـــــي. فتـــأثرت لمفعول عناء الألم الذي أدركه عندي. لقد سعى لينفصل فـــي البدايـــة عـــن "راشيل"، وما شعر به عندئذ لم يختلف كثيراً إذ تعاطف مع هذا النوع مـــــن الآلام واستشفق عليها استشفاقاً خاصاً، فالمصاب بمرضك نفسه يشـــعر أنـــه أكثر قرباً. أضف إلى ذلك أنه، لحنانه الجم تجاهي، لا يســـتطيع أن يتحمّـــل فكرة آلامي. وكان يُضمِر لتلك التي سببتها لي مزيجاً من الحقد والإعجـــاب. فتصورني إنساناً متفوقاً بحيث ظن أن مَن سيخضعني يجب أن يكون خارقـــاً تماماً. ظننت أنه سيجد صورة البيرتين جميلة، ولكنني لم أتصور أنها ستؤثر فيه كما أثّرت هيلانة في شيخ طروادة، وقلت له بتواضع وأنـــا أدنـــدن: "لا تشطح في تفكيرك، أولا الصورة سيئة ثمّ أنها غير مدهشة، فهي ليست آيـــة في الجمال، ولكنها لطيفة خاصة". فقال بحماس ساذج وصـــادق: "آه، إنـــها رائعة"، وراح يبحث في تصوره عن ذلك الكائن الذي استطاع أن يلقيني فـــي مثل هذا اليأس والاضطراب. "إنني أبغضها لأنها آلمتك، ولكن من المستحسن أيضاً أن نفترض بأن إنساناً فناناً حتى سويدائه، إنساناً فناناً مثلك يحب الجمال في كل شيء ويعشقه، كتب عليك أن تتألم أكثر من أي إنسان آخـــر عندمـــا وجدت هذا الجمال في امرأة". وأخيراً وجدت الصورة الضوئية. "إنها رائعـــة بالتأكيد"، هذا ما استمر "روبير" في قوله، دون أن يلحظ أننـــي قدّمـــت لـــه الصورة. وفجأة لمحها فأمسك بها لحظة بين يديه. وكان وجهه يعـــبّر عـــن انشداه وصل إلى حد البلاهة. وقال أخيرا: "هذه هي الفتاة التي تحبّها؟" قالـــها

بلهجة سيطرت الدهشة فيها على خوفه من إغضابي. فلم يُبد أية ملاحظة، وأخذ شكلا رصيناً وحذرا وبالضرورة شكلاً فيه شيء من الاحتقار عندما يكون المرء أمام أحد المرضى ـ حتى ولو كان حتئذ رجلاً متميزاً أو كان صديقك ـ ولكنه تجاوز كل ذلك لأن سورة من الجنون استحوذت عليه فراح يتكلم عن كائن سماوي ظهر له وما زال يراه في المكان الذي لا تشاهد فيه، أنت الرجل السليم ـ إلا لحافاً. وفهمت على الحال دهشة "روبير"، وكانت دهشة تشبه دهشتي عندما لمحت عشيقته، مع فارق وحيد هو أنني وجدت فيها امرأة كنت أعرفها من قبل، بينما كان يظن هو أنه لم ير قط البيرتين. ولكن من المرجح أن الفرق بين ما يراه كل منا في الشخص نفسه كان كبيراً جداً. لقد بعد بي الزمن عندما بدأت، بشكل ضئيل في "بالبيك"، أضيف إلى الأحاسيس البصرية لدى رؤيتي البيرتين، أحاسيس لها مذاق ورائحة وملمس. ثم انضافت إليها أحاسيس أشد عمقاً ولطفاً وغموضاً، ثمّ تلتها أحاسيس أليمة. وقصارى القول إن البيرتين ـ كحجر محاط بالثلج ـ لم تكن سوى مركز خلق بناء هائلاً كان يمرّ بشغاف قلبي. أما "روبير" الذي لم يكن يرى كل هذه الأحاسيس المتراتبة، فإنه لم يكن يدرك إلا راسباً كانت تمنعني من رؤيته. وما أغاظ "روبير" عندما شاهد صورة البيرتين لم يكن كاندهاش شيوخ طروادة عندما رأوا الجميلة هيلانة تمرّ فقالوا:

"مصيبتنا لا تساوي نظرةً من نظراتها"

وإنما العكس تماماً ممّا يدفع إلى القول: "كيف، أيتحسّر على شيء كهذا ويغتمّ بسببه ويُعترى بصنوف الجنون!" لا بدّ من الاعتراف بأن ردة الفعل هذه بعد مشاهدة الشخص الذي سبّب الآلام، وقلب الحياة رأساً على عقب، وأدى إلى الموت أحياناً، موت شخص نحبّه، هو أكثر حدوثاً ممّا حصل لشيوخ طروادة، أي أنه المألوف، في المحصلة. وذلك ليس فقط لأن الحبّ فردي، ولا لأننا ـ عندما لا نشعر به ـ نجد طبيعياً أن نتجنبه ونتفلسف حول جنون الآخرين. كلا، إنه عندما بلغ حداً أثار فيه مثل تلك الآلام، فإن بناء المشاعر القائمة بين وجه المرأة وناظري العاشق (العين الهائلة المكلومة التي تغلفه والتي تخفيه كطبقة من الثلج تغلف النبع وتخفيه) بلغت درجة عالية بحيث أن النقطة التي تتوقف عندها عينا العاشق، النقطة التي يلاقي فيها متعته وآلامه، بعيدة عن النقطة التي يراه فيها الناس بُعْد

الشمس الحقيقية التي تجعلنا أشعتها المتكاثفة نراها في السماء. زد عليه أن العاشق أثناء ذلك، وفي غياهب تألمه وتوقه التي تجعله لا يرى في بدن المعشوق تلك التغيرات الفادحة، إذ شاخ وجهه وتبدّل. فإذا تباعد الوجه الذي رآه العاشق للمرة الأولى عن الوجه الذي يراه منذ بدأ يحبّ ويتألم، يكون ـ بمعنى معكوس ـ قد نأى المسافة نفسها عن الوجه الذي يستطيع المشاهد المحايد أن يراه. (وماذا لو أن "روبير" الذي شاهد صورة تلك التي كانت فتاة قد شاهد صورة لعشيقة عجوز؟) لا بل لسنا بحاجة إلى أن نرى للمرّة الأولى تلك التي عاثت فساداً كبيراً وأثارت فينا تلك الدهشة. إننا لا نعرفها في أغلب الأحيان كما كان جدي "أدولف" يعرف "أوديت". عندئذ لا يشمل الفارق البصري الشكل الخارجي بل يشمل الطباع أيضاً. من المحتمل جداً أن تكون المرأة التي تعذب عاشقها ما زالت فتاة طيبة مع رجل لا يهتمّ بها، كما كانت "أوديت" التي مارست ضراوتها مع "سوان"، ولكنها كانت مع جدي "أدولف" امرأة متيّمة به؛ ومن المحتمل أيضاً أن يظهر الشخص الذي يحسب مسبقاً كل قرار من قراراته ويحترز له كما لو كان قراراً صادراً عن أحد الآلهة، يظهر عن طريق عاشقة كشخص دون منطق يُسعَد بأن ينفذ كل ما يراد منه، هذا في نظر من لا يحبّه؛ وكذا كانت عشيقة "سان لو" في نظري إذ لم أكن أرى فيها إلا تلك "الراحيل التي ذكرها الرب"[1] والتي اقترحوها عليّ مراراً كثيرة. أتذكر أنني عندما رأيتها للمرة الأولى مع "سان لو"، هلعت ظناً مني أنني قد أتعذب إن لم أعرف ماذا فعلته مثل هذه المرأة في أحد المساءات، وماذا قالته لأحدهم بصوت خفيض، ولماذا رغبت في القطيعة. الحال أنني كنت أشعر أن كل هذا الماضي ـ ماضي البيرتين ـ الذي كانت نياط قلبي وحياتي تنحو نحو ألم مختلج وأخرق، كان يظهر "لسان لو" دون معنى؛ وأنني ربما كنت أنتقل تدريجياً من الحالة الفكرية التي كنت فيها وقتئذ إلى حالة "سان لو" الفكرية، إذ كنت ألامس لامعنى ماضي البيرتين أو صرامته، ذلك أنني لم أكن واهماً في ما خطر ببال "سان لو" ربّما، وفي كل ما يستطيع العاشق أن يفكر فيه. ولم يكن ذلك يؤلمني ايلاماً زائداً. لنترك النساء

---

(١) يعود بروست هنا إلى سفر التكوين من التوراة ويستشهد ببداية جملة ورد فيها اسم راحيل (راشيل)، انظر الآية ٢٢ "وذكر الله راحيل وسمع لها وجعلها ولوداً". وراحيل هي زوجة النبي يعقوب التي ولدت له يوسف. (المترجم)

الجميلات للرجال الذين يفتقرون إلى الخيال. أتذكر هذا التفسير المأساوي للكثير من الحيوات ويمثل صورة عبقرية لا تمت بصلة لصورة "أوديت" حسب "الستير" (Elstir)، وهي صورة عاشقة أكثر منها صورة حبّ مشوّه (بالكسر). ولم يكن ينقصها ـ على غرار الصور الكثيرة ـ إلا أن يرسمها رسّام كبير أو عاشق (وقال بعدئذ: هذا ما فعله "الستير" بصورة "أوديت"). وتثبت هذا التباينَ الحياة الكاملة التي عاشها عاشق لم يَفهم أحدٌ سورات جنونه. وهي الحياة الكاملة "لسوان". ولكن عندما يتماهى العاشق بالرسام، كما فعل "الستير"، تنداح كلمات الأحجية، فترى أخيراً تحت العينين تينك الشفتين اللتين لا تبصرهما العامّة في تلك المرأة، كما ترى ذلك الأنف الذي لم يره أحد، وتلك المشية غير المشبوهة. وتقول الصورة: "ما أحببت، ما آلمني، ما رأيته دون انقطاع، هو هذا" وبحركة معاكسة، حاولت ـ أنا الذي سعيت بفكري أن أضيف "لراشيل" كل ما أضافه إليها "سان لو" نفسه ـ أن أنزع مساهمتي القلبية والذهنية في تركيب البيرتين وأن أتصورها كما ظهرت لـ"سان لو"، وكما ظهرت "راشيل" لي. ولكن ما أهمية هذا؟ عندما نتمكن من رؤية هذه الفروق، فهل يزداد ايماننا بها؟ في الماضي، عندما كانت البيرتين تنتظرني في أروقة "أنكارفيل" وتقفز إلى سيارتي، لم تكن قد "تسامكت" بعد، ولكنها بسببِ التمارين المفرطة قد ذابت جداً ونحلت وتباشعت بقبعتها الشنيعة التي لم تكن تظهر إلا طرفاً صغيراً من أنفها البشع وتقدّم نظرة جانبية لخدّين أبيضين كالدود الأبيض، ولم أكن أرى منها إلا النزر اليسير، ولكنني بهذا النزر كنت أتعرّف عليها عندما كانت تقفز إلى سيارتي وكنت ألاحظ دقتها في المواعيد وأتأكد أنها لا تنتظرني في مكان آخر. وكان هذا يكفي. ما نحبّه هوَ مفرط في الماضي ومتموضع بإسراف في الزمن الضائع بحيث لا نحتاج إلى المرأة بكاملها. نريد أن نتأكد فقط من أنها هي، ومن أننا لم نخطيء في الشخصية التي تختلف أهميتها عن أهمّية الجمال بالنسبة للعاشقين. قد يغور الخدان وينحل الجسم، حتى عند الذين كانوا في البداية أكثر تكبّراً. وفي نظر الآخرين وفي سيطرتهم على إحدى الفاتنات، يكون هذا الطرف الصغير من الخطم ـ أو هذه العلامة التي تختزل فيها الشخصية الدائمة لإحدى النساء، أو هذا البيان الجبري أو هذه الثابتة ـ كافيا لرجل منتظر بين حشد كبير، رجل يحبّها، لئلا يتمتع بأمسية معها، لأنه

يُمضي وقته في التمشيط والتشعيث فتنام المرأة التي يحبها، أو لأنّه يريد فقط البقاء قربها كي يكون معها أو كي تكون معه أو فقط لئلا تكون مع آخرين.

ــ أمتأكد أنت ــ قال لي ــ من أنني أستطيع أن أقدّم هكذا لهذه المرأة مبلغ ثلاثين ألف فرنك للجنة زوجها الانتخابية؟ هل هي قليلة الشرف إلى هذا الحد؟ بدون أن تكون مخطئاً، ثلاثة آلاف فرنك ستكون ربما كافية.

ــ كلا، أرجوك، لا توفّر في أمر يعنيني جداً. يجب أن تقول ما يلي، وفيه قسط من الحقيقة: "لقد طلب صديقي الثلاثين ألف فرنك من أحد أقاربه، من أجل لجنة عمّ خطيبته. وبسبب هذه الخطبة أُعطيَ هذا المبلغ. ورجاني أن آتيك به كي لا تعلم البيرتين شيئاً عنه. وبعد، ها هي البيرتين تهجره. فوقع في حيصبيص. ويتعيّن عليه أن يعيد الثلاثين ألف فرنك إن لم يتزوج البيرتين. وإن تزوجها، يجب شكلياً على الأقل أن تعود فورا، لأن هروبها، إن طال، سيؤدي إلى نتائج سيئة. هل تعتقد أن هذا الأمر قد استنبط قصدا؟

ــ كلا، أجابني "سان لو" بطيبة وكتمان ولأنه كان يعرف بالتالي أن الظروف غريبة أحياناً أكثر مما نظنّ.

وبعد كل شيء لم يكن من المستحيل أن تحمل قصة الثلاثين ألف فرنك جانباً كبيراً من الحقيقة، كما قلت له. كان هذا ممكناً، دون أن يكون حقيقياً وكان هذا الجانب من الحقيقة أكذوبة فعلاً. ولكنني و"روبير" كنا نتكاذب، كما هو الحال في جميع المقابلات التي يرغب فيها صديق رغبة صادقة أن يساعد صديقه الذي تفترسه لواعج الحب اليائس. إن نصيحة الصديق ودعمه وتعزيته قد يرثي لحال الآخر، دون أن يشعر بها، ويجد أنه من الأفضل لديه أن يكذب كثيرا. أما الآخر فيعترف له بما هو ضروري لينال المساعدة ويُخفي أشياء كثيرة. والسعيد هو من يكابد ويسافر وينفذ مهمّة، دون الشعور بمعاناة داخلية. كان وضعي وقتئذ كوضع "روبير" في "دونسيير" عندما ظنّ أن "راشيل" قد هجرته. "أخيرا، كما تريد؛ إذ تعرضت للإهانة فإنني أتقبلها مسبقاً من أجلك. ثمّ يبدو لي ذلك مضحكاً بعض الشيء لأن هذه الصفعة غير مستورة تماماً، أعلم أن في عالمنا دوقات، لا بل دوقات

مفرطات في الورع، يعملن أصعب الأشياء من أجل الحصول على ثلاثين ألف فرنك، بدل أن يقلن لابن أخيهن ألاّ يبقى في "التورين". وأخيراً أشعر بسرور مضاعف لأنني أؤدي لك خدمة، إذ كان عليّ أن أفعل هذا كي ترضى أن تراني. إذا تزوجت، أضاف قائلاً، ألن نتشاهد أكثر، ألن تجعل بيتي بيتكَ إلى حدّ ما؟... "وتوقف فجأة وفكرت قائلاً: إن أنا فرضاً تزوجت بدوري فلن تقوم علاقة حميمية بين البيرتين وبين زوجته. وتذكرت ما قالته عائلة "كامبريمير" (Cambremer) عن زواجها المحتمل مع بنت أمير "الغيرمانت".

بعد أن نظر إلى مواعيد السفر وجد أنه لا يستطيع الذهاب إلاّ في المساء. سألتني "فرانسواز": "هل يجب أن ننقل سرير الآنسة البيرتين من غرفة العمل؟" فقلت: "على العكس، يجب ترتيبه". كنت آمل أن تعود من يوم لآخر، لا بل ما أردت أن يخامر "فرانسواز" أي شك حول ذلك. كان يتعيّن على مغادرة البيرتين أن تبدو كأمر اتفقنا عليه كلانا، مما لا يعني إطلاقاً أن حبّها تناقص نحوي. ولكن "فرانسواز" نظرت إليّ كأنها لا تصدّق، أو على الأقل كأنها تشك. وكان عندها هي أيضاً احتمالان. كان منخاراها يتوسّعان وكانت تشم رائحة النزاع بيننا، وربّما شمتها منذ أمد طويل. وإن لم تتأكد من ذلك، فلأنها مثلي كانت ربما تتحدى نفسها من الإيمان الكامل بما سيغمرها سعادة.

ما إن دخل "سان لو" إلى القطار حتى التقيت في غرفة الانتظار ب"بلوخ" (Bloch) دون أن أسمع دقة الباب، فاضطررت إلى استقباله للحظة. وكان قد التقى بي مؤخراً مع البيرتين (التي تعرّف عليها في "بالبيك")، في يوم كانت فيه حادة المزاج. فقال لي: "لقد تعشيّت مع السيد "بونتان"، وبما أنني أؤثر فيه بعض الشيء قلت له حزني من أن بنت أخيه لم تكن لطيفة معك، وأنه ينبغي عليه أن يرجوها في هذا الموضوع". فاستشطت غضباً، لأن هذا الرجاء وهذا الالتماس قد يدمران كل مفعول المسعى الذي أقدم عليه "سان لو" ويضعاني مباشرة في دائرة الشك أمام البيرتين التي بدا عليّ أنني أناشدها. ومما زاد الطين بلةً أن "فرانسواز" التي بقيت في غرفة الانتظار كانت تسمع كل هذا. فوبّخت "بلوخ" بشدّةٍ وقلت له إنني لم أكلفه قط بمثل هذه المهمّة وإن المبادرة بالتالي كانت خاطئة. ومنذ تلك اللحظة لم يعد "بلوخ"

يكف عن الابتسام، لا بسبب الفرح بل بسبب الحرج من تكديره لي. وتعجّب ضاحكاً من إثارته مثل هذا الغضب. وربّما قال ذلك ليزيل عن ناظري شيئاً من الأهمية التي ارتبطت بمسعاه المكشوف، وربّما قال ذلك بسبب طبعه الجبان العائش برغد وخمول في الأكاذيب، شأنه في ذلك شأن قناديل البحر التي تطفو على سطح الماء، وربما قال ذلك لأن الآخرين ــ حتى إذا كان هو من نوع بشري مختلف ــ لا يفهمون حجم الشر الذي قد تسببّه أقوالهم المطلقة على عواهنها، إذ إنهم لا يستطيعون إدراك وجهة نظرنا. وما إن صرَفتُه ــ لأنني لم أجد أي دواء أعالج به ما فعله ــ حتى قرع الباب فسلمتني "فرانسواز" استدعاء مثول أمام رئيس الأمن. فوالدا الفتاة الصغيرة التي استقدمتها إلى بيتي منذ ساعة قدّما شكوى عليّ يتهمانني فيها بحرف القاصرات. في الحياة لحظات يولد فيها نوع من الجمال ينجم عن كثرة الهموم التي تحاصرنا وتتشابك كاللازمات الفاغنيرية، وتنجم أيضاً عن المقولة البازغة وقتئذ والتي تذكر أن الأحداث لا تقع في مجمل الانعكاسات التي ترسمها المرآة الصغيرة البائسة ويُبرزها الذكاء ويحيله إلى المستقبل، فتخرج هذه اللحظات وتظهر فجأة كما يظهر شخص أُخذ لتوه بالجرم المشهود. عندما يترك حدث لذاته فإنه يتغير، إما لأن الفشل يضخمه لنا وإما لأن الرضى يقلصه. ولكنه نادرا ما يكون وحده. فالمشاعر التي يثيرها المرء تتعارض إلى حد ما، وهذا ــ كما شعرت عندما ذهبت إلى رئيس الأمن ــ هو محول مؤقت على الأقل ومفعل للأحزان العاطفية اكثر من الخوف. وجدت في مركز الشرطة أهل الفتاة فشتموني وأعادوا لي الخمس مئة فرنك التي لم أرد استعادتها وقالوا لي: "إننا لا نأكل من هذا الخبز". أما رئيس الأمن الذي صرح أن تساهل قضاة محكمة الجزاء لا يضاهى، فكان يقتطع كلمة من كل جملة تفوهت بها وكان يستخدم هذه الكلمة في إجابته الطريفة والمزعجة. ولم يفكر أحد في براءتي في هذه القضية، وهي الفرضية الوحيدة التي لم يشأ أحد القبول بها ولو للحظة. ومع ذلك فإنني جابهت صعوبات الاتهام في هذه الورطة العنيفة جدا ببراعة، طيلة وجود أهل البنت. ولكن ما إن ذهبوا، حتى غير رئيس الأمن، الذي كان يحب الفتيات الصغيرات، نبرته وراح يؤنبني كما لو كنت زميلا له: "في المرة القادمة يجب أن تكون أكثر حذقا. والله، لا يقدم الإنسان على فعلة كهذه بهذا الاستعجال، وإلا سيفشل.

وستجد في كل مكان فتيات أفضل من هذه وبثمن أرخص. لقد كـــان المبلـــغ مسرفا بجنون". وكم كنت أشعر بأنه لم يفهمني، لو حاولت أن أشـــــرح لـــه الحقيقة، ولكنني استفدت دون أن أنبس بكلمــــة مـــن إعطائـــه إيـــاي إذنـــا بالانصراف. وحتى وصولي إلى البيت، بدا لي جميع المارة كمفتشين مكلفين بمراقبة أعمالي وحركاتي. ولكن هذه اللازمة، بالإضافة إلى غضبـــي مـــن "بلوخ"، انطفأت لتترك فقط مجالا للازمة: رحيل البيرتين. وعـــاودني هـــذا الرحيل، ولكن بصورة شبه فرحة، منذ أن ذهب "سان لو". ومنــــذ أن كلـــف بالذهاب لمقابلة السيدة "بونتان"، لم يعد عبء المشكلة يثقل فكـــري المنـــهك؛ لأنه وضع على كاهل "سان لو". وأقول إن حبورا ما قد اعـــتراني، عندمـــا ذهب، لأنني قررت أنني "عاملتها بالمثل". فتبددت آلامي. وظننت صادقـــا أن ذلك ارتبط بما فعلت، لأن المرء لا يعرف دائما ما تخفيه نفسه. إن ما كـــان يبعث في السعادة فعلا لم يتعلق بتخلصي من ترددي الزائد حول "سان لـــو"؛ كما كنت أظن. وفوق ذلك، لم أخطىء إطلاقا. وتكمن خصوصية الشفاء مـــن واقعة تعيسة (وثلاثة أرباع الوقائع هي هكذا) في اتخاذ قرار، إذ إنها تســـبب ــ إذا ما حصل انقلاب مفاجىء في أفكارنا ــ قطعا لزخم الأفكار الناجمـــة عن الحدث السابق الذي تطيل اهتزازه، وتسبب كسرا ناجما عن زخم مغـــاير لأفكار مغايرة يأتي من الخارج ومن المستقبل. ولكن هذه الأفكـــار الجديـــدة مريحة لنا على وجه الخصوص (وحصل ذلك للأفكار التي كانت تحاصرني في تلك الآونة)، عندما تـــقدم لنا أملا ينطلق من عمق هذا المســـتقبل. ومـــا أسعدني جدا هو يقيني السري أن مهمة "سان لـــو" لا يمكـــن أن تفشـــل وأن البيرتين لا تستطيع إلا العودة. هذا ما فهمته؛ ولكنني عدت إلـــى المعانـــاة، عندما لم أتلق منذ اليوم الأول جوابا من "سان لو". لم يكن قراري وتســـليمي إياه كامل سلطاتي هما سبب سروري الذي بدونهما لكان اســـتمر، بـــل لأن عبارتي "فليكن ما يكون" كانت تعني بالنسبة لي "النجاح المضمون". ومجـــرد التفكير في أن شيئا آخر غير النجاح يمكن أن يحدث (وهذا ما أثاره تـــأخره في) كان شنيعا جدا لدي لدرجة أنني فقدت سروري. وفـــي الواقـــع أرى أن استبصارنا وأملنا في وقوع أحداث سعيدة يغمراننا بالفرح وننسبها لأســـباب أخرى، ثم تنتهي فتجعلنا نكتئب من جديد إذا فقدنا اليقين مـــن أن مـــا نـــوده سيتحقق. إن هناك إيمانا غير مرئي يدعم صرح عالمنا الشعوري، وعندمـــا

نفقده يتداعى. ورأينا أنه يشكل قيمة الأشياء أو بطلانها بالنسبة لنا، كما يشكل ثملنا برؤيتها أو مللنا منها. وكذلك يجعلنا قادرين على تحمل حزن ظنناه سخيفا لمجرد اقتناعنا أنه سينتهي، أو لأنه تفاقم فجأة إلى أن ظهر شيء يضاهيه، لا بل أحيانا يتجاوز حياتنا.

أجل حدث شيء أنهى وجع القلب الحاد الذي اعتراني في البرهة الأولى، ويجب الاعتراف بأنه زال. لقد أعدت قراءة جملة من رسالة البيرتين. مهما أحببنا الكائنات، فإننا نستطيع أن نتحمل معاناة فقدانها ــ عندما نجد أنفسنا وحيدين أمامها وعندما يصوغها عقلنا بالشكل الذي يريده تقريبا ــ ولكنها تختلف عن المعاناة الأقل إنسانية، عن المعاناة التي هي معاناتنا (تلك المعاناة غير المتوقعة والغريبة التي تضاهي حادثا يصيب الحيز الأخلاقي وسويداء القلب) والتي لا تنجم مباشرة عن الكائنات أنفسها وإنما عن الطريقة التي تعلمنا فيها أننا لن نرى هذه الكائنات بعد. أستطيع أن أفكر في البيرتين وأنا أبكي بهدوء وأتقبل غيابها وعدم رؤيتي إياها أمس وهذا المساء؛ ولكنني عندما قرأت "لا نكوص عن قراري هذا"، اختلف الأمر، فكنت كمن فقد دواء خطيرا وكان يستطيع ذلك أن يسبب لي أزمة قلبية قد تقضي علي. في الأشياء والحوادث ورسائل الهجران يوجد خطر خاص يضخم ويشوه الألم الذي قد تسببه الكائنات لنا. وبالرغم من كل شيء كنت واثقا جدا بنجاح مهارة "سان لو"، فبدت لي عودة البيرتين في غاية اليقين بحيث أنني تساءلت إن كنت محقا في تمني ذلك. ومع هذا فقد كنت مبتهجا به. ولكن ولسوء حظي، أنا الذي اعتقدت أن قضية الأمن العام قد انتهت، جاءت "فرانسواز" وأخبرتني أن أحد المفتشين جاء ليستعلم إن كنت معتادا على استقبال الفتيات الصغيرات في بيتي، وأن حارس منزلي الذي ظن أن السؤال يتعلق بألبيرتين أجابه بنعم، فأصبح البيت منذئذ شبه مراقب. وصار يستحيل علي قطعا أن آتي ببنت صغيرة تواسيني في أحزاني فأخجل أمامها من ظهور مفتش فتعتبرني عندئذ مجرما. وفهمت أيضا كم يعيش المرء من أجل أحلامه أكثر مما يظن، إذ بدا لي أن استحالة هدهدة بنت صغيرة ستقضي على كل قيمة في الحياة إلى الأبد؛ ولكنني أدركت أيضا كم يطيب للناس أن يرفضوا الحظ السعيد فيعرضوا أنفسهم للموت، مع العلم أنهم يتصورون أن المصلحة والخوف من الموت يسيران العالم. فإذا ظننت أن

بنتا صغيرة مغمورة استطاعت، بوصول أحد الشرطة، أن تكون فكرة مخجلة عني، لفضلت كثيرا أن أقتل نفسي. ولم توجد مقارنة ممكنة بين المعانـــاتين. والحال أن الناس في الحياة لا يظنون قط أن من يقدمون لهم الأموال ومـــن يهددونهم بالموت يستطيعون الحصول على خليلات أو رفيقات فقط يحظيـــن باحترامهم، حتى وإن لم يحظوا هم بهذا الاحترام. ولكـــن بـــدا لـــي فجـــأة، وبارتباك لم أفطن له (أجل لم أفكر بأن البيرتين، عندما تصبح بالغة، تستطيع أن تساكنني لا بل تصبح خليلتي)، أن حرف القاصرات يمكن أن يطبق أيضا على البيرتين. فأدركت عندئذ أن الحياة قد سدت في وجهي من جميع جهاتها. وعندما فكرت أنني لم أعش معها بعفة، وجدت في العقاب الذي نزل بـــي ــ لأنني هددت بنتا صغيرة مغمورة ــ علاقة تبرز دائما في العقوبات البشرية وتجعل الحكم العادل والخطأ القضائي شبه غائبين، بل تقيم نوعا من التساوق بين الفكرة الخاطئة التي يكونها القاضي حول فعل بـــريء وبيـــن الأفعـــال الجانحة التي جهلها. ولكنني عندما فكرت في أن عودة البيرتين قد تجر علي تجريما مخزيا يحط من قدري في عينيها، ويلحق ربما بها أذى لن تغفره لي، توقفت عن تمنياتي برجوعها، لأن الأمر أراعني. وفورا قضيت علـــى كـــل شيء، إذ عاودني الوجد واستحوذ علي. لقد فكرت برهة في إمكانية القول لها أن لا ترجع وفي أنني أستطيع العيش بدونها، ولكنني شعرت فجـــأة بـــأنني مستعد للتضحية بجميع الرحلات وجميع المسرات وجميع الأعمال، شرط أن تعود البيرتين.

آه كم تطور حبي لألبيرتين، التي ظننت أننـــي أســـتطيع استشـــفاف قدرها كما استشففت قدر "جيلبيرت"؛ لقد تطور عكس حبي لـــ"جيلبيرت". كـم استحال علي البقاء دون أن أراها. وفي كل فعل ونأمة سبحا في الماضي في الجو السعيد الذي خلقه تواجد البيرتين، كان علي كل مرة، وبتكاليف جديـــدة وبمعاناة مطابقة، أن أعود لأتعلم هجرانها. ثم كانت المنافسة بيـــن الأشـــكال الأخرى للحياة تقذف إلى الظل ذلك الألم الجديد؛ وخلال تلك الأيام التي كانت أول أيام الربيع، وبانتظار أن يتمكن "سان لو" من رؤية السيدة "بونتان"، حدث أن تصورت مدينة البندقية وبعض الفاتنات المغمورات، فوفر لي ذلك هنيهات من الهدوء الرغيد. وما إن أدركت ذلك حتى شعرت في داخلي بهلع رهيـــب. لقد كان هذا الهدوء الذي استذقته أول بروز لتلك القوة الكبـــيرة المتقطـــعة

التي ستصارع في داخلي الألم والحب والتي ستنتصر في المحصلة. ما استذقته وما ارتهص عندي، دام برهة فقط، ولكنه سيصبح فيما بعد حالة دائمة عندي وحياة سأكف فيها عن التألم بسبب البيرتين، وفيها سأنتهي من حبها. فحبي الذي عرف مؤخرا العدو الوحيد الذي دحره، أي النسيان، بدأ يرتجف كأسد حبيس في قفص شاهد فجأة أصلة هائلة تهم بافتراسه.

كنت أفكر طيلة الوقت في البيرتين، ولم تكن "فرانسواز" تقول لي أثناء دخولها غرفتي سوى كلمتين وجيزتين: "لا توجد رسائل"، وذلك كي تختزل قلقي. ولكني من آن إلى آخر كنت أتوصل، بإدخال هذا التيار الفكري أو ذاك إلى شجني، إلى تجديد وتنقية الجو الفاسد في قلبي، ولو قليلا. ولكنني في المساء، إن تمكنت من النوم، كانت ذكرى البيرتين بمثابة دواء يضمن لي النوم، ولكن تأثيره عندما يزول كان يوقظني. كنت أفكر في البيرتين طيلة نومي. فكانت تغدق علي نوما يفقدني بالتالي حرية التفكير في شيء آخر، كما كان يحصل لي أثناء اليقظة. وكان النوم وذكراه الجوهرين المتداخلين اللذين نتناولهما معا لننام. وفي المحصلة، عند استيقاظي كانت معاناتي تزداد كل يوم بدلا من أن تتناقص؛ لا لأن النسيان لا يفعل فعله، ولكنه، في حالتي، كان يحبذ أمثلة الصورة المأسوف عليها، وكان يحبذ بالتالي دمج معاناتي الأصلية بالآلام الأخرى المشابهة التي كانت تعززها. وكانت هذه الصورة محتملة. ولكنني إذا فكرت فجأة في غرفتها حيث بقي سريرها خاليا، وإذا فكرت في معزفها البيانولا التي كانت تعزف عليها وفي وسيارتها، خارت قواي وأغمضت عيني وطأطأت رأسي وأسندته إلى كتفي اليسرى كأولئك الذين سينهارون. وكانت أصوات الأبواب تؤلمني بالقدر نفسه، لأن البيرتين لم تكن هي التي تفتحها. وعندما أظن أن هناك برقية ربما أرسلها "سان لو"، لا أجرؤ على السؤال: "هل هناك برقية؟" وفي نهاية المطاف وصلت هذه البرقية، ولكنها جعلت كل شيء يتراجع، وتقول: "السيدات مسافرات لثلاثة أيام".

إذا أتيح لي أن أتحمل الأيام الأربعة بعد رحيلها، فلأنني كنت أقول لنفسي: "ليست إلا مسألة وقت، وقبل نهاية الأسبوع ستكون عندي". ولكن هذا السبب لم يمنع عن قلبي وجسمي أن أقوم بالفعل ذاته، فالعيش بدونها، والعودة إلى بيتي دون أن أجدها، والمرور أمام باب غرفتها (دون أن أجرؤ

بعد على فتحه) مع علمي أنها ليست فيها، والنوم دون أن أقول لـــها مســاء الخير، هذه هي أشياء كان على قلبي أن يمارس جميع أهوالها، كما لو كــان عليّ ألا أرى البيرتين ثانية. والحال أن من أنجز ذلك أربع مرّات كان بوسعه الآن أن يتابع. وعما قريب قد لا أحتاج إلى السبب الذي ساعدني هكذا فـــي الاستمرار في الحياة ــ وهو عودة البيرتين القريبة ــ (فأقول عندئذ لنفســي "لن تعود أبداً"، وأحيا مع كل شيء كما فعلت خلال الأيام الأربعة)، وســأكون كجريح استرد عادة المشي وتمكن من الاستغناء عن عكازيه. وفي المســاء عندما أعود إلى منزلي سأجد على الأرجح الذكريات المتراصفة في سلسلة لا تنتهي، ذكريات جميع الأماسي التي كانت تنتظرني فيها البـــيرتين؛ فكــانت تقطع عليّ أنفاسي وتخنقني بفراغ عزلتها. ولكنني كنت ألاقي أيضاً ذكـــرى الأمس، وقبل الأمس والليلتين السابقتين، أي ذكرى الليالي الأربع الماضيـــة بعد رحيل البيرتين، والتي كنت فيها وحيداً دونها، ومع ذلك عشـــت؛ كــانت ليالي أربعاً شكلت شريطاً هزيلاً سيتضخم كلما مرّت الأيام.

لن أذكر فحوى رسالة البوح التي استلمتها مؤخـــراً مـــن بنـت أخ السيدة"دى غيرمانت" التي كانت تعتبر أجمل فتاة في بـــاريس، ولـــن أذكـــر مسعى الدوق "دى غيرمانت" معي، إذ أتى من قِبَل والدي الفتاة الحريصيـــن على سعادة ابنتهما والمقتنعين بعدم تكافؤ الطرفين في مثل هذه المصـــاهرة. إن أحداثاً كهذه مؤلمة جداً لشخصٍ عاشق، لأنها قد تؤثر في حبّ الذات. قـــد يرغب فيها المرء وقد يكون خشناً في نقلها لامرأة لها فكرة سلبية وثابتة عنـا إذا علمت أننا نستطيع أن نكون موضع اهتمام مختلف. ما كانت تكتبـــه لـــي ابنة أخ الدوق جعل البيرتين تخرج عن طورها.

في يقظتي التي كنت فيها أستعيد مراحل حزني قبل أن أنام، شـــأني في ذلك شأن كتاب بقي مغلقاً للحظة ثم لم يعد يفارقني حتى المساء، لم تكـــن أفكاري تصيب إلا البيرتين التي وصلتها بي جميعُ الأحاسيس، أأتـــت هـــذه الأفكار من الخارج أومن الداخل. وقـــرع الجرس: إنها رسالة منها أو ربما هي بلحمها ودمها. عندما كنت أشعر أنني بصحة جيدة، وأنني قليل الشـــقاء، كانت الغيرة تفارقني وكنت أنسى انتقاداتي لها، وكنت أتمنى أن أراها بسرعة وأقبلها وأن أمضي بحبور كل حياتي معها. أن أرسل لها برقية أقـــول لـــها فيها: "تعالي بسرعة"، كان يبدو لي كأمر بسيط جداً، كمـــا لـــو أن مزاجـــي

الجديد قد تغير وليست استعداداتي فقط، ولكنّ الأشياء الخارجة عني جعلتِـــها أسهل. لو اكفهرّ مزاجي، لبُعثت جميع سورات الغضب منها، ولما رِغبت من بعد في تقبيلها، ولاستحال عليّ الإحساس بالسعادة بسببها، ولحاولت أن أسيء إليها وأمنعها من أن تكون للآخرين. ولكن نتيجة هذين المزاجين المتعارضين كانت متطابقة، أي أنه يجب أن تعود على جناح السرعة. ولكن مهما ولـــدت عندي هذه العودة من فرح، كنت أحسّ أن الصعوبات نفسها ستِرجع بِســـرعةِ وأن البحث عن السعادة في إشباع الرغبة الأخلاقية كان عملية ساذجة سذاجةَ السعي لبلوغ الأفق إذا مشى المرء أمامه. فكلما تقدمت الرغبة، كلمـــا نـــأى التملك الحقيقي. وهكذا إذا وجدت السعادة، أو على الأقـــل إذا غـــابت الآلام، عندئذ يجب أن نبحث لا عن تحقيق الرغبة، وإنما عن تقليصـــها التدريجـــي وعن انطفائها الكلي. نسعى لرؤية ما نحب، ويجب أن نسعى لعدم رؤيتـــــه، وفي النهاية وحده النسيان يؤدي إلى انطفاء الرغبة. وأتصور أنـــه إذا كـــان كاتب ما يتفوّه بحقائق من هذا القبيل، كان إهداء كتابه المتضمّن هذه الحقـائق لامرأة طاب له أن يقترب منها فيقول لها: " إن هذا الكتـــاب هـــو كتـــابك". وهكذا، بقوله بعض الحقائق في كتابه، يكون قد كذب في الإهداء، لأنه لـــــن يصرّ على أن يكون الكتاب لهذه المرأة إلا لأنها تشبه ذلك الحجر الذي نـــزل عليه منها والذي سيحبّه ما دام يحبّ المرأة. فالعلاقات بين أحدهم ونحـــن لا توجد إلا في ذهننا. وعندما تضعف الذاكرة فإنـــها تـــهمل هـــذه العلاقـــات، وبالرغم من توهّمنا بأننا نريد أن نخدَع، بسبب الحب أو الصداقة أو المسايرة أو الاحترام البشري أو الواجب، فإننا نـــخدع الآخريـــن ونخـــدع أنفســـنا. الإنسان هو الكائن الذي لا يستطيع أن يخرج من إهابه، ولا يعرف الآخريـــن إلا انطلاقاً من ذاته، ويكذب عندما يقول عكس ذلك. وسينتابني الخـــوف، إن تمكن بعضُهم أن يجتث مني تلك الحاجة إليها وذلك الحب الذي أكنـــه لـــها، لأنني مدرك أنه نفيس لحياتي. عندما أتمكن من سماع أسماء المحطات التـــي يعبرها القطار المتوجّه إلى "تورين"، ولكن دون أن يثير ذلك فيّ افتتانـــاً أم تألماً، سيبدو لي هذا الأمر كأنه انتقاص مني (ولأن ذلك في الأصل وببساطة أثبت أن البيرتين صارت شخصاً لا أكترث له). قلت لنفسي، عندمـــا كـــانت تسألني دون انقطاع ماذا يمكنها أن تفعله، وتفكر فيه وتريده في كل لحظـــة، وإذا ما كانت تنوي العودة أو أنها ستعود، كان يطيب لي أن أبقيَ مفتوحاً باب

الاتصال هذا الذي مارسه الحب عليّ، وأن أشعر بحياة امرأة أخرى تغمر الخزّان الذي لم يشأ أن يصبح آسناً، وذلك عن طريق السدود المفتوحة.

وبعد أن طال صمت "سان لو"، راح قلق آخر ـ انتظار برقية أو مكالمة من "سان لو" ـ يخفي القلق الأول، وهو المرتبط بنتيجة المسعى: فهل ستعود البيرتين؟ وصار ترصُّدُ كل حركة في انتظار البرقية لا يطاق، بحيث بدا لي أنها إن وصلت (البرقية) ـ وهذا كان الشيء الوحيد الذي كنت أفكر فيه الآن ـ فإنها ستضع حداً لآلامي. ولكنني عندما استلمت برقية من "روبير" يقول لي فيها إنه رأى السيدة "بونتان" التي بالرغم من كل مشاغلها قد رأت البيرتين، وأنها أفسدت كل شيء، انفجر غضبي ويأسي، لأنني أردت مسبقاً تجنبَ هذا كله. إن سفر "سان لو" الذي عرفت به البيرتين، كان يُظهرني وكأنني متشبّث بها، مما سيدفعها بالضرورة إلى التمنع عن العودة، وكانت فظاعته مرتبطة بما بقي لدي من أنفة عرفها حبّي مع "جولييت" وفقدها لاحقاً. لعنت "روبير"، ثمّ قلت لنفسي: إذا فشلت هذه المحاولة، فإنني سأتخذ (فتاة) أخرى. وبما أن الإنسان يستطيع أن يؤثر في العالم الخارجي، فكيف لا يستطيع ـ إن شغل الحيلة والذكاء والمصلحة والعاطفة ـ أن يُلغي هذا الشيء الشنيع، ألا وهو غياب البيرتين؟ يظن المرء أنه يغيّر الأشياء حوله كيفما يطيب له، ويظن أنه لا يرى أي حلٍ مناسب بمعزل عنه. وينسى ما يحدث في أغلب الأحيان، وهو مناسب أيضاً، أي أننا لا نستطيع أن نغيّر الأشياء حسب رغبتنا، ولكنّ رغبتنا هي التي تتغيّر شيئاً فشيئاً. فالوضع الذي نأمل في تغييره لأنه لا يطاق، يصبح محايداً بالنسبة لنا. لم نتمكن من تجاوز العقبة، كما كنا نبغي تماماً، ولكنّ الحياة قلبتها وتجاوزتها، وعندما نستشرف الماضي البعيد نكاد لا نراها، إذ أصبحت على جانب كبير من الضآلة.

سمعت من الطابق الذي فوقنا نغمات من اوبرا "مانون" تعزفها إحدى جاراتنا. فطبقت كلماتها التي كنت أحفظها على البيرتين وعليّ فأفعمت بشعور عميق جداً بحيث رحت أبكي. وكانت الكلمات تقول:

"واحسرتاه، الطائرالذي يهرب ممّا يظنّه الأسر

وغالباً في الليل

يعود من طيرانه المجنون ويصفق بجناحيه زجاج القفص".

أما كلمات موت "مانون" فتقول:

"أجيبيني يا "مانون"، يا حشاشة قلبي،

فإنني لم أعرف طيبة قلبك إلا اليوم".

وبما أن "مانون" رجعت إلى "دى غريو" (Des Grieux)، بدا لي أنني العشق الوحيد في حياة البيرتين. واحسرتي، من المحتمل أنها لو سمعت في تلك اللحظة النغمات ذاتها، لما أحبتني أنا تحت اسم "دى غريو"، ولو خطر ذلك ببالها فقط، لكانت ذكراي قد منعتها من الشعور بالحنان لدى سماعها هذه الموسيقى التي تندرج في اللون الذي تحبّه، مع أنها أفضل كتابة وأكثر لطفاً.

في ما يخصّني، لم أجرؤ على الاستسلام للفكرة العذبة التي تقول إن البيرتين سمّتني "يا حشاشة قلبي" واعترفت بأنها أخطأت في ما "ظنّته الأسر". أعلم أن المرء لا يستطيع أن يقرأ رواية دون أن يعطي البطلة سمات المحبوبة. ولكن مهما كانت نهاية الكتاب سعيدة، فإن حبّنا لم يتقدّم خطوة واحدة، وبعد أن طويناه فإن المحبوبة التي قابلناها وأتت إلينا أخيراً في الرواية، لا تمنحنا في الحياة مزيداً من الحب.

استشطت غضباً وأرسلت ل"سان لو" برقية أقول له فيها أن يرجع إلى باريس على جناح السرعة، لأتفادى على الأقل ربط الإصرار المتفاقم بمسعى تمنيت أن يبقى سرياً. ولكنه قبل أن يعود، بناء على توجيهاتي، تلقيت من البيرتين هذه البرقية:

"يا صديقي، إنك أرسلت صاحبك سان لو ليرى عمتي، وهذا تصرّف أحمق. يا صديقي العزيز، لو كنت بحاجة إليّ، فلماذا لا تكتب لي مباشرة؟ وسأكون سعيدة بأن أعود؛ لا تكرّر من بعد هذه التصرّفات العبثية".

"سأكون سعيدة بأن أعود!" إذا قالت هذا، فإنه يعني أنها نادمة على مغادرتها وأنها لا تبحث إلاّ عن ذريعة للعودة. إذن ما عليّ إلاّ أن أفعل ما قالته فأكتب لها أنني بحاجة إليها فتعود. إذن سأراها من جديد، سأرى البيرتين "دى بالبيك" (فمنذ رحيلها أصبحت في نظري تلك الألبيرتين ثانية؛ كالقوقعة التي فقدنا اهتمامنا بها لأنها موجودة دائماً على الصوان، ولكن عندما ننفصل عنها لأننا أهديناها أو أضعناها ثمّ نفكر فيها ــ لأننا كففنا عن

صنعه ـ تـذكّـرنا القوقعةُ بالجمال الحبوري لجبال البحر الزرقاء). وليست هي وحدها التي أصبحت كائناً يحرك الخيال، أي كائناً مرغوباً فيه، ولكن الحياة معها أصبحت حياة خيالية، حياة متحرّرة من جميع الصعوبات، فقلت لنفسي: "كم سنكون سعيدَينّ!"؛ ولكن ما إن تكوّن عندي يقين عودتها، حتى كان عليّ ألاّ أظهر أنني أستعجل عودتها، بل بالعكس كان عليّ أن أزيل التأثير السيء لمسعى "سان لو" الذي أستطيع دائماً استنكاره بقولي إنه تصرّف وحده، لأنه كان دائماً من أنصار هذا الزواج.

بيد أنني قرأت رسالتها مرة ثانية ومع ذلك خاب أملي من النزر القليل الذي يُخص به شخص في رسالة. قد تعبّر الحروفُ المرسومة عن فكرنا، وهذا ما تعبّر عنه أيضاً ملامحنا؛ فنجد أنفسنا دائماً أمام فكرة من الأفكار. ولكن لا تتجلى لنا الفكرة عند الإنسان إلاّ بعد أن تنتشر على تويج الوجه المتهلّل كزهر النيلوفر. فهذا يبدّل فيها أشياء وأشياء. وقد يكون ذلك أحدَ الأسباب في خيباتنا المستمرة كعاشقين، إذ تجعل التعرجات المستمرة موعدَنا يقدّم لنا شخصاً من لحم ودم لا يستأثر إلا القليل من حلمنا، وذلك بانتظار الكائن المثالي الذي نحبّه. ثمّ إننا، عندما نطلب شيئاً من هذا الشخص، نتلقى منه رسالة لا تبرز منه إلاّ القليل القليل، كما هو الحال في الحروف المستعملة في الجبر والتي لا تحدّد إلا الأرقام الرياضية، وهي حروف لم تعد تستوعب سمات الفواكه أو الأزهار المنضدة. ومع ذلك فإن كلمات "الحب" و"المحبوب" ورسائله، هي ربما ترجمات للواقع نفسه (لا يقنعنا الانتقال من ترجمة إلى أخرى) ، لأن الرسالة لا تبدو لنا غير مقنعة إلا عندما نقرأها، ولكننا نعاني الموت والهوى ما دامت هذه الرسالة لم تصل، إذ تكون كافية لتهدئة قلقنا أو لتملأ بإشاراتها الصغيرة السوداء رغبتنا التي تحسّ مع ذلك أنه لا يبقى إلا بديل عن الكلام أو الابتسامة أو القبلة، وليس هذه الأشياء بالذات.

فكتبت لألبيرتين:

"يا صديقتي، كنتِ على وشك الكتابة لك، وأشكرك إنْ قلت لي إنك ستهرعين إليّ إذا احتجت إليكِ. إنه لحسن من جانبكِ أن تدركي بشكلٍ رفيعٍ

التفانيَ الذي أكنّه لصديق عزيز، وتقديري لكِ لا يمكن إلاّ أن يزداد. ولكن كلاّ، إنني لم أطلب منك ذلك، ولن أطلبه. أيتها الشابة العديمة الإحساس إن التقاءنا ثانية، في المدى البعيد البعيد على الأقل، لن يكون صعباً عليك ربّما. أما بالنسبة لي ــ وظننتني أحياناً قليل الإكتراث ــ فالأمر في غاية الصعوبة. لقد فصلت بيننا الحياة. لقد اتخذتِ قراراً أظنه في غاية الحكمة، لقد اتخذتيه في الوقت المناسب وكان استشعارك رائعاً لأنكِ غادرتِ قبل يوم من موافقة أمي على أن أطلب يدك. كنت أود أن أقول لك هذا عند استيقاظي وعندما استلمت رسالتها (ورسالتكِ في ذات الوقت). ربما خفتِ من تنكيدي عندما غادرت بتلك الطريقة. وربما ارتبطت حياتنا بالتعاسة، من يدري! لو وجب أن يحدث ما حدث، فمباركة أنتِ على حكمتكِ. وقد نكون قد أضعنا كل ثمرتها، لو التقينا ثانية. قد يكون ذلكِ بالنسبة لي تجربة. ولكن لا فضل كبيراً لي إن قاومتها. إنك تعرفينني كائناً لا يثبت على حال، وتعرفين كم أنسى بسرعة. وهكذا لست صالحاً للرثاء. لقد قلتِ لي مرات كثيرة إنني خصوصاً رجل عادات؛ والعادات التي بدأت آلفها بدونك لم تزل غير راسخة. في هذا الوقت بالطبع، إن العادات التي مارستها معك والتي جعلتها مغادرتكِ تضطربِ ما زالت هي الأقوى. ولن تبقى هكذا لمدة طويلة. وحتى لهذا السبب فكرت في الاستفادة من هذه الأيام الأخيرة والقليلة حيثِ أن لقاءنا لن يكون في ناظري كاللقاء الذي يتم بعد خمسةِ عشر يوماً تقريباً، وربما قبل، وقد يكون إز... (اعذري صراحتي) إزعاجاً. وفكرت في الاستفادة من ذلك قبل النسيان الكامل كي أحل معك بعض المسائل المادية الصغيرة، وكان بوسعك، أيتها الصديقة الطيبة والفاتنة، أن تؤدي خدمة لذاك الذي ظنّ نفسه خلال خمس دقائق خطيبَكِ. وبما أنني لم أشك في موافقة أمي، وبما أنني من جهة ثانية كنت أرغب في أن يحصلِ كلانا على كامل تلك الحرية التي تفضلتِ وضحيتِ بها بسخاء قد يُقبل في حياة مشتركة دامت بضعة أسابيع، ولكنها ربما أصبحت مقيتة لك ولي الآن إن كان علينا عيشها معاً (إنني أشعر بشيء من المعاناة أثناء كتابتي لك، عندما أفكر بأن الأمر كاد يتحقق على قيد شعرة، وكنت قد فكرت في تنظيم حياتنا بأكبر استقلالية ممكنة، وبداية كنت أريد أن تملكي هذا اليخت وتسافري فيه، وأن أنتظرك أنا ــ على آلامي المبرّحة ــ في المرفأ. لقد كتبت إلى "إلستير" أستشيره، بما أنكِ تحبين ذوقه.

وفي ما يخص البر، كنت أريد أن تملكي سيارة تكون لـــك، ولـــك وحـــدك، تخرجين فيها وتسافرين كما يطيب لك. لقد كان اليخت شبه جـــاهز واســـمه "البجعة"، كما رغبت في التسمية أيام كنا في "بالبيك". ولـــدي تذكـــري أنـــك تفضلين سيارات الرولز على كل السيارات الأخرى، طلبت لك واحدة منـــها. والآن، بما أننا لن نلتقي إلى الأبد، وبما أنني لا أمل لي في أن أجعلك تقبليـن بالسفينة وبالسيارة اللتين أصبحتا غير نافعتين، فإنهما في ناظري لن يستخدما في شيء. وفكرت ــ بما أنني طلبتهما من وسيط أعطيتـــه اســـمك ــ أنـــك تستطيعين إلغاء الطلبية ربما وتجنبيني هذا اليخت وتلك السيارة، لأنهما غـير مفيدين. ولكن لهذا ولأشياء أخرى كثيرة، يتوجب علينا التحدث. وأجد أننـــي ما دمت قادرا على حبك ثانية، وهذا لن يدوم طويلا، فإنه من الجنون بمكـان أن نرى بعضنا، من أجل سفينة شراعية وسيارة رولز رويس، وأن نراهـــن على سعادة حياتك، إذ تعتبرين أن هذه السعادة منوطة بالعيش بعيدا عني. لا، إنني افضل أن أحتفظ بالرولز وحتى باليخت. وبما أنني لـــن اســـتخدمهما إذ سيبقى اليخت في المرفأ راسيا دون إبحار وستبقى السيارة فـــي الاصطبـــل، وسأنقش عليهما (يا إلهي كم أخشى أن أضع اسما غير دقيق فأرتكب زندقـــة قد تصدمك) أبياتا من "مالارميه" كنت تحبينها. أتذكرين؟ إنها القصيدة التـــي مطلعها:

"إن البكر والحيوي والجميل اليوم".

واحسرتاه، لم يبق اليوم لا بكر ولا جميل. ولكن الذين مثلي يعلمـــون أنهم سيصنعون بسرعة "غدا" يطاق، هم أشخاص لا يطاقون. أمـــا الرولـــز فتستحق بالأحرى هذه الأبيات الأخرى من الشاعر نفسه، وكنت تقولين إنـــك لم تستطيعي فهمها:

عاصفة وياقوتة من الثقوب

قل إن كنت غير فرح

بأن أرى في الفضاء الذي تخترقه تلك النار

فتلهب الممالك المشتتة

كما الموت يضرج العجلة

المسائية الوحيدة لعرباتي.

"وداعا إلى الأبد، يا صغيرتي البيرتين، وأشكرك مجددا على الجولة الجميلة التي عملناها معا عشية انفصالنا. إنني أحتفظ بذكرى لطيفة جدا".

"حاشية: لا أجيب على ما تقولينه حول الاقتراحات التي ادعاها "سان لو" والتي عرضها على عمتك (ولا أظن إطلاقا أنه في "تورين"). قصتنا كقصص شرلوك هولمز. يا للفكرة التي تكونينها عني!".

وكما قلت لألبيرتين سابقا: «لا أحبك»، كي تحبني، و «إنني أنسى عندما لاأرى الناس»، كي تراني كثيرا، و«قررت أن أهجرك» توقيا لكل فكرة هجران، أما الآن فلأنني أريد بإصرار أن تعود خلال ثمانية أيام بعد أن قلت لها: «وداعا إلى الأبد»؛ ولأنني كنت أريد أن أراها فقد قلت لها: «قد أجد خطرا في رؤيتك ثانية»؛ ولأن العيش بدونها بدا لي أشد من الموت فقد كتبت لها: « كان الحق معك، سنكون تعساء معا». للأسف فإنني عندما كتبت هذه الرسالة المصطنعة لأتظاهر بأنني لست متعلقا بها (وهي عزة النفس الوحيدة التي بقيت من حبي السابق لجيلبيرت في حبي لألبيرتين) وليحلو لي أيضا أن أقول بعض الأشياء التي من شأنها أن تؤثر في أنا وليس فيها، كان يليق بي أولا أن أتوقع إمكانية أن تحدث جوابا سلبيا، أي أنه يؤكد ماقلته، وأنه على الأرجح سيكون كذا، لأن البيرتين لو كانت أقل ذكاء مما هي عليه -هذا ماقلته- لما شكت لحظة واحدة في أن الأمر خطأ. ودون التوقف عند النوايا التي نوهت بها في هذه الرسالة، فإن مجرد كتابته، حتى ولو لم يأت بعد مسعى «سان لو»، كان يكفي لأثبت لها أنني كنت أرغب في عودتها وأنصحها بأن تدعني آخذ بالشص أكثر فأكثر. ثم بعد أن توقعت جوابا سلبيا ممكنا، كان يترتب علي دائما أن أتوقع فجأة أن هذا الجواب سيعيد إلى -في أقصى أقاصي حيويته- حبي لألبيرتين. وكان علي، قبل إرسال الرسالة، أن أتساءل، إن أجابت البيرتين باللهجة ذاتها وبأنها تأبى العودة، سأكون عندئذ سيد ألمي لكي أرغم نفسي على الصمت، وكان علي ألا أرسل لها برقية: «عودي»، وألا أبعث إليها أي وسيط آخر، وهو -بعد أن كتبت لها أننا لن نلتقي-إثبات واضح لها أنني لن أتمكن من الاستغناء عنها يؤدي إلى أن ترفض بشكل أحد، ويؤدي -إن لم أعد أتحمل قلقي- إلى أن أذهب إليها (من

يدري؟) والى رفضها استقبالي. وقد يكون هذا، بعد ثلاثة أفعال خرقاء، الفعل الأسوأ، وبعده لن يبقى لي إلا أن أقتل نفسي أمام منزلها. ولكـــن الطريقـة الكارثية التي يتكون بها العالم النفسي المرضي تقول إن الفعل الأخـــرق، أي الفعل الذي يتوجب تجنبه، هو ذلك الفعل المهدئ، لأنه يفتح أمامنا آفاقا جديدة من الأمل -إلى أن ندرك عاقبته- ويخلصنا مؤقتا من الألم المــبرح الــذي زرعه الرفض فينا. وهكذا عندما يستفحل الألم، نهرع إلى الفعل الأخـــرق، فنكتب ونطلب التماس أحدهم ونذهب لنرى ونثبت أننا لانستطيع الاســتغناء عن المحبوب.

بيد أنني لم استبصر شيئا من هذا كله. وبدت لي نتيجة هذه الرســالة أنها على العكس ستعيد البيرتين في أسرع وقت. وعندما فكرت فـــي هـذه النتيجة، استعذبت جدا أن أكتب الرسالة. ولكنني في آن لم أكف عن البكـــاء، وأنا أكتبها؛ أولا، كما فعلت تقريبا يوم تظاهرت بالفراق الكــاذب، لأن هـــذه الكلمات صورت لي الفكرة التي أعربت عنها مع أنها صبت إلى هدف مغاير (ولقد تفوهت بها كاذبا لئلا أعترف، لعزة نفسي، بأنني أحبها)، وحملت فـــي طياتها أشجانها، ولأنني أيضا كنت اشعر بأن هذه الفكرة تحمل شـــيئا مــن الحقيقة.

وبدت لي عاقبة هذه الرسالة مؤكدة، فندمت على إرسالها. وعندمـــا تصورت عودة البيرتين اليسيرة جدا، عاودتني فجأة وبقوة جميـــع الأســباب التي جعلت زواجنا مستكرها لي. فأملت أن تأبى العودة. وبينما كنت أحســب أن حريتي ومستقبل حياتي كله منوطان برفضها، وأنني جننت عندما كتبــت لها، وأنه كان علي أن أستعيد رسالتي التي مع الأسف أرسلت، إذا بفرانسواز تعيدها لي مع الجريدة التي حملتها لي. فلم تكن تعلم أية طوابع تضع عليـــها لإرسالها. ولكنني فورا غيرت رأيي؛ كنت أتمنى ألا تعود البيرتين، بيد أننـــي كنت أريد أن تتخذ البيرتين هي نفسها هذا القرار كي تضـــع حــدا لقلقـــي، وأردت إعادة الرسالة لفرانسواز. وفتحت الجريدة، فإذا بها تعلن موت الـــ(la Berma) «بيرما». عندها تذكرت طريقتين مختلفتيـــن اســتمعت فيـــهما إلـــى مسرحية (Phèdre) «فيدر»، والآن أراني أمام طريقة ثالثة إذ فكرت في مشـــهد البوح. وبدا لي أن ماتمتمت به مرارا وحدي وماستمعت إليه في المســـرح، كان يعرب عن القوانين التي كان يترتب علي اختبارها في حياتي. ففي داخل

روحنا أشياء لانعرف كم نحن متشبثون بها. وإذا كنا نعيش بدونــها، فلأننــا نرجئ يوما بعد يوم، خوفا من الإخفاق والألم، وخوفا من استحواذها علينــا. هذا ماحصل لي مع جيلبيرت، عندما تهيأ لي أنني تخليت عنــها. وقبــل أن نتخلى تماما عن هذه الأشياء، وهو زمن يلي زمن التخلي عنها، مثلا عندمــا تتزوج الفتاة، نفقد صوابنا ولانعود نستطيع احتمال الحياة التي كانت تبدو لنـا رقراقة في شجنها، وإذا امتلكنا شيئا، ظننا أنه يربكنا فنتخلى عنـــه بطيــب خاطر؛ وهذا ماحصل لي مع البيرتين. وعندما ينزع منـــها الكـــائن الـــذي لانكترث به فيغادرنا، نفقد قدرتنا على الحياة. ألم تجمع حجة «فيدر» هـــاتين الحالتين؟ هيبوليت يهم بالذهاب. إن فيدر التي حرصت حتئذ على أن تكــوس نفسها لعداوته، بسبب هاجسها كما قالت (أو هكذا جعلـــها الشـــاعر تقــول)، وبالأحرى لأنها لاترى إلى أين ستصل ولأنها تشعر بأنها غير محبوبة، فيدر هذه فقدت صبرها فأتت وباحت له بحبها؛ وورد هذا في المشهد الذي رددتـــه كثيرا:

«يقال إن رحيلا مفاجئا يبعدك عنا».

قد يظن المرء أن هذا السبب لرحيل هيبوليت هو ثانوي، إذا مـــاقيس بسبب موت «تيزيه». وبعد بضعة أبيات، تظاهرت للحظة أن كلامها لم يفهم:

«هل فقدت كل اهتمام بمجدي».

وقد يظن المرء أن ذلك عائد لرفض هيبوليت بوحها بحبه:

«أتنسين ياسيدتي أن تيزيه هو أبي وأنه زوجك؟»

ولكن ماكان عليه أن يستنكر هذا الاستنكار، إذ كان بوسع فيدر، أمام السعادة المحققة، أن تحس بالشعور نفسه وهو أنه قليل الشأن. ولكن مـــا إن رأت أن السعادة لم تتحقق، حتى ظن هيبوليت أنه أخطأ الفهم فاعتذر. وعلــى غراري أنا الذي سلم فرانسواز رسالتي للتو، فإنها تريد أن يأتي الرفض منه، وإنها تريد أن تدفع بحظها إلى آخر حد:

«أيها الضاري، لقد سمعتني أكثر مما يجب».

ولم يبلغ الأمر تلك القساوات التي رويت لي عن «سوان» تجاه «أوديت» ولاعني تجاه البيرتين، وهي قساوات تستبدل الحب السابق بحب جديد قائم على الرحمة والتحنان والحاجة إلى البوح، حب يلون الحب الأول، ونجدها في هذا المشهد:

«كنت تمقتني أكثر، ولم أحبك أقل

إن تعاستك كانت تضفي عليك سحرا جديدا».

والدليل على ذلك أن «الاهتمام بمجده» ليس الأمر الذي تتشبث به فيدر، فربما غفرت «لهيبوليت» وأهملت نصائح (Oenone) «اينون»، لو لم تعلم حينها أن «هيبوليت» يحب (Aricie) «آريسي». فكم تكون الغيرة -التي تضاهي في الحب فقدان السمعة- محسوسة أكثر من فقدان السمعة. وعندها تركت «اينون» (التي تمثل الجانب الأسوأ فيها) تمارس النميمة على «هيبوليت» دون «الاكتراث بالدفاع عنه» وأرسلت ذاك الذي رفضها إلى قدر لاتواسيها اطلاقا رزاياه، لأن موتها الطوعي أتى مباشرة بعد موت هيبوليت. وهكذا على الأقل فإن «راسين» قلص جميع الهواجس الجانسينية- التي أضفاها على «فيدر»، كما يقول «بيرغوت» (Bergotte)، كي يخفف من إثمها؛ وعلى هذا النحو شاهدت ذلك المشهد، وهو كناية عن إرهاص لتلك الأحداث العشقية في حياتي الخاصة. ولم تغير هذه الأفكار من تصميمي، فأعدت الرسالة إلى «فرانسواز» كي تضعها أخيرا في البريد، وقمت بهذه المحاولة مع البيرتين ورأيت فيها عملا ضروريا منذ أن علمت أنها لم تتم. وقد نخطئ إذا اعتقدنا أن إتمام واجبنا هو شيء بسيط، ذلك أننا ما إن نظن أنه يستطيع ألا يكونه، نتعلق حتى به ثانية، ولانجد أنه لايستحق متابعتنا إلا عندما نكون متأكدين من أننا لم نفقده. ومع ذلك فالحق معنا أيضا. وإذا كان هذا الاتمام، وإذا كانت السعادة لايظهران صغيرين إلا باليقين، فمع ذلك هما غير ثابتين، فلا يفرزان إلا الأتراح. وبقدر ماتكون هذه الأتراح قوية بقدر ماتتحقق الرغبة، وبقدر مايستحيل تحملها بقدر ماتستمر السعادة بعض الوقت خلافا لقانون الطبيعة وبقدر ماتكرسها العادة. وعلى نحو آخر أيضا، كانت كلتا النزعتين -نزعة الإصرار على إرسال الرسالة، ونزعة الندم على ذلك لظني أنها أرسلت- تنطويان على حقيقتهما. وفي مايخص الأولى، غني عن

القول أننا نهرول نحو سعادتنا -أو نحو تعاستنا- ونتمنى في الوقت نفسه أن نضع نصب أعيننا، بذلك العمل الجديد الذي راح يرسل عواقبه، انتظارا لايتركنا في اليأس المطلق، وبوجيز العبارة إننا نسعى بطرق أخرى غير الطرق التي نتصورها أقل قساوة بالضرورة، لتمرير الداء الذي نكابده. ولكن النزعة الثانية لاتقل أهمية عن الأولى، فلأنها ولدت من الإيمان بنجاح مسعانا، فإنها بكل بساطة البداية، والبداية المسبقة، لتلاشي الوهم الذي سنشعر به قريبا عندما تتحقق الرغبة، وإنها الندم على تثبيت هذا الشكل من السعادة لنا، على حساب الآخرين المستبعدين عنه.

أعدت الرسالة لـ«فرانسواز» وقلت لها أن تذهب بسرعة وتضعها في البريد. وما إن راحت الرسالة حتى فكرت مجددا بعودة البيرتين واعتبرتها عودة وشيكة زرعت في ذهني صورا لطيفة حيدت بلطافتها إلى حد ما المخاطر التي رأيتها لهذه العودة. وكانت نعومة وجودها قربي، وهي النعومة التي أفتقرها منذ مدة طويلة، تثملني.

ويمر الزمن، وشيئا فشيئا يصبح ماقلناه عن كذب أمرا حقيقيا، وهذا ماجربته أكثر من اللزوم مع «جيلبيرت». فعدم الاكتراث الذي تصنعته عندما توقفت عن النحيب تحقق في نهاية الأمر. وكما قلت «لجيلبيرت» في عبارة كاذبة أصبحت لاحقا عبارة حقيقية، إن الحياة قد فصلت بيننا. تذكرت هذه العبارة وقلت لنفسي: «إذا تركت البيرتين لبضعة أشهر، فإن أكاذيبي ستصبح حقيقة». والآن بعد أن انقضت الفترة الأصعب، أليس من المتمنى أن تترك هذا الشهر يمضي؟ وإن عادت، فإنني سأتخلى عن الحياة الحقيقية التي لايسعني الآن تذوقها، ولكنها قد توفر لي بعض اللطائف، بينما تتلاشى تدريجيا ذكرى البيرتين(*).

منذ أن غادرت البيرتين، عندما كان يبدو لي أن الآخرين لايستطيعون أن يلاحظوا أنني بكيت، غالبا ماكنت أقرع الجرس

(*) لم اقل إن النسيان لم يبدأ بالتأثير. ولكن من آثاره أنه جعل العديد من الصور المزعجة لألبيرتين، والساعات المملة التي كنت أقضيها معها، تغيب عن ذاكرتي؛ ومنها أيضا أنها لم تعد كما كنت أتمنى عندما كانت عندي، وأنها أعطتني عنها صورة مقتضبة جملتها جميع تجاربي العشقية نحو نساء أخريات. وتحت هذا الشكل الخاص، جعلني النسيان أتوق إلى عودتها، مع أنه كان يعمل لتعويدي فراقها، وصار يريني البيرتين أعذب وأجمل.

لــ«فرانسواز» واقول لها: «يجب أن تري إذا مانسيت الآنسة البيرتين شيئا. فكري في ترتيب غرفتها كي تكون جاهزة عندما تعود». أو أقول لها فقط: «فعلا، في ذلك اليوم، قالت لي الآنسة البيرتين، قالت عشية مغادرتها..» وكنت أريد أن أخفف عند «فرانسواز» الغبطة المقيتة التي كانت تثيرها فيها مغادرة البيرتين، وكنت ألمح لها أن هذه المغادرة قصيرة؛ كذلك كنت أبغي أن أظهر لفرانسواز أنني لم أكن أخشى التكلم عن هذه المغادرة، وأنني أظهرها كأنها مقصودة -كما يفعل بعض الجنرالات الذين يسمون الانسحابات القسرية تراجعا استراتيجيا مدرجا في خطة معدة سلفا- أو كأنها تشكل حدثا كنت أخفي مؤقتا معناه الحقيقي، ولم تكن إطلاقا كنهاية لصداقتي مع البيرتين. ولأنني لهجت باسمها، فقد أردت أخيرا أن أدخل شيئا منها إلى هذه الغرفة، كقليل من الهواء، لأن مغادرتها قد خلقت فراغا فيها فلم أعد أقوى على التنفس. ثم يحاول المرء أن يقلل من حجوم ألمه فيدخله في اللغة المحلية فيوصي على طقم مثلا ويعطي أوامر للعشاء.

عندما رتبت «فرانسواز» الفضولية غرفة البيرتين، فتحت درج طاولة صغيرة مصنوعة من خشب الورد كانت صديقتي تضع فيها أشياءها الحميمة التي تخلعها عنها قبل أن تنام، فقالت بدهشة: «ياسيدي لقد نسيت الآنسة البيرتين أن تأخذ خاتميها فبقيا في الدرج». وكردة فعل أولى قلت: «يجب إعادتهما إليها». ولكن قولي بدا كأن عودتها ليست مؤكدة. فأردفت بعد برهة صمت قائلا: «ولكن لاتشغلي بالك، لأن غيابها لن يطول. أعطني إياهما وسأرى»، فناولتني إياهما «فرانسواز» مع شيء من الاسترابة. لقد كانت تمقت البيرتين، وتصورت -كما كانت هي- أنني لا أؤتمن على رسالة كتبتها صديقتي دون أن افتحها. فأخذت الخاتمين. وقالت لي «فرانسواز»: «فلينتبه سيدي لئلا يضيعهما. فهما خاتمان على ماأرى جميلان. لاأعلم من الذي أعطاهما إياها أهو سيدي أم شخص آخر، ولكنني أعرف أنه غني وصاحب ذوق». فأجبت «فرانسواز»: «لست أنا، فالخاتمان لايأتيان من الشخص نفسه، وعمتها هي التي أعطتها الخاتم الأول، والثاني اشترته هي بنفسها». فصرخت «فرانسواز»: «لايأتيان من الشخص نفسه؟ تريد أن تمزح ياسيدي، فالخاتمان متشابهان، ماعدا قطع الياقوت الأحمر التي أضيفت إلى أحدهما، لقد نقشت على كلاهما صورة النسر نفسه، وحفرت عليهما في

الداخل الحروف ذاتها..» لاأعلم إذا كانت «فرانسواز» قد شعرت بالألم الذي سببته لي، ولكن ابتسامة بدأت ترتسم على شفتيها دون أن تفارقهما من بعد «كيف؟ النسر نفسه؟ أنت مجنونة، على الخاتم الذي لايحمل قطع الياقوت رأس رجل» -رأس رجل؟ أين رأى سيدي ذلك؟ بنظاراتي العادية وحدها رأيت فورا أحد جناحي النسر. فليأخذ سيدي عدسته المكبرة ليرى الجناح الآخر على الوجه الثاني وليرى الرأس والمنقار في وسطه، إننا نرى كل ريشة، وياله من صنع جميل!» لقد أنستني الحاجة القلقة إلى أن اعرف مدى كذب البيرتين علي، أنستني أنه كان علي أن أحافظ على كرامتي أمام فرانسواز وأن أضع حدا لتلك المتعة الخبيثة التي كانت بها تعذبني وتسيء بها على الأقل إلى صديقتي. كنت ألهث بينما ذهبت «فرانسواز» للبحث عن العدسة المكبرة، وطلبت منها أن تريني النسر المنقوش على الخاتم المزود بالياقوت، فلم تجد صعوبة في أن تريني الجناحين المرسومين بالطريقة نفسها على الخاتمين، وأن تريني نتوءات كل ريشة وأن تدلني على الرأس. ولفتت انتباهي أيضا إلى الكتابات المتشابهة التي أضيفت إليها كتابات أخرى على الخاتم المزود بالياقوت. وكان رمز البيرتين محفورا في الطبقة الداخلية من الخاتمين. وقالت «فرانسواز»: « ولكن مايدهشني هو أن السيد احتاج إلى كل هذا ليرى أن الخاتمين واحد. ودون رؤيتهما عن قرب، يشعر المرء بالتصنيع ذاته وبالطريقة نفسها في لف الذهب وبالشكل عينه. ويكفي أن أعاينهما، حتى أقسم بأنهما يأتيان من الدكان ذاته. هذا معروف مثلما تعرف الطاهية الجيدة مطبخها». أجل، إلى جانب فضولها كخادمة اشتعل فيها الحقد واعتادت تسجيل التفاصيل بدقة مخيفة، انضاف إلى هذه الخبرة وغذاها ذلك الذوق - نعم ذلك الذوق- الذي كانت تبرزه في المطبخ وتؤججه -كما لاحظت ذلك في هندامها عندما ذهبت إلى بالبيك- أناقة امرأة كانت جميلة ونظرت إلى مجوهرات النساء الأخريات والى أدوات زينتهن. ربما ارتكبت خطأ في علب الأدوية، فبدل أن آخذ بضعة أقراص من الفيرونال يوم شعرت بأنني شربت عددا زائدا من فناجين الشاي، أخذت نفس عدد الأقراص ولكن من الكافيين مما جعل قلبي يخفق ببطء. لقد طلبت من «فرانسواز» أن تغادر الغرفة؛ وكان بودي أن أرى البيرتين حالا. فإلى جانب كذبها البشع وحسدها ممن تجهله، انضاف ألمها الذي كان يدفعها إلى تقبل الهدايا. صحيح أنني كنت

أغدقها عليها، ولكن المرأة التي نصرف عليها لاتبدو لنا امرأة كذا حتى نتأكد من أن الآخرين يصرفون عليها. ولكن بما أنني لم أكف عن بذل نقود كثيرة عليها، فلقد أخذتها بالرغم من تلك الخساسة الأخلاقية؛ لقد أبقيت على هذه الخساسة فيها وربما حرضتها وخلقتها عندها. وبما أننا نتمتع بموهبة اختراع الحكايات كي ندغدغ ألمنا، وبما أنه يذهب بنا الأمر -عندما تفترسنا غائلة الجوع- إلى أن نتصور شخصا مجهولا يترك لنا ثروة تقدر بمئة مليون، كنت أتصور البيرتين بين ذراعي وتشرح لي باقتضاب أنها اشترت الخاتم الثاني بسبب تصنيعهما المتشابه، وأنها هي التي طلبت بأن ينقش الجوهري لها أول حرف من اسمها وكنيتها. ولكن هذا التفسير كان حتئذ هشا، لأنها لم تكن بعد قد حظيت بالوقت الكافي لتغرس في ذهني جذورها الطيبة، ولم يكن ألمي يستطيع أن يهدأ بهذه السرعة. وفكرت في أولئك الرجال الذين يقولون للآخرين إن خليلاتهم لطيفات جدا، ولكنهم يعانون من عذابات مشابهة، وهكذا فإنهم يكذبون على الآخرين وعلى أنفسهم. إنهم لايكذبون تماما، فلقد كانت لهم مع تلك النساء ساعات لطيفة فعلا. ولكن ذلك اللطف الذي يبدينه لاصحابهن ويخولهن الافتخار، كل ذلك اللطف الذي يمارسنه مع عشاقهن على انفراد والذي يدفعهم إلى مباركتهن، يحمل ساعات مجهولة تألم فيها العشيق وشك وقام بتحريات فاشلة كي يعرف الحقيقة. نعم لقد ارتبطت مثل هذه الآلام بلذة الحب وبالافتتان بحديث امرأة مهما كان تافها؛ ونعلم أنه تافه ولكننا نعطره برائحتها. لم أعد الآن استطيع استنشاق عطر البيرتين عن طريق التذكر. كنت أحمل الخاتمين في يدي ذاهلا، وكنت أنظر إلى ذلك النسر العديم الرحمة الذي كان منقاره يعذب قلبي وكان جناحاه المكسوان بالريش الناتئ قد انتزعا الثقة التي كنت أكنها لصديقتي، وكانت براثنه التي أدمت عقلي فجعلته عاجزا عن الإفلات لحظة واحدة من الأسئلة المتهافتة المتعلقة بذلك المجهول الذي كان النسر يرمز على الأرجح إلى اسمه، دون أن يتركني مع ذلك أقرأه، ذلك المجهول الذي أحبته على الأرجح والذي ربما رأته ثانية منذ مدة قصيرة، لأنني لاحظت الخاتم الثاني في ذلك اليوم السعيد والعائلي الذي قمنا فيه بنزهة إلى غابة بولونيا، ذلك الخاتم الذي بدا فيه النسر كأنه يغرز منقاره في حيز الياقوتة الحمراء الفاتحة بلون الدم.

إذا كنت، على كل حال، لاأكف عن التألم من مغادرة البيرتين، فهذا لايعني أنني لم أكن أفكر إلا فيها. فمن جهة كان سحرها قد راح يغزو منذ مدة طويلة أشياء انتهى بها الأمر إلى الابتعاد قصيا عن البيرتين، ولكنها كانت مشحونة بالانفعال نفسه الذي كانت تثيره في عندما يذكرني أحدهم بـ«أنكارفيل» (Incarville) وبعائلة الـ«فيردوران» (Verdurin) وبدور جديد ستلعبه «ليبيا» (Léa)، فكان هذا يثير في عاصفة من الآلام. ومن جهة أخرى كان ماأسميته أنا التفكير في البيرتين، كان يعني التفكير في السبل التي ستعيدها والتي تدفعني إلى اللحاق بها أو إلى معرفة ماتفعله. وخلال ساعات طويلة من العذاب المبرح، لو استطاع أحدهم أن يرسم خطا بيانيا يظهر فيه الصور المصاحبة لألمي لرأى صورة «محطة أورسيه» (Orsay) وصورة الأوراق النقدية التي قدمت للسيدة «بونتان» وصورة «سان لو» المنحني فوق القمطر المائل في مركز البريد والبرق حيث كان يصوغ نص برقية لي، ولما رأى أية صورة لألبيرتين. أثناء حياتنا كلها، لما كانت أنانيتنا ترى دائما أمامها الأهداف النفسية لهذه الأنا، دون أن تنظر قط إلى تلك الأنا ذاتها التي لم تكف عن تثمينها، كذلك كان أمر الرغبة التي تسير أفعالنا فتهبط نحوها دون العودة إلى الذات، إما لأن هذه الرغبة غير المفيدة تزج نفسها في معترك العمل وتحتقر المعرفة، وإما لأنها تبحث عن مستقبل لتصحيح خيبات الحاضر، وإما لأن الكسل الذهني يدفع الذهن إلى الانزلاق نحو سفوح الخيال السهلة بدلا من صعود سفوح الاستبطان الوعرة(*). والحقيقة أننا في تلك

(*) كدت اشتري بثمن السيارات أجمل يخت في العالم. كان معروضا للبيع ولكن بسعر غال جدا فلم يرغب فيه أي شار. لنفترض أننا –بعد شرائه– سنقوم برحلات تستغرق أربعة أشهر، فكيف نؤمن صيانته التي تكلف سنويا مئتي ألف فرنك؟ كنا عندئذ سنعيش على مبلغ يتجاوز نصف مليون فرنك سنويا. أأستطيع أن أصمد أكثر من سبع أو ثماني سنوات؟ ولكن هذا لايهم، عندما لايبقى لدي إلا خمسون ألف فرنك. عندئذ سأتركها لالبيرتين وأنتحر. هذا هو قراري. لقد جعلتني أفكر بأناي. وبما أن هذه الأنا تعيش دائما وهي تفكر بجملة من الأشياء، وبما أنها ليست إلا فكرة هذه الأشياء، فإنها عندما تكتشف عن طريق الصدفة أنها بدل أن تنكب على هذه الأشياء تفكر فجأة في نفسها، لاتجد عندئذ إلا آلة فارغة أو أنها تجد شيئا لاتعرفه، ولكي تضفي عليه شكلا واقعيا نراها تضيف ذكرى صورة لمحتها في المرآة. إن هذه الابتسامة الغريبة المضحكة، وهذين الشاربين المتفاوتي الطول، ستزول كلها من فوق سطح الأرض. عندما سأنتحر بعد خمس سنوات، سأكف عن التمكن من التفكير في جميع هذه الأشياء التي كانت تجول دون توقف في ذهني. عندما سأقتل نفسي بعد خمس سنوات، ستنتهي قدرتي على التفكير في جميع هذه الأشياء التي تراود بالي دون انقطاع، فأزول عن وجه الأرض ولن أعود إليها ثانية وسيتوقف تفكيري إلى الأبد. لقد تراءت لي أناي أكثر وضاعة عندما رأيتها شيئا لم يعد موجودا. كيف يصعب على المرء أن يضحي لتلك التي تصبو أفكاره نحوها دون

الساعات التي نراهن فيها على حياتنا، كلما توغل الكائن المرتبط بها في كشف رحابة المكان الذي يشغله من أجلنا، وكلما ترك هذا الكائن شيئاً في العالم بدون أن يقلبه رأساً على عقب، نلاحظ أن صورة هذا الكائن تنحسر نسبياً بحيث تتلاشى عن أبصارنا. ونجد في جميع الأشياء أثراً على وجود هذا الكائن من خلال الانفعال الذي نشعر به؛ أما السبب -أي ذات هذا الكائن- فلا نجده في أي مكان. وخلال تلك الأيام كنت عاجزاً جداً عن تصور البيرتين بحيث أنني لم استطع التصديق بأنني لاأحبها، فهي كأمي التي كانت، في فترات يأسها التي عجزت فيها عن تكوين صورة لجدتي (ماعدا مرة التقت بها صدفة في حلم شعرت بأهميته القصوى، فحاولت -في نومها- وبجميع القوى التي بقيت لها أن تطيل مدة الحلم) تستطيع اتهام نفسها - واتهمتها فعلاً- بأنها لم تأسف لموت أمها الذي كان يقتلها، بل أسفت لملامحها التي كانت تهرب من ذاكرتها.

لماذا ظننت أن البيرتين لاتحب النساء؟ لأنها قالت، وخاصة في الآونة الأخيرة، إنها لاتحبهن؛ ولكن ألا ترتكز حياتنا على أكذوبة دائمة؟ لم تقل لي قط: «لماذا لاأستطيع أن اخرج بحرية؟ ولماذا تسأل الآخرين عما أفعل؟ صحيح أنها كانت حياة فريدة جداً بحيث أنها لم تطلب مني إذا لم تفهم لماذا. وإزاء صمتي عن أسباب حجرها ألم يكن من المفهوم أن يتماشى من طرفها مع صمت دائم لايتغير حول رغباتها المستمرة وذكرياتها التي لاتحصى وأهوائها وآمالها التي لاحصر لها؟ كان يبدو على «فرانسواز» أنها تعرف أنني أكذب عندما كنت ألمّح إلى عودة البيرتين الوشيكة. وكان اعتقادها مؤسساً على شيء أكثر من هذه الحقيقة التي توجه بالعادة خادمتنا، وهي أن الأسياد لايحبون أن يتعرضوا للإهانة أمام مستخدميهم ولايعلمونهم من الحقيقة الا مالايبتعد كثيراً عن القصص المدائحية التي تهدف إلى تغذية الاحترام. ولكن اعتقاد «فرانسواز» هذه المرة كان يبدو مؤسساً على شيء آخر، كما لو أنهّا أيقظت الحذر في ذهن البيرتين ورعته وأثارت سخطها، أي

انقطاع (لتلك التي يحبها)، وكيف يضحّي بذلك الكائن الآخر الذي لايفكر فيه قط، أي يضحّي بذاته؟ تراءت لي فكرة موتي فريدة، شأنها شأن مفهوم أناي، ولم أجدها فكرة بغيضة. وفجأة وجدتها تعيسة لدرجة البشاعة؛ وعندما فكرت في أنني لن أتمكن من الحصول على نقود أكثر، وفي أن والدي مازالا على قيد الحياة، فكرت فجأة في أمي. ولم أحتمل فكرة تألمها بعد موتي.

أنها دفعت بها بحيث توقعت «فرانسواز» أن رحيل صديقتي لامفر منه. وإذا صح ذلك، فإن روايتي حول مغادرة مؤقتة أعرفها وأقرها، لم تلق عند «فرانسواز» إلا عدم التصديق. ولكن الفكرة التي كونتها عن طبيعة البيرتين المغرضة، ومبالغتها -لحقدها- في مكاسب البيرتين مني، كانتا إلى حد ما تفشلان يقينها. كنت ألمح إلى عودة البيرتين القريبة كشيء طبيعي جدا، كانت «فرانسواز» تتفرس في (كما لو قرأ لها رئيس الخدم في فندق ما خبرا سياسيا غير فيه الكلمات وترددت هي في تصديقه، كأن يقول إن الكنائس قد أغلقت وإن الكهنة سينفون، وكانت «فرانسواز» في زاوية المطبخ تنظر إلى الجريدة بغريزية ونهم كما لو أنها استطاعت أن ترى ماهو مكتوب فعلا.

ولكن عندما رأت أنني كتبت رسالة مطولة وأنني أبحث عن عنوان «مدام بونتان» الدقيق، انتاب «فرانسواز» ذعر من عودة البيرتين. وأضافت إلى هذا الذعر ذهولا حقيقيا عندما سلمتني رسالة عرفت خط البيرتين على مغلفها. وكانت تتساءل إذا ماكانت مغادرة البيرتين مجرد تمثيلية، وهو افتراض كان يؤسيها مرتين، مرة كمسؤولة نهائيا عن مستقبل حياة البيرتين في البيت، ومرة لشعورها بالمذلة من كوني سيد «فرانسواز» ومن خديعة البيرتين لها. وعلى الرغم من أنني كنت أتلهف لقراءة رسالة هذه الأخيرة، لم أستطع أن امنع نفسي من النظر لحظة في عيني «فرانسواز» اللتين تبددت فيهما جميع الآمال، إذ استدلت من هذا النذير عودة البيرتين الوشيكة، شأنها في ذلك شأن هاو للرياضات الشتائية يستنتج بفرح أن موجات البرد قريبة، وذلك من رؤيته السنونو يهاجر. وأخيرا ذهبت «فرانسواز»، وعندما تأكدت من أنها أغلقت الباب وراءها، فتحت الرسالة دون إصدار ضجة كي لايبدو علي القلق، وهذا فحواها:

«ياصديقي أشكرك على جميع الأخبار الطيبة التي تذكرها لي، إنني رهن اشارتك لإلغاء طلبية الرولس، إن اعتقدت أنني قادرة على فعل شيء، وأظنني قادرة. فما عليك إلا أن تذكر لي اسم وسيطك. أتترك هؤلاء الناس بكيدون، مع العلم أنهم لايبحثون إلا عن شيء واحد، وهو البيع؟ وماذا تفعل بالسيارة أنت الذي لايخرج أبدا؟ إنني متأثرة لأن نزهتنا الأخيرة تركت فيك ذكرى جميلة. من جهتي يجب أن تصدق أنني لن أنسى تلك النزهة الثنائية

الغسق (لأن الليل قد بدأ ولأننا سنترك بعضنا) وأنها لن تمحى من ذهنـي إلا مع الليل التام».

فأحسست أن هذه العبارة الأخيرة لم تكن سوى كلام بكـلام وبـأن البيرتين لم تحتفظ حتى ساعة موتها بذكرى رقيقة جدا عن تلك النزهة التـي لم تشعر فيها حقا بأية متعة لأنها كانت متلهفة لهجري. ولكنه أعجبني أيضـا في متسابقة الدراجات، لاعبة الجولف القادمة من "بالبيك" والتي لم تقرأ شـيئا سوى "أستير" قبل أن تعرفني أنها موهوبة وكم كنت مصيبا في إيجادها وقـد اغتنمت في بيتي صفات جديدة جعلت منها شخصا مختلفا وأكثر اكتمـالا [1]. وهكذا قلت لها في «بالبيك» العبارة التالية: «أظن أن صداقتي ستكون نفيسـة لك وأنني فعلا الشخص الذي يستطيع أن يقدم لك ماينقصك» -وكتبت علـى قفا إحدى الصور الضوئية: «مع اليقين بأن ذلك سيكون خارقا- هذه العبـارة التي قلتها لها دون أن أؤمن بها لأجعلها تتوق إلى رؤيتي وتتجـاوز الملـل الذي يعتورها، هذه العبارة ظهرت صحتها هي أيضا؛ وهذا فـي المحصلـة يشبه مافعلته عندما قلت لها إنني لاأريد أن أراها خوفا من وقوعي في حبها. لقد تفوهت بهذا لأنني على العكس، كنت أعلم أن حبي يخمد بسبب المعاشـرة المستمرة، وأن الفراق يؤجج؛ ولكن المعاشرة المستمرة خلقت حاجة إليـها أقوى من حب الأيام الأولى في «بالبيك»، بحيث أثبتت هذه الجملة صحتـها هي أيضا.

ولكن رسالة البيرتين في المحصلة لم تقدم الأشياء قيد أنملة واحـدة. إنها لم تتكلم إلا عن كتابة رسالة للوسيط. فتوجب الخروج من هذا الموقـف واستعجال الأمر، وخطرت على بالي الفكرة التالية. فورا أرسلت رسالة إلـى «أندريه» أقول لها فيها إن البيرتين هي عند عمتها وإنني أشعر بوحدة قاتلـة وإنني سأكون سعيدا جدا إذا أتت لتقيم عندي بضعة أيام وإنـي لااريـد أن أخفي شيئا فرجوتها أن تخبر البيرتين. وفي الوقت ذاته كتبت لالبيرتين كمـا لو أنني لم استلم رسالتها:

---

[1] في عام (١٩٠٥) تم في صالون الكونتيس «دي غيرن» أداء قصـائد مغنـاة ألفـها ولحنـها «رينالدوهان»، وهي مقتبسة من قصة «استير» التوراتية ومن مسرحية «جان راسين» المعروفة (المترجم).

«سامحيني ياصديقتي، لأنك تتفهمين الأمر جيدا، فإنني أمقت الكتمان لذا أردت أن تطلعي على الأمر منها ومني. بسبب إقامتك اللطيفة في بيتي، أخذت عادة سيئة وهي ألا أبقى وحدي. وبما أننا قررنا أنك لن تعودي، رأيت أن الشخص الذي سينوب عنك على أفضل وجه، لأنه سيغيرني إلى الحد الأدنى، وسيذكر بك إلى الحد الأقصى، هو أندريه؛ ولهذا السبب طلبت منها أن تأتي. ولكي لايظهر تسرع في القرار، قلت لها إن الاقامة ستدوم بضعة أيام، ولكن -ليبق الحديث بيننا- أظن أن الاقامة ستكون دائمة. ألا تظنين أنني على حق؟ تعرفين أن مجموعتكم الصغيرة من فتيات «بالبيك» كانت دائما النواة الاجتماعية التي مارست علي أكبر تأثير وسعدت بقبولي فيها. وبدون شك لاأزال أشعر بهذا الامتياز. وبما أن قدر طبعينا ونكد الحياة قد شاء ألا تستطيع البيرتين الصغيرة أن تصبح زوجتي، أظن أنني مع ذلك سأحصل على امرأة -هي أقل جمالا منها، ولكن الانسجام الأكبر لطباعنا سيسمح لها ربما بأن تكون أكثر سعادة معي- في شخص أندريه».

ولكنني بعد أن أرسلت هذه الرسالة، ساورني الشك فجأة في أن البيرتين، عندما كتبت لي: «سأكون سعيدة جدا بأن أعود إن كتبت لي ذلك مباشرة»، لم تقل لي ذلك إلا لأنني لم أكتب لها مباشرة ولأنني، لو فعلت، لما عادت، رغم ذلك، وأنها ستكون مسرورة عندما تعرف أن أندريه عندي وأنها ستصبح زوجتي، بشرط أن تكون هي -أي البيرتين- حرة، لأنها تستطيع منذ ثمانية أيام أن تستسلم لرذائلها وتهدم الاحتياطات الدائمة التي اتخذتها في باريس منذ أكثر من ستة أشهر والتي أصبحت غير مفيدة، لأنها خلال هذه الأيام الثمانية قد فعلت دقيقة بعد دقيقة ماسبق لي أن منعتها عنه. كنت أقول إنها هناك تسرف على الأرجح في استعمال حريتها، وقد تكون هذه الفكرة محزنة لي، ولكنها بقيت فكرة عامة، دون أن تظهر لي شيئا خاصا، وإنها -بالعشيقات العديدات الممكنات اللواتي دفعتني إلى احتمالهن- دون أن أتوقف عند واحدة منهن، كان ذلك يحرض ذهني إلى نوع من الحركة المستمرة التي لاتخلو من الألم، ولكنه ألم يطاق لأنه يفتقر إلى الصورة المادية. بيد أنها كفت عن ذلك وأصبحت مقيتة عندما وصل «سان لو».

ولكنه قبل أن يتلفظ بالكلمات التي قالها والتي جعلتني في منتهى التعاسة، يجب أن أذكر حادثة وقعت توا قبل زيارته وجعلتني ذكراها

أضطرب، مع أن «سان لو» –إن لم يخفف الانطباع المر الذي أثـــاره فـــي حديثي معه– فعلى الأقل خفف الوقع العملي لهذا الحديث. وفحوى الحادثـــة كالتالي. لأنني كنت أتحرق لرؤية «سان لو»، عيل صبري وانتظرته أمـــام الدرج (وهذا أمر لم أكن أستطيع فعله، لو كانت أمي موجودة هنا، لأن أمقت شيء لديها في العالم هو «التكلم عبر النافذة»)، وســمعت عندئــذ الكلمــات التالية: «كيف، ألا يمكنك طرد شخص لايعجبك؟ ليس الأمر صعبا. فمثـــلا، ماعليك إلا أن تخفي الأشياء التي يجب أن يأتي بها. وعندما يناديه مستخدموه بسرعة، لايجد شيئا فيفقد صوابه. وتقول عنه عمتي غاضبة: «ولكن، مـــاذا يفعل؟» وعندما يصل متأخرا، سيغضب منه الجميع ولن يحصل على الشيء الضروري معه. وبعد أربع أو خمس مرات، تأكد أنه ســيطرد، لاســيما إذا حرصت على أن تلوث خفية الثياب النظيفة التي سيلبسها. وهناك ألف حيلـــة كهذه». وبقيت واجما من الذهول، لأن لسان «سان لو» هو الذي كان يتفـــوه بهذه الكلمات المكيافيلية والقاسية. ذلك أنني كنت اعتبره دائما انســانا شـــديد الطيبة، رحيما جدا مع البؤساء، لدرجة أنه أثار الانطباع عندي بأنـــه يمثـــل دون جدية دور الشيطان؛ ولذا يستحيل أنه كانه يتكلم على لســـانه الخـــاص. وأجابه محاوره الذي لمحته عندئذ والذي كان من خدم وحشـــم الدوقـــة «دي غيرمانت» فأجابه «سان لو» بخبث: «ولماذا لاتفعل ذلك طالما أنك ســـتكون في وضع أحسن. وعلاوة عليه فإنك ستسعد بخلق هذه المنغصات. تســـتطيع مثلا أن تلقي بعض المحابر على نصه الموسيقي في وليمة ســـيقيمها؛ وفـــي النهاية يجب ألا تترك له دقيقة يرتاح فيها، بحيث يفضل فـــي المحصلـــة أن ينصرف. أما أنا فسأساهم في إنجاح المسألة، وسأقول لعمتي إننـــي معجـــب بالصبر الذي تبذله في خدمه رجل ثقيل الدم وعليل كـــهذا». فأظـــهرت لـــه جسمي، فتوجه «سان لو» نحوي، ولكن ثقتي به قد تزعزعـــت، إذ ســـمعت أشياء مختلفة عما عهدت من قبل. وتساءلت إذا كان يستطيع التصرف مـــع أحد المساكين بهذه الضراوة، فإنه قادر على تمثيل دور الخائن معـــي فـــي المهمة التي أرسل فيها إلى السيدة «بونتان». وساهمت هذه الفكرة بخاصـــة في عدم اعتبار إخفاقه كدليل على أنني لاأستطيع النجاح، مـــاإن يـــتركني. ولكن، بعد أن دنا مني، فكرت في «سان لو» القديم، وخاصة فـــي الصديـــق الذي غادر السيدة «بونتان» لتوه. وقال لي أولا: «تجد أنه كان ينبغي علـــي

أن أتلفن لك أكثر، ولكنهم كانوا يقولون دائما إنك لست حرا. غير أن ألمي أصبح لايطاق عندما قال لي: «سأبدأ بالبرقية الأخيرة التي تركتك عندها؛ فبعد أن دخلت صالة تشبه الهنغار، دخلت إلى البيت، وبعد أن قطعت أحد الأروقة أدخلت إلى غرفة استقبال». وإزاء كلمات «هنغار» و«رواق» و«غرفة استقبال»، وقبل أن ينتهي من نطقها، وجف قلبي بسرعة تفوق التيار الكهربائي، لأن القوة التي تجوب الأرض بثانية واحدة ليست الكهرباء وإنما الألم. وكم كررت كلمات «هنغار» و«رواق» و«غرفة استقبال» بعد ذهاب «سان لو»، مجددا الصدمة كما طاب لي. ففي الهنغار، يستطيع المرء أن يختبئ مع إحدى الصديقات. وفي غرفة الاستقبال هذه، من يعلم ماكانت تفعله البيرتين أثناء غياب عمتها. وماذا؟ تصورت إذن البيت الذين تسكنه البيرتين كبيت يستحيل أن يوجد فيه هنغار أو غرفة استقبال. كلا، إنني لم أتصوره قط، أو إنني تصورت مكانا غامضا. في المرة الأولى تألمت عندما تشخصن جغرافيا المكان الذي كانت فيه؛ لما علمت أنها في منطقة «التورين»، بدل أن تكون في مكانين أو ثلاثة أمكنة ممكنة. وكانت كلمات حارسة بنايتها قد طبعت في قلبي، كما على خريطة، المكان الذي يجب أخيرا أن أتألم له. ولكنني عندما تعودت تلك الفكرة القائلة بوجودها في أحد بيوت «التورين»، لم أشاهد البيت، ولم تخطر قط في خيالي تلك الفكرة الشنيعة لغرفة استقبال وهنغار ورواق؛ وبدت لي الآن كلها فوق شبكية «سان لو» الذي كان قد شاهد تلك الغرف التي تخطر فيها الآن البيرتين وتمر وتعيش؛ إنها تلك الغرف بخاصة، وليست غرفا ممكنة عديدة هدمت الواحدة منها الأخرى. ومع كلمات «هنغار» و«رواق» و«غرفة استقبال»، تجلى لي جنوني لأنني تركت البيرتين مدة ثمانية أيام في ذلك المكان الملعون الذي تبلور لي وجوده للتو (ولم يكن مجرد احتمال). وياحسرتي، عندما قال لي «سان لو» إنه في غرفة الاستقبال هذه سمع غناء ينطلق بصوت عال من الغرفة المجاورة وإن البيرتين كانت هي التي تغني، فهمت بقنوط أن البيرتين، بعد أن تخلصت أخيرا مني، كانت سعيدة. لقد استعادت حريتها. أما أنا فكنت أفكر أنها ستعود لتأخذ مكان «أندريه» (Andrée) فتحول عندئذ ألمي إلى غضب من «سان لو».

– كل ماطلبت منك تحاشيه هو ألا تعلم بأنك آت.

– أتظن الأمر سهلا. لقد أكدوا لي أنها لم تكن هنا. أعرف تماما أنك لست مسرورا مني، لقد شعرت بذلك في برقياتك. ولكنك لست عادلا، لقد عملت ماأستطعت».

عندما أطلق سراحها وغادرت القفص، بقيت في بيتي أياما كاملة دون إدخالها إلى غرفتي، أرى أنها قد استعادت كل قيمتها، فعادت لتصبح الفتاة التي كان الجميع يلاحقونها والعصفور الرائع في الأيام الأولى.

ـ «أخيرا لنختصر. بالنسبة لمسألة المال، لا أعرف ماذا أقول لك، لقد تكلمت مع امرأة بدت لي في غاية الرقة بحيث خشيت أن أجرح مشاعرها. ولكنها لم تتعجب عندما تكلمت عن النقود. لا بل قالت لي لاحقا إنها متأثرة لإحساسها بأننا في غاية التفاهم. ومع ذلك، فكل ماقالته لي فيما بعد كان رقيقا جدا ورفيعا جدا، بحيث بدا لي أنه يستحيل قولها ذلك من أجل المال الذي قدمته لها: «إننا في غاية التفاهم»، وكنت في الواقع أتصرف كجاموس.

ـ ولكنها ربما لم تفهم وربما لم تسمع، كان بوسعك أن تكرر قولك لها، لأن هذا بالتأكيد هو الذي كان يستطيع أن ينجح كل شيء.

ـ ولكن كيف تقول إنها لم تسمع؟ قلت لها ذلك كما أكلمك الآن، وهي ليست صماء ولامجنونة.

ـ ولم تعلق على ذلك إطلاقا؟

ـ إطلاقا.

ـ كان عليك أن تكرر قولك.

ـ كيف تريدني أن أكرر؟ مالن دخلت ورأيت شكلها قلت لنفسي إنك أخطأت وإنك جررتني إلى غلطة هائلة، وكان من الصعب جدا أن أقدم لها هذا المال هكذا. ومع ذلك فعلته لأطيعك، وكلي اعتقاد أنها ستطردني شر طردة.

ـ ولكنها لم تفعل. إذن، إما أنها لم تسمع وتوجب التكرار، أو أنك تستطيع الاستمرار في هذا المنحى..

ـ تقول إنها لم تسمع «لأنك أنت هنا، ولكنني أكرر لـــك أنـــك لـــو سمحت حديثنا، لما شعرت بأية مشكلة، لقد قلت لها ذلـــك بفجاجـــة، ومـــن المستحيل أنها لم تسمع.

ـ ولكنها مقتنعة تمام الاقتناع بأنني أردت دائمـــا أن أتـــزوج بنـــت أخيها.

ـ كلا، إن أردت رأيي أقول إنها لم تكن تظن أنك تنـــوي الـــزواج إطلاقا وقالت لي إنك قلت أنت لبنت أخيها إنك تريد هجرها. ولاأعلم الآن إن كانت مقتنعة بأنك تريد الزواج».

كان ذلك يطمئنني قليلا ويثبت لي أن إذلالي كان خفيفا وأنه مـــازال بوسعي أن أحب وأن أكون أكثر حرية للإقدام على مبادرة حاسمة. ومع ذلك كان الألم يعصرني.

ـ «إنني منزعج لرؤيتي إياك غير راض.

ـ إنني أقدر لطفك وأشكرك عليه، ولكن يبدو لي أنه كان بوسعك..

ـ فعلت ما أستطيع. لايقدر شخص آخر أن يفعل أكثر مما فعلـــت أو يضاهيه. جرب مع آخر.

ـ كلا، لو عرفت لما أرسلتك، ولكن مسعاك الفاشل يمنعنـــــي مـــن الإقدام على مسعى آخر».

كنت ألومه على أنه حاول تأدية خدمة لي ولم ينجح. وأثناء انصراف «سان لو» التقى بفتيات يدخلن. غالبا مافترضت أن البيرتين كانت تعـــرف فتيات في المنطقة، وكانت المرة الأولى التي شعرت فيها بالعذاب من جـــراء ذلك. وفعلا يجب على المرء أن يؤمن بأن الطبيعة منحت ذهننا قوة ليفـــرز ترياقا طبيعيا يقتل الافتراضات التي نعملها دون هوادة ودون خطر فـــي آن؛ ولكن لاشيء كان يقيني من هؤلاء الفتيات اللواتي التقى بهن «سان لو». غير أن هذه التفاصيل عن البيرتين، ألم أبحث عنها لدى كل شخص؟ وللاطـــلاع عليها بالذات، ألست أنا الذي طلب من «سان لو» الذي استدعاه عقيـــده فـــي الجيش، أن يأتي إلي مهما كلف الأمر؟ أفلست أنا الذي تمناها، أو بـــالأحرى

أليس ألمي الجائع والطامع في النمو والتغذي بها هو الذي فعل ذلك؟ أخـــيرا لقد روى لي «سان لو» أنه وقع على صدفة جميلة وهي أنه التقى قريبا مـــن هنا –وهذا وجه وحيد للمعرفة ذكره بالماضي– بصديقة قديمة لـــ«راشـــيل»، وهي ممثلة جميلة كانت تقضي عطلتها الصيفية في الجوار. ويكفي ذكر تلـك الممثلة لأقول لنفسي: «ربما مع هذه»؛ وكان ذلك يكفي لأرى، في ذراعـــي امرأة لاأعرفها، البيرتين تبتسم وتحمر من الفرح. وفي الحقيقة، لمـــاذا لـــم يحدث ذلك؟ هل أنا امتنعت عن التفكير في النساء منذ أن عرفت البـــيرتين؟ في مساء ذلك اليوم الذي ذهبت فيه لأول مرة إلى «أميرة غيرمانت»، عندمـا عدت، ألم أفكر اقل بكثير في هذه الأخيرة وأهمل الفتاة التي كلمنـــي عنـــها «سان لو» والتي كانت تتردد على بيوت الدعارة وأهمل أيضا وصيفة السيدة «بوتبوس»(Mme Putbus)؟ ألم أرجع إلى «بـــالبيك» بســـبب هـــذه الأخـــيرة؟ ومؤخرا، رغبت في الذهاب إلى مدينة البندقية، فلماذا لم ترغب البيرتين فـــي الذهاب إلى الـــ«تورين»؟ في الواقع، الآن فقط أدرك ذلك؛ لو لم أتركها، لما ذهبت إلى البندقية. وحتى في أعماقي، عندما كنت أقول لنفسي: «ســـأهجرها قريبا»، كنت أعلم أنني لن أهجرها من بعد، وكنت أعلم أيضا أنني لن أعـود إلى العمل، ولن أحيا حياة صحية، أي كل ماكنت أعد به نفسي كل يوم لليـوم التالي. رأيت فقط أنه من الادهى –وهذا ماآمنت به– أن أتركها تعيش تحـت تهديد الهجر المستمر. والأرجح أنني، بفضل مهارتي المقيتة، أقنعتها بذلـــك تماما. على كل حال، لن يبقى الأمر كما هو الآن، فلا أستطيع أن أبقيها فـــي «التورين» مع أولئك الفتيات ومع تلك الممثلة؛ ولم أكن أقوى على احتمـــال التفكير في هذه الحياة التي كانت تفلت مني. كنـــت أنتظـــر إجابتـــها علـــى رسالتي: إن فعلت الشر، للأسف، فيوم زائد أو يوم ناقص لايؤثـــر إطلاقـــا (قلت ذلك لنفسي، بعد أن فقدت عادة عد كل دقيقة من دقائقها، إذ تكفي واحدة حرة منها لاصابتي بالجنون، لأن غيرتي لم تعد تخضع لتقسيم الزمن نفسه). ولكن مالإن أستلم ردها، حتى أذهب لإحضارها إذا مارجعت؛ سأنتزعها مـــن صويحباتها طوعا أو كراهية. أليس الأفضل أن أذهب إليها بنفسي، بعـــد أن اكتشفت الآن خبث «سان لو» الذي لم اشك فيه حتى الآن؟ من يعلم إن لـــم يكن قد حاك مؤامرة كبيرة ليفصلني عن البيرتين؟

هل السبب هو أنني تغيرت،هل هو لأنني لم أفكر إلا بأسباب طبيعية قادتني ذات يوم إلى هذه الوضع الاستثنائي، ولكنني أكون كاذباً الآن لو كتبت لها، كما قلت لها ذلك في باريس، إذ تمنيت ألا يصيبها أي مكروه. آه! لو حدث مكروه، لكنت وجدت فورا السعادة، ووجدت على الأقل الهدوء بعد زوال الألم، بدل أن تتسمم حياتي بهذه الغيرة المستدامة.

زوال الألم؟ هل أستطيع فعلاً أن أصدّق ذلك، أن أصدق أن الموت لايؤدي إلا إلى شطب ماهو موجود وترك الباقي على حاله، أي أنه يزيل الألم من قلب الذي يعتبر أن وجود الآخر ماهو الا سببٌ للآلام، يزيل الألم ولايدع في القلب شيئاً مكانه؟ زوال الألم! بعد أن تصفحت صفحة الأحداث المختلفة في الجرائد، ندمت على قلة شجاعتي من تحقيق الأمنية نفسها التي تمناها «سوان». لو وقعت البيرتين ضحية حادث ما، لوجدت ذريعة- إن بقيت على قيد الحياة- أن أهرع إليها، ولوجدت -إن ماتت- حرية الحياة، كما كان يقول «سوان». هل إعتقدت ذلك؟ إن هذا الرجل الرقيق الحاشية والذي كان يظن أنه يعرف نفسه، قد اعتقد ذلك. كم يجهل الإنسان مافي قلبه! وفيما بعد، لو بقي على قيد الحياة، لأخبرته أن أمنيته مجرمة وعبثية في آن، وأن موت التي كان يحبها لم ينقذه من شيء!

نسيت كل عزة نفس تجاه البيرتين، وأرسلت لها برقية قانطة طلبت منها فيها أن تعود مهما كانت الظروف، وقلت لها إنها ستفعل كل ماتريد، وإنني لن أطلب منها إلا أن اقبلها ثلاث مرات في الأسبوع ولمدة دقيقة قبل ذهابها إلى النوم. وقد تقول : مرة واحدة فقط، إن قبلت بمرة.

لم تعد قط. فبعد ذهاب برقيتي تلقيت برقية من السيدة «بونتان». فالعالم لم يخلق إطلاقا لكل واحد منا، إذ تنضاف إليه خلال الحياة أشياء لم تخطر على بالنا. آه! إن السطرين الأولين من البرقية لم يزيلا ألمي: «أيها الصديق المسكين، إن صغيرتنا البيرتين قد رحلت. سامحني على إعلامك بهذا الخبر الشنيع، أنت الذي أحببتها للغاية. أثناء تنزهها أسقطها حصانها على جذع شجرة. ولم تفلح كل مساعينا لإعادة الروح إليها. ليتني مت عوضا عنها!» لا، ليس زوال الألم، بل ألم مجهول، ألم أن تعلم أنها لن تعود. ولكن ألم أقل لنفسي عدة مرات إنها قد لاتعود؟ لقد قلت ذلك فعلا، ولكنني أدرك

الآن أنني لم أصدق قولي لحظة واحدة. وبما أنني كنت أحتاج إلى وجودها وقبلاتها لأتحمل الألم الذي سببته لي مظانيّ، فقد اعتدت منذ «بالبيك» أن أكون دوماً معها. وحتى عندما كانت تخرج، وكنت أبقى وحيداً، كنت أقبّلها أيضاً. واستمر الأمر كذا بعد أن ذهبت إلى «التورين». لقد كنت أحتاج إلى عودتها أكثر من حاجتي إلى وفائها. وحتى إذا استطاع عقلي دون عقاب أن يشك أحياناً في ذلك، لم يكف خيالي لحظة عن تصوره. وبطريقة غريزية لمست بيدي عنقي وشفتيّ، وتصورت قبلها عليها بعد رحيلها، تلك القبل التي لن تعود. وضعت يدي عليها، كما لامستني أمي بعد موت جدتي وقالت لي: «ياصغيري المسكين، جدتك التي كانت تحبك حباً جماً لن تقبّلك من بعد». وانتزعت من قلبي كل حياتي في المستقبل. حياتي في المستقبل؟ ألم أفكر أحياناً بأن أعيشها بدون البيرتين؟ كلا! منذ أمد طويل، وهبتها كل دقائق حياتي حتى مماتي؟[1] هذا بالتأكيد! إن هذا المستقبل اللاصق بها لم أعرف كيف أدركه، ولكنه بعد أن تلاشى الآن، شعرت بالمكان الذي كان يحتله في قلبي المجروح. وعندما دخلت «فرانسواز» إلى غرفتي، ولم تكن بعد تعلم شيئاً، صرخت في وجهها بغضب: «ماذا تريدين؟» (هناك أحياناً كلمات تجعل الواقع يتغير في المكان المجاور لنا، فتصم آذاننا وتصيبنا بالدوار: «ليس عليك ياسيدي أن تغضب. بالعكس ستكون مسروراً جداً. هاتان هما رسالتان من الآنسة البيرتين».

وبعدها شعرت بأن لي عيني رجل فقد توازنه العقلي. فلم أكن سعيداً ولاغير مصدق. كنت كرجل يرى المكان ذاته في غرفته تحتله كنبة ومغارة. لاشيء يبدو له أكثر واقعية، فيسقط أرضاً. لقد كتبت رسالتا البيرتين قبيل نزهة الموت. تقول الرسالة الأولى:

«ياصديقي أشكرك على دليل ثقتك التي توليني إياها عندما تقول إنك تنوي استقدام أندريه (Andrée) إلى بيتك. إنني متأكدة أنها ستقبل بكل سرور وأظن أن ذلك سيُسعدها. ولأنها ذكية، فستعرف الاستفادة من رفقة رجل مثلك ومن التأثير الرائع الذي تعرف كيف تمارسه على الشخص. أظن أنها

---

[1] آثر بروست أن يضع لهذه الجملة الإخبارية نقطة استفهام (المترجم).

فكرة جيدة ستجلب الخير لها ولك. وإذا تعرضتَ لأدنى صعوبة معها (وهذا لاأعتقد حدوثه)، تلفن لي، وأنا أتكفل بالتأثير فيها».

وكانت الرسالة الثانية مؤرخة بعد الأولى بيوم. في الواقع لقد كتبتهما في لحظات متقاربة، وربما معا، وسبّقت تاريخ الرسالة الأولى. وطيلة الوقت كنت أفكر في عبثية نواياها التي كانت ترغب في العودة إليّ، كما كنت أتصور رجلاً غير مغرض، رجلاً يفتقر إلى الخيال، كمفاوض في معاهدة سلام أو كتاجر يبحث في إحدى الصفقات، يستطيع أن يحكم أفضل مني. لم تكن الرسالة تحتوي إلا على هذه الكلمات:

«هل تأخر الوقت لأعود إليك؟ إذا لم تكتب بعد إلى أندريه أترضى باستعادتي؟ إنني رهن قرارك، أرجوك ألا تتأخر في إعلامي، فكر في أنني أنتظر جوابك بفارغ الصبر. وإذا كان الجواب بالعودة فإنني استقل القطار فوراً. المخلصة لك من كل قلبي. البيرتين».

لكي يستطيع موت البيرتين أن يزيل آلامي، توجب على الصدمة أن تقتلها ليس في «التورين» فقط، وإنما فيّ. فلم تكن قط أكثر حياة فيّ. لكي يدخل فينا كائن بشري معين يجب أن يأخذ شكلا وأن يخضع لإطار الزمن. ولأنه لايظهر لنا إلا خلال بعض الدقائق، فإنه لم يظهر لنا إلا ملمحاً وحيداً من ملامحه ولايسرّب لنا إلا صورة وحيدة عنه. والضعف الكبير لهذا الكائن البشري هو أنه أصبح مجرد مجموعة من اللحظات؛ وفي ذلك تكمن قوته أيضاً. يرتهن بالذاكرة، وذاكرة اللحظة لاتعلم بكل ماحدث بعدها؛ فاللحظة التي سجلتها مازالت موجودة وحية، ومازالت تحمل في طيّاتها ذلك الكائن. ومن ثم فإن هذا التفتت لايجعل الميتة تبعث من بين الأموات، لأنه يضاعف صورتها. وعندما توصلت إلى احتمال الحزن على رحيل هذه، قلت يجب أن أكرر مع أخرى، ومع مئة أخرى.

عندها تغيرت حياتي تغيراً كاملاً. وماجعلها عذبة عندما كنت وحدي، لم يكن بسبب البيرتين، وإنما موازاة لها، هو، عند تداعيات اللحظات المتطابقة، بسبب الانبعاث المستمر للحظات قديمة. وبفضل صوت المطر تناءت إليّ رائحة زيزفون «كومبري»، وبفضل تحرك الشمس على الشرفة ظهرت حمائم «الشانزليزيه»، وبفضل الأصوات الصماء في الصباح الدافئ

بلغتني نضارة الكرز؛ ورغبت في «بريتانيا» أو في «البندقية» بفضل صوت الريح وعودة الفصح. وبدأ الصيف وصار النهار طويلا والطقس حارا. وكان زمن يخرج فيه الطلاب والمعلمون أثناء الضحى إلى الحدائق العامة ليحضروا المسابقات الأخيرة تحت الأشجار، وكانوا يتلقون نقطة البرودة الوحيدة التي تنزلها سماء أقل التهابا من قيظ النهار، ولكن هذه السماء على عمقها صافية. ومن غرفتي المظلمة، وبقدرة على الاستحضار تضاهي ماكانت عليه في الماضي، مع أنها لم تعطني من بعد إلا الألم، شعرت، مع وطأة الريح، أن الشمس الغاربة في الخارج كانت تشلح على شاقولية البيوت والكنائس طلاء وحشيا. وإذا «فرانسواز» خربت، أثناء عودتها ودون إرادتها، طيات الستائر الكبرى، كتمت صوتا لتلك المزقة التي خلقها في للتو ذلك الشعاع الشمسي القديم الذي أراني جمال الواجهة الجديدة لـ«بريكفيل لورغيوز» (Bricqueville L'Orgueilleuse)، عندما قالت لي البيرتين: «لقد رمموها». ودون أن أعلم كيف أعرب عن حسرتي لـ«فرانسواز»، قلت لها: «إنني عطشان». فخرجت ثم عادت، أما أنا فتحركت بعنف، تحت القصف المؤلم لواحدة من الذكريات اللامرئية الألف التي كانت تتفجر حولي في الظل في كل لحظة؛ ولاحظت أنها أتت بشيء من خمر التفاح (cidre) والكرز، وكان أحد غلمان المزرعة قد وضعهما في العربة في «بالبيك»، وهما نوعان كنت أستطيع سابقا بفضلهما أن أقربن افضل القرابين مع قوس قزح غرف الطعام المظلمة أثناء حر النهار. وللمرة الأولى فكرت في مزرعة «الايكور» (Ecorres)، وقلت لنفسي: في بعض الأيام عندما كانت البيرتين تقول لي في «بالبيك» إنها مشغولة ومضطرة للخروج مع عمتها، ربما كانت مع إحدى صديقاتها في مزرعة من المزارع تعرف فيها أنني هنا بدون عاداتي، وبينما كنت بالصدفة انتظر في شارع «ماري أنطوانيت» قيل لي: «لم نشاهدها اليوم»، وكانت تستعمل مع صديقاتها نفس الكلمات التي استعملتها معي عندما كنا نخرج معا : لن يخطر على باله أن يبحث عنا هنا وهكذا فلن يضايقنا». وقلت لفرانسواز أن تسدل الستائر كي لاأرى من بعد هذا الشعاع الشمسي. ولكنه بقي يتسرب بشكله الهدام إلى ذاكرتي كما من قبل. «إنها لا تعجبني، لقد رممت، ولكننا سنذهب غدا إلى «سان مارتان لوفيتو» (Saint-Martin le Vêtu)، وبعد غد إلى..» الغد وبعد الغد، كان هذا مستقبل حياة مشتركة يبدأ، وربما

سيبقى إلى الأبد؛ وقفز قلبي نحوه، ولكن هذا المستقبل اندثر، لأن البيرتين ماتت.

سألت «فرانسواز» عن الساعة. الساعة السادسة. وأخيرا، ولله الحمد، سينحسر هذا الحر الثقيل الذي كنت أتبرم منه أمام البيرتين، وكنا نحب انحساره جدا. وقارب النهار على نهايته. ولكنني ماذا استفدت منه؟ وارتفعت برودة المساء بعد مغيب الشمس؛ اذكر أنني، في نهاية طريق كنا نسلكه معا للعودة، شاهدت، بعد آخر قرية، شيئا يشبه محطة نائية لانستطيع الوصول إليها في مساء ذلك اليوم الذي وصلنا فيه إلى «بالبيك»، وكنا دائما معا. معا إذن، الآن يجب أن نتوقف تماما أمام هذه الهاوية نفسها، فقد ملتت. ولم يعد يكفي أن أسدل الستائر، فحاولت إغلاق عيني وأذني ذاكرتي، كي لا أرى ثانية هذا الشريط البرتقالي للغروب، وكي لاأسمع تلك العصافير اللامرئية التي تتجاوب من شجرة إلى أخرى في كل ناحية من أنحائي التي كانت تقبلها عندئذ بحنان شديد تلك التي أصبحت الآن ميتة. وحاولت تجنب تلك المشاعر التي تبعثها رطوبة الأوراق في المساء وصعود ونزول الطرق المحدبة. ولكن تلك المشاعر قد استحوذت علي وأبعدتني عن اللحظة الراهنة، كي تتوفر المسافة والحمية الضرورية لتضرباني من جديد. لن أدخل من بعد إلى غابة، ولن أتنزه من بعد بين أشجار. ولكن هل ستكون السهول الواسعة أقل ضراوة؟ ولكي أذهب لآتي بالبيرتين، كم من مرة قطعت السهل الكبير لـ«كريكفيل» (Cricqueville) واجتزته معها، وأحيانا في ساعات ضبابية حيث كان تدفق الضباب يوهمنا بأننا محاطان ببحيرة شاسعة، وأحيانا في الأماسي الصافية حيث كان ضوء القمر، بتغييره مادة الأرض وبإظهارها على خطوتين من السماء – علما بأنها أثناء النهار متباعدة الآفاق– يحبس الحقول والغابات بزرقة السماء التي أدمجها فيها، وذلك في عقيق مشجر لسماء واحدة!

لابد أن تكون «فرانسواز» سعيدة لموت البيرتين، وللإنصاف فإنها لم تكن تخفي حزنها بشيء من المسايرة والمشاعرة. ولكن أعراف ناموسها القديم وتراثها كفلاحة قروسطية تبكي كما في السير الشعبية، كانت أقدم من حقدها على البيرتين وحتى على «أولالي» (Eulalie). وذات يوم في الأصيل، بينما لم استطع بالسرعة الكافية أن أخفي ألمي، رأت دموعي؛ وبغريزة

الفلاحة الصغيرة السابقة وظفت هذا الألم، لأنها في الماضي كانت تقيد الحيوانات وتعذبها، وتشعر بالغبطة عندما تخنق الدجاج وتشوي سرطان البحر حيا؛ وعندما كنت مريضا كانت تراقب وجهي الكالح -كما كانت تراقب الجروح التي سببتها لإحدى البومات- ومن ثم كانت تعلن ذلك بنبرة جنائزية وترى فيه نذير شؤم. ولكن ماألفته من «كومبري» لم يكن يسمح لها بأن تبكي أو أن تحزن بسهولة، وهما أمران كانت تراهما مشؤومين شؤم من ينزع ثيابه الداخلية أو من يأكل كرها. «آه ياسيدي، لا، لاتبك هكذا، فستضر صحتك!». وبرغبتها في إيقاف دموعي، كانت على جانب من القلق كما لو أن الدموع دم يتدفق. ولسوء الحظ أخذت موقفا باردا من العواطف التي أملت التعبير عنها، وقد تكون في المحصلة عواطف صادقة. وكانت تنظر إلى البيرتين كما إلى «أولالي»، والآن بعد أن صار يستحيل على صديقتي أن تستفيد مني، كفت «فرانسواز» عن كرهها. وأصرت مع ذلك على ملاحظتها دموعي وعلى أنني لم أشأ إظهارها، أسوة فقط بمثال عائلتي المشؤوم. وقالت لي بنبرة أهدأ: «ياسيدي، يجب ألا تبكي»، وذلك لتظهر لي بالأحرى حصافتها وليس لتعبر عن شفقتها. وأضافت: «كان ذلك متوقعا، لقد كانت المسكينة في منتهى السعادة، ولكنها لم تعرف كيف تدرك تلك السعادة».

ما أبطأ موت النهار في هذه المساءات الصيفية المفرطة! فطويلا استمر طيف شاحب للبيت المقابل في تلوين السماء بلون أبيض ملحاح. وأخيرا خيم الليل في البيت فتعثرت بقطع الأثاث الموجودة في غرفة الانتظار؛ أما في باب الدرج ووسط السواد الذي ظننته كاملا كان القسم الزجاجي شفيفا وأزرق بزرقة الزهور أو بزرقة جناح حشرة، أو بزرقة بدت لي جميلة لو لم أشعر بأنها الانعكاس الأخير والقاطع كالفولاذ، فكانت الضربة القاصمة التي مازالت تحمل إلي النور بضراوتها الجلدة.

بيد أن الظلمة الكاملة مابرحت أن سادت، ولكن كان يكفي عندئذ أن أرى نجمة قرب شجرة الفناء حتى أتذكر نزهاتنا بالسيارة بعد العشاء في غابات «شانتيبي» (Chantepie) التي كان يرصعها ضوء القمر. وحتى في الشوارع كان يحدث لي أن أعزل على ظهر أحد المقاعد وأن أجمع الصفاء الطبيعي لضوء من أضواء القمر وسط الأنوار الاصطناعية في باريس، فيدمج لخيالي المدينة بالطبيعة ولو للحظة، ورواح هذا الضوء -مع الصمت

اللامتناهي للحقول المذكورة- يدفع الذكرى الأليمة للنزهات التي عملتها في باريس مع البيرتين لتسيطر على المدينة. آه، متى ينتهي الليل؟ ولكنني كنت أرتجف من برودة الفجر لأنها بعثت في لطافة ذلك الصيف بين «بالبيك» و«أنكارفيل» التي كنا منها واليها يرافق واحدنا الآخر مرارا عديدة حتى تباشير الصباح. لم يعد لدي إلا أمل وحيد للمستقبل -أمل يمزقني كالخوف- وهو أن أنسى البيرتين. كنت أعلم أنني سأنساها ذات يوم، فقد نسيت فعلا كلا من «جيلبيرت»و«مدام دي غيرمانت»، وكذلك نسيت جدتي. وفي النسيان الكامل يكمن العقاب الأكثر عدلا وضراوة، إنه نسيان شبيه بنسيان المقابر وبه ننفصل عن أولئك الذين لم نعد نحبهم، ونرى أن هذه النسيان نفسه لامناص منه إزاء الذين مازلنا نحبهم. والحق يقال، إنه حالة غير أليمة، حالة من اللامبالاة، وهذا مانعلمه. ولأنني لم أعد أقوى على التفكير في أية حالة أنا وإلى أية حالة سأصير، استذكرت بيأس كل تلك الغلالة من اللمسات والقبل والأوسان الحنونة التي يتوجب علي سريعا التخلص منها إلى الأبد. إن زخم هذه الذكريات الرقيقة جدا، عندما جاء لينكسر على فكرة موتها كان يسحقني بتصادم أشكال مده المتباينة بحيث لم أستطع البقاء جامدا؛ فقمت، وفجأة توقفت صريعا؛ فهذا الضوء الصغير نفسه الذي كنت أراه عندما تركت البيرتين لتوي، وأنا مازلت مشرقا وساخنا بفعل قبلاتها، أتى ليستل من فوق الستائر نصله المشؤوم الذي كأنه يطعنني ببياضه البارد الشرس الكثيف.

وعما قريب ستبدأ أصوات الشارع، فتتيح لي أن أقرأ بسلم وقعها الكيفي مدى الحرارة المتفاقمة من حيث تنطلق. ولكن في هذه الحرارة التي تشربت قبل ساعات برائحة الكرز، ما وجدته (كما في الدواء عندما نستبدل أحد مكوناته بمكون آخر، يكون ذلك كافيا لكي يتحول من دواء مثير وحافز للنشوة كما صمم إلى دواء يسبب انهيار الأعصاب)، لم يعد الرغبة في النساء وإنما القلق بسبب رحيل البيرتين. وكانت ذكرى جميع شهواتي تعبها وتعب الألم كما تعب ذكرى المتع. إن مدينة البندقية التي ظننت فيها أن وجودها سيكدرني (لأنني لخجلي كنت أشعر بأن وجودها فيها كان ضروريا لي)،أفضل الآن ألا أذهب إليها، بعد أن رحلت البيرتين. لقد بدا لي أن البيرتين حاجز وضع بيني وبين الأشياء كلها، فقد كانت بالنسبة لي تحتويها جميعها وأنني أستطيع بها، كما بإناء، أن أمتلكها. والآن بعد أن تهدم هذا

الإناء شعرت بأنني لم أعد أتجرأ على لمس هذه الأشياء، ولم يعد شيء إلا وتنكبت له أسى، مفضلا ألا أذوق منه. وهكذا لم يكن فراقها يفتح إطلاقا أمامي مجال المتع الممكنة التي ظننت أن وجودها قد استغلقها علي. قد يكون وجودها فعلا قد حال دون سفري ودون التمتع بالحياة، فكان حاجزا قد حجب عني باقي الحواجز التي ظهرت كما هي الآن بعد أن زال. وهكذا كنت في التالي لا أعمل أكثر، إن بقيت وحدي. عندما يرينا المرض والمبارزة والحصان الجامح الموت عن كثب، نكون قد تمتعنا غزيرا بالحياة وباللذة وبزيارة البلدان المجهولة التي سنحرم منها. وبعد أن يمر الخطر، ما نجده من جديد هو الحياة الكئيبة نفسها التي لم تعرف أيا من هذه الأشياء.

لاجرم أن هذه الليالي المقتضبة لاتدوم طويلا. فلا يعتم الشتاء أن يعود، لن أخشى عندئذ ذكرى النزهات معها حتى الفجر المبكر جدا. ولكن ألن يؤمن لي الصقيع الأول، إذا بقيت حيا في جليده، نواة رغباتي الأولى عندما بحثت في منتصف الليل عنها، بعد أن بدا لي الوقت طويلا جدا حتى رنين جرسها، ذلك الجرس الذي أستطيع الآن أن انتظره إلى الأبد سدى؟ ألم يجلب لي هذا الصقيع سورات قلقي الأولى، عندما ولمرتين ظننت أنها لن تعود؟ في ذلك الوقت، لم أكن أراها إلا نادرا؛ ولكن حتى تلك الفواصل القائمة آنذاك بين زياراتها، التي كانت تبرز لي البيرتين فجأة ، بعد أسابيع عديدة، من رحم حياة مجهولة لم أحاول تملكها، ضمنت هدوئي فمنعت غيرتي المتذبذة دائما من أن تتراكم في قلبي وتشتد. ومع أن هذه الفواصل كانت تهدئني في تلك الأيام، إلا أنها أيضا كانت مشوبة بالألم منذ ماكانت تفعله وأجهله قد كف عن أن يكون محايدا بالنسبة لي، لاسيما الآن بعد انعدام كل زيارة لها. وهكذا كانت مساءات كانون الثاني هذه عندما تأتي، على رقتها العظيمة، تنفخ في الآن بهوائها البارد قلقا لم أعرفه، وتعيد إلي في تضاعيف صقيعها النواة الأولى لحبي الذي أصبح خبيثا. وعندما فكرت في أنني سأرى عودة هذا الزمن البارد، منذ «جيلبيرت» وألعابي في «الشانزليزيه»، بدا لي ذلك دائما في غاية الكآبة؛ وعندما فكرت في أن مساءات مشابهة كهذا المساء قد تعود، وهو مساء ثلجي انتظرت فيه البيرتين مدة طويلة من الليل، وكنت فيه كمريض يحرك جسديا صدره، وماكنت أخشاه معنويا في ذلك الوقت -ماأخشاه أكثر من غيره، على حزني وعلى

قلبي- هو عودة البرد القارس، وكنت أقول لنفسي إن أشق ما أقاسيه هو الشتاء ربما.

كانت ذكرى البيرتين مرتبطة بجميع الفصول، ولكي أتمكن من التخلص منها، توجب علي أن أنساها جميعها، عساني أعود فأعرفها، كأني عجوز أصيب بالفالج وبدأ يتعلم القراءة ثانية؛ فكان ينبغي علي أن أتجرد من الكون بأسره. وقلت لنفسي: إن موتي الحقيقي وحده قد يكون قادرا (وهذا مستحيل) أن يعزيني بموتها. لم أفكر في أن موت الذات ليس مستحيلا أو خارقا، لأننا يوميا نستهلك هذا الموت، دون أن ندري، ونستهلكه كرها إذا لزم الأمر. وسأعاني من تكرار هذه النهارات جميعها التي لا تدخلها الطبيعة إلى فصل السنة فحسب، بل الظروف المصطنعة والنظام المألوف. عما قريب يحين تاريخ ذهابي إلى «بالبيك» خلال الصيف الماضي، وفيه سيكون على حبي -الذي لم ينفصل وقتئذ عن الغيرة والذي لم يكن يقلق مما تفعله البيرتين طيلة نهارها- أن يتعرض لتطورات كثيرة، قبل أن يصبح ذلك الحب المختلف جدا الذي عرفته في الآونة الأخيرة؛ ففي هذه السنة الأخيرة التي بدأ فيها مصير البيرتين يتغير وانتهى، بدت لي مليئة ومختلفة وشاسعة كقرن من الزمن. ثم جاءت ذكرى أيام تلت، ولكن في سنوات سابقة، ذكرى أيام الأحد المكفهرة التي يخرج فيها الجميع أثناء الأصيل الفارغ ويدعوني فيه صوت الريح والمطر إلى البقاء في بيتي والى تقليد «فلاسفة الداخل»؛ أتذكر بأي قلق لاحظت دنو الساعة التي أتت فيها البيرتين لتراني، مع أنني لم أكن انتظر تلك الساعة، فداعبتني للمرة الأولى وتوقفت عن المداعبة عندما أتت «فرانسواز» حاملة الفانوس، في ذلك الوقت الذي مات مرتين، إذ كانت البيرتين فضولية نحوي، وإذ كان حناني لها يستطيع أن يتحمل عن حق كثيرا من الأمل! وحتى في الفصول السنوية الأكثر تقدما، كانت تلك المساءات المجيدة التي تفتح فيها المحلات والمدارس الداخلية كأنها كنائس يتخللها غبار مذهب، تكلل الشارع بأنصاف الآلهات اللواتي يتحادثن مع زميلاتهن ويخلقن لدينا حمى الولوج في عالمهن الأسطوري؛ ولم تذكرني تلك المساءات إلا بحنان البيرتين الذي كان، لوجودها قربي، يمنعني من الاقتراب منهن.

وحتى عندما نتذكر الساعات الطبيعية تماما، فإننا نضيف إليها بالضرورة المشهد الأخلاقي الذي يجعلها شيئا فريدا. ولما سأسمع لاحقا بوق

المعاز، في أول نهار صحو بصوته الإيطالي نوعا ما، سيخلط النهار نفسه في ضوئه قلقا مفاده أن البيرتين هي في «التروكاديرو»[1] وربما مع صديقتها «ليا» (Léa) والفتاتين، وتعقب ذلك رقة عائلية ومنزلية كرقة زوجة بدت لي عندئذ مربكة وراحت «فرانسواز» لتعيدها إلي. في تلك المكالمة الهاتفية نقلت لي «فرانسواز» احترام وطاعة البيرتين التي عادت معها، فظننت أن ذلك يرفع من شأني. ولكنني أخطأت. فإن أثملني الأمر، فلأنه أشعرني بأن التي كنت أحبها هي لي، وبأنها لاتحيا إلا لي ولو عن بعد، دون أن أحتاج للاهتمام بها، فأعتبر نفسي كأنني زوجها وسيدها، وأنها تعود بإشارة مني. وهكذا كانت هذه المكالمة الهاتفية نفحة من الرقة أتت من بعيد، من حي «التروكاديرو» الذي وفر لي منابع سعادة، إذ وجه نحوي كائنات ملطفة وعطورا مهدئة، وأعاد لي حرية فكرية رائعة كنت قد افتقرت إليها – فاستسلمت لموسيقى فاغنر دون أي هم- وانتظرت وصول البيرتين المؤكد دون تحرق ونفاد صبر قد يجعلانني لأدرك السعادة. أما سبب السعادة لعودتها وطاعتها لي وامتلاكها فلم يكن الغرور وإنما الحب. فسيان الآن أن تمتثل لأوامري خمسون امرأة يعدن بإشارة مني لا من «التروكاديرو» بل من الهند. ولكنني في ذلك اليوم، بينما كنت وحدي في غرفتي أعزف الموسيقى، شعرت بالبيرتين تتقدم نحوي بخضوع، فتنفست رائحة طيبت نفسي، كتلك الروائح المخلصة للجسد، انتشرت كغبار في أشعة الشمس. ثم بعد نصف ساعة وصلت البيرتين فتنزهنا معا، وظننت أن هذا الوصول وتلك النزهة معها سيكونان بالتأكيد مملين لأنهما بسبب هذا اليقين بالذات –منذ أن اتصلت «فرانسواز» قائلة إنها أعادتها –أسبغا على الساعات التي تلت هدوءا ذهبيا، وجعلا ذلك النهار شديد الاختلاف عن النهار الأول إذ انطوى على خلفية أخلاقية مختلفة، خلفية أخلاقية جعلت منه نهارا فريدا انضاف إلى شتى النهارات التي عرفتها حتى الآن ولم أتصورها قط. وهكذا لانستطيع أن نتصور استراحة يوم صيفي إذا انعدمت مثل تلك الأيام في سلسلة الأيام التي عشناها؛ فكان نهارا لاأستطيع القول قطعا إنني أتذكره، لأن شيئا من الألم انضاف الآن إلى هذا الهدوء، ولم أشعر به عندئذ. ولكنني فيما بعد، عندما اجتزت تدريجيا تلك الأوقات التي عشتها قبل أن أحب البيرتين، عندما

---

[1] – مكان معروف في باريس (م).

استطاع قلبي الملتئم من جراحه أن ينفصل دون ألم عن البيرتين الميتة، وعندما تذكرت أخيراً ذلك اليوم الذي خرجت فيه البيرتين مع «فرانسواز» يتسوقان بدل أن يبقيا في «التروكاديرو»، طاب لي عندئذ أن أتذكر ذلك اليوم المنتمي إلى فصل أخلاقي لم يسبق لي أن عرفته حتئذ؛ تذكرته أخيراً بدقة دون أن أضيف إليه أشجاناً، بل بالعكس، تذكرته كما يتذكر المرء بعض الأيام الصيفية التي وجدها حارة عندما عاشها، ثم استخرج لاحقاً فقط عنوانها دون طليها بالذهب الثابت وبالزرقة التي لاتمحى.

وهكذا فإن هذه السنين القليلة لم تفرض فقط على ذكرى البيرتين الأليمة جدا الألوان المتتالية، والإجراءات المختلفة، ورماد فصولها وساعاتها، وأصائل شهر حزيران ذي المساءات الشتائية، وأضواء قمرية تلتمع على سطح البحر في الفجر عند العودة إلى البيت، وشيئا من ثلج باريس ووصولا إلى الأوراق الميتة في «سان كلو»، بل كانت تفرض علي أيضا الصور الخاصة التي كونتها لألبيرتين تباعا، وشكلها الجسمي الذي كنت أتصوره في كل من هذه الأوقات، والتواتر الكبير نسبيا الذي معه كنت أراها خلال هذا الفصل فيبدو مشتتا أو متكاثفا، والهواجس التي تمكنت من خلقها لي بسبب الانتظار، والفتنة التي كانت تمارسها علي أحيانا، والآمال المعقودة ثم الضائعة؛ كان كل هذا يعدل من صورة حزني الاستعادي كما يعدل الانطباعات الضوئية والعطرية التي ارتبطت به، ويكمل كل السنين الشمسية التي عشتها والتي كانت -بربيعها وخريفها وشتائها- كئيبة جدا بسبب ذكراها التي لم تنقطع، تضاعفها بشيء يشبه السنة العاطفية التي لاتتحدد فيها الساعات بناء على موقع الشمس وإنما بانتظار موعد من المواعيد؛ وفيها كان طول النهار وتفاوت درجة الحرارة يحسبان بناء على انطلاق آمالي، وتقدم علاقتنا الحميمية والتحول التدريجي لوجهها، وتواتر وأسلوب الرسائل التي بعثتها لي أثناء غيابها، وهروعها لرؤيتي بعد العودة. وأخيرا، لو كانت تغيرات الفصول وتباينات الأيام تعيد لي البيرتين أخرى، لما حصل ذلك بذكر الأزمنة المشابهة. ولكنني أتذكر دائما أنني قبل أن أحب، كانت كل امرأة تجعل مني رجلا مختلفا ذا رغبات أخرى لأنه كان ينظر إلى الأشياء بشكل مختلف، ولأنه لم يحلم قبل يوم بالعواصف والوهاد -إذ بعث النهار الربيعي الفاضح رائحة وردية لسياج نومه الموارب- فإنه استيقظ ليسافر إلى

إيطاليا. وحتى في حبّه، ألم تخفف الحالة المتغيرة لجوّي المعنوي والضغط المتعدّل لاعتقاداتي ذات يوم ألم تخفف من رؤية حبي الخاص؟ ألم توسعها في يوم آخر، يوم تجمّل حتى الابتسام، يوم متوتر حتى العاصفة؟ قيمة الإنسان في مايملكه، ولايملك الإنسان ماهو موجود فعلاً؛ وما أكثر ذكرياتنا وألوان مزاجنا وأفكارنا التي تذهب في أسفار بعيدة عنا، فتضيع عنا. فلا نعود نستطيع عندئذ أن ندخلها في حسابنا داخل هذا المجموع المتمثل بكياننا. ولكن لها طرقاً سرية لتعود وتدخل فينا. فذات مساء، بعد أن نمت دون التحسر على البيرتين -إذ لايستطيع المرء التحسر إلا على مايتذكره- وجدت، عندما استيقظت، حشداً من الذكريات تقاطعت فيّ وفي أصفى وعيي وميّزتها بدقة شديدة. عندئذ بكيت مارأيته بصفاء، علماً بأن مارأيته قبل يوم لم يكن إلا عدماً. إن اسم البيرتين وموتها قد تغيّر معناهما؛ وفجأة استعادت خياناتها أهميتها.

كيف تراءت لي ميتة؟ لا تتوفر لي الآن، عندما أفكر فيها، إلا الصور ذاتها التي كنت أرى منها هذه الصورة أو تلك، لمّا كانت على قيد الحياة. وتناوباً رأيتها تنحني فوق دراجتها وتسرع، وكانت كما في أيام المطر تمرّ كالبرق على عجلتها الأسطورية، أو أراها في الأماسي- بعد أن حملنا الشامبانيا إلى غابات «شانتيبي» (Chantepie) تتكلم باستفزاز وهي تحمل الأغراض وتشعر بذاك الحر الممتقع الذي كان يحمّر فقط وجنتيها، فلا أميزها تماماً في عتمة السيارة، فأقترب من ضوء القمر؛ والآن أحاول عبثاً أن أتذكر وأستعيد الرؤية في العتمة التي قد لاتنتهي. وهكذا ماتوجب عليّ أن ألغيه في ذاتي، ليس البيرتين واحدة، وانما البيرتينات عديدة. واحدة منهن كانت مرتبطة ببرهة فأجد نفسي أمام تاريخها وكأنني أغير مكاني عندما كنت أعاود رؤية البيرتين. فليست أوقات الماضي هذه أوقاتاً لاتتحرك؛ ففي ذاكرتنا تحافظ على الحركة التي تشدها نحو المستقبل -المستقبل الذي أصبح هو نفسه ماضياً- فيجذبنا إليه. لم يحصل قط أن داعبت البيرتين المتدثرة بالمطاط أيام المطر، فأردت أن أطلب منها أن تخلع شكتها لاعرف معها حب المخيمات وصداقة السفر. ولكن لم يعد الأمر ممكناً لأنها ماتت. وخشية أن أفسدها، لم أحاول أيضاً قط أن افهم كيف أنها في تلك المساءات التي بدت فيها وكأنها تقدم لي متعاً تثير فيّ الآن رغبات هائجة، ولولا ذلك لطلبت ربما

هذه المتع من الآخرين. وقد لاأشعر بمثلها لدى الآخرين، لأنني لو جُبتُ العالم بأسره، لما توفر لي مثيلها لدى شخص آخر، ولكن البيرتين ماتت. ويبدو أنه كان عليّ أن أختار بين حدثين، وأقرر ماهو الصحيح بينهما، ذلك أن موت البيرتين- الذي وافاني من حقيقة لم أعرفها، وهي حياتها في «التورين»- كان يتناقض مع جميع الأفكار المتعلقة بها وبرغباتي وأنواع ندمي وتحناني وهياجي وغيرتي. إن مثل هذه الذكريات المقتبسة من سجل حياتها، وإن مثلِ هذه الوفرة في العواطف المرتبطة بحياتها، كانت وكأنها تجعل موتِها أمراً لايصدق. فذاكرتي التي أبقت عاطفتي تركت لمثل هذه الوفرة كل تنوعها. ولم يتعلق الإمر فقط بالبيرتين وحدها، التي شكلت سلسلة من اللحظات، بل تعلق بي أيضاً. لم يكن حبي لها بسيطاً، فإلى جانب الفضول الذي يريد معرفة المجهول انضافت رغبةٍ حسية، وشعور بألم يكاد أن يكون عائلياً، إذ قام تارة على اللامبالاة وطوراً على الغيرة الهائجة. لم أكن رجلاً واحداً، بل كنت جيشاً من الإخلاص يقدم عرضه، وفيه المتيّمون واللامبالون والغيورون- وهؤلاء لايمارسون غيرتهم من المرأة نفسها. وقد نجم عن هذا شفائي الذي لاأتمناه. في وسط الجمهور، قد نستبدل العناصر ببعضها دون أن نحس، أو قدِ نلغي بعضها، بحيث يتحقق لنا في الأخير تغيير لانستطيع إدراكه إذا كنا فرداً واحداً. فقد كان حبي المعقد وشخصي المعقد يفاقمان آلامي وينوّعانها. ومع ذلك قد يندرجان دائماً في مجموعتين تناولتا حياة حبي كلها لألبيرتين، وهما الثقة والاشتباه الغيور.

إن صَعُبَ عليّ التفكير في أن البيرتين، الحية جداً فيّ (أنا الذي أحمل سرجي الحاضر والماضي)، قد ماتت، فقد يتناقض هذا مع الاشتباه بخطايا البيرتين التي فقدت اليوم ذلك الجسد الذي أمتعها، وتلك الروح التي كانت تشتهيها، فلم تعد قادرة ولامسؤولة عنها؛ هذا أثار فيّ ألماً عميقاً كنت لأباركه لو تمكنت أن أرى فيه عربون الواقع الأخلاقي لدى شخص غير موجود مادياً، بدل أن أرى فيه انعكاساً ـ كتِبَ له أن يتلاشى- لانطباعات خلقتها عندي في الماضي. إن امرأة لم تعد تقوى على الشعور بالمتع مع الآخرين، من المفترض ألا تثير غيرتي، لو استطاع فقط حناني أن يتجلى. ولكن هذا كان مستحيلاً لأن هذه الغيرة لم تكن تستطيع بلوغ هدفها، وهو البيرتين، إلا عبر الذكريات التي كانت فيها حية. وبمجرد التفكير فيها، كنت أبعثها من بين

الأموات، فلا تصبح خياناتها خيانات امرأة ميتة، إذ تصير اللحظة التي ارتكبتَها فيها اللحظة الراهنة، ليس فقط لألبيرتين وانما لأنواتي التي تبزغ فجأة وتتأملها. وهكذا لم تستطع قط أية مفارقة زمنية أن تفصل بين الثنائي المتلازم الذي يخلف، بعد كل خبر مشين، غيورا رثاً وراهناً دائما. وخلال الأشهر الأخيرة، سجنتها في بيتي. ولكنّ البيرتين في خيالي الآن هي حرّة؛ لقد أساءت استعمال هذه الحرية، فكانت تتعهّر مع هذه وتلك. وفي الماضي كنت أفكر دون انقطاع في المستقبل الغامض المنفتح أمامنا، وكنت أحاول أن أقرأ فيه. والآن ماأراه أمامي صنوا للمستقبل (وهو مستقبل مربك لأنه غير أكيد ويصعب فك ألغازه، مستقبل غامض شديد الضراوة، إذ لم يتسنّ لي ولم أتصور أنني أفعل فيه، وإذ يجري طويلاً طول حياتي نفسها، دون أن تكون صديقتي هنا لتخفف من الآلام التي سببها لي)، لم يعد مستقبل البيرتين، بل ماضيَها. مستقبلها؟ بالقول الخاطئ، لأن لاماضي ولامستقبل للغيرة وماتتصوره هو دائما الحاضر.

إن تغيرات الجو تثير تغيرات أخرى داخل الإنسان وتوقظ أنوات منسية وتتباين مع غفوة العادة وتجدد قوى هذه الذكريات والآلام. وكم يذكرني هذا الجو الجديد بذلك الجو الذي ذهبت فيه البيرتين مثلاً تحت المطر المتوّعد في «بالبيك» لتقوم –والله أعلم– بنزهات طويلة تلبس فيها ثياباً لصيقة! لو عاشت إلى اليوم، فهل ستقوم في مثل هذا الجو برحلة مشابهة في «التورين»؟ بما أنها لاتستطيع ذلك من بعد، كان ينبغي عليّ ألا تؤلمني هذه الفكرة؛ ولكن، كما هو الحال بالنسبة للمبتورين، فإن أدنى تغيير في الجو كان يجدد آلامي في العضو المفقود.

عاودتني فجأة ذكرى لم أرها منذ أمد طويل، إذ بقيت مختفية في السائل اللامرئي المنتشر في ذاكرتي، وتبلورت . فمنذ سنوات بينما كنا نتكلم أنا والبيرتين عن لباس حمّامها، احمرّ وجهها. في ذلك الوقت لم أكن أشعر بالغيرة عليها. ولكنني بعد ذلك أردت أن أسألها إن تذكرت ذلك الحديث وقالت لي لماذا احمرّ وجهها. لقد اضطرب بالي لاسيما بعد أن قيل لي إن بنتين صديقتين لـ«ليا» كانتا تذهبان إلى ذلك المنتجع الاستجمامي التابع للفندق؛ ويُروى أنهما لم تكونا تذهبان الى هناك للاستحمام. وخوفاً من إغضاب البيرتين، أو بانتظار مناسبة أفضل، أجلت دائماً سؤالي لها، ثم غاب

عن بالي. وفجأة، بعيد موت البيرتين، لمحت هذه الذكرى، مشوبة بالاحتناق والأبهة اللذين نجدهما معا في الأحاجي التي بقيت دون حل بسبب موت صاحبها، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يميط اللثام عنها. ألا أستطيع على الأقل أن أحاول أن اعرف إن فعلت البيرتين الشر أو لم تفعل شيئا أو أنه اشتبه بها فقط في قسم الحمامات ذاك؟ إذا أرسلت شخصا إلى «بالبيك»، سأتوصل ربما إلى شيء. فلو بقيت على قيد الحياة، لما تمكنت من معرفة أي شيء على الأرجح. ولكن الألسنة تنطلق بغرابة وتروي بسهولة ارتكاب خطيئة، عندما لم تعد تخشى حقد مرتكبتها. وبما أن تشكيل الخيال الذي بقي بدائيا وساذجا (لأنه لم يجتز التحولات العديدة التي تعالج النماذج البدائية للاكتشافات البشرية التي يتعرف عليها المرء بالكاد، مثل البارميتر والكرة والهاتف، الخ.. في اكتمالاتها اللاحقة)، لايتيح لنا أن نرى في آن إلا بعض الأشياء، صارت ذكرى منتجع الحمامات يحتل حقل رؤيتي الداخلية كله.

وأحيانا كنت أصطدم، في شوارع النوم المظلمة، بحلم من تلك الأحلام السيئة دون أن تكون خطيرة في المقام الأول. ذلك أن الحزن الذي تسببه لايستمر الا ساعة بعد الاستيقاظ، كأنها من الانزعاجات الناجمة عن طريقة اصطناعية في التنويم؛ وفي المقام الثاني، لاتصادفنا هذه الأحلام إلا نادرا، أي مرة كل سنتين أو ثلاث. وليس من الأكيد أننا نصادفها -أو نسقط عليها بالأحرى وهما وتقطيعا (لأن التثنية لاتعبر تعبيرا كافيا). ولأن الشكوك كانت تخامرني حول حياة وموت البيرتين، كان يتعين علي منذ أمد طويل أن أقوم ببعض التحقيقات. ولكن التعب والجبن نفسهما اللذان دفعاني إلى الخضوع لألبيرتين عندما كانت هنا، حالا دون إقدامي على أي شيء منذ أن غابت عن ناظري. ومع ذلك يبزغ بريق حيوي من الوهن الذي انتابني لسنوات خلت. فقررت الإقدام على هذا التحقيق الجزئي على الأقل.

يخال المرء أن لاشيء آخر حدث في حياة البيرتين. وتساءلت عمن يستطيع أن يبدأ بالتحقيق الميداني في «بالبيك» وبدا لي أن اختيار «ايميه» (Aimé) هو اختيار حسن؛ فعلاوة على أنه يعرف الأماكن على أفضل وجه، فهو ينتمي إلى تلك الفئة من الناس الشعبيين الحريصين على مصالحهم والمخلصين لمخدوميهم واللامبالين بأي شكل من أشكال الأخلاق (لأنهم في طاعتهم إرادتنا- إن أجزلنا لهم الدفع- يبدون غير قادرين على إفشاء

الأسرار والتراخي وعدم النـزاهة، كما يبدون أيضاً عديمي الذمة)، فنقـول عنهم: «إنهم أناس طيبون»، ويمكن أن نثق بهم ثقة مطلقة. وعندمـا ذهـب «ايميه»، فكرت في أن ماسيحاول الاطلاع عليه هناك أستطيع أن أسأل الآن البيرتين عنه. وما إن فكرت في السؤال الذي اخترته وأردت طرحه عليها – وكانت البيرتين إلى جانبي، ليس بفضل مجهود إحيائي وإنما بفضل لقاء تـم صدفة، ويشبه الصور الضوئية التي التقطت بطريقة عفوية فتترك الإنسـان أكثر حيوية– حتى تصورت حديثنا وشعرت باستحالة الأمر. وكنت قد بـدأت أدرك، من زاويتي، أن البيرتين ماتت، وأن البيترين التي كانت تلهمني بتلـك العاطفة التي يكنها المرء للغائبات اللواتي لاتصحح رؤيتهن الصورة المجمّلة، وتلهمني أيضاً بأن حزني على ذلك الغياب هو حزن سرمدي، وبـأن الفتـاة المسكينة فقدت لذة الحياة إلى الأبد. وبنقلة مفاجئة عبرت فوراً مـن عـذاب الغيرة إلى يأس الفراق.

ما كان يملأ قلبي الآن، بدل الاشتباهات الحاقدة، كان الذكرى الرقيقة لساعات الحنان الواثق التي أمضيتها مع الأخت التي غيبني عنها فعلا مـوت البيرتين، لأن حزني لم يرتبط بمكانة البيرتين عندي، بل بما كـان قلبـي – التائق للمشاركة في الصبوات العشقية العامة جداً– قد أقنعني تدريجياً بـهذه المكانة؛ عندئذ أدركت أن هذه الحياة التي أسأمتني كثيراً (وهذا على الأقـل ماكنت أظنه) كانت على العكس لذيذة؛ وفي اللحظات القصيرة التي قضيناهـا معاً للتكلم عن أشياء لامعنى لها، أشعر الآن بلذة انضافت واندمجت ولم أحسّ بها في الحقيقة، بل جعلتني أبحث بمثابرة عن تلك اللحظات، دون غيرهـا. فكانت الأحداث الصغيرة جداً التي تذكرتها، كتلك الحركة التي فعلتها قربـي في السيارة أو جلوسها خلف الطاولة أمامي في غرفتها، تحرك فـي نفسـي العذوبة والحزن الذي راح يسيطر عليّ.

لم تظهر لي تلك الغرفة التي كنا نتعشى فيها جميلة، أقول فقط إنـها كانت كذا لالبيرتين بحيث تكون صديقتي كانت مسرورة للعيش فيها. أما الآن فقد كفت لامبالاة الستائر والمقاعد والكتب بالنسبة لي. فليس الفن وحده هـو الذي يزرع السحر والسر في الأشياء الأكثر تفاهة، لأن قدرة وضعـها فـي علاقة حميمة معنا منوط أيضاً بالألم. في ذلك الوقت بالذات، لـم أعـر أي اهتمام بذلك العشاء الذي عملناه معاً بعد العودة من الغابة، وقبل أن أذهب إلى

عائلة الـ«فيردوران» (Verdurin) والى الجمال والعذوبة الصارمة، وأعود الآن من هذه الزيارة وعيناي تغرورقان بالدموع. إن انطباع الحب لا يتناسب مع الانطباعات الأخرى للحياة، ولكن إدراك ذلك لايتم وسط تلك الانطباعات. فلا نستطيع من تحت، ووسط ضجة الشارع وضوضاء البيوت المتلاصقة أن نقدّر، في تأمل التوحد والمساء، علو إحدى الكاتدرائيات الفريد والمتسامق والصافي؛ ذلك أن المرء عندما يبتعد، يستطيع ذلك، من سفوح الرابية المجاورة، ومن مسافة اختفت فيها المدينة أو أنها لم تعد تشكل على مستوى الأرض إلا كومة غامضة من التراب. حاولت أن أقبّل صورة البيرتين عبر دموعي، مفكراً في جميع الأشياء الجدية والصادقة التي قالتها لي في ذلك المساء.

وذات صباح، ظننتني أرى الشكل المستطيل لإحدى الروابي وسط الضباب وأحس بحرارة فنجان الشوكولاتا، بينما كان قلبي ينقبض هائلاً لذكرى ذلك الأصيل الذي أتت فيه البيرتين لتراني وقبّلتها فيه للمرة الأولى، بعد أن سمعت هسهسة المدفأة المائية التي أشعلت للتو. ورميت بغضب دعوة قدمتها لي «فرانسواز» من «مدام فيردوران». فكم فرض الانطباع التالي الذي أحسست به عندما ذهبت للعشاء في «لاراسبيلبير» (La Raspelière) للمرة الأولى، وهو أن الموت لايضرب جميع البشر في العمر نفسه، كم فرض نفسه عليَّ، وبقوة الآن بعد أن ماتت البيرتين في عزّ شبابها، وبعد أن استمر «بريشو» (Brichot) يتعشى عند «مدام فيردوران» التي مازالت تستقبل أصدقاءها وستستقبلهم ربما لسنوات طويلة[1]! وماعتم اسم «بريشو» أن ذكرني بنهاية تلك الأمسية بعد أن أخذني بسيارته إلى بيتي فرأيت من تحت نور مصباح البيرتين. وسبق لي أن فكرت في الأمر مراراً، ولكنني لم أعالج هذه الذكرى من الزاوية نفسها. فإذا كانت ذكرياتنا تخصنا فعلاً، فإنها منوطة بتلك البيوت المتضمنة فتحات صغيرة خفية لانعرفها في الغالب ويفتحها لنا أحد الجيران، فندخل إليها من جهة لم يسبق لنا أن دخلناها منها. عندما فكرت في الفراغ الذي قد أجده الآن لدى عودتي إلى البيت، إذ إنني لن أرى غرفة البيرتين من تحت والتي انطفأ نورها إلى الأبد، فهمت في ذلك المساء، بعد

---

[1] كانت هذه السيدة تستقبل في دارها أعيان ومثقفي وفناني البلاد، ومن بينهم السيد «بريشو» الذي كان مختصاً بالحضارتين الإغريقية والبيزنطية والذي التقى به مارسيل بروست مراراً (م).

مغادرتي «بريشو»، كم ظهر لي مدى الملل والندم اللذين شعرت بهما، فلم يكن بوسعي الذهاب للتنزه ولمطارحة الحب في مكان آخر، وفهمت فداحة خطأي لأن الكنز الذي كان بريقه ينزل إليّ والذي ظننتني أملكه بالتأكيد أهملت أن أحسب قيمته إذ تهيأ لي أنه أدنى من المتع التي، على صغرها، كنت أسعى إلى تخيلها فأقدرها. وأدركت أن تلك الحياة التي عشتها في باريس في بيتي الذي كان بيتها، قد حققت فعلاً تلك الطمأنينة العميقة التي حلمت بها والتي ظننتها ممكنة في ذلك المساء الذي نمنا فيه تحت السقف نفسه في فندق «بالبيك» الكبير.

قبل تلك السهرة الأخيرة عند «الفيردوران»، لم أجد عزاءً في نفسي للحديث الذي تجاذبت أطرافه مع البيرتين عند رجوعنا من الغابة، وهو حديث ربط البيرتين بحياة عقلي وجعلتنا في بعض أجزائه متماثلين. قد يكون ذكاؤها ولطفها معي -إن عدت إليهما بشيء من الحنان- أكبر من ذكاء ولطف أشخاص آخرين عرفتهم. ألم تقل لي «مدام دى كـلمبريمير» (Mme de Cambremer) في «بالبيك»: «كيف تستطيع أن تقضي أيامك مع بنت عمك، بينما تستطيع أن تقضيها مع رجل عبقري هو «الستير» (Elstir)؟» كان ذكاء البيرتين يعجبني لأنها، بالتداعي، كانت توقظ فيّ نعومتها (فلا نتكلم عن الطعم اللذيذ لفاكهة من الفواكه إلا عندما تصبح في فمنا). وفعلاً، عندما أفكر في ذكاء البيرتين، تستطيل شفتاي بشكل غريزي وتذوقان ذكرى أفضلها على الواقع وتكون خارجية وتتبلور في التفوق الموضوعي لشخص من الأشخاص. من المؤكد أنني عرفت أناساً يتمتعون بذكاء أكبر. ولكن لانهائية الحب وأنانيته تجعلان الأشخاص الذين نحبهم هم أولئك الذين لانستطيع موضوعياً تحديد طبيعتهم الفكرية والأخلاقية، فنبحث عنهم دائماً رغم رغباتنا ومخاوفنا، ولا نفصلهم عنا، إذ يشكلون حيّزاً فسيحاً وغامضاً نجسّد فيه عواطفنا. لانملك صورة واضحة عن جسدنا الذي يتدفق فيه كم كبير من الأتراح والأفراح؛ إنه كصورة شجرة أو بيت أو عابر سبيل. وقد يكمن خطأي في أنني لم أسع سعياً زائداً للتعرف على دخيلة البيرتين. أما في مايتعلق بجمالها، فإنني لم أعتبر إلا المواقف المختلفة التي احتلت ذاكرتي مع مرّ السنين، ففوجئت عندما رأيت أن هذا الجمال قد تطور واغتنى عفوياً دون أن يكون نابعاً من اختلاف في المنظور. وكذلك كان ينبغي عليّ أن أفهم

طبعها كما أفهم طباع الناس بعامة، وأن افهم لماذا كانت تصر على إخفاء سرها عني؛ ولو حصل ذلك لكنت قد تجنبت (وأنا بين هذا الإصرار الغريب وبين حدسي الثابت) ذلك الصراع الذي أدى إلى موت البيرتين. ولشفقتي الكبيرة عليها، خجلت من العيش بعدها. وبدا لي في الساعات التي لم أكن أتعذب فيها كثيراً أنني أستفيد من موتها، لأن للمرأة فائدة كبرى في حياتنا، إذا كانت عنصرَ أسى، بدل أن تكون عنصر سعادة؛ وما من امرأة يكون امتلاكها نفيساً مثل امتلاك الحقائق التي تكشفها لنا عندما تعذبنا. في تلك الأوقات التي قاربت فيها موت جدتي بموت البيرتين، بدا لي أن حياتي ملطخة بجريمتي قتل، ولن يغفرهما لي إلا جبن العالم وحده. كنت قد حلمت بأن أفهم وبالا تنكرني، ظناً مني أن فهم الآخر وعدم إنكاره يوفران له السعادة الكبرى، مع العلم أن الكثيرين يستطيعون أن يفعلوا ذلك بشكل أفضل. يرغب الإنسان في أن يفهم لأنه يرغب في أن يحب، ويرغب في أن يحب لأنه يحب. إن فهم الآخرين سواء وحبهم في غير محله. فبهجتي لأنني امتلكت شيئاً من ذكاء البيرتين ومن قلبها لاتنجم عن قيمتها الذاتية، بل تنجم عن أن ذلك الامتلاك كان درجة إضافية في امتلاك البيرتين الكامل، وهو امتلاك كنت أصبو إليه وأتخيله منذ أول يوم عرفتها فيه. عندما نتكلم عن «لطافة» امرأة، قد لانفعل سوى أن نسقط خارجنا المتعة تلك التي نشعر بها عندما نراها، وفي ذلك نشبه الأولاد عندما يقولون: «ياسريري الصغير العزيز، يامخدتي الصغيرة الغالية، يازعروري الصغير العزيز». وهذا يفسر لنا، من جهة أخرى، أن الرجال لايقولون قط عن امرأة لاتخدعهم: «إنها في غاية اللطف»، بل يقولونها كثيراً في امرأة خدعتهم.

كانت «مدام دي كامبريمير» تجد وبحق أن سحر «الستير» كان أكبر. ولكننا لانستطيع أن نعتبر بالطريقة نفسها سحر شخص، كجميع الآخرين، يعيش خارجاً عنا ونرسمه في أفق فكرنا، وسحر شخص آخر قد استقر في جسدنا نفسه -إثر خطأ في الموضعة العنيدة والناجمة عن بعض الحوادث-، بحيث نتساءل بالتالي إذا كانت رؤيتنا امرأة ذات يوم في طريق السكة الحديدية الساحلي تسبب لنا الآلام ذاتها التي يسببها لنا طبيب جراح يبحث عن رصاصة في قلبنا. عندما نأكل هلالية نشعر بمتعة أكبر من جميع بلابل الشعير والأرانب الصغيرة والحجل الرومي التي قدّمت للملك لويس

الخامس عشر؛ وتستطيع قمة العشب الذي يرتعش أمام أعيننا على بعد بضعة سنتمترات ونحن مستلقيان فوق الجبل، أن تخفي عنا رأس قمة شاهقة، حتى ولو كانت تبعد عدة فراسخ.

على كل حال لا يكمن خطؤنا في إطرائنا امرأة نحبها، على ذكائها ولطفها، مهما صغرا. نخطئ إذا بقينا لامبالين للطف وذكاء الآخرين. لايعود الكذب إلى إثارة السخط، والطيبة إلى إثارة الامتنان فينا، إلا إذا أتتا من امرأة نحبها؛ وللشهوة الجسدية قدرة رائعة لتثمين الذكاء ولوضع أسس راسخة للحياة الأخلاقية. لن أجد على الأرجح إطلاقاً هذا الشيء الإلهي، أي ذلك الشخص الذي أستطيع أن أحدثه عن كل شيء وأتمكن من أن أبوح بأسراري له. أبوح بأسراري؟ ولكن ألم يُظهر لي أشخاص آخرون ثقة تفوق ثقة البيرتين؟ ألم أسهب في الحديث مع الآخرين؟ إن الثقة والمناقشة هما من الترهات، ولا ضير إن شابهما النقصُ بعض الشيء، وإن ارتبطا فقط بالحب، الذي وحده إلهي. كنت أرى البيرتين تجلس خلف آلة البيانولا، وكانت وردية بشعر أسود؛ وكنت اشعر أنها كانت تحاول أن تفتح شفتي بلسانها الأمومي الذي لايستهلك، بلسانها المغذي والمقدَّس الذي بلظاه ونداه السرّيين كانت البيرتين تجعله ينزلق على بشرة عنقي وبطني فتأخذ تلك القبل السطحية التي يحرضها جسدها من الداخل، كظاهر رداء تبرز بطانته، تأخذ حتى بملامساتها الخارجية تماماً شكل ولوج سري رقيق.

لاشيء يعيد لي جميع تلك الهنيهات، ولا أستطيع أن أقول إن كان ضياعها يشعرني باليأس. مهما يكون المرء يائساً لابد له أن يتعلق بهذه الحياة التي لن تكون من بعد إلا بائسة. لقد كنت يائساً في «بالبيك» عندما رأيت النور يشرق وفهمت أن ما من أحدٍ يستطيع أن يكون سعيداً من أجلي. ومنذئذ حافظت على أنانيتي، ولكن أناي التي أتشبث بها الآن، أناي التي سببت تلك التحفظات العنيفة التي حركت عندي غريزة البقاء، هذه الأنا انصرفت من الحياة. فعندما فكرت في قواي وقدرتي الحيوية وفي ماهو الأفضل لدي، فكرت في كنز امتلكته (وكنت الوحيد الذي امتلكته لأن الآخرين لم يستطيعوا أن يعرفوا تماماً العاطفة الكامنة فيّ والتي ألهمني إيّاها) ولايستطيع أحد أن ينتزعه مني لأنني لم أعد أمتلكه. وأيم الحق أنني لم أمتلكه قط لأنني أردت أن أتصور نفسي أمتلكه. لم أتهوّر فقط عندما نظرت

إلى البيرتين بشفتيّ وعندما غرست هذه الفكرة في قلبي، إذا نميّتها في داخلي، بل تهوّرت أيضاً عندما مزجت الحب العائلي بمتعة الحواس. وكنت أريد أيضاً أن أقنع نفسي بأن علاقاتنا كانت هي الحب، وبأننا كنا نمارس تلك العلاقات التي تدعى حبا، لأن البيرتين كانت تعطيني مطيعة القبل التي كنت أعطيها إياها. ولأنني تعوّدت تصديق ذلك، فإنني لم أضع امرأة أحببتها، وإنما امرأة أحبتني، لقد كانت أختي وولدي وعشيقتي الحنون. في المحصلة عرفت سعادة وتعاسة لم يعرفهما «سوان»، فطيلة الوقت الذي أحبّ فيه «أوديت» وغار عليها، كان يراها بالكاد ولم يستطع إلا بصعوبة بالغة أن يذهب إلى بيتها، لأنها كانت تلغي موعدها معه في بعض الأيام وفي آخر لحظة. ثم صارت له وتزوجها وبقيت زوجته حتى موته. أما أنا فعلى العكس، صحيح أنني كنت أغار على البيرتين، ولكنني كنت أسعد من «سوان» لأنني امتلكتها في بيتي. لقد حققت في الواقع ماحلم به سوان كثيرا ولم يحققه ماديا إلا عندما صار الأمران عنده سيّان. وأخيرا لم أحافظ على البيرتين كما حافظ هو على «أوديت». فهذه هربت وماتت. لاشيء يتكرر بالضبط تماما، وحتى الحيوات الأكثر تشابها لاتتكرر؛ إننا بفضل تقارب الطباع وتشابه الظروف نستطيع الاختيار عندما نقيم تناظرا بين هذه وتلك، ولكنهما تبقيان متعارضتين في كثير من النقاط. ولم أتكلم حتى الآن عن التعارض الرئيسي بينهما وهو (الفن).

لو خسرت حياتي لما خسرت شيئا يذكر، لما خسرت سوى شكل فارغ، سوى الإطار الفارغ للوحة فنية رائعة. لأنني لا أبالي بما يمكنني من الآن فصاعدا أن أضيفه إلى حياتي، ولأنني مع ذلك سعيد وفخور بما احتوت -حسب ظني- فإنني استندت إلى ذكرى تلك الساعات الرغيدة، فكان هذا الدعم المعنوي يعطيني هناء ما كان دنو الموت يقصمه. عندما كنت أبحث عنها في «بالبيك» كانت تهرع لتراني، ولا تتأخر إلا لتسكب العطر على شعرها لتعجبني! إن صور «بالبيك» و «باريس» التي كنت أحب أن أراها من جديد كانت الصفحات الحديثة جدا في حياتها القصيرة والتي قلبت بسرعة. لم يكن كل هذا بالنسبة لي إلا ذكرى، وبالنسبة لها كان فعلا، وفعلا متسارعا نحو الموت العاجل، كما يحدث في المسرحيات التراجيدية. إن للكائنات تطورا فينا وتطورا آخر خارجا عنا (وشعرت بذلك في تلك

المساءات التي لاحظت فيها عند البيرتين ثراء في الخصال لايرتبط بذاكرتي) وتترك ردود أفعال علينا وعليها. طاب لــي عندمـا أردت التعـرف علـى البيرتين ثم تملكها كاملة ألا أرضخ إلا لضرورة جربتها وهي اختزال سر كل إنسان إلى عناصر تتشابه بسخافة مع عناصر ذاتنا، واخـتزال كـل بـلاد أظهرها لنا خيالنا مختلفة، وأن أقود كل مسرة من مسـراتنا العميقـة نحـو دماره، ولكنني لم أستطع ذلك دون أن أؤثر بدوري على حياة البيرتين. قـد تكون ثروتي أو آفاق زواج محترم هي التي جذبتها، ولكن غيرتي جعلتـها تتكبح؛ بيد أن طيبتها أوذكاءها أوشعورها بالإثم أو أن مهارات التحايل عندها هي التي جعلتها تقبل ودفعتني إلى تنغيص هذا الأسر الذي اختلقتـه بنـات أفكاري، على أنها تركت على حياة البيرتين صدمات من شـأنها أن تثـير مشاكل جديدة ترتد على نفسيتي وتزيدها ألما، لأنها فرت من سجني وراحـت وقتلت نفسها على حصان لولاي لما امتلكته، وتركتني حتى بعد موتها فريسة للظنون التي سيكون التحقق منها أكثر ضراوة من اكتشافها: ففي «بـالبيك» تعرفت البيرتين على الآنسة «فانتوي»، ولأنها أيضا رحلت دون أن تـهدئ من روعي. إن هذه المرثية الطويلة للنفس التي تظن أنها تعيش منطوية على نفسها، ليست حوارا ذاتيا إلا في الظاهر، لأن أصداء الواقع تجعلها تنحـرف؛ إن هذا النوع من الحياة يشبه تجربة نفسية ذاتية تتم عفويا، ولكنـها تؤمـن للرواية عن بعيد «حدثها» الواقعي جدا، وهي رواية تتكلم عن حياة أخـرى تحول سير المنحني وتغير اتجاه المحاولة النفسية. وكـم تشـابكت حلقـات الأحداث بشدة، وكم تطور حبنـا بسـرعة بـالرغم مـن بعـض التبـاطؤ والانقطاعات والترددات في البداية، كما نرى ذلـك فـي بعـض قصـص «بالزاك» أو بعض معزوفات «شومان»، وكم كانت الخاتمة سـريعة! فـي غضون السنة الأخيرة التي طالت عندي كقرن من الزمـان -لأن البـيرتين غيرت مواقفها منذ كنا في «بالبيك» وحتى سفرها إلى باريس، ولأنها بمعزل عني وبدون أن أدري قد تغيرت هي نفسها- وجب أن أضع كل تلك الحيـاة العاطفية الطيبة موضعها، مع أنها لم تدم طويلا وظهرت لي مع ذلك رحبـة وذات مدى ومستحيلة إلى الأبد ولكنها كانت بالنسبة حياة لابد منـها. لابـد منها، ربما لأنها كانت بذاتها ولأول وهلة شيئا ضروريا، ذلك أنني لو لم أقرأ كتابا عن الآثار يتناول بالوصف كنيسة «بالبيك» لما تعرفت على البـيرتين.

لو لم يقل لي «سوان» إن هذه الكنيسة كانت فارسية الى حدّ ما، ولو لم يوجه اهتمامي بالفنِ النورماِندي البيِزنطي، ولو لم تأتِ شركة فندقية لتبني لها في «بالبيك» فندقاً صحياً ومريحاً، ولو لم يقرّر أهليَ الاستجابة لرغبتي وإرسالي إلى «بالبيك»، لما تعرفت على البيرتين. أجل في «بالبيك» هذه التي رغبت فيها منذ أمد طويل، لم أجد الكنيسة الفارسية التي حلمت بها، ولم أجد الضباب الذي لا ينقشع. إن قطار الساعة الواحدة وخمس وثلاثين نفسه لم يستجب لما كنت أتصوره. ولِكن مقابل ما يدفعنا خيالنا إلى انتظاره، ومقِابل العناء الكبير الذي نقاسيه عبثاً في محاولة البحث، تعطينا الحياة شيئاً لم يخطر على بالنا. من قال لي في «كامبري»، عندما كنت أنتظر بحزن شديد تحية المساء من أمي، إن تلك الهواجس ستزول وستنبعث ذات يوم لأمي وإنما لفتاة لم تكن في البداية، على أفق البحر، إلا زهرة تشتهي عيناي كلِ يوم أن تنظر إليها، ولكنها زهرة عاقلة كنت أتمنى بطفولة أن أجد لي مكاناً رحباً في بالها، وكنت أتألم من أنها كانت تجهل أنني أعرف السيدة «دي فيلباريسيس»؟ نعم إن تحية المساء وقبلة تلك الغريبة التي بعد سنوات -إن حرمتني منها- كنت أتألم كما تألمت في طفولتي عندما لم تكن أمي تأتي لتراني. إن هذه الالبيرتين الضرورية جدا والتي هامت نفسي بحبها، لو لم يكلمني «سوان» عن «بالبيك» لما عرفتها قط. لو لم أعرفها لكانت حياتها ربما أطول، ولكانت حياتي بمعزل عن هذه الآلام المبرحة. وهكذا بدا لي أنني بعاطفتي الأنانيِة البحتة قد تركت البيِرتين تموت، كما سبق لي أن قتلت جدتي. وحتى لاحقاً، وحتى بعد أن تعرفت عليها في «بالبيك»، كان يجدر بي ألا أحبها كما فعلت من ثم. فعندما تخليت عن «جيلبيرت» وعرفت أنني أستطيع ذات يوم أن أحبَ امرأة أخرى، تجرأت بالكاد أن أشك (في الماضي على جميع الأحوال) في أنني قادر على حب امرأةٍ غير «جيلبيرت». والحال أن الشك لم يخامرني، في مايتعلق بألبيرتين، إذ تيقنت أنني قادر على ألا تكون هي التي أحبّ، وإنما امرأة أخرى. كان يكفي لهذا، ألا تعتذر السيدة «دي ستيرمارِيا» عن ذلك العشاء الذي اتفقنا عليه في جزيرة الغابة[1]. كان الوقت مناسباً عندئذٍ، وكان بوسع السيدة «دي ستيرماريا» أن تمارس تنشيط خيالنا الذي يجعلنا نستخلص الفرادة في المرأة فتبدو لنا عندئذ فريدة من

[1] - المقصود غابة بولونيا المعروفة في باريس (المترجم).

نوعها ومقدرة علينا وضرورية. وعلى الأكثر، إذا نظرت إلى نفسي من الناحية الفيزيولوجية، لاستطعت القول إنني قادر على أن أكن مثل هذا الحب الحصري لامرأة أخرى، وليس لكل امرأة أخرى. ذلك أن البيرتين السمينة والسمراء لم تكن تشبه «جيلبيرت» السامقة والصهباء، ومع ذلك كان وضعهما الصحي هو نفسه، وكانت لكلتيهما خدود شهوانية ونظرات لايستطيع المرء أن يفهم بسهولة معناها. كانتا من أولئك النساء اللواتي قد لاينظر إليهن الرجال، أو اللواتي من جهتهن يجعلن الرجال يصابون بالجنون «دون أن أعني بهن». أكاد أستطيع الظن أن الشخصية الشهوانية والعنيدة عند «جيلبيرت»هاجرت لتحل في جسد البيرتين المختلف عن جسدها بعض الشيء ولكنه يماثله بعمق في أمور كثيرة (هذا ما أجده الآن بعد تفكيري لاحقا). يصاب إنسان بالزكام بالطريقة نفسها دائما، وكذلك يمرض، أي يحتاج في ذلك إلى مجموعة من الظروف؛ ومن الطبيعي، عندما يصبح عاشقا، أن يميل إلى نوع معين من النساء، وهو نوع شائع جدا. إن نظرات البيرتين الأولى التي جعلتني أحلم، لم تكن لتختلف كثيرا عن نظرات «جيلبيرت» الأولى. وأكاد أستطيع الظن أن الشخصية الغامضة «لجيلبيرت» وشهوانيتها وطبيعتها العنيدة والمراوغة عادت لتطغيني متجسدة هذه المرة في بدن البيرتين المختلفة والمماثلة في آن. بفضل حياة البيرتين المختلفة تماما والتي لم يتسلل إلى مجمل أفكارها حيث حافظ اهتمامها الأليم على تماسك مستمر، لم يتسلل أي صدع شرودي أو نسياني، ولم يكف جسدها الحي ذات يوم، كما جسد «جيليبيرت»، عن مفاتنه الأنثوية التي عرفت لاحقا أنني حصلت عليها (دون أن تكون للآخرين). ولكنها ماتت. وقد أنساها. من يدري، ربما تعود نفس صفات الدم الغني والحلم القلق لتزرع الاضطراب في! ولكنها ستتجسد هذه المرة في أي قد أنثوي؟ لاأستطيع التنبؤ بذلك. وبفضل «جيلبيرت» كان بوسعي أن أتصور البيرتين قليلا وأن أحبها، وألا يسمح لي تذكر سوناتا «فانتوي» (Vinteuil) بتخيل الصوت السباعي فيها[1]. وأكثر من ذلك، حتى عندما رأيت البيرتين في المرات الأولى، ظننت أنني سأحب نساء غيرها. وقد بدت لي، لو عرفتها قبل ذلك بسنة، باهتة بهوت سماء رمادية لم يبزغ عليها الفجر. فإن تغيرت تجاهها، فلأنها تغيرت هي

(١) إن سوناتا فانتوي هي من خيال بروست (المترجم).

أيضا، ذلك أن الفتاة التي أتت إلى سريري يوم أرسلت رسالة إلى السيدة «دي ستيرماريا» لم تكن نفس الفتاة التي عرفتها في «بالبيك»، إما لمجرد تفجر يحدث للمرأة أثناء المراهقة، وإما نتيجة لظروف لم أستطع قط أن أعرفها. على كل حال، حتى ولو أن التي سأحبها ذات يوم يجب أن تشبهها نوعا ما، أي إذا لم يكن اختياري لامرأة ما حرا بكامله، فهذا يعني مع ذلك أنه عندما يتوجه بشكل ربما ضروري، فإنه ينطبق على أشياء تتجاوز حدود الفرد، ينطبق على نوع من النساء، وعندما ننزع كل حتمية على حبي لألبيرتين، فإن هذا يكفي رغبتي. إن المرأة التي نرى وجهها باستمرار أكثر من رؤيتنا النور نفسه، لأننا ونحن مغمضو العيون لانكف للحظة عن الإشادة بعينيها الدعجاوين وأنفها الجميل ونجد جميع الوسائل لرؤيتها، هذه المرأة الفريدة، نعلم تمام العلم أننا عشقنا امرأة أخرى، لو أننا عشنا في مدينة أخرى غير المدينة التي التقينا بها فيها، ولو أننا تنزهنا في أحياء أخرى، ولو أننا ترددنا إلى صالون آخر. أنظن أنها فريدة؟ إنها لاتحصى ومع ذلك هي كثيفة ولاتتهدم في أعيننا التي نحبها. ولانقوى على استبدالها بامرأة أخرى إلا بعد مدة طويلة. ذلك أن هذه المرأة قد حركت، بنداءات سحرية شتى، ألف عنصر عاطفي فينا كانت مفتتة وجمعتها هي ووحدتها وأزالت الشوائب بينها، ونحن عندما نعطيها سماتها نكون قد أعطينا المادة الجامدة للشخص المحبوب. وحتى إذا كنا لها واحدا من أصل ألف أو كنا ربما آخرهم، نرى أنها الوحيدة وأن حياتنا تصبو إليها؛ وهذا هو السبب. صحيح أنني حتى عندما شعرت بأن هذا الحب غير ضروري، لا لأنه كان من الممكن أن يتم مع السيدة «دي ستيرماريا»، بل بدون ذلك، إذ كنت أعرفه بذاته وأجده مفرط التشابه مع حب الآخرين وأشعر بأنه أرحب من البيرتين لأنه يدثرها دون أن يعرفها كأنه مد بحري يحيط بصخرة هزيلة. ولكن القيود التي صنعتها بنفسي تدريجيا، لأنني كنت أعيش مع البيرتين، لم أعد أقوى على التملص منها؛ وعادة إشراك شخص البيرتين في الشعور الذي أثارته كان يدفعني إلى الظن أنه خاص بها، شانه في ذلك شأن العادة التي تمنح تداعي الأفكار البسيط بين ظاهرتين – حسبما تدعي إحدى المدارس الفلسفية– فترفد قانون السببية بقوة وضرورة وهميتين. ظننت أن علاقاتي وثروتي ستحميني من التألم، وأنها قد تحميني بفعالية شديدة لأنني خمنت أن هذا سيعفيني من الإحساس والحب والتخيل،

فكنت أحسد بنت الريف الفقيرة التي يوفر لها غياب العلاقات –بما فيها التلغراف– أشهرا مديدة من الحلم الناجم عن أسى لاتستطيع اصطناعيا إرقاده. ولكن تبين لي الآن أنني رأيت –ومدام «غيرمانت» كانت راضية عن كل مايستطيع أن يجعل المسافة بيني وبينها لامتناهية– هذه المسافة تزول فجأة من رأي وفكر من يعتقد أن الامتيازات الاجتماعية ليست سوى مادة جامدة يمكن تفعيلها؛ وعلى هذا النحو فإن علاقاتي وثروتي وسائر إمكانيلتي المادية التي كانت مكانتي وحضارة عصري تجعلني أفيد منها قد أرجأت موعد الصراع العنيف مع إرادة البيرتين المغايرة والحديدية التي لم يجد فيها أي ضغط، أسوة بهذه الحروب الحديثة التي لاتؤدي فيها تجهيزات المدفعية ومدى قذف الآلات الهائل إلا إلى تأخير انقضاض الرجل على الرجل والتي فيها ينتصر القلب الأقوى. صحيح أنني تبادلت مع «سان لو» بعض البرقيات والمكالمات الهاتفية، وصحيح أنني كنت على اتصال دائم مع مكتب «تور» (Tours)، ولكن انتظارها ذهب سدى، وكانت نتيجتها معدومة. هل بنات الريف اللواتي يفتقرن إلى الامتيازات الاجتماعية والعلاقات، أو هل البشر الذين سبقوا هذا التفنن في الحضارة يعانون أقل، لأن طلباتهم أقل ولأنهم يتحسرون أقل على ماعتبروه دائما مستحيلا وبقي لديهم غير واقعي من جراء ذلك؟ يرغب الناس أكثر في الشخص الذي سيبذل نفسه، لأن الأمل يسبق الامتلاك ولأن التحسر يزيد الرغبة. إن رفض السيدة «دي ستيرماريا» المجيء للعشاء في جزيرة «دو بوا» هو الذي حال دون حبي لها. وكان هذا يكفي أيضا لتقريبها من قلبي، لو أنني فيما بعد رأيتها ثانية في الوقت المناسب. وما إن عرفت أنها لن تأتي حتى طرحت الفرضية الممكنة التالية (والتي تحققت): ربما كان أحدهم غيورا عليها وحجبها عن الآخرين؛ أما أنا فلن أراها أبدا، لقد عانيت كثيرا ولدي استعداد لبذل كل شيء بشرط أن أراها، وهذا هو من الهواجس الكبرى التي عرفتها ولطفها مجيء «سان لو». وفي سن معينة يصبح الحب عندنا وتصبح عشيقاتنا من بنات قلقنا؛ فماضينا بندوبه يحدد مستقبلنا. وبالنسبة لألبيرتين خصوصا، لم يكن من الضروري أن أحبها هي بالذات، دون أشكال الحب المجاورة، وأن يندرج ذلك في تاريخ حبي لها، أي لها ولصديقاتها. ذلك أن هذا الحب لايشبه حبي لـ«جيلبيرت»، ولكنه مؤلف من أجزاء حبي لفتيات عديدات. وكان ذلك ممكنا بسببها وبسبب التشابه بينها

وبينهن، لذا فإنني أعجبت بصديقاتها. على أية حال كانت المراوحة بينهن ممكنة، خلال مدة طويلة، إذ كان اختياري ينتقل من هذه لتلك؛ وعندما خطر لي أنني أفضل هذه، كان يكفي أن تتركني تلك أنتظر فترفض أن تراني كي تخلق عندي شيئا من الحب. ومرارا حدث أن «أندريه» (Andrée) كانت تهم بالمجيء إلى «بالبيك»، ولكي لاأظهر تعلقي بها كتبت لها كاذبا: «يا ليتك أتيت منذ أيام! أما الآن فأحب أخرى ولكن لابأس، تستطيعين أن تمنحيني السلوى»، كتبت هذا قبيل زيارة «أندريه»؛ ذلك أن البرتين كانت تفقدني الكلام وقلبي لم يعد يتوقف عن الخفقان، فظننت أنني لن أراها من بعد، وكانت هي التي أحبها. وعندما كانت «أندريه» تأتي، كنت أقول لها حقا (كما قلت لها في باريس عندما علمت أن البيرتين قد عرفت الآنسة «فانتوي») ماكانت تظنه قولا متعمدا، دون صدق، وهو ماقد يقال في العبارات نفسها، لو كنت سعدت مع البيرتين قبل ذلك بيوم: «ياليتك أتيت منذ أيام، أما الآن فأحب أخرى». وحتى في حالة «أندريه» هذه التي استبدلتها بألبيرتين عندما علمت أن هذه قد عرفت الآنسة «فانتوي»، كان الحب متبادلا؛ وفي المحصلة لم يكن هناك إلا حب واحد في آن. وحصلت لي مثل هذه الحالات في السابق حيث تخاصمت نصف مخاصمة مع بنتين من البنات. فالتي كانت تقدم على الخطوة الأولى كانت تعيد لي هدوئي، أما تلك فسأحبها إن بقيت على خصومتها، وهذا لايعني أنني لن أرتبط بالأولى ارتباطا نهائيا، لأنها ستواسيني -ولو بدون نجاح- من قسوة الثانية، التي سأنساها إن لم تعد. وليقيني أن واحدة منهما على الأقل ستعود إلي، حدث أن كلتيهما لم تعودا لفترة طويلة. وكان قلقي مزدوجا، وحبي مزدوجا، وهيأت نفسي للكف عن تلك التي قد تعود، ولكن الإثنتين قد عذبتاني حتئذ. هذا نصيب مرتبط بالعمر، وقد يأتي مبكرا جدا، عندما يخف حبنا بسبب شخص أو بسبب إهمال ما، وتنتهي بنا الحال بالنسبة لهذا الشخص ألا نعلم عنه سوى شيء واحد -لأن صورته ادلهمت، وروحه غابت، ولأن تفضيلك حديث العهد ولاتفسير له-: نحتاج كي نكف عن الألم إلى أن يدفعك هذا الشخص إلى القول: «أتستقبليني؟» إن هجران البيرتين لي، يوم قالت لي «فرانسواز»: «إن الآنسة البيرتين قد غادرت»، كان كمجاز مخفف لهجرانات أخرى كثيرة.

ففي الغالب، لكي نكتشف أننا عاشقون، وربما لكي نصبح عاشقين، يجب أن يقع يوم الهجران.

في هذه الحالات التي لاينفع فيها الانتظار، تخلق كلمة من كلمات الرفض التي تثبت الاختيار -بعد أن يعصف الألم بالخيال فيهب إلى عمله- تخلق بسرعة مجنونة حبا بدأ بالكاد وبقي دون صورة وأعد ليبقى جنينيا منذ أشهر؛ وأحيانا نجد الذكاء الذي لم يستطع أن يلحق بالقلب يتعجب ويصرخ: « ولكنك مجنون، في أية أفكار جديدة ممضة تعيش وتعاني؟ كل هذا لايشكل الحياة الحقيقية». وإذا لم تحركنا الخائنة فعلا، يكفي لإفشال الحب أن توفر لنفسك تسليات جيدة تهدئ قلبك ماديا. على كل حال، إذا كانت هذه الحياة مع البيرتين غير ضرورية، في جوهرها، فإنها أصبحت لازمة بالنسبة لي. لقد ارتجفت عندما أحببت «مدام دي غيرمانت»، لأنني قلت لنفسي إنها بوسائلها الكبرى في الإغواء، وليس فقط بجمالها ومكانتها وثروتها، قد تكون شديدة الحرية في مراودة عدد زائد من الرجال، وقد أكون قليل التأثير عليها. ولأن البيرتين فقيرة وغامضة، فقد ترغب في أن تتزوجني. ومع ذلك لم أستطع أن امتلكها لوحدي. في الحقيقة، إن الظروف الاجتماعية وتوقعات التصرف الحكيم لاتجعلنا نؤثر في حياة شخص آخر.

لماذا لم تقل لي: «إنني أتذوق هذه الأشياء؟» لو أخبرتني بها لكنت رضخت ولسمحت لها بتحقيقها. ورد في إحدى الروايات التي قرأتها أن امرأة لم يستطع أي توبيخ قام به الرجل الذي كانت تحبه أن يدفعها إلى الكلام. عندما قرأت ذلك وجدت أن هذا الموقف عبثي؛ فقلت لنفسي، لو كنت مكانه لأجبرت المرأة على الكلام، ثم لتفاهمنا. لم كل هذه التعاسات غير المجدية؟ ولكنني أرى الآن أننا لسنا أحرارا أن نخلقها لأنفسنا، وأننا مهما عرفنا إرادتنا، فإن الأشخاص الآخرين لايطيعونها.

ومع ذلك فقد عبرنا عن هذه الحقائق الممضة والحتمية التي كانت تسيطر علينا والتي كنا عميانا حيالها (كحقيقة مشاعرنا وحقيقة قدرنا)، وعبرنا عنها كثيرا، دون أن ندري ونريد، بكلمات فجة وعلى الأرجح كاذبة، ولكن الأحداث أعطتها فيما بعد قيمة نبوية. تذكرت كلمات تلفظنا بها دون أن نعرف المعنى الذي تتضمنه، وحتى الكلمات التي قلناها معتقدين أننا نمثل في

مسرحية هزلية كان الخطل فيها زهيدا وقليل الأهمية ومحصورا في كذبنا الرث؛ وقلناها مع ما تضمنته دون أن نشعر. كانت هناك أكاذيب وأخطاء خلف الواقع العميق الذي لم ندركه، وكانت هناك حقيقة وراء هذا الواقع، وهي حقيقة طباعنا وكانت قوانينها الأصلية عصية على فهمنا وتقتضي حيزا من الوقت كي تتكشف، وهي أيضا حقيقة أقدارنا. ظننتني أكذب عندما قلت لها في «بالبيك»: «كلما أراك، كلما أحبك (ومع ذلك فإن تلك الحميمية المتجددة في كل لحظة هي التي –عبر غيرتي– جعلتني أتعلق بها)، أشعر بأنني قادر على أن أكون مفيدا لعقلك». أما في باريس فقلت لها: «حاولي أن تكوني حذرة. إذا وقع لك حادث، تأكدي أنني لن أجد العزاء» (وهي قالت: «ولكن قد يحدث لي حادث») وفي باريس قلت لها في مساء ذلك اليوم الذي تظاهرت فيه بهجرها: «دعيني أنظر إليك مليا لأنني عما قريب لن أراك من بعد، وسيكون ذلك إلى الأبد؛» وبعد أن طافت بنظرها حولها قالت في ذلك المساء نفسه: «لاأصدق أنني لن أرى من بعد هذه الغرفة وهذه الكتب وهذا البيانو الصغير وكل هذا البيت، ومع ذلك فهذا صحيح؛» وفي رسائلها الأخيرة، عندما كتبت (وعلى الأرجح عندما قالت: «اقوم بعملية تصنع»): «أترك لك أفضل ما في» (أجل ألم تعهد ذكائها وطيبتها وجمالها لوفاء ذاكرتي ولقواها الهشة، للأسف؟» وأيضا: «إن هذه اللحظة الثنائية الغسق، لأن النهار كان ينحدر ولأننا كنا على وشك التهاجر، لن تزول من ذهني إلا عندما يجتاحه الليل الدامس» (لقد كتبت هذه الجملة عشية ذلك اليوم الذي فيه اجتاح الليل الدامس ذهنها؛ وفي تلك الومضات الأخيرة الخاطفة التي يجزئها قلق اللحظة إلى مالا نهاية، أبصرت جيدا نزهتنا الأخيرة ربما، وفي تلك اللحظة التي يفارقنا فيها كل شيء والتي فيها يصنع المرء إيمانه، كما يصبح الملحدون مسيحيين في ساحات الحرب، ربما استنجدت بالصديق الذي لعنته كثيرا مع أنها كانت تحترمه جدا –لأن جميع الأديان متشابهة– وبقسوة شديدة تمنت الحصول على الوقت الكافي لتتعرف على ذاتها، ولتكرس له آخر فكرة تراودها، ولتعترف أمامه أخيرا، ولتموت فيه).

ولكن ما الفائدة؟ انها حتى إذا حصلت على الوقت الكافي لتتعرف على ذاكرتها، لم يفهم كلانا أين تكمن سعادتنا، وماكان علينا أن نفعله، إلا عندما أدركنا أن هذه السعادة صارت مستحيلة وأننا لم نعد قادرين على

صنعها، وذلك إما لأن الأشياء ممكنة فنؤجلها، وإما لأنها لاتستطيع أن تمارس قوة جاذبة ولا أن تصنع إنجازاً ميسّراً إلا عندما تفلت من الغرق الرازح والمدمِّر للوسط الحيوي، بعد أن تكون قد انطلقت في الفراغ المثالي للخيال؟ إن الفكرة القائلة بأننا سنموت هي أعتى من الموت نفسه، ولكنها تبقى أدنى من الفكرة القائلة بأن شخصاً آخر قد مات؛ وعندما يخف وطؤها بعد أن يبتلع الموت شخصاً، ينتشر واقعٌ -دون أن يتحرك ساكنٌ في ذلك المكان- يجتث منه ذلك الشخص، فتزول كل إرادة وكل معرفة، ويصعب بعدها الرجوع إلى الفكرة القائلة بأن هذا الشخص قد عاش، كما يصعب -من التذكر الحديث جدا لحياته- الظن أننا نستطيع دمجه في الصور الواهية وفي الذكريات التي تركها شخوص رواية قرأناها.

أنني كنت سعيداً على الأقل بأنها كتبت لي هذه الرسالة قبل أن تموت، وبأنها أرسلت بخاصة البرقية الأخيرة التي أثبتت لي فيها أنها لو عاشت لعادت. إن الحدث ماكان ليكتمل بدون تلك البرقية وما كان ليرقى إلى صورة فنيّة وقدَرية، وبدا لي ليس فقط أرق وانما أيضاً أجمل. وفي الحقيقة، لو كان حدثاً آخر، لكانه بنفس الدرجة، فكل حدث أشبهُ بقالب لشكل خاص، ومهما كان نوعه فإنه يفرض على سلسلة الأحداث، التي أتى ليقطعها ويكون خاتمة لها في نظره، مخططاً نظن أنه الوحيد الممكن، لأننا لانعرف الحدث البديل.

لماذا لم تقل لي: «إنني أتذوق هذه الأشياء». فلو فعلتْ لرضختُ وسمحت لها بأن تحققها، ولقبلتها أيضاً الآن. يالحزني عندما أتذكر أنها كذبت عليّ عندما أقسمت لي، قبل أن تغادرني بثلاثة أيام، أنها لم تقم تلك العلاقات مع صديقة مدام «فانتوي»، مع العلم أن احمرار وجه البيرتين كان يُقر بها. ياللصغيرة المسكينة! لقد كانت نزيهة على الأقل عندما رفضت أن تقسِم بأن سرورها برؤية الآنسة «فانتوي» وصديقتها لاعلاقة له بذهابها في ذلك اليوم إلى بيت الـ«فيردوران». لماذا لم تذهب في قسمها إلى النهاية. قد يكون الحق عليّ، إذا لم تشأ أن تقول لي (بالرغم من جميع توسلاتي التي تحطمت أمام إنكارها): «إنني أتذوق هذه الأشياء». كان الحق عليّ ربما في «بالبيك»، بعد أن زارتنا السيدة «دي كامبريمير» (de Cambremer)، إذ حصلت لي مع البيرتين المصارحة الأولى فأستبعدت التصديق أنها في جميع الحالات

لم تقم إلا علاقة صداقة متيّمة مع «أندريه»، فعبرتُ لها بعنف شـــديد عـــن تقززي من هذه الأخلاق التي استنكرتها بشكل قاطع. لاأســتطيع التذكــر إذا خجلت البيرتين عندما عبرت لها بسذاجة عن هلعي مـــن هــذا؛ لاأســتطيع تذكره، لأننا نريد بعد مدة طويلة أن نتذكر ماكان موقف ذلك الشخص عندمـا لم ننتبه للأمر، ولكننا لاحقاً عندما نعاود التفكير في حديثنا نجد أن الصعوبــة الممضّة قد توضحت. ولكن هناك ثغرة في ذاكرتنا، ولا أثر لذلك الحـــدث. وفي كثير من الأحيان لم ننتبه كفاية في حينه للأشياء التي قد تبدو لنا مهمّـة، فلا نملك بالطبع جملة معينة ولانذكر حركة معيّنة، أو إننـــا قــد نســيناهما. وعندما لاحقاً نتشوق لاكتشاف حقيقة ما، نصعد من تصريح إلى تصريـــح، ونتصفح أوراق ذاكرتنا كما لو كانت سجل شهادات، وعندما نصل إلى تلـــك الجملة والى تلك الحركة يتعذر علينا تذكرهما، فنعيد الكرة عشرين مرة ولكن عبثاً، لأن الطريق لاتذهب أبعد من ذلك. هل احمرّ وجهها؟ لا أعرف إذا مـــا احمرّ، ولكن يستحيل ألا تكون سمعت، وفيما بعد أوقفها تذكّرُ كلماتها عندمـــا أوشكت أن تعترف لي ربما. والآن غابت عن كل مكان، ولوجبـــت الأرض من قطب إلى قطب لما التقيت بالبيرتين؛ فالحقيقة التي انغلقت عليها عـــادت كاملة ومحت كل أثر لذلك الإنسان الذي غاص في الأعماق. لم تعد إلا اسماً، شأنها شأن «مدام دي شارلو» (Mme de Charlus) الذي قال عنها بلا مبالاة الذين عرفوها: «إنها كانت لذيذة». ولكنني لاأستطيع أن أتصور لحظة واحدة وجود هذه الحقيقة التي لم تعها البيرتين، لأن وجود صديقتي طافح فيّ، وفيّ ترتبط جميع المشاعر وجميع الأفكار بحياتها. ولو عرفت ذلك لربما تأثرت عندمـــا ترى أن صديقها لم ينسها، والآن بعد أن انتهت حياتها، لكانت تأثرت بأشـياء قد جعلتها في الماضي لامبالية. وبما أننا نريد تجنب الخيانات، مهما كـــانت سرية، لأن المرء يخشى أن المرأة التي يحبها لاتتجنبها، راعني أن أفكر فـــي أن الموتى، إن عاشوا في مكان ما، فإن جدتي كانت تعرف جيداً أنني أنسى، مثلما كانت البيرتين تعرف مدى تذكري. وفي المحصلة، إذا تعلـــق الامـــر بالميتة نفسها، هل نحن متأكدون من أن الفرح الذي سينتابنا عندما نعلم أنـــها كانت تعرف بعض الأشياء سيزيل هلعنا من الظن أنها تعـــرف كـــل هـــذه الأشياء؟ ومهما كانت التضحية دامية، أنتخلى أحياناً عـــن صداقتنـــا للذيـــن أحببناهم، خوفاً من أن يصبحوا قضاة علينا؟

كانت أشكال فضوليتي الغيور مما استطاعت البيرتين أن تفعله لا متناهية. كم اشتريت نساء لم يعلمنني شيئاً. وإذا بقيت هذه الأشكال حية جداً، فمعنى ذلك أن الشخص لا يموت فوراً بالنسبة لنا، إذ تتركه محاطاً بشيء يشبه هالة حياتية لاعلاقة لها البتة بالخلود الحقيقي، ولكنها تتركه يحتل أفكارنا بالطريقة نفسها التي كان يحيا فيها. إنه كأنه في سفر. إنه خلود وثني جداً. وعلى العكس، عندما يكف الإنسان عن الحب، فإن أشكال الفضول التي يثيرها الشخص الآخر تموت قبل أن يموت هو. وهكذا لم أخط خطوة واحدة لأعرف مع من كانت «جيلبيرت» تتنزه ذات مساء في «الشانزليزيه». أعرف جيداً أن أشكال الفضول هذه كانت متطابقة تماماً، دون أن تحمل قيمة بحد ذاتها ودون إمكانية للاستدامة. ولكنني استمررت في تضحيتي بكل شيء للتمتع القاسي بتلك الأشكال العابرة، مع أنني عرفت مسبقاً أن انفصالي المكره عن البيرتين، بسبب موتها، سيقودني إلى المبالاة نفسها التي عرفتها بعد انفصالي الإرادي عن «جيلبيرت». وهذا مادفعني بخاصة إلى إرسال «ايميه» إلى «بالبيك»، لأنني شعرت بأنه سيعلم أشياء كثيرة هناك.

لو عرفتُ ما سيحدث لبقيتُ عندي. ولكنّ هذا يعني أنها كانت سترغب في البقاء على قيد الحياة قربي، بدل أن تقضي نحبها. ولكن مثل هذا الافتراض عبثي بسبب التناقض الذي يتضمنه. ولكنه افتراض لايؤذي، لأنني بتصوري كم ستكون البيرتين سعيدة بالعودة إليّ -لو استطاعت أن تعلم ذلك أو أن تفهمه لاحقاً- لرأيتها عندي ولهممت بتقبيلها؛ ولكنّ ذلك مستحيل، لأنها لن تعود أبداً، فإنها قد ماتت.

كان خيالي يبحث عنها في السماء التي كنا ننظر إليها معاً في العشيات. وخلف ضوء القمر هذا الذي كانت تحبه، حاولت أن أرفع إليها حناني كي يُسلّيني عن الموت، وكان هذا الحب نحو شخص ناء عبادة، فكانت أفكاري تصعد إليها كابتهالات. إن الرغبة قوية جداً، وتولد الإيمان؛ كنت أظن أن البيرتين لن تذهب لأنني كنت أرغب في ذلك؛ ولأنني كنت أرغب في ذلك ظننت أنها لم تمت؛ فرحت أقرأ كتباً حول الطاولات الدائرة[1]، وبدأت أومن أن خلود النفس ممكن. ولكن ذلك لم يكفني. كان يجب أن أجدها

---

[1] تحضير الأرواح (م).

بجسدها بعد الموت، كما لو أن الخلود يشبه الحياة. ماذا قلت: «يشبه الحياة؟»، كنت أكثر تطلباً أيضاً. كان بودي ألا أفقد مرة واحدة بالموت متعاً ليس الموت وحده يحرمنا منها. فبدونه ينتهي بها الأمر إلى الاضمحلال؛ وقد بدأت فعلا تضمحل بفعل العادة القديمة وأشكال الفضول الجديدة. ثم تغير شيئاً فشيئاً حتى جسدُها في الحياة، ويوماً بعد يوم سأعتاد هذا التغيّر. ولأن ذكراي لم تورد عنها إلا بعض الاويقات، فإنها ودت -لو أنها عاشت- أن تراها لا كما كانت؛ ماكانت تبغيه هو معجزة تستجيب للحدود الطبيعية والاعتباطية للذاكرة التي لاتستطيع الخروج من الماضي. ومع ذلك كنت أتصور تلك المخلوقة الحية بسذاجة اللاهوتيين القدماء، فأمنح نفسي التفسيرات، لا تلك التي كانت تقدر أن تعطيني إياها، وإنما -وبتناقض أخير- تلك التفسيرات التي ضننت بها دائماً عليّ أثناء حياتها. وبعد أن أصبح موتها نوعاً من الحلم، بدا لها حبي كسعادة غير مرجوّة. ومن الموت لم أحتفظ إلا بحسن الختام وتفاؤله، لأنه يبسّط كل شيء ويسوّيه.

وأحياناً كنت أتصور أن اجتماعنا ليس بعيداً ولن يتم في عالم آخر. وكما في الماضي، عندما لم أعرف «جولييت» إلا لألعب معها في «الشانزليزيه»، كنت أتصور أنني مساء وفي بيتي سأتلقى رسالة منها تبوح لي فيها عن حبها وأنها على وشك الدخول؛ وكانت الرغبة القوية نفسها - دون أن ارتبك من القوانين الطبيعية التي تتناقض معها- (وحول «جولييت» لم تخطئ الرغبة في المحصلة لأنها فرضت كلمتها الأخيرة) قد دفعتني الآن إلى الاعتقاد بأنني سأتلقى كلمة من البيرتين تعلمني فيها أنها تعرضت فعلا لحادث حصان، ولكن لأسباب روائية (هكذا كما حدث أحياناً لأشخاص ظنناهم مدة طويلة قد ماتوا) فإنها لم تشأ أن أعرف أنها شفيت وأنها الآن بعد توبتها، تطلب العودة لتعيش معي مؤبداً. ولأنني أفهمت نفسي أشكال بعض حالات الجنون لدى الأفراد الذين يبدون عاقلين، شعرت في داخلي بتعايش اليقين من موتها والأمل الدائم برؤيتها تدخل إلى بيتي.

لم أكن بعد قد تلقيت أخباراً من «ايميه»، مع أنه بالتأكيد قد وصل إلى «بالبيك». لاشك أن التحقيق كان يدور حول نقطة ثانوية تم اختيارها عشوائياً. إذا كانت حياة البيرتين حياة آثمة حقاً، لوجب أن تتضمن أشياء متفاوتة الأهمية، لم تتح لي الصدفة أن أفكر فيها كما أتاحه لي بمناسبة ذلك

الحديث حول برنس الحمام وبمناسبة احمرار وجه البيرتين. وبالضبط فإن هذه الأشياء غابت عني لأني لم أرها. ولكن بالصدفة عملت استخارة لذلك النهار، وخلال سنوات سعيت إلى تحقيقها. إذا كانت البيرتين تحب النساء، فقد كانت هناك آلاف النهارات في حياتها لم أعرف كيف شغلتها ويهمني معرفتها أيضا؛ كان بوسعي أن أرسل «ايميه» إلى أماكن كثيرة في «بالبيك» والى مدن عديدة غير «بالبيك». ولكن هذه النهارات بالضبط، وهي التي لم أعرف كيف شغلت، لم تمر في مخيلتي، فلم يكن لها فيها وجود. لم تكن الأشياء والكائنات البشرية تبدأ في الوجود بالنسبة لي إلا عندما كانت تأخذ في مخيلتي وجودا شخصيا. وإذا وجدت آلاف أخرى مماثلة، فإنها تصبح ذات معنى بالنسبة لي. في مايتعلق بظنوني حول البيرتين، إذا كنت قد رغبت منذ أمد طويل في أن أعرف ماحدث في الحمام، فبالطريقة نفسها وددت معرفة رغبات النساء (مع أنني علمت أن عددا كبيرا من الفتيات والوصيفات تمكن من إحلالها مكان الصدارة؛ وعن طريق الصدفة سمعت عنها)، وأردت أن اعرف –لأن سان لو كلمني عنهن، وكان وجودهن بالنسبة لي وجودا شخصيا– الفتاة التي كانت تتردد على بيوت الدعارة، ووصيفة «مدام بوتبو» (Mme Putbus). إن الصعوبات التي دفعت بصحتي وترددي و«إرجائيتي» (كما كان يقول سان لو) إلى إنجاز أي شيء، أوضحت لي مع الأيام والشهور والسنين بعض الظنون، وعلى سبيل المثال تحقيق بعض الرغبات. ولكنني كنت أحفظها في ذاكرتي واعدا نفسي بألا أنسى كنه حقيقتها، لأنها وحدها كانت تثير هوسي (ذلك أن الرغبات الأخرى لم يكن لها شكل في نظري، ولم تكن موجودة)، وأيضا لأن الصدفة التي اختارتها من قلب الواقع كانت تضمن لي أنني سأتواصل فعلا معها، إذ كان يكمن فيها شيء من الواقع والحياة الحقيقية والمنشودة. ثم ألا يكفي وجود حدث صغير تم اختياره جيدا لكي يقرر المجرب وجود قانون عام يكشف الحقيقة عن آلاف الأحداث المماثلة؟ لقد حاولت البيرتين جاهدة ألا تسكن ذاكرتي، كما تراءت لي مع تتالي الحياة، إلا كأجزاء بسيطة من الوقت؛ ولأن فكري كان يحدد الوحدة فيها فقد جعل منها شخصا، وعن هذا الشخص أردت أن ابدي رأيا عاما، وأعرف إن كانت قد كذبت علي وإن كانت تحب النساء وإن تركتني فلأنها كانت تريد التردد

إليهن بحرية. ماقالته عاملة الحمام قد يقطع الشكوك نهائيا حول أخلاق البيرتين.

يالشكوكي! يؤسفني أنني ظننت أنني سأكون لامباليا، لا بل سأهنأ بألا أرى البيرتين من بعد، إلى أن كشف لي غيابها خطأي. وكذلك علمني موتها كم أخطأت الظن أنني أتمنى أحيانا موتها وأنني رأيت فيه خلاصا لي. وكان الامر كذلك عندما تلقيت رسالة «ايميه»، ففهمت أنني إذا لم أكابد بإسراف شكوكي حول طهارة البيرتين، فلأن هذه الشكوك لم تكن شكوكا بالفعل. متزودا بهذا الإيمان المنقذ، استطعت دون خطر أن أترك العنان لفكري كي يلعب حزينا بافتراضات أعطاها شكلا دون أن تكون مقنعة. فقولي: «إنها تحب النساء»، كقول بعضهم: «أريد أن أموت هذا المساء»؟ يقول المرء ذلك دون أن يصدقه ثم يقيم مشاريع لليوم التالي. وهذا يعني أنني، عندما اعتقدت خطأ –وهذا مؤكد– أن البيرتين تحب النساء أو لاتحبهن، وبالتالي فإن ذنبا ارتكبته البيرتين لايقدم لي شيئا جديدا لم أفكر فيه وشغلني، شعرت من خلال الصور، العديمة المعنى بالنسبة للآخرين، والتي أشارت إليها رسالة «ايميه»، بألم مفاجئ لم يسبق أن شعرت بقسوته من قبل وشكل مع تلك الصور – صورة البيرتين بالذات، ياحسرتي– نوعا من الرواسب، كما يقال في الكيمياء، التي لاينفصل فيها راسب عن راسب ، ولاتستطيع رسالة «ايميه» التي أفصلها هنا بشكل مصطنع أن تعطي عنه أية فكرة، لأن كل كلمة من كلماتها تحولت فورا وتلونت إلى الأبد بالألم الذي أثارته.

«سيدي، ....

«فليسامحني سيدي لأنني لم أكتب إلى سيدي أبكر من ذلك. الشخص الذي كلفني سيدي برؤيته غاب لمدة يومين، ورغبة مني في الاستجابة للثقة التي خصني بها سيدي، لم أشأ العودة فارغ اليدين. وأخيرا تحدثت لتوي مع ذلك الشخص الذي يتذكر جيدا (الآنسة ألبـ..)[*] .

(*) ايميه، الذي كان مبتدئا في الثقافة كان يريد أن يكتب «الآنسة البـ » بحرف مائل أو بين معترضتين، ولكنه كان يضع القوسين بدلا من المعترضتين والعكس بالعكس. وعلى هذا النحو كانت «فرانسواز تقول: إن شخصا قد بقي في شارعي» لتعبر عن إقامته فيه وعن أن المرء يستطيع الإقامة دقيقتين لتعني أنه «بقي دقيقتين». وغالبا ماتقوم أخطاء الناس الشعبيين على استبدال المفردات (وهذا مافعلته اللغة الفرنسية) التي عبر القرون حلت محل غيرها من المفردات.

وحسب هذا الشخص، فإن الشيء الذي كان سيدي يفترضه هو شيء مؤكد قطعا. ذلك لأن هذا الشخص أولا كان يهتم بالبيرتين عندما كانت تـأتي إلى الحمام. وكانت الآنسة البـ.. تأتي دائما أحيانا كثيرة لتتحمم مـع سـيدة طويلة أكبر منها سنا وتلبس دائما ثيابا رمادية، وكانت عاملة الحمام لاتعرف اسمها ولكنها تعرفها لأنها كانت تأتي كثيرا لتبحث عن فتيات. ولكنها لم تعـد تهتم بالأخريات منذ أن عرفت(الآنسة البـ..) وكانت هي والآنسـة البـ.. تحبسان نفسيهما داخل المقصورة لمدة طويلة جدا. وكانت المرأة ذات الثيـاب الرمادية تعطي بخشيشا للشخص الذي تكلمت معه بقيمة عشرة فرنكات علـى الأقل. وكما قال لي هذا الشخص، لو كانتا تتكلمان في التوافه لما أعطيتـاني بخشيشا قيمته عشرة فرنكات. وكانت الآنسة البـ.. تأتي أحيانا مـع امـرأة داكنة البشرة تحمل نظارة بمقبض ولكن (الآنسة البـ) كـانت فـي أغلـب الأحيان تأتي مع فتيات أصغر سنا منها، وبخاصة مع فتـاة صـهباء جـدا. وماعدا السيدة ذات الثياب الرمادية، لم تكن الفتيات اللواتي كانت الآنسة البـ اعتادت اصطحابهن من «بالبيك»، وكن يأتين في أغلب الأحيان من منـاطق نائية. لم يكن يدخلن معا، ولكن الآنسة البـ، حسب هذا الشخص، كانت تدخل وتترك باب المقصورة مفتوحا، لأنها كانت تنتظر صديقة، وكـان الشـخص الذي تكلمت معه يعرف معنى هذه العبارة. ولم يتمكن هـذا الشـخص مـن إعطائي أية تفاصيل أخرى لأنه لم يتذكر جيدا، «ومن السهل فهم ذلك، بعـد أن انقضت مدة طويلة». يضاف إلى ذلك أن هذا الشخص لم يسـع ليعـرف أكثر لأنه كتوم ولأنه صاحب مصلحة ويكسب من الآنسة البـ.. مالا وفـيرا. ولما علم بموتها تأثر بكل صدق. ولأنها ماتت في عز شبابها، فهذه مصيبـة كبرى أصابتها وأصابت ذويها. إنني أنتظر أوامر سيدي لأعـرف إن كـان علي أن أغادر «بالبيك» لأنني لاأظن أنني سأتنسم مزيدا من الأخبار. وأشكر سيدي مرة أخرى على هذه الرحلة الصغيرة الرائعة التي أمنها لي، لاسـيما وأن الطقس كان ملائما جدا فالموسم يبشر هذه السنة بالخير. ونأمل أن يـأتي سيدي هذا الصيف لنراه قليلا.

لم يبق شيء يذكر يمكن قوله لسيدي، ..» إلخ

لكي أفهم كم اخترقت هذه الكلمات مسامي، يجب أن أتذكر أن الأسئلة التي طرحتها على نفسي حول البيرتين لم تكن أسئلة ثانويـة ولامباليـة ولا

أسئلة تفصيلية نطرحها وحدها في الحقيقة حول جميع الأشخاص الذين ليسوا نحن، مما يسمح لنا التنقل بين الألم والكذب والرذيلة والموت، متسربلين فكرة كتيمة. لا، كان هذا بالنسبة لألبيرتين مسألة جوهرية: كيف هي في أعمق أعماقها؟ بماذا فكرت؟ ماذا أحبت؟ هل كذبت علي؟ هل كانت حياتي معها برثاثة الحياة التي عاشها «سوان» مع «أوديت»؟ ماتوصلت إليه إجابة «ايميه»، مع أنها لم تكن إجابة عامة بل خاصة -من جراء ذلك- كانت فعلا الغوص في الأعماق، في أعماق البيرتين وفي أعماقي.

وأخيرا كنت أرى أمامي، من خلال دخول البيرتين إلى الحمام من الشارع الصغير وبصحبة السيدة ذات الثياب الداكنة، قطعة من هذا الماضي التي لم تبد لي أقل سرية واقل إرهابا مما كنت أخشاه عندما كنت أتخيله، في نظر البيرتين، حبيس الذكرى. لاغرو أن شخصا آخر غيري قد يجد أن هذه التفاصيل دون معنى، وهي تفاصيل مرتبطة بعجزي -بعد أن ماتت البيرتين الآن- عن دحضها بواسطة البيرتين، وتبقى بمثابة احتمال. لابل من المحتمل بالنسبة لالبيرتين، لو كانت هذه التفاصيل حقيقية وأقرت هي بأخطائها (لأن ضميرها وجد هذه الأخطاء بريئة أو تستحق اللوم، ولأن شهويتها وجدتها لذيذة أو تافهة)، فإنها تبقى غير مشوبة بانطباع لايعبر عنه من الهلع من عدم فصلها. فأنا، بفضل حبي للنساء الذي يختلف عن حب البيرتين لهن، أستطيع أن أتخيل قليلا ماكان يختلج فيها. أجل لقد بدأت أعاني لتصوري إياها تشتهي ما اشتهيت غالبا، وتكذب علي كما كذبت عليها غالبا، وتهتم بهذه الفتاة أو تلك فتنفق عليها، كما أنفقت على الآنسة «دي ستاماريا» وكثيرات غيرها، وعلى الفلاحات اللواتي كنت أصادفهن في الريف. نعم، إن جميع رغباتي تساعدني على فهم رغباتها إلى حد ما؛ لقد كانت معاناة كبيرة، إذ كلما كانت جميع الرغبات حية كلما تحولت إلى مواجع فتاكة؛ كما لو أنها في عملية رياضية للعواطف تظهر بالمعامل الجبري نفسه، ولكن بإشارة ناقص بدلا من إشارة زائد. ولكن أخطاء البيرتين، على قدر ماأستطيع أن أحكم أنا، ومهما شاءت إخفاءها عني -وهذا جعلني أفترض أنها كانت تشعر بالذنب أو أنها كانت تخاف من إثارة غمتي- لكن هذه الأخطاء، لأنها أعدتها على هواها في وضح التخيل الذي تعتمل فيه الرغبة، كانت تبدو لها أشياء من نفس شاكلة أشياء الحياة، ومتعا لها لم تجرؤ على رفضها، وغموما بالنسبة لي حاولت أن

تجنبني إياها بإخفائها عني، ولكنها متع وغموم قد تتدرج بين متـــع الحيـــاة وغمومها. ولكنني من الخارج، ودون سابق إنذار ودون تمحيص للصـــور، تلقيت من رسالة «ايميه» صور البيرتين هذه وهي تصل إلى الحمام وتحضر البخشيش[*].

لأنني كنت أقرأ في وصول البيرتين الصامت والمصمم مع المـــرأة ذات الثياب الداكنة، المواعيد التي أقامتها، فإن الاتفاق على المجيء لممارسة الحب في مقصورة من مقصورات الحمام والمتضمن تجربة عالية في التهتك وتنظيما سريا لحياة مزدوجة، يعود لتلك الصور التي حملت لي ذلك الخـــبر الرهيب عن ذنب البيرتين والتي سببت لي على الفور ألما جســـديا وبقيـــت تلازمني دون انقطاع. ولكـــن ألمـــي رد فـــورا عليـــها؛ ذلـــك أن الحـــدث الموضوعي والصورة يختلفان حسب الحالة الداخلية التي بها نعالجهما. والألم كالثمل هو مخفف هائل للواقع. فعندما يتداخل الألم وهذه الصور، فإنه يجعـل منها شيئا مختلفا جدا عما يمكن أن تكونه لأي شخص آخر سيدة ذات ثيـــاب داكنة أو بخشيش أو حمام أو الشارع الذي تمر فيه البيرتين واثقة من نفســـها وبصحبة تلك السيدة ذات الثياب الداكنة، أي أنها تـــهرب نحـــو حيـــاة مـــن الأكاذيب والأخطاء لم يسبق لي أن تصورتها. لقد حول ألمي تلـــك الصـــور فورا إلى مادتها بالذات، فلم أنظر إليها عبر الضـــوء الـــذي ينـــير مشـــاهد الأرض، لأنها كانت قطعة تنتمي إلى عالم آخـــر والـــى كوكـــب مجـــهول وملعون، إنها كانت مشهدا من مشاهد الجحيم. إن الجحيـــم هـــي «بـــالبيك» بكاملها، هي كل المناطق المحاذية لها التي، حسبما قال «ايميه»، كانت تجلب منها في الغالب الفتيات الأصغر منها سنا وتقودهن إلى الحمام. إن هذا الســـر الذي كنت قد تخيلته في بلاد «بالبيك» والذي تبدد منها عندما عشـــت فيـــها، والذي أملت من ثم التقاطه ثانية عندما تعرفت على البيرتين لأنني، لما رأيتها تمر على الشاطئ، ولما ضرب الجنون برأسي فرغبت في ألا تكون شـــويفة، فكرت في أنها يجب أن تجسد هذا السر، كما أن كل مايتعلق بـــ«بـــالبيك» يتشربه بشناعة. وأصبحت أسماء هذه المحطات، كـ«أبولونفيل» (Apollonville) الخ..، مألوفة ومهدئة جدا، عندما كنت أسمعها في المساء أثناء عودتي مـــن

(*) ومع ذلك ازداد حبي لها الآن؛ فهي بعيدة؛ ذلك أن الحضور، بإقصائه عنا الواقـــع الوحيـــد الذي نفكر فيه، يلطف الآلام، بينما الغياب ينكوها مع الحب.

عند عائلة الـ«فيردوران»، والآن عندما أفكر في أن البيرتين سكنت إحداها وتنزهت حتى المحطة الأخرى وذهبت على الدراجة مرارا إلى الثالثة، فإن هذه الأسماء تثير فيَّ قلقاً أقسى من القلق الذي شعرت به في المرة الأولى، حيث رأيتها بارتباك من سكة الحديد الصغيرة المحلية، وكنت مع جدتي، وذلك قبل وصولي إلى «بالبيك» التي لم أكن بعد قد عرفتها.

من مقدرات الغيرة أنها تجعلنا نكتشف كم واقع الأحداث الخارجية وأحاسيس النفس هي شيء مجهول يقبل ألف احتمال. نظن أننا نعرف الأشياء بدقة ونعرف مايفكر فيه الناس، والسبب البسيط هو أننا لانكترث بذلك. ولكن ماإن نرغب في المعرفة –كما يفعل الغيور– حتى نرى أمامنا صندوق دنيا يدور بسرعة جنونية تجعلنا لانميز شيئا. هل خدعتني البيرتين؟ ومع من؟ وفي أي بيت، وأي يوم؟ هل هو ذلك اليوم الذي قالت لي فيه كذا والذي تذكرت أنني قلت فيه كيت وكيت؟ لاأعلم شيئا. لم أكن أعرف أكثر عن مشاعرها نحوي، وإذا كانت نابعة من المصلحة أو من الحنان. وفجأة تذكرت ذلك الحادث التافه، فعلى سبيل المثال أرادت البيرتين أن تذهب إلى «سان مارتان لوفيتو» (Saint-Martin-le-Vêtu)، قائلة إنها تهتم بهذا الاسم، وربما لأنها وبكل بساطة تعرفت على فلاحة كانت موجودة هناك. ولكن «ايميه» أخبرني بهذا عن عاملة الحمام، لأن البيرتين بقيت تجهل أنه أطلعني على ذلك. وكانت عندي حاجة المعرفة حاجة تجاوزت، في حبي لألبيرتين، حاجة أن أظهر لنا أنني أعلم؛ لأن ذلك كان يسقط بيننا الفصل الذي يفصل بين الأوهام المختلفة، دون أن يؤدي ذلك إلى زيادة حبي لها، بل على العكس. فمنذ أن ماتت، انصهرت الحاجة الثانية مع بقايا الحاجة الأولى: فتصورت الحديث الذي وددت إشراكها في مااطلعت عليه، كما تصورت الحديث الذي طلبت منها فيه مالم أعرفه، أي أن أراها قربي وأسمعها تجيبني بطيبة وأشاهد خديها يكتنزان وعينيها تفقدان خبثهما ويسودها الأسى، أي أنني شاهدتني مازلت أحبها ونسيت غيرتي الساخطة في يأس عزلتي. ان السر الممض في عجزي إعلامها بما اطلعت عليه ووضع علاقاتنا على محك الحقيقة التي عرفتها فقط للتو (والتي لم استطع ربما اكتشافها لأنها ماتت، أحل حزنها محل سر تصرفها الأكثر إيلاما) ماذا..؟ كم تقت لكي تعرف البيرتين أنني اطلعت على قصة مقصورة الحمام، البيرتين التي صارت جزءا

من العدم! كانت هنا أيضاً إحدى نتائج تلك الاستحالة التي نوجد فيها، عندما نضطر إلى التفكير في الموت والى تصورنا شيئاً آخر غير الحياة. صارت البيرتين جزءاً من العدم؛ ولكنها بالنسبة لي هي التي أخفت عليّ مواعيدها مع النساء في «بالبيك» وهي التي تصورت أنها نجحت في إخفاء ذلك عني. عندما نمعن النظر في ماسيحدث بعد موتنا، ألسنا نحن الذين لانعيش إلا في الخطأ نقذف بأنفسنا حينئذٍ؟ أليس في المحصلة من المضحك بمكان أن نتأسف على امرأة صارت جزءاً من العدم، بعد اطلاعنا على مافعلته منذ ست سنوات، فنرغب في أن يتكلم الجمهور عنا بعد موتنا بالحسنى بعد قرن من الزمن؟ إن كان هناك أساس فعلي للاحتمال الثاني أكثر ممّا هو عليه بالنسبة للأول، فإن مَنادم الغيرة الاسترجاعية تنجم عن الخطأ البصري نفسه كما تنشأ عند الناس الآخرين رغبة في المجد بعد موتهم. ومع ذلك، فإن ذلك الإحساس النهائي بالقطيعة النهائية والاحتفالية مع البيرتين، إذا حل في برهة ما محل التفكير في تلك الأخطاء، فإنه سرعان ما يفاقم هذه الأخطاء ويمسحها بطابع لابرء منه. فرأيت أنني هائم على نفسي في الحياة كما لو أنني وحدي على شاطئ لامحدود، فأين اتجهت فلن التقي بها.

ولحسن الحظ أجد من المناسب في ذاكرتي -وهي التي تحمل أشكالاً وألواناً من الأشياء التي بينها الخطيرة وبينها المنقذة والموجودة في تلك الفوضى حيث لاتلتمع الذكريات إلا واحدة بعد الأخرى- أن أعثر على قول لجدتي، كما يعثر العامل على شيء يستطيع أن يستخدمه في عمله. لقد روت لي قصة غريبة وهي ان عاملة الحمّام قد حدثت السيدة «دي فيلباريسيس» فقالت: «إنها امرأة مصابة بمرض الكذب». وهبّت هذه الذكرى لنجدتي. مامدى صحة ماقالته عاملة الحمّام لـ «ايميه»؟ لاسيما وأنها في المحصلة لم تشاهد شيئاً. تستطيع المرأة أن تأخذ حمّاماً مع صديقاتها دون أن يكون في ذلك أي شرّ. وربما أن عاملة الحمّام، كي تزهو بنفسها، بالغت في قيمة البخشيش. ذات مرة سمعت «فرانسواز» تؤكد أن عمتي «ليوني» (Léonie) قالت إنها تخصص «مليون فرنك في الشهر للطعام»، وهذا ضرب من الجنون؛ وتؤكد أيضاً أنها رأت عمتي «ليوني» تعطي «أولالي» (Eulalie) أربع أوراق من فئة الألف فرنك، مع أن ورقة من فئة الخمسين فرنكاً مطوية أربع طيّات كانت تبدو لي هي الأصح. وهكذا بحثت، ونجحت شيئاً فشيئاً في

التخلص من القين الممضّ الذي وصلت إليه بشق النفس، وكنت أراوح دائماً بين الرغبة في المعرفة والخوف من الإلم. عندها استطاعت عاطفتي أن تولد من جديد، ولكن شاب هذه العاطفة فوراً حزن الانفصال عن البيرتين، وأثناءه كنت أكثر بؤساً مما كنته في الساعات الأخيرة حيث اعتلجت فيّ الغيرة. ولكن هذه الغيرة عادت لتولد مجدداً عندما فكرت في «بالبيك»، بسبب الصورة التي رأيتها فجأة (والتي لم تكن حتئذ تؤلمني، لابل كانت تبدو لي صورة طفيفة الأذى في ذاكرتي) والتي تظهر فيها غرفة الطعام في «بالبيك» أثناء المساء، ووراء الزجاج يظهر حشد كبير من البشر المزدحمين في الظلام كما لو كانوا أمام زجاج مُنار في حوض سمك، ونظرت إلى هذه الكائنات البشرية الغريبة تتحرك في النور؛ ولكنْ تلامست في تجمّعها (وهذا ما فاتني أن فكرت فيه) صائدات السمك وبنات البلد مع البورجوازيات الصغيرات اللواتي كن يشعرن بالحسد إزاء هذه الرفاهية الجديدة في «بالبيك»، هذه الرفاهية، إن لم نقل الثروة، التي كان البخل على الأقل أو التقليد يمنع ذويهن منها. وكانت البيرتين بالتأكيد تتواجد كل مساء تقريباً مع هؤلاء البورجوازيات الصغيرات؛ ولم أكن قد تعرفت عليها بعد على الأرجح كانت تختار إحدى الفتيات فتلحق بها بعد بضع دقائق في الليل إلى الرمل أو ترافقها إلى مقصورة مهجورة على سفح الجرف الصخري. ثم استفاق حزني عندما سمعت صوت المصعد لايقف في طابقي بل يذهب إلى الأعلى، كأن في ذلك حكماً عليّ بالنفي. بيد أن الشخص الوحيد الذي تمنيت زيارته لن يأتي إلى الأبد، لأنه مات. ومع ذلك عندما كان المصعد يتوقف في طابقي كان قلبي يخفق فأقول لنفسي لحظة: «ياليت كل هذا لم يكن إلا حلماً! ربما هي، وستقرع الجرس، إنها عادت، وتدخل فرانسواز لتقول لي بهلع تجاوز درجة الخوف، إذ كان وسواسها أكبر من حقدها، وكانت تخشى فتاتي حية أقل مما تظن أنها عادت ربما بعد الموت: «لن يصدق سيدي مطلقاً من هو هنا». فحاولت ألا أفكر في شيء وفي أن أتناول جريدة ولكن القراءة كانت بالنسبة لي لاتطاق، لأن هذه المقالات كتبها أناس لايشعرون بألم حقيقي. لقد قال أحدهم عن أغنية تافهة: إنها تستحق البكاء، أما أنا فبودي أن استمع إليها بكل حبور لو أن البيرتين على قيد الحياة. وقال آخر، مع أنه كاتب كبير، بعد أن هتف له الناس عند نزوله من القطار، إنه تلقى هنا شهادات «لاتنسى»؛

أما أنا، فلو تلقيتها الآن، لما فكرت فيها لحظة واحدة. وأكد ثالث أن الحياة الباريسية، بدون السياسة القميئة، تكون "لذيذة تماما"، بينما أعرف أنا تمام المعرفة أن هذه الحياة، حتى بدون سياسة، لاتستطيع إلا أن تكون شنيعة في نظري؛ ولو أنني وجدت البيرتين، لكانت لذيذة تبدو لي، حتى مع السياسة.
وقال أحد الإخباريين عن مهنة الصيد (وكنا في شهر أيار): «إن هذا الوقت لأليم فعلا، أو بالأحرى لنقل إنه كارثي بالنسبة للصياد لأن الطرائد معدومة تماما»؛ وأردف أخباري «الصالون» قائلا: «أمام هذه الطريقة في تنظيم معرض، يشعر المرء بأنه أصيب بإحباط كبير وبحزن لاحدود له.» إذا كانت قوة إحساسي تظهر لي أن عبارات أولئك الذين لم يعرفوا السعادة والتعاسة الحقيقيتين كاذبة، بالمقابل تستطيع أتفه وأبعد الخطوط المتعلقة بمنطقة «النورماندي» أو «نيس» أو بمؤسسات المعالجة بالماء أو بـ«بيرما» (Berma) أو بأميرة «الغيرمانت» أو بالحب أو بالغياب أو بالخيانة، أن تبرز فجأة أمامي، ودون أن أجد الوقت لأشيح نظري عن صورة البيرتين، فيعاودني البكاء. وبالعادة لم أتمكن حتى من قراءة هذه الجرائد، لأن مجرد فتح إحداها كان يذكرني بالحركات المشابهة التي كنت اقوم بها عندما كانت البيرتين على قيد الحياة، ولكنها غادرتها؛ فكنت أترك الجريدة تسقط دون المقدرة على طيها بالكامل. وكان كل انطباع يثير انطباعا مماثلا وإنما مجروحا لأن وجود البيرتين فيه قد شطب، بحيث لم تتوفر لدي الشجاعة لأعيش حتى النهاية تلك الدقائق المقطعة الأوصال التي تعتلج في قلبي.
وعندما كان الانطباع يغيب تدريجيا عن ذهني وتخف وطأته على قلبي، كنت أعاني فجأة من وجوب الدخول إلى غرفتها، كما كنت أفعل عندما كانت هنا، والبحث عن الضوء والجلوس قرب البيانو الصغير موزعة بين آلهة صغار مألوفين، فإنها سكنت لمدة طويلة شعلة الشمعة وجرس الباب وظهر الكرسي ومجالات أخرى غير مادية، كليلة الأرق والانفعال التي سببتها لي أول زيارة لامرأة أعجبتني. وبالرغم من ذلك، فإن الجمل القليلة التي كانت عيناي تقرآنها في النهار أو التي أتذكرني قرأتها، كانت تثير في غيرة قاتلة. لذا لم تكن تلك الجمل تحتاج إلى تقديم برهان معقول يثبت لاأخلاقية النساء سوى أنها أعادت لي انطباعا قديما مرتبطا بوجود البيرتين. ولأن أخطاءها انتقلت عندئذ إلى لحظة منسية لم تصب عادة عدم التفكير فيها قوتي بالخور –وكانت

البيرتين مازالت حية- فإنها اتخذت شكلا أكثر تشـــابها وإقلاقـــا وشـــناعة. فتساءلت وقتها مجددا إن كانت إفشاءات عاملة الحمـــــام خاطئـــة بالتـــأكيد. وللتوصل إلى معرفة الحقيقة لابد من إرسال «ايميه» إلى «نيس» ليمضـــــي بعض الوقت قرب فيلا «مدام بونتان». فإن كانت البيرتين تحب المتع التـــي تشعر بها المرأة تجاه النساء، وإن كانت قد تركتني كي لاتحرم منها طويـــلا، كان يتعين عليها بعد أن أصبحت حرة أن تحاول مباشـــرة أن تستســـلم لـــها وتنجح فيها، وذلك في منطقة تعرفها وماختارت الذهاب إليها لو لم تـــــدرك أنها ستجد فيها تسهيلات أكثر مما في بيتي. قد يكون موت البيرتين من العادة بمكان بحيث أنه لم يغير اهتماماتي تغييرا يذكر. فعندما تكون خليلتنـــا حيـــة يأتينا جزء كبير من الأفكار التي نطلقها على حبنا أثناء الساعات التي لاتكون فيها قربنا. وهكذا نعتاد أن يكون موضوع حلمنا شـــخصا غائبـــا ونعتـــبره كذكرى، حتى عندما لايغيب إلا بضع ساعات. وكذلك لايغير المـــوت شـــيئا يذكر. عندما عاد «ايميه»، طلبت منه أن يذهب إلى نيس؛ وهكذا لابأفكـــاري وأشجاني ولا بالانفعال الذي أثاره عندي اسم مرتبط بشخص مـــا، فحســـب، وإنما بكافة أفعالي وبالتحقيقات التي أجريها وبطريقة إنفاقي أموالـــــي التـــي أبذلها لأطلع على تصرفات البيرتين، أستطيع القول إن كل حياتي تلك الســـنة كانت مليئة بحب وبعلاقة حقيقية. أما تلك التي خصصتها بذلك الحب فماتت. يقول الناس أحيانا إن شيئا قد يبقى بعد موت الإنسان، إذا كـــان هـــذا فنانـــا ووضع شيئا من روحه في عمله. وكذلك الأمر ربما لوريد ينزع من شخص ويزرع في قلب شخص آخر فتستمر حياة هذا الأخير بعد أن يكون الشـــخص الذي اجتث منه هذا الوريد قد قضى نحبه.

سكن "ايميه" بجانب فيلا السيدة "بونتان" وتعرف على إحدى مدبـــرات المنزل، وعلى مؤجر سيارات كانت البيرتين تتردد عليه من أجل اســـتئجار سيارة ليوم واحد، لم يلاحظ أولئك الأشخاص أي شيء. أخبرني "ايميه" فـــي رسالة ثانية أنه علم من غسالة البلدة الصغيرة السن أن البيرتين كانت تشـــد على ذراعها بطريقة خاصة عندما كانت تعيد لها الغسيل. فقالت الغســـالة : "لكن هذه الآنسة لم تمارس معي أي فعل آخر". أرسلت لـــ"ايميه" المال مـــن أجل مصاريف رحلته، ومن أجل الألم الذي سببته لي رسالته، ومـــع ذلـــك أجتهدت لأداوي ذلك الألم قائلا لنفسي إنه نوع من الألفة التي لا تدل على أي

شيء ماجن، حين استلمت من "ايميه" برقية يقول فيها : "لقد اطلعت على أشياء في غاية الأهمية. وعندي لك الكثير من الأخبار يا سيدي. سأتبع برقيتي برسالة." وفي الغد وصلتني رسالة كان غلافها كافياً لجعلي إرتجف، عرفت أنها كانت من "ايميه"، لأن كل شخص وحتى أكثرهم تواضعا، يسيطر على تلك الكائنات الصغيرة والأليفة التي هي حيّة ونائمة في ذات الوقت على الورق بنوع من الاسترخاء، إنها أحرف كتابته التي يمتلكها وحده.

"في البداية لم ترغب الغسّالة في إعطائي أية معلومات، وأكدت لي أن البيرتين لم تفعل شيئا سوى أنها قرصت ذراعها. ولكنني ولكي أحثها على الكلام دعوتها للعشاء وجعلتها تشرب. عندها روت لي أن الآنسة كانت تلتقيها غالبا على شاطىء البحر، عندما كانت تذهب للسباحة، وأن الآنسة البيرتين التي اعتادت الاستيقاظ باكرا لكي تذهب للسباحة، اعتادت أن تلتقي بها على شاطىء البحر في مكان كثيف الأشجار بحيث لا يستطيع أي إنسان أن يرى أي شيء، على أية حال لم يكن باستطاعة أي شخص أن يراك في مثل تلك الساعة. ثم كانت الغسالة تأتي بصديقاتها وكن يسبحن وبعد ذلك، وبسبب ارتفاع درجة الحرارة هناك والتي تضرب بقسوة حتى تحت الأشجار، كن يبقين على العشب لكي ينشفن أجسامهن، ولكي يتلامسن ويتدغدغن ويتداعبن. لقد اعترفت لي الغسالة بأنها كانت تحب أن تتسلى كثيرا مع صديقاتها وأنها عندما كانت ترى الآنسة البيرتين تحتك بها دائما وهي مرتدية رداء الاستحمام، كانت تنزعه عنها وتداعب بلسانها عنقها وذراعيها، وحتى أخمص قدميها التي كانت البيرتين تمدهما إليها. وكانت الغسالة تتعرى أيضا وكانت الفتيات يتسلين بالتدافع داخل الماء؛ في ذلك المساء لم تخبرني بأكثر من ذلك. ولكني ولشدة انصياعي لأوامرك ورغبة مني بفعل أي شيء لإرضائك، اصطحبت الغسالة الصغيرة لتنام معي. فسألتني إذا ما كنت أرغب بأن تفعل لي ما كانت تفعله لألبيرتين حين كانت تنزع عنها ثوب الاستحمام. قالت لي : (لو أنك رأيت كيف كانت تلك الآنسة تختلج، وتقول لي: إنك تجعلينني أطير فرحا. وكانت تهتاج لدرجة أنها لم تكن تستطيع منع نفسها عن عضي.) ورأيت أيضا أثر العضة على ذراع الغسالة. وأنا أتفهم رغبة الآنسة البيرتين لأن تلك الصغيرة ماهرة حقا."

لقد تألمت في "بالبيك" عندما أخبرتني البيرتين بصداقتها للآنسة "فانتوي". ولكن البيرتين كانت هنا لمواساتي. بعد ذلك، وبسبب بحثي الدائم لمعرفة ما كانت تفعله البيرتين، تسببت بتركها لي، وعندما أعلمتني "فرانسواز" أنها لم تعد هنا وأني الآن وحيد، تألمت أكثر أيضاً. ولكن على الأقل، بقيت البيرتين التي أحببتها في قلبي. والآن ـ وعقاباً لي لأني تماديت بعيداً في فضولي، وخلافاً لما كنت أعتقده، لم يضع الموت حداً له ـ حلت عندي مكانها شابة مختلفة، تكثر من الأكاذيب والحيل إذ كانت تطمئنني وتقسم لي أنها لم تعرف قط تلك المُتع، مع أنها راحت، في أوج حريتها المستعادة، تستمتع بها لدرجة الإغماء، ولدرجة تعضّ فيها تلك الغسّالة التي كانت تلتقيها في الفجر على ضفاف نهر الـ"لوار"، وتقول لها : " أنت تجعلينني أطير فرحاً". البيرتين مختلفة، وليس فقط بالمعنى الذي نعطيه لكلمة مختلف عندما يتعلق الأمر بالآخرين(*). عندما يكون الآخرون مختلفين عنا، فإن هذا الاختلاف لا يمسّنا بشكل عميق، وكذلك فإن رقاص حدسنا لا يستطيع أن يقذف خارجه إلا تأرجحاً مساوياً لذلك الذي قام به في الاتجاه الداخلي، وهكذا فإننا لا نتبيّن هذه الاختلافات إلا في مواضع سطحية منها. فيما مضى عندما كنت أعلم أن امرأة تحب النساء، فإنها لم تكن تبدو لي امرأة أخرى ذات طبيعة خاصة. ولكن عندما يتعلق الأمر بالمرأة التي نحب، ولكي نتخلص من الألم الذي نشعر به من جرّاء فكرة أن الأمر ممكن، عندها لا نسعى فقط لمعرفة ما تفعله، بل لمعرفة ما تشعر به أيضاً أثناء ممارستها إياه وكيف تنظر إلى هذه الممارسة؛ وحين نهبط أكثر فأكثر إلى الأمام، ونتوغل في ألمنا، نصل إلى السر، وإلى الجوهر. كنت أتألم من أعمق أعماقي، ومن جسدي، ومن قلبي، أكثر بكثير مما يسببه لي خوفي من فقدان حياتي، كنت أتألم من هذا الفضول الذي ساهمت فيه كل قوى ذكائي ولاوعيي، وهكذا أنا أسقط الآن في أعماق البيرتين نفسها كل ما عرفته عنها. وهذا الألم الذي أولجته عميقاً في صدري حقيقة هذه العلة عند البيرتين، قد أدى فيما بعد خدمة أخيرة لي. وكالألم الذي سببته لجدتي، كان

(*) عندما يكون السيد "شارلوس" حزيناً، كنا نقول كذلك عبارات مماثلة. ومع أن الوضع مشابه، إلا أننا لا نستطيع أن نتعزّى. لأن الحزن أناني، ولا يمكن أن يقبل دواء من الذي لم يُصَب به، إن ألم السيد "شارلوس" هو بسبب امرأة، وهذا الألم بقي بعيداً عن ألمي طالما أن البيرتين لم تكن سبباً له.

الألم الذي سببته لي البيرتين، وهو آخر صلة بيني وبينها، فإنه تجاوز الذاكرة، لأنه مع بقاء الطاقة التي يمتلكها كل ما هو فيزيائي، فإن الألم لا يحتاج إلى دروس من الذاكرة : وهكذا فإن الرجل الذي نسي الليالي المقمرة التي أمضاها في الغابة، لا يزال يتألم من الروماتيزم الذب أصابه من جراء ذلك.

هذه الميول التي كانت لديها والتي كانت تتكرها، هذه الميول التي لم تصلني عبر التفكير الهادىء، بل عبر الألم الكاوي الذي شعرت به عندما قرأت تلك الكلمات: "أنت تجعلينني أطير فرحاً"، هذا الألم الذي كان يعطيها خصوصية نوعية، وهذه الميول التي لم تكن تضاف إلى صورة البيرتين كما تضاف إلى عسكري البحر (نوع من المحار ينزل في الأصداف الفارغة) الصدفة الجديدة التي يجرّها وراءه، بل كان كالملح عندما يلامس نوعاً آخر من الملح فيغيّر لونه، لا بل أكثر من ذلك، إذ تتغيّر طبيعته عن طريق الترسيب. عندما قالت الغسالة الشابة لصديقاتها : "تخيّلن، ما كنت لأصدق ذلك، ولكن الآنسة هي سحاقية أيضاً"، بالنسبة لي لم يكن ذلك مجرّد رذيلة لم يعرفن بوجودها ثم أضفنها إلى شخصية البيرتين، بل اكتشفن أنها كانت شخصاً أخر، مثلهنّ، تتكلم اللغة نفسها؛ وما جعلها قريبة من الآخرين، كان هو الدافع الذي جعلها غريبة بالنسبة إلي أكثر فأكثر، وهذا يدل على أن ما أخذته منها، ولا أزال أحمله في قلبي، لم يكن إلا جزءا صغيرا منها، وأن الباقي الذي تجاوز في اتساعه ذلك الشيء الهام، وتلك الرغبة الفردية، وأصبح شيئاً مشتركاً بينها وبن الأخريات، قد أخفته عني دائماً، واستبعدتني منه، مثل امرأة أخفت جنسيتها المعادية لأنها جاسوسة، لا بل أكثر خيانة من الجاسوسة، لأنّ الجاسوسة لا تخدع إلا بإخفائها جنسيتها، أما البيرتين فقد أخفت ما يتعلق بإنسانيتها العميقة، وأنها لا تنتمي إلي باقي البشر، بل إلى عرق غريب يختلط بالبشر، ويختبيء بينهم، ولكنه لا ينصهر فيهم أبدا. لقد رأيت لوحتين لـ"الستير" تمثلان منظرا طبيعياً غنيا وفيه نساء عاريات. في إحدى اللوحتين، ترفع فتاة من المجموعة قدمها تماما كما فعلت البيرتين لتعطي قدمها للغسّالة. وبالقدم الأخرى تدفع إلى الماء فتاة أخرى تقاوم بمرح، ساقها مرفوعة وقدمها تكاد تلامس الماء الأزرق. أتذكر الآن بأن رفع الساق يشكل مع الركبة انحناء يشبه انحناء رقبة البجعة الذي كانت ترسمه نهاية

ساق البيرتين عندما كانت مستلقية إلى جانبي في السرير، وأردت مراراً أن أقول لها إنها تذكرني بتلك اللوحتين. لكنني لم أقل لها ذلك خشية أن أوقظ في داخلها صورة أجساد النساء العاريات. أما الآن فأتصورها بجوار الغسّالة وصديقاتها، تعيد تشكيل المجموعة التي أحببتها كثيراً عندما كنت في "بالبيك"، جالساً وسط صديقات البيرتين. ولو كنت من هواة الجمال وحده، لاعترفت بأن البيرتين كانت تشكل تلك المجموعة بطريقة أجمل بألف مرّة، الآن وقد تألفت عناصرها من تماثيل الآلهة العارية التي كان يوزعها النحاتون الكبار في أرجاء قصر "فرساي" تحت الأجمات أو يضعونها في البحيرات لكي تغسلها وتصقلها مداعبات الموج لها. أتصورها الآن شابة على شاطىء البحر إلى جانب الغسّالة، لا بل أكثر شباباً مما كانت عليه معي في "بالبيك"؛ ففي عريهنّ الأنثوي المضاعف، في وسط هذا الجو الحار وتلك النباتات، ينزلن إلى الماء كمنحوتات مائية مقعرة. عندما أتذكر كيف كانت في سريري، يخيّل لي أني أرى ساقها المنحنية، أراها فأرى عنق بجعة يبحث عن فم الشابة الأخرى. عندها لا أعود أرى الساق، بل عنق البجعة الجريء، كتلك التي تسعى مرتعشة إلى فم "ليدا" (Léda) والتي نراها في كل الاختلاجات الخاصة بالمتعة الأنثوية؛ ولأنه لا توجد بجعة واحدة، فهي تبدو وحيدة؛ وكذلك نخمن على الهاتف تموّجات صوت لا نميّزها لأنها غير مرتبطة بوجه من الوجوه، ولكننا عندما نربطها بوجه نعرفه، نستطيع عندئذ أن نسقط على الصوت نبرته. وبدل أن تتجه المتعة في هذا البحث نحو المرأة التي أثارتها، والتي هي الآن غائبة، أستعيض عنها بمتعة تتركز داخل تلك التي تشعر بها. في بعض اللحظات ينقطع الاتصال بين قلبي وذاكرتي. فما فعلته البيرتين مع الغسّالة لم يعد يصلني إلا بواسطة اختصارات شبه جبْرية لم تعد تعني أي شيء بالنسبة لي؛ ولكن التيار الذي انقطع يعود مائة مرة في الساعة ويشتعل قلبي بنار جهنم الجائرة، فأتصور البيرتين وقد أعادتها غيرتي إلى الحياة، أراها حيّة، ثم تتصلب فجأة تحت تأثير مداعبات الغسّالة الشابة لها، فتقول لها : "أنت تجعلينني أطير فرحاً".

كم كانت حيّة وقت ارتكابها ذنبها، أي في اللحظة التي شعرتُ فيها أنه لا يكفيني أن أعرف هذا الذنب، بل أردتها أن تعرف أنني كنت أعلم به. وهكذا، إذا كنت في تلك اللحظات آسف لأنني فكرّت في أنني لن أراها

مطلقاً، فإن هذا الأسف حمل علامات غيرتي، واختلف تمام الاختلاف عن ذلك الأسف المؤلم الذي أحسست به عندما كنت أحبّها، ولم يكن إلا أسفاً على عجزي عن قولي لها : "هل تعتقدين أني لا أعرف ما فعلتِهِ بعد أن تركتني، نعم إنني أعرف كل شيءٍ، كنت تقولين للغسّالة على ضفاف نهر "اللوار": أنت تجعلينني أطير فرحا، لقد رأيت آثار العضّة". لا شك أنني تساءلت: "لماذا أعذب نفسي؟ تلك التي شعرَت باللذة مع الغسّالة لم تعد موجودة، أي أنها ليست شخصا تحتفظ أعماله بقيمتها. إنها لا تقول لنفسها إنني أعرف. ولكنها لا تقول كذلك إنني لا أعرف، طالما أنها لا تقول لنفسها أي شيء". لكن هذا التحليل كان يُقنعني أقل من تصورّ متعتها التي تعود بي إلى اللحظة التي فيها أحسّت بها. إن ما نشعر بِه موجود بالنسبة إلينا فقط ونسقِطه في الماضي، وفي المستقبل، دون أن نلزم أنفسنا بالتوقف أمام حدود الموت الوهمية. إذا كان أسفي لموتها يعاني في هذه اللحظات من تأثير غيرتي ويتخذ شكلاً خاصاً، فإن هذا التأثير سيمتّد بشكل طبيعي إلى أحلامي بالعلوم الخفية وبالخلود والتي لم تكن إلا محاولة لتحقيق ما كنت أصبو إليه. وفي تلك اللحظات أيضاً، لو استطعت أن أستحضر روحها وأنا أدير طاولة تحضير الأرواح، بحسب اعتقاد "برغوت"، أو أن ألتقي بها في العالم الآخر بحسب اعتقاد الأب س...، لما تمنيت ذلك إلا لأقول لها : "أنا أعرف بشأن الغسّالة. كنت تقولين لها : أنت تجعلينني أطير فرحا؛ لقد رأيت أثر العضة".

ما هبّ لنجدتي في مواجهة صورة الغسّالة، ــ وطالت هذه الصورة بعض الشيء ــ هو تلك الصورة نفسها، لأننا لا نعرف حقاً إلا ما هو جديد، إلا الحدث الذي يُدخِل في حساسيتنا تغييراً يصعقنا، هذا الذي تستطيع العادة لاحقاً أن تعوّض عنه بنسخة طبق الأصل باهتة. لكن تجزئة البيرتين إلى أجزاء عديدة، إلى البيرتينات عديدة، كانت هي الشكل الوحيد لوجودها فيّ. واستعدت لحظات كانت فيها طيبة فحسب، أو ذكية، أو جدّية، أو حتى مُحبّة الرياضة أكثر من أي شيء آخر. ألم يكن هذا التجزيء هو ما جعلني أهدأ في بعض الأحيان؟ فحتى ولو لم يكن بحد ذاته شيئاً حقيقيا، وحتى ولو ارتبط بتعاقب الساعات كما تتراءى لي، وكما علق في ذاكرتي مثلما يتعلق انحناء عروض فانوسي السحري بانحناء العدسات الملوّنة، ألا يمثل على طريقته الخاصة حقيقة ما، حقيقة موضوعية، تقول بأن كلاً منا لا يشكل وحدة، بل

يحتوي على عدة أشخاص لا يمتلكون نفس القيمة الأخلاقية، وبأنه إذا كـانت البيرتين الفاجرة قد وجدت فعلا ، فإن ذلك لا يمنع من وجـود البيرتينـات أخريات، كتلك التي كانت تحب أن تتحدث معي في غرفتـها عـن "سـان سيمون"، وتلك التي قلت لها ذات مساء إنه علينا أن نفترق فقالت لي بحـزن شديد : "تصور أني لن أرى مرة أخرى هذا البيانو الصغير وهذه الغرفة"، ثم حين رأت الانفعال الذي سببتـه لي في النهاية كذبتي تلك، صرخت بشـفقة حقيقية : "أوه لا، كل شيءٍ إلا أن أسبب لك الألم، اتفقنا لن أسعى للقائك بعـد الآن". عندها لم أعد وحيداً، شعرت بأن ذلك الحاجز الذي يفصل بينـنا قـد انهار. بعد أن عادتِ البيرتين الطيبة، استعدت الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أطلب منه ترياقاً للآلام التي كانت تسببها لي البيرتين. صحيح أنني كنـت أرغب في التحدث معها عن قصة الغسّالة، دون أن يتخـذ حديثي شـكل الانتصار القاسي أو لكي أخبرها بشكل خبيث أنني أعـرف. كيـف كنـت سأتصرف لو بقيت البيرتين على قيد الحياة؟ أكنت سأسألها بحنان إذا صحّت قصة بالغسّالة؟ كانت ستقسم لي بالنفي، وبأن "ايميه" لم يكن صادقـاً جـداً، وبأنه أبى- لكي يظهر بأنه أستحق المال الذي دفعته له- أن يعـود خـالي الوفاض وقصّ على لسان الغسّالة ما أراده هو. لا شك أن البيرتين لم تكـف عن الكذب عليّ. ومع ذلك، ففي مدّ تناقضاتها وجزره لاحظت تطورا كنـت أنا السبب فيه. ألا تبوح لي في البداية ببعض الأسرار (ربما أحيانا بشـكل لا إرادي، حين تفلت منها جملة ما)، هذا لا أستطيع أن أقسم بأنه حصل، فأنا لم أعد أتذكر أي شيء. ثم كانت لها طرق غريبة جداً في تسمية بعض الأشياء، سواء أكان ذلك يعبّر عن هذا الشيء أم لا. ولكن الشعور الذي تولـد لديـها بسبب غيرتي جعلها فيما بعد تنفي باستنكار أشياء كانت قد باحت لـي بـها مازحة. مع العلم أنها لم تكن بحاجة لأن تقول لي ذلـك. لكـي أتـأكد مـن براءتها، كان يكفيني أن أقبـلها، وأستطيع ذلك الآن بعد أن سـقط الحـاجز الذي كان يفصل بيننا، هذا الحاجز المقاوم واللامحسوس الذي ينتصب بيـن المحبّين بعد الخصام والذي تتكسّر عليه القبل. لا، لم تكن تحتاج لقـول أي شيء. حتى ولو فعلت تلك المسكينة الصغيرة ما أرادت أن تفعله، فإنه سوف تبقى لنا مشاعر تربطنا على الرغم من كل خلافاتنـا. لـو كـانت القصـة صحيحة، ولو أن البيرتين قد أخفت عني ميولها تلك، فإنها قد فعلـت ذلـك

لتجنّبني الحزن. استمتعت بسماعي تلك العبارة تقال لهذه الألبيرتين. ولكن هل عرفت على أية حال البيرتين أخرى؟ أكبر مسببين للخطأ مع شخص آخر هما : إما أن يكون قلبنا طيباً وإما أن نحب ذلك الشخص. إننا نعشق بسبب ابتسامة، بسبب نظرة،بسبب انحناءة فوق كتف. هذا يكفي، لذا فإننا في ساعات الأمل أو الحزن الطويلة، نخترع إنساناً ما، ونؤلف له طباعاً. وحينما نعاشر فيما بعد الشخص الذي نعشقه، لن يعود باستطاعتنا، حين نواجه بعض الحقائق القاسية، أن ننزع تلك الخصال الطيبة، وتلك الطبيعة الأنثوية عن المرأة التي تحبّنا؛ كما أننا لن نستطيع أن ننزع أيضاً عن الكائن الذي يمتلك تلك النظرة، وذاك الكتف، عندما يتقدم به العمر بعد أن عرفناه منذ كان شاباً. كنت أشير إلى النظرة الجميلة والطيبة والرحيمة لالبيرتين تلك، بخديّها الممتلئتين وعنقها ذي الشامات الكبيرة. وكانت هذه صورة المرأة ميتة، ولكن، بما أن هذه الميتة كانت تعيش، فقد سَهُل عليّ القيام مباشرة بما كنت سأفعله بلا شك لو أنها كانت حيّة بالقرب مني (هذا ما سأفعله إذا ما توجّب علي لقاؤها في حياة أخرى)، أي أنني سأسامحها.

لقد كانت اللحظات التي عشتها بجانب البيرتين تلك، ثمينة جداً لدرجة أنني أردت ألا أفقد أية لحظة منها. لكننا أحياناً، وكما نلتقط بقايا ثروة مهدورة، نجد بعد اللحظات التي بدت وكأنها ضاعت : عندما عقدت منديلا إلى الخلف بدلاً من أن أعقده من الأمام، تذكرت نزهة نسيتها تماماً، ولكي لا يصل الهواء البارد إلى حلقي، ربطت لي البيرتين منديلي بهذه الطريقة بعد أن قبّلتني. هذه النزهة البسيطة، التي عادت لذاكرتي بسبب حركة بسيطة، أسعدتني كما تفرحنا تلك الأدوات الشخصية التي تعود لعزيزة ميتة، عندما تعطينا إياها وصيفتها، تلك الأدوات الغالية جداً علينا. وهكذا فإن حزني قد اغتنى وخاصة لأني لم أعد أتذكر مطلقاً ذاك الوشاح. كما هو حال المستقبل، فإننا لا نستمتع بالماضي دفعة واحدة، بل حبّة حبّة.

أجل، كان حزني يتخذ أشكالاً عدّة، حتى أنني لم أعد أعرفه في بعض الأحيان؛ كنت أتمنى الحصول على حب عارم، أردت أن أبحث عن الشخص الذي سيعيش بالقرب مني. وهذا بدا لي كمؤشر على أنني لم أعد أحب البيرتين إذ كان حزني هو الذي أحببته دائما؛ ذلك لأن الحاجة للشعور بحب كبير لم تكن، كما هي حال رغبتي في تقبيل وجنتي البيرتين الممتلئتين،

إلا جزءاً من أسفي. وكنت في أعماقي سعيداً لأنني لم أعشق امرأة جديدة، وانتبهت إلى أن هذا الحب الكبير والمستمر لألبيرتين كان بمثابة ظل للعواطف التي أحسست بها تجاهها، إذ أنتج الأجزاء المختلفة وخضع لنفس قوانين الحقيقة العاطفية التي يعكسها حتى بعد الموت. فشعرت جيداً أنني، إذا استطعت الكف عن التفكير في البيرتين لمدة من الوقت، وإذا أطلت تلك المدّة، لما تمكنت من أن أحبّها من بعد، ولكانت أصبحت بسبب هذا الانقطاع غريبة عني كما هي الآن حال جدّتي. لو مرّ وقت طويل دون أن أفكر فيها لانقطعت من ذكرياتي الاستمرارية التي هي مبدأ الحياة ذاته، والتي يمكن على الرغم من ذلك أن نستعيدها بعد مرور مدّة من الوقت. ألم تكن هذه هي حال حبّي لألبيرتين عندما كانت على قيد الحياة، هذا الحب الذي استطاع أن يعود بعد انقضاء مدة طويلة دون أن أفكر فيها؟ إلا أن ذكرياتي توجّب عليها أن تخضع للقوانين نفسها، وألا تتحمل انقطاعات أطول، لأنها لم تستطع، تماماً كفجر الصبا، إلا أن تعكس بعد موت البيرتين، المشاعر التي كنت أكنها لها، فكانت بمثابة ظل لحبّي. بعد أن أنساها، يمكنني أن أجد أنه من الحكمة والسعادة أن أعيش بلا حبّ. وهكذا فإن أسفي على فقدان البيرتين، لأنه خلق في داخلي الحاجة لوجود أخت، قد جعل من هذه الحاجة رغبة يستحيل إشباعها. وبقدر ما كان يتضاءل أسفي على البيرتين، بقدر ماصارت حاجتي لأخت أقل إلحاحاً، إذ لم تكن سوى شكل لا واعٍ لهذا الأسف. ومع ذلك فإن هذين الشيئين اللذين تبقيا من حبّي، لم يتراجعا بشكل سريع. مرت ساعات كنت عازماً فيها على الزواج، وبقدر ما كانت الرغبة الأولى تنحسر بشدّة، كانت الأخرى على العكس تحافظ على قوة كبيرة. وبالمقابل، بعد أن انطفأت ذكريات الغيرة لدي، كنت أشعر أحياناً بالحنان تجاه البيرتين يحرك فجأة نياط قلبي؛ عندها حين فكرت في أن أحبّ نساء أخريات، قلت لنفسي، إنها لتفهم هذا الحب وتشاطرني إياه، وهكذا تغدو رذيلتها كسبب للحب. كانت غيرتي تتجدد أحياناً في اللحظات التي لم أكن أتذكر فيها البيرتين، مع أنني كنت أغار عليها. واعتقدت أنني أغار بسبب "اندريه" التي أخبروني مؤخراً عن إحدى مغامراتها. ولكن "اندريه" لم تكن بالنسبة لي إلا شخصاً مستعاراً، إلا طريق اتصال، إلا مأخذاً للتيّار يصلني بشكل لا مباشر بألبيرتين. وهكذا فإننا نعطي في الحلم وجهاً آخر واسماً آخر للشخص الذي لا يمكن مع ذلك

أن نخطىء في هويته العميقة. وفي المحصلة، على الرغم من حركات المد والجزر التي كانت تخرق القانون العام في بعض الحالات الخاصة، فإن العواطف التي خلفتها لي البيرتين، ماتت بصعوبة أكبر من ذكرى مسببها الأول. ليست العواطف فقط، وإنما الأحاسيس أيضا. وأختلفت في هذا عن "سوان"، الذي حين توقف عن حب "اوديت"، لم يعد باستطاعته أن يعيد في نفسه خلق الشعور بالحب، فشعرت بأنني لا أزال أعيش ماضيا لم يعد إلا قصة شخص آخر غيري؛ وكانت أناي نصف غائبة، وصار طرفها الأعلى قاسيا وباردا، بينما بقي يشتعل في قاعدته كلما أعادت لي شرارة الحب القديم، حتى ولو كان ذهني قد توقف منذ فترة عن تصور البيرتين. لم تكن أية صورة لألبيرتين ترافق الاختلاجات القاسية التي حلت محلها، ولا الدموع التي كان يحملها إلى عيني الهواء البارد الذي ينفخ، كما في "بالبيك"، على أشجار التفاح التي أصبحت زهرية اللون، فتوصلت إلى أن أتساءل إذا ما كان تجدد ألمي ناتجا عن سبب مرضي، وإذا ما حسبته انتعاشا للذكرى ومرحلة أخيرة لقصة حب، هو بداية مرض بالقلب.

إن لبعض الأمراض أعراضا جانبية، وغالبا ما يخلط المريض بينها وبين المرض ذاته. وعندما تتوقف، يندهش عندما يرى نفسه أقرب إلى الشفاء مما كان يعتقد؛ هكذا كانت هي المعاناة التي سببتها التعقيدات الناجمة عن رسائل "ايميه" بخصوص إقامة الحمامات وبخصوص الغسالات. ولكن في الوقت نفسه، لو زارني طبيب روحاني لوجد أن حزني تحسن. بما أنني كنت إنسانا، بما أنني كنت أحد تلك المخلوقات المزدوجة الطبيعة التي تغوص في الماضي وفي الحقيقة الراهنة في آن واحد، فقد وجد دائما في داخلي، وبلا شك، هذا التناقض بين الذكرى الحية لألبيرتين ومعرفتي بأنها قد ماتت. ولكن هذا التناقض كان إلى حد ما، عكس التناقض الذي كان موجودا في السابق. فالفكرة القائلة بموت البيرتين والتي في البداية كانت تحارب بعنف في داخلي الفكرة القائلة بأن البيرتين ما زالت حية، إن تلك الفكرة التي كنت أمامها مضطرا إلى الفرار كطفل يهرب من وصول الموجة إليه — وهي الفكرة التي لم تكف عن مطاردتي — ، تمكنت أخيرا من اكتساح الحيز الذي شغلته مؤخرا في داخلي فكرة حياة البيرتين. ودون أن أنتبه لذلك، كانت فكرة موتها — وليست ذكراها الحاضرة في حياتي — هي التي تشغل إلى حد

كبير أعماق أحلامي اللاواعية، لدرجة أنني إذا أوقفت تلك الأحـــــلام فجـــأة لأفكر في نفسي، وهذا ما كان يدهشني، اختلف الأمرعما كان عليه في الأيـلم الأولى حين أستطاعت البيرتين الحية التي كانت في داخلي لدرجة كبــيرة ألا توجــد على هذه الأرض، واستطاعت أن تموت؛ لكن البيرتين التي لم تعــد موجودة في هذه الدنيا والتي ماتت، بقيت حية جدا فـــي داخلـــي. وبعــد أن خضعت لتأثير الذكريات المتتالية والمتحاذية، انقطع فجأة النفق الأسود الـذي طالما حلمت تحت وطأته أفكاري، بحيث تآلفت معه ولم تعد تشعر بوجـــوده، انقطع لظهور ومضة شمس، هدهدت في البعيد أفقا باسما أزرق كانت فيـــه البيرتين مجرد ذكرى لامبالية وساحرة. فتساءلت : هل هي الحقيقيـــة، أم أن الكائن الموجود في الظلمة، التي أعيشها منذ زمن بعيد، هو على مـــا يبـــدو الحقيقة الوحيدة؟ إن الإنسان الذي كنته منذ فترة ليست بالبعيدة، والذي ما كان يعيش إلا لينتظر دائما تلك اللحظة التي كانت تأتي فيها البيرتين لتقـــول لـــه مساء الخير وتقبله، ماهو إلا نوع من تعدد أناي الذي يجعلني أبـــدو كجـــزء ضعيف ومسلوب، وكوردة تتفتح، شعرت بنضارة تجديد البراعم التي تبعــث الشباب والتجدد. في ما تبقـــى، دفعتني هذه الإلتماعات القصيرة على ما يبدو لأعي بشكل أكبر حبي لألبيرتين، كما يحصل لجميع الأفكار الثابتة الموجودة باستمرار والتي تحتاج إلى نوع من المعارضة لكي ترسخ. إن الذين عاشـــوا حرب عام ١٨٧٠ مثلا، قالوا إن فكرة الحرب بدت لهم طبيعية في النهايـــة، ليس لأنهم لم يفكروا كفاية في الحرب، بل على العكس لأنهم كانوا يفكـــرون فيها بشكل دائم. ولكي يفهموا لأية درجة كانت فكرة الحـــرب هـــذه غريبـــة ومهمة، احتاجوا إلى شيء ينتزعهم من هوسهم الدائم، وينسيهم لبرهة سيطرة الحرب، ويعيدهم إلى ما كانوا عليه أيام السلم، حتى ظهرت فجأة تلك اللحظة التي تجلت فيها بوضوح على هذا البياض المؤقت، تلك الحقيقـــة المرعبـــة: وهي أنهم قد توقفوا عن الرؤية وأنهم لم يعودوا يـــرون شـــيئا آخـــر غـــير الحرب.

ولو أن انحسار الذكريات المختلفة لألبيرتين من داخلي قد حدث مـــرة واحدة وليس على دفعات، ولو أنه تم مباشرة على طول خط ذاكرتي، أي لـــو أن ذكريات خيانتها تناءت في آن مع ذكريات عذوبتها، لكان النسيان جلـــب إلي الراحة. لكن الأمر لم يتم بتلك الطريقة. وكمـــا يحـــدث الجـــزر علـــى

الشاطىء بشكل غير منتظم، كنت فريسة لبعض شكوكي، في حين كانت صورة حضورها العذب قد ابتعدت جدا عني ولم يعد باستطاعتها منحي الدواء الشافي.

لقد تألمت من الخيانات، ومع أنها حدثت منذ سنين طويلة، إلا أنها لم تكن قديمة بالنسبة إلي، لكنني سأتألم بشكل أقل عندما تصبح كذلك، أي عندما يضعف تفكيري فيها، لأن بعد الشيء يتناسب مع القدرة البصرية للذاكرة التي تشاهد، أكثر مما يتناسب مع المسافة الحقيقية للأيام التي انقضت، إنها كذكرى حلم شاهدناه الليلة الماضية وبدا لنا بسبب عدم وضوحه وبهوت صورته أكثر بعدا من حدث يعود إلى سنين خلت. ولكن على الرغم من أن فكرة موت البيرتين قد تطورت في داخلي، إلا أن انحسار الشعور بأنها حية، وإن لم يكن يوقف هذا التطور، فإنه كان يعارضه ويمنعه من الانتظام. وقد تنبهت الآن أنه خلال تلك الفترة (وعلى الأرجح بسبب نسياني تلك الساعات التي حجرت فيها عليها، والتي لكثرة ما محت في داخلي من عذاب الأخطاء التي بدت لي غير مهمة لأنني كنت أعرف أنها لم ترتكبها، قد غدت كبراهين تثبت براءتها)، كنت أتعذب من التعايش المستمر مع فكرتين تقول إحداهما إن البيرتين قد ماتت (حتى هذه اللحظة كنت أنطلق من فكرة أنها حية)، وفكرة أخرى شعرت بأنني لا أستطيع تحملها، وبدأت دون أن أعي تشكل شيئا فشيئا أساس شعوري وتحل محل فكرة براءة البيرتين : ألا وهي فكرة إثمها. عندما ظننت أنني أشك فيها، آمنت بها على العكس من ذلك؛ وكذلك، كنقطة انطلاق لأفكاري الأخرى كونت قناعتي بأنها مذنبة ــ وغالبا ما كنت أكذب هذه النقطة كما أكذب أيضا الفكرة المعاكسة لها ــ تم كل ذلك وأنا أتخيل أنني ما زلت أشك. لقد تألمت كثيرا في تلك المرحلة، لكني اقتنعت الآن، أن الأمر كان يجب أن يتم هكذا. لا يمكن أن نشفى من ألم ما لم نعشه بشكل كامل. لأنني حميت ألبيرتين من كل صلة، ولأنني صنعت وهما يأخذ ببراءتها، تماما كما فعلت لاحقا عندما ارسيت تحليلاتي على فكرة أنها حية، فإنني لم أفعل شيئا سوى تأجيل ساعة شفائي، فأرجأت الآلام المحتومة لساعات طويلة. غير أن التفكير في أن البيرتين مذنبة، كان يتم بحكم العادة، ويتبع القوانين نفسها التي اختبرتها خلال حياتي. وكما أن اسم "غيرمانت" فقد معنى وسحر الطريق المحفوف بأزهار النيلوفر وبنجمية "جيلبير لوموفي"

(Gilbert le Mauvais) الزجاجية، فإن حضور البيرتين طغى على تموجات البحـــر الزرقاء، وأسماء "سوان" وصبي المصعد، وأميرة "غيرمانت" والكثـــير مـــن الأشخاص بكل ما عنوه بالنسبة إلي، فترك هذا السحر وتلك المعـــاني فـــي نفسي كلمة صغيرة وجدوا أنها كبيرة كفاية لكي تعيش وحدهـــا، كالشـــخص الذي يأتي ليشغـــل خادمه فيطلعه على مجريات الأمور وينسحب بعد عـــدة أسابيع، كذلك بدأت الفكرة المؤلمة القائلة بأن البيرتين مذنبة تتلاشـــى مـــن داخلي بحكم العادة. وحتى ذلك الحين، وضمن تلك الحالة من الاعتياد،كـــان الحليفان يتبادلان العون، كما في هجوم يـــشن من اتجاهين دفعة واحدة. ولأن فكرة ذنب البيرتين غدت بالنسبة إلي فكرة أكثر احتمالا، وأكثر اعتيادا، فقـــد أصبحت أقل إيلاما. ولكن، من ناحية أخرى، لأنها غدت أقل إيلامـــا، فـــإن اعتراضاتي على يقين ذنبها، وهي اعتراضات ما راودت فكري إلا رغبـــة مني في ألا أتألم كثيرا، قد بدأت تنهار الواحدة تلو الأخرى؛ وبما أن كل فعل يسرع الفعل الآخر، فقد انتقلت بسرعة كبيرة من قناعتي ببراءة البيرتين إلـــى قناعتي بذنبها. وتعين علي العيش مع فكرة موت البيرتين، مع فكرة أخطائها، إلى أن أصبحت هذه الأفكار اعتيادية بالنسبة إلي، فصرت قادرا على نسيانها وبالتالي على نسيان البيرتين نفسها.

لم أكن قد وصلت بعد إلى هذا الحد. وأحيانا كانت ذاكرتي التي غدت أكثر وضوحا نتيجة استثارة ذهنية ــ بسبب القراءة مثلا ــ هي التي تجـــدد حزني، وأحيانا أخرى كان حزني الذي اهتاج بسبب القلق الذي مبعثه الطقس العاصف، هو الذي يرفع إلى الأعلى ويقرب إلى النور بعضا من ذكريـــات حبنا.

أجل، إن تجدد فترات حبي لألبيرتين الميتة كان يمكن أن يحدث بعـــد فترة من اللامبالاة مملوءة بأمور غريبة أخرى، مثلا، بعد انقضـــاء الفـــترة الطويلة التي بدأت بالقبلة المرفوضة في " بالبيك" والتي خلالها انشغلت أكـــثر بالسيدة "دى غيرمانت" وبـــ"اندريه" والآنسة "دى ستيرماريا"؛ وتحرك حبـــي لألبيرتين عندما عدت لرؤيتها أكثر. والآن أرى أن بعض المشاغل المختلفـــة يمكن أن تحدث انفصالا ــ عن إمرأة ميتة في حالتي هذه ــ وأصبحـــت لا أبالي بها. وكل ذلك لسبب واحد ألا وهو أنها كانت حية بالنسبة لي. وحتـــى فيما بعد، عندما فـــتـــر حبي لها، بقي الأمر بالنسبة لي كأحد تلك الرغبـــات

التي نسأم منها سريعا، والتي تعود إذا ما تركناها ترتاح لبعض الوقت. كنت ألاحق امرأة حية، ثم أخرى، ثم أعود بعد ذلك إلى ميتتي. وغالبا ما كان الأمر يتم في الأجزاء الأشد عتمة في داخلي، عندما كنت أعجز عن تكوين أية فكرة واضحة عن البيرتين، فيأتي بالصدفة اسم يثير في نفسي ردود فعل مؤلمة لم أتصور أنها ما زالت ممكنة، كأولئك المحتضرين الذين توقف دماغهم عن العمل والذين نتمكن من إحداث تشنج في أحد أعضائهم إذا ما أدخلنا فيه إبرة. وخلال فترات طويلة كانت هذه الاستثارات نادرا ما تصيبني، حتى أنني كنت أبحث بنفسي عن مناسبة للحزن، عن أزمة غيرة، محاولا أن أربط نفسي بالماضي، وفي أحسن الأحوال، لكي أتذكرها بشكل أفضل. وبما أن أسفنا على امرأة ليس إلا حبا متجدد الحياة يبقى خاضعا لنفس قوانين الحب، كذلك فإن قوة أسفي كانت تزداد لنفس الأسباب التي حرضت حبي لألبيرتين عندما كانت حية، وكانت الغيرة والألم يأتيان في مقدمة هذه الأسباب. ولكن تلك المناسبات كانت في أغلب الأحيان ـ إذ يستطيع المرض أو الحرب مثلا أن يدوم أكثر بكثير من تقديرات الحكمة الحصيفة ـ تولد على الرغم مني وتسبب لي صدمات عنيفة بحيث تدفعني إلى التفكير في حماية نفسي من الألم أكثر من إبقائها كذكرى.

أجل، إن كلمة مثل كلمة "شومون" (Chaumont) ليست بحاجة لأن ترتبط بشك(*) لكي توقظه، ولكي تكون كلمة السر، والسمسم السحري الذي يشق باب ماض أهملناه لأننا سئمنا من رؤيته، ولأننا بصريح العبارة، لم نعد نمتلكه؛ لقد جردنا منه، واعتقدنا أن شخصيتنا بسبب ذاك الاستئصال قد تغيرت بحسب شكله، كالشكل الهندسي الذي حين يفقد زاوية فإنه يفقد ضلعا. إن بعض الجمل التي يرد فيها مثلا اسم شارع أو طريق قد مرت فيه البيرتين، كانت تكفي لتجسيد غيرة افتراضية غير موجودة، بحثا عن جسد، عن مسكن، عن ركيزة مادية، عن إنجاز خاص.

بكل بساطة غالبا ما كان يحصل أثناء نومي، بواسطة تلك "الاستعادات"، ومقدمات الحلم تلك (أو da capo الحلم)، التي تقلب دفعة واحدة

(*) (حتى أن مقطعا صوتيا واحدا مشتركا بين اسمين مختلفين كان كافيا بالنسبة لذاكرتي ـ كما هو الحال بالنسبة للكهربائي الذي يكتفي بأقل جسم ناقل ـ ليعيد الاتصال بين البيرتين وقلبي).

عدة صفحات من الذاكرة، أن عدة ورقات من التقويم تعيدني وترجعني لانطباع مؤلم وقديم، كان قد أفسح المجال منذ زمن بعيد لمشاعر أخرى وأراه الآن يطفو على السطح. كان يترافق عادة بإخراج رديء، ولكنه أخاذ، كان يوهمني، ويضع نصب عيني ويسمعني ما حدث سابقا في تلك الليلة. أجل، في قصص الحب وأشكال تصديها للنسيان، ألا يشغل الحلم مكانا أوسع حتى من اليقظة، ذاك الحلم الذي لا يأخذ بالحسبان تقسيمات الوقت المتناهية في الصغر، ويلغي الفواصل، ويجعل التناقضات الكبرى تتعارض، ويهدم بلحظة عملية التعزية التي نسجناها ببطء خلال النهار ويهيىء لنا في الليل لقاء مع تلك التي نسيناها في آخر المطاف، شرط ألا نعود فنلقاها من جديد؟ مهما قلنا، فإننا نستطيع أن نشعر في الحلم بأن ما يحصل هو حقيقي تماما. وهذا لا يمكن أن يحدث إلا لأسباب مقتبسة من تجربتنا أثناء اليقظة، وهي تجربة تكون في تلك اللحظة خافية عنا. بحيث تصبح تلك الحياة المستحيلة، حياة تبدو لنا حقيقية. أحيانا، وبسبب خلل في الإنارة الداخلية، خلل يؤثر في المسرحية، كانت ذكرياتي التي أخرجت مسرحيا بشكل جيد، تخلق عندي وهم الحياة، فأصدق فعلا أنني ضربت موعدا لألبيرتين، وأنني قابلتها؛ لكنني شعرت عندئذ بأنني عاجز عن السير نحوها، عاجز عن نطق الكلمات التي وددت أن أقولها لها، عاجز عن إشعال المصباح الذي انطفأ لكي أراها، وكانت هذه المستحيلات في حلمي كناية عن السكون والصمت وضرارة النائم، كما يحصل لنا أن نرى فجأة في المصباح السحري ظلا كبيرا، كان يجب ألا يظهر، يمسح صورة انعكاس الشخصيات، ولكن هذا الظل ما هو إلا ظل الفانوس نفسه أو ظل الشخص الذي يشغله. وأحيانا أخرى كانت تظهر البيرتين في حلمي، وكانت من جديد تريد هجري، ولكن دون أن يتمكن قرارها من التأثير في. والسبب هو أن ذاكرتي استطاعت أن ترسل في عتمة نومي شعاعا منبها، فكان الذي يسكن البيرتين ويفقد أفعالها المستقبلية ورحيلها المعلن كل أهمية، هو فكرة أنها ميتة. ولكن غالبا ما كانت ذكرى البيرتين الميتة تختلط، وبشكل أوضح، مع الإحساس بأنها حية دون أن تهدم ذلك الإحساس. كنت أتحدث إليها، وأثناء ذلك كانت جدتي تذهب وتجيء في الغرفة. وتفتت جزء من ذقنها ووقع كشجرة منخورة، ولكنني لم أجد في ذلك أية غرابة. كنت أقول لألبيرتين إنني أود أن أطرح عليها بعض الأسئلة

المتعلقة بإنشاء حمّامات: "بالبيك" وبإحدى غسّالات "تورين"، ولكنني كنت أرجىء ذلك إذ كان لدينا متسع من الوقت ولا شيء يقتضي العجلة. كانت تعدني بأنها لن ترتكب حماقة وأنها قبّلت فقط بالأمس الآنسة "فانتوي" على شفتيها. "كيف؟ أهي هنا؟ ــ أجل، وقد حان الوقت لكي أتركك لأنني يجب أن أراها بعد قليل". وبما أنني، منذ موت البيرتين، لم أعد أحبسها عندي كما في آخر أيام حياتها، فإن زيارتها للآنسة "فانتنوي" كانت تقلقني. ولم أرد إظهار ذلك، لأن البيرتين قالت لي إنها قبلتها فقط. ولكن يبدو أنها قد عادت للكذب كما في الماضي حيث كانت تنفي كل شيء. بعد قليل لن تكتفي على الأرجح بتقبيل الآنسة "فانتوي". ولكن ومن وجهة نظر أخرى، أخطأت عندما أظهرت قلقي، لأن الموتى لا يستطيعون الشعور بأي شيء أو فعل أي شيء، هكذا يقال. ولكن ذلك لم يمنع جدتي المتوفاة منذ عدة سنوات أن تستمر في العيش، سنوات وسنوات، وأراها في هذه اللحظة تروح وتجيء في الغرفة. بعد أن أستيقظ، لا شك أن فكرة الميّتةِ التي تستمر في الحياةِ تغدو مستحيلة الفهم عندي ومستحيلة التفسير أيضاً. ولكني كنت قد شكلتها مرات عديدة، خلال مراحل الجنون العابرة التي هي أحلامنا، لدرجة أني تآلفت معها في آخر الأمر. إن ذاكرة الحلم قد تصبح دائمة، إذا ما تكررت الأحلام كثيراً. وأتصور الآن أن هذا الرجل، حتى ولو شفيَ اليوم وعاد إلى رشده، فإن عليه أن يفهم بشكل أفضل من الآخرين ما أراد أن يقول خلال فترة سابقة من حياتهِ العقلية، فحاول أن يشرح لزواره في مشفى الأمراض العقلية أنه ليس مختلاً، وذلك رغم ادعاءات الطبيب الذي يقارن بين سلامة عقله والتخيلات المجنونة لمرضاه، ويختتم بقوله : "وهكذا فإن هذا الرجل الذي يبدو غيرمختلف عن الآخرين بحيث لا تظنونه مجنوناً، هو مجنون بالفعل! إنه يحسب نفسه يسوع المسيح وهذا غير ممكن، لأن يسوع المسيح هو أنا!" ولفترة طويلة بعد انتهاء حلمي كنت أبقى معذباً بسبب تلك القبلة التي أخبرتني البيرتين عنها بكلمات أعتقد أني ما زلت أسمعها. وفي الحقيقة أن هذه الكلمات قد مرّت بالقرب من أذنيّ بما أنني أنا الذي تلفظت بها. وتحدثت طيلة النهار مع البيرتين، وسألتها وسامحتها وعوّضت عن نسياني أشياء طالما رغبت في أن أقولها لها عندما كانت على قيد الحياة. وفجأة ارتعبت عندما فكرت أن الشخص الذي استحضرته ذاكرتي، ووجهت إليه كل هذه

الكلمات لا وجود له البتة. وأن أجزاء وجهه المختلفة قد تهدّمت، وأن الاندفاع المستمر للرغبة في العيش، الرغبة التي اضمحلت الآن، هما وحدهما اللذان أعطيا هذا الشخص وحدته وتجانسه.

في السابق، وبدون أن أحلم، كنت أحس بمجرد استيقاظي أن الهواء قد تغيّر في داخلي، وراح يهبّ بارداً ومستمراً باتجاه آخر آت من أغوار الماضي، حاملا لي ناقوس الساعات البعيدة، وصفارات الرحيل التي لم أكن أسمعها بالعادة، وعندها كنت أحاول أن آخذ كتاباً. وكنت أفتح رواية لـ"برغوت" أحبها بشكل خاص. كانت شخصياتها اللطيفة تعجبني جداً، وكان سحر الكتاب يأخذني بسرعة، ورحت أتمنى، كرغبة شخصية، أن تعاقب المرأة الشريرة؛ وتبللت عيناي بالدموع عندما تحققت سعادة المحبّين. ولكنني صرخت يائساً : " من كل تلك الأهمية التي علقتها على ما فعلت البيرتين، لا أستطيع التأكد من أن شخصيتها هي شيء حقيقي لا يمكن إلغاؤه، ومن أنني سوف ألقاها يوما ما في السماء كما هي الآن، إذا تمنيت كل هذه الأمنيات، وانتظرت بهذه اللهفة كلها، واستقبلت بكل تلك الدموع نجاح شخص لم يوجد إلا في مخيّلة "برغوت"، شخص لم أره أبدا، ولي الحرية أن أتخيّل وجهه بالشكل الذي أريد!" أجل، كانت في هذه الرواية فتيات مغريات، ورسائل غرامية، وممرات مقفرة يمكن اللقاء فيها، كل هذا كان يذكرني بأن المرء يستطيع أن يعشق سراً، فأيقظ هذا الأمر غيرتي، كما لو أن البيرتين لا تزال تستطيع التنزه في تلك الدروب المقفرة. ووردت أيضاً حكاية رجل التقى، بعد خمسين عاماً، بامرأة كان يحبها وهي صبية، فلم يتعرف عليها وضجر بالقرب منها. فذكرني هذا بأن الحب لا يدوم، واضطربت كما لو أنه قد قدّر لي أن تهجرني البيرتين، وأن أعود فألتقيها بلا مبالاة في شيخوختي. وعندما كانت عيناي تقعان على خريطة لفرنسا، كنت أجتهد بألا انظر إلى منطقة الـ" تورين" ولكي لا أشعر بالغيرة ولكي لا أغدو بائسا عندما يشار في منطقة "النورماندي" إلى "بالبيك" و "دونسيير"، التي حددت بينهما كل الطرقات التي سلكناها معا مرات ومرات. من بين كل الأسماء الأخرى للمدن والقرى في فرنسا، المرئية منها و المسموعة، فإن اسم "تور" (Tours) مثلا، بدا وكأنه تشكل بطريقة أخرى، ليس من صور لا ماديّة، بل من مركبات سامة تؤثر مباشرة في قلبي فتسرّع ضرباته وتجعلها مؤلمة. وإذا

امتدت هذه القوة لتصل إلى بعض الأسماء فتجعلها شديدة الاختلاف عن الأسماء الأخرى، فكيف إذا ما بقيت أكثر قرباً من ذاتي، وإذا ما اكتفيت بالبيرتين وحدها، كيف يمكن بعدها أن أفاجأ بأن القوة التي لا يمكنني مقاومتها، والتي تستطيع أن تستخدمها كل امرأة، وهي التي تنتج عن تشابك واحتكاك الأحلام والرغبات والعادات والعواطف وتداخلها مع العذابات والرغبات المتعاقبة؟ وهذا ما جعل موتها يستمر، ذلك أن الذاكرة تكفي للحفاظ على الحياة الحقيقية، التي هي ذهنية. كنت أتذكر البيرتين وهي تنزل من مقصورة القطار، وأنا أقول لنفسي إنها تود الذهاب إلى "سان مارتان لو فيتو" (Saint-Martin-leVêtu) وأتخيلها أيضاً قبل ذلك، بقميصها الرياضي الذي أسدلت سدارته على خديّها، فاستعدت إمكانيات فن السعادة، وسعيت نحوها قائلاً لنفسي : "كان بإمكاننا الذهاب سوية حتى "كامبيرليه" (Quimperlé) وحتى "بون آفن" (Pont-Aven)» . لا توجد محطة بعد "بالبيك" إلا واستعرضتها، بحيث أعادت لي تلك الأرض، وكأنها بلد أسطوري يتمتع بالحماية الأثارية، أعادت لي الأساطير العتيقة حيّة وقاسية، تلك الأساطير الساحرة والمندثرة بسبب ما حدث لاحقاً لقصة حبي. كم سأتعذب إن نمت ثانية في سرير "بالبيك"، الذي تنقلت حياتي حول إطاره النحاسي وتطورت، كأنها دارت حول محور ثابت، وحول قضيب جامد، وتضمنت تباعاً أحاديث ممتعة مع جدتي، وإحساساً بهول موتها، كما تضمنت ملامساتي اللطيفة لالبيرتين، واكتشافي رذيلتها، وتنطوي الآن على حياة جديدة ألمح فيها المكتبات ذات الواجهات الزجاجية التي ينعكس عليها البحر والتي أعرف أن البيرتين لن تدخلها مطلقاً! ألم يكن فندق "بالبيك" هذا، كالديكور الوحيد لتلك المسارح الموجودة في المحافظات حيث تمثل منذ سنوات شتى المسرحيات، فقد استخدم هذا الديكور في مسرحية كوميدية، ثم في تراجيديا أولى ثم ثانية، وفي مسرحية شعرية بحتة، هذا الفندق الذي يرتقي بعيداً في ذاكرتي وشهدت جدرانه دائماً على حقبات جديدة من حياتي؟ إن بقاء هذا الجزء على حاله، وبقاء الجدران والمكتبات والمرآة، كان يشعرني كل هذا بأني أنا الذي تغيّرت، وكان بالتالي يخلق عندي إحساساً لا يعرفه الأطفال في تفاؤلهم المتشائم ويقول إن أسرار الحياة والحب والموت هي وقف على بعض الناس، ولكنهم لا يشاركون فيها،

فنكتشف بكبرياء مؤلم أننا التحمنا خلال تلك السنوات الماضية مـــع حياتنـــا نفسها.

وحاولت أن آخذ الجرائد.

وكانت قراءة الجرائد شنيعة لي ومؤذية أيضاً. ففينا تكون كلُ فكـــرة كتقاطع طرق في إحدى الغابات، إذ تنطلق منها دروب شتى، ولكننـــي أجـد نفسي أمام ذكرى جديدة في حين لاأنتظرها فيه. فقادتني مقطوعة «الســرّ»، للموسيقي «فوريه» (Fauré) إلى مقطوعة أخرى هي «سر الملك» للدوق «دي بروغلي»، وقادتني هذه الأخيرة إلى مقطوعة «شومون». وكذلك فإن كلمـــة «الجمعة العظيمة» جعلتني أفكر في «الجلجلة»، وهذه دفعتني إلى التفكير في تأثيل الكلمة التي على مـــايبدو تعـــادل «Calvus mons» (جبـــل الصّلـــب)، أو «شومون». وعبر أي طريق قادني إلى «شومون»، فإنني أصبـــت بصدمـــة قاسية ماإن فكرت في أنه من الأفضل لي أن أتحصّن ضدّ الألم، بـــدلاً مـــن البحث فيه عن ذكريات. وبعد الصدمة ببرهة، قدّم لي الذكاء الذي لايســـافر بعيداً كدوي الرعد، قدّم لي السبب. فدفعني «شومون» إلى التفكير بـــ«بوت-شومون» (Buttes- Chaumont) حيث قالت لي مدام «بونتان» إن الفتاة «أندريـــه» كانت تذهب كثيراً مع البيرتين، مع العلم أن البيرتين كانت قد قالت لي إنها لم ترَ قط «بوت شومون». في سنّ من حياتنا، تتقاطع ذكرياتنا وتتداخل بحيـــث يصبح الكتاب الذي نقرأه أو الفكرة التي تعتمل فينا، غير مهم إلى حدّ ما. لقد بذلنا شيئاً منا في كل مكان، وصار كل شيء خصبـــاً وخطـــيراً، وأصبـــح بإمكاننا أن نقوم باكتشافات نفيسة، كما فعل «باسكال» في «خواطره»، مـــن خلال دعاية لنوع من الصابون.

قد تكون حادثة مثل حادثة الـــ«بوت شومون»، التي وجدتـــها فـــي الماضي تافهة، كانت بحد ذاتها، وهي ضد البيرتين، أقل خطورة وحسماً من قصة عاملة الحمام أو الغسّالة. وترد أولاً على خاطرنا ذكرى وتأتينا فجـــأة، فتجد فينا قوة بكراً في التخيّل، وفي حالتنا قوة في التألم، فاستهلكناها جزئيـــاً لأننا نحن الذين ركزنا فكرنا طوعاً لإعادة خلق ذكرى من الذكريات. وتكون هاتان (أي عاملة الحمام والغسّالة)، الحاضرتان مع أنهما غامتا في الذاكـــرة، كقطع الأثاث تلك التي وضعت في عتمة إحدى صـــالات العـــرض والتـــي

نخشى -دون أن نميّز بينها- أن نصدمها، ذلك أنني تعودتها. على العكس، منذ أمد طويل لم أفكر في «بوت- شومون»، كما لم أفكر مثلاً في معاينة البيرتين نفسها في مرآة كازينو «بالبيك»، وفي تأخر البيرتين غير المبرّر في المساء بعد أن انتظرتها أنا طويلاً عقب سهرة الـ«غيرمانت»؛ كان بودي أن أعرف جميع أجزاء حياتها التي بقيت خارج قلبي كي تندمج فيه وتنضم إليه وتلتحق بالذكريات الأرق التي تشكل البيرتين داخلية ومملوكة فعلاً. وعندما كنت أكشف جزءاً من غطاء العادة الثقيل (تلك العادة المخبّلة التي طيلة حياتنا تحجب عنا العالم كله تقريباً، وفي عميق الليل كانت تستبدل أنقع السموم وأكثرها تخديراً في الحياة -دون تغيير مسمياتها- بشيء تافه لايوفر اللذات)، كانت تعاودني كما في أول عهدها، بتلاء الجدة الطازجة والنافذة لفصل بازغ من فصول السنة، ولتغيير في رتابة ساعاتنا؛ وفي مجال المتع كانت، إذا صعدنا عربة في أوائل أيام الربيع أو إذا خرجنا من بيتنا عند شروق الشمس، تظهر لنا أفعالنا التافهة بغبطة جلية تضع في مكان الصدارة تلك الدقيقة الكثيفة وتفضلها على مجمل أيامنا السابقة. فتغطي الأيام القديمة تدريجياً الأيام التي سبقتها، وتندثر تحت الأيام التي تليها. ولكن يبقى متموضعاً فينا كل يوم قديم كمكتبة ضخمة تحوي بين أقدم كتبها نسخة لن يطلبها على الأرجح أحد إطلاقاً. ولكن ما إن يطفو هذا اليوم القديم، ويجتاز شفافية المراحل السابقة، وينتشر فينا ويغطينا على الكامل، حتى تستعيد الأسماء لبرهة معناها السابق، والكائنات وجهها الأول، ونستعيد نحن روحنا كما كانت، فنشعر، مع ألم غامض ولكنه محتمل دون استدامة، بالمشاكل التي أصبحت معضلات تقض مضاجعنا. إن أنانا مصنوعة من تراكم حالاتنا المتعاقبة. ولكنّ هذا التعاقب ليس ثابتاً كما في تناضد التضاريس الجبلية. فيبزغ دائماً ثوَران على سطح الطبقات القديمة. وهكذا وجدت نفسي بعد السهرة عند الأميرة «دي غيرمانت» منتظراً عودة البيرتين. ماذا فعلت في تلك الليلة؟ هل خانتني؟ مع من؟ وحتى إذا قبلت بإفشاءات «ايميه»، فإنها لم تحدّ إطلاقاً من الأهمية المقلقة والمؤسفة لتلك المسألة غير المتوقعة، كما لو أن البيرتين كانت مختلفة، وكما لو أنّ كل ذكرى جديدة، تطرح مشكلة غيرة خاصة لايمكن أن تنطبق عليها حلول الآخرين.

ولكنني لم أحاول أن أعرف فقط مع أية امرأة قضت تلك الليلة، وإنما مامثلته لها تلك المتعة الخاصة، وما كان يعتمل فيها أثناءها. وأحيانا كانت «فرانسواز» تبحث عنها في «بالبيك» وكانت تقول لي إنها وجدتها تطل من نافذتها بقلق وتترصد كأنها تنتظر شخصا ما. لنفترض أن البنت المنتظرة كانت «أندريه»، فبأية حالة نفسية كانت ألبيرتين تنتظرها؟ أبتلك الحالة التي تخفي النظرة القلقة والمتفحصة؟ ماكانت أهمية ذلك الطعم بالنسبة لالبيرتين، وأي مكان كان يحتل من بين اهتماماتها؟ للأسف، عندما أتذكر اضطرابلتي الخاصة كل مرة كنت ألاحظ فيها أن فتاة أعجبتني، وأحيانا بعد أن سمعت عنها فقط دون أن أراها، ماعلي إلا أن أتصور اهتمامي بأناقتي وبإبراز امتيازاتي وأتصور أنهار العرق البارد تتصبب مني، وماعلي لأتعذب إلا أن أتصور ذلك الانفعال الشبقي عند البيرتين. وكأني بذلك أشغل تلك الآلة التي تمنت عمتي «ليوني»، بعد كل زيارة طبيب كان يبدي شكه في حقيقة مرضها، أن تخترع لتمكنه من أن يشعر ويرى جميع الآلام التي تعاني منها مريضته. وكان هذا يكفي لإيلامي وليقول لي أيضا إن مناقشات جادة دارت معي حول «ستاندال» و«فيكتور هوغو» لم تعرها اهتماما يذكر، وشعرت أن قلبها قد مال نحو أشخاص آخرين وتخلى عني ليتجسد في مكان آخر. ولكن أهمية تلك الرغبة كانت عزيزة عليها، أما التحفظات التي كانت تتشكل حولها فلم تكشف لي النقاب كميا عن ماهيتها، زد على ذلك أنها كانت تصفها عند تحدثها عن تلك الرغبة مع نفسها. في الألم الجسدي على الأقل ليس لنا أن نختار بأنفسنا ألمنا. فالمرض هو الذي يحدده ويفرضه علينا. ولكن في الغيرة يتعين علينا أن نجرب آلاما من شتى الصنوف وشتى الحجوم قبل أن نتوقف عند الألم المناسب، في رأينا. ياللصعوبة الكبرى عندما نرى ألما كهذا، ألما نشعر فيه أن الفتاة التي نحبها تشعر بمتعة مع أشخاص آخرين غيرنا، وتمنحها أحاسيس لانستطيع أن نؤمنها لها، لا بل إنها بتمثلها وبتصورها وبتشكلها تتخيل أشياء أخرى لاعلاقة لها البتة بنا! آه لو أن البيرتين أحبت «سان لو» -كما يبدو لي- لتألمت أقل!

صحيح أننا نجهل الحساسية الخاصة بكل فرد، ولكننا بالعادة لانعلم أننا نجهلها، لأن حساسية الآخرين لاتهمنا. وفي مايتعلق بألبيرتين، ارتبطت سعادتي أو تعاستي بماهية هذه الحساسية؛ فقد كنت أعلم تماما أنني أجهلها،

ولكوني أجهلها فقد أثارت ذلك الألم في نفسي. إن الرغائب والمتع المجهولة التي شعرت بها البيرتين، توهمت ذات مرة أنني أراها، ومرة أخرى أنني أسمعها. أن أراها: عندما أتت «أندريه» إلى بيتي، بعد موت البيرتين بزمن، بدت لي للمرة الأولى جميلة، فقلت لنفسي إن هذا الشعر الأجعد تقريبا وهاتين العينين الداكنتين المحاطتين بالزرقة هي ماأحبته البيرتين وذابت به؛ ومثل لدي ماكانت تحمله في أحلامها العشقية، وما كانت تراه بناظريها المستبقين للشهوة، يوم أرادت فجأة العودة إلى «بالبيك». وكزهرة داكنة نقلها الي من خلف القبر أحدهم عن شخص لم أستطع ان اكتشفها له، بدا لي – كنبش ذخيرة مقدسة لاتقدر بثمن– أنني أشاهد أمامي الرغبة المتجسدة لالبيرتين، فصارت شهوتي لـ«أندريه» مثل شهوة «جوبيتر» لـ«فينوس». كانت أندريه تأسف لغياب البيرتين، ولكنني شعرت فورا أنها لم تكن مشتاقة لصديقتها. فلأن الموت انتزع منها صديقتها عنوة، بدا بسهولة أنها أخذت موقفا من فراقها النهائي لها، بحيث أنني لم أجرؤ أن أسألها متى كانت البيرتين حية، لأنني خشيت ألا أتمكن من الحصول على موافقتها. وبدا لي بالعكس أنها قبلت دون صعوبة بهذا التخلي، ولكن بالضبط عندما كف عن إفادتي. تخلت لي «أندريه» عن البيرتين، الميتة، والتي لم تضع حياتها بالنسبة لي فحسب، بل إرجاعيا أضاعت شيئا من ماهيتها؛ وتم ذلك عندما لاحظت أن «أندريه» استغنت عنها إذا واستطاعت أن تستبدلها بآخرين.

عندما كانت البيرتين على قيد الحياة، لم أجرؤ الطلب من «أندريه» أن تكشف لي النقاب عن طبيعة الصداقة التي تربطها بصديقة الآنسة «فانتوي»، لأنني لم أكن واثقا من أن «أندريه» ستكرر كل ماسأقوله لالبيرتين. أما الآن فإن مثل هذا الاستجواب، وحتى لو بقي دون نتيجة، فسيكون على الأقل دون خطر. فتكلمت مع أندريه، لا بلهجة المتسائل ولكن كما لو كنت أعلم ذلك منذ زمن بعيد، وربما على لسان البيرتين، عن ميل «أندريه» نفسها نحو النساء وعن علاقاتها الخاصة بالآنسة «فانتوي». فاعترفت بكل هذا دون صعوبة وبابتسامة. فاستطعت من هذا الاعتراف استخلاص بعض النتائج القاسية؛ وهي أولا أن «أندريه» التي كانت شديدة العاطفة والأناقة وتخالط العديد من شبان «بالبيك»، لم يتصور أحد أن لها عادات لم تنكرها إطلاقا، فعندما اكتشفت عن طريق القياس هذه الـ«أندريه»

الجديدة، وسعني الاعتقاد أن البيرتين باحت بها بنفس السهولة لأي شخص آخر غيري لأنها رأت في رجلا غيورا. ولكن بما أن «أندريه» كانت من جهة أخرى أفضل صديقة لالبيرتين، ولأن هذه الأخيرة عادت إلى «بالبيك» على الأرجح من أجلها، وبما أن «أندريه» باحت بهذه الميول، فإن الاستنتاج الذي يفرض نفسه على ذهني هو أن البيرتين و«أندريه» مارستا دائما علاقات معا. كما أننا أمام شخص غريب لانجرؤ دائما على الاطلاع على الحاضر الذي يعيده إليك والذي لن نفض المغلف إلا بعد أن ينصرف المعطى له، فإنني طالما أن «أندريه» موجودة هنا لم أعد إلى نفسي لأفحص فيها مدى ألمي الذي سببته لي، وسببت أنا لأعضاء جسدي، أي لأعصابي وقلبي من اضطرابات كبرى، وبسبب تربيتي الصالحة كنت أتظاهر بأنني لاأشعر بها، لا بل بالعكس كنت أتحدث بكل لباقة مع الفتاة التي استضفتها دون أن أولي اهتماما بتلك الأحداث الداخلية. وحز في قلبي بخاصة أن اسمع «أندريه» تقول عن البيرتين: «نعم كانت تحب كثيرا أن نتنزه معا في وادي «الشيفروز» (Chevreuse) فبدا لي أن «أندريه» أضافت لتوها إلى خلق الله واديا ملعونا كانت تتم فيه نزهات البيرتين و«أندريه»، وذلك بابتكارها عالما غامضا وغير موجود اخترعته لاحقا وبطريقة جهنمية. وشعرت بأن «أندريه» ستقول لي كل ماكانت تفعله مع البيرتين، فحاولت بأدب وحذق وعزة نفس وربما بامتنان أن أظهر أكثر بمظهر العطوف، في حين أن الحيز الذي تركته لبراءة البيرتين كان يزداد تقلصا، بدا لي أنني رأيتني، بالرغم من جهودي، أحافظ على شكل جامد لحيوان محاصر في دائرة فيحوم فوقه كاسر ساحر لاينقض عليه لأنه متأكد من أن الضحية لن تفلت منه وأنه سينال منها متى يشاء. فنظرت إليها، وبما يبقى من سحر وطبيعة وثقة لدى الأشخاص الذين يريدون التظاهر بعدم الخوف من تنويمهم مغناطيسيا عن طريق الحملقة فيهم، قلت لـ«أندريه» هذه العبارة العابرة: «لم أحدثك عن ذلك خشية إغضابك، ولكن الآن ونحن نتكلم برقة عنها، أستطيع أن أصرح لك بأنني كنت أعلم منذ فترة طويلة بمثل هذه العلاقات التي كانت بينك وبين البيرتين؛ ستكونين مسرورة بأن البيرتين كانت تعبدك، وتعرفين ذلك». وقلت لألبيرتين إن فضولا كبيرا يختلج في، ياليتها تقبل بأن تريني (ولو فقط بالمداعبات بشرط ألا تحرج أمامي) كيف تفعل ذلك مع صديقات البيرتين من صاحبات

تلك الميول، وأسميت «روزموند» و«بيرت» وجميع صديقات البيرتين، لآخذ فكرة

ـ لاشيء في العالم يجعلني أعمل ماتقول أمامك، أجابتني أندريـــه، ولاأظن أن واحدة ممن ذكرت لها هذه الميول». فلمت نفسي بـــالرغم منـــي على الوحش الذي استجرني. فأجبت:

ـ«كيف! لن تجعليني أصدق أنك بين شلتكم كلها كنت تفعلين هذا مع البيرتين وحدها.

ـ ولكنني لم أفعل هذا قط مع البيرتين.

ـ لا ياعزيزتي أندريه، لماذا تنكرين أشياء أعلمها منذ ثلاث سـنين؟ لاأجد شرا في ذلك، على العكس. خذي مثلا ذلك المساء الذي أرادت فيـه أن تذهب معك في اليوم التالي إلى بيت السـيدة فـيردوران، ربمـا تتذكريـن ذلك..».

وقبل أن أنهي جملتي، رأيت في عيني أندريه اللتيـن نتأتـا كتلـك الحجارة التي يصعب على الجوهريين التعامل معها، نظرة مرتبكـة تمـر، كأنها رؤوس بعض المديونين الذيـن يرفعـون طـــرف السـتارة قبـل بداية المسرحية ويفرون فورا كي لايروا. واختفت تلك النظرة القلقة، وعـاد كل شيء إلى مكانه، ولكنني شعرت أن كل ما قد أراه الآن سيتم بافتعال مـن طرفي. ونظرت وقتئذ إلى المرآة فدهشت لوجود بعض الشبه بينـي وبيـن أندريه. لو أنني منذ فترة طويلة لم أحلق شاربي ولـو أن ظلـي ماكـان إلا واحدا، لكان هذا الشبه كاملا تقريبا. ربما أن البيرتين في «بـالبيك» عندمـا رأت شاربي يكبران قليلا، نفد صبرها واغتاظت ورغبت في الذهـاب إلـى باريس. «ولكنني لاأستطيع مع ذلك أن أقول ماهو خطأ، لسبب بسيط وهـو أنك لاتراه شرا. أقسم لك أنني لم أمارس قط هذا الشيء مع البيرتين وإننـي مقتنعة أنها كانت تمقت هذه الأشياء. إن الناس الذين قالوا لك ذلك قد كذبـوا عليك، وربما لهدف مغرض»، هذا ماقالته لي بنبرة متسائلة وحذرة. فأجبتها: «وأخيرا فليكن، مادمت لاتريدين أن تقوليه لي»، وفضلت التظـاهر بـأنني لاأريد تقديم برهان لم يتوفر عندي. ومع ذلك لفظت بشكل غائم اسم «بـوت شومون» لا على التعيين. «تمكنت من الذهاب إلـى بـوت شـومون مـع

البيرتين، ولكن هل هو مكان موبوء؟». وطلبتُ منها أن تتكلم مع «جـيزيل» التي في فترة ما عرفت بخاصة البيرتين. ولكن أندريه صرّحت لي أنها بعـد عمل شائن عملته معها «جيزيل» مؤخراً، سيكون مصير خدمة أطلبها منــها الرفض الدائم. وأضافت: «إذا رأيتها، لاتقل لها ماقلته لك عنها، مِـن غـير المفيد أن تستعديني. إنها لاتعرف ماذا أظن حولها، ولكنني فضلتُ دائمـاً أن أتجنب معها المشادات العنيفة التي لاتؤدي إلا إلى مصالحات. أضف إلى ذلك أنها خطيرة. إنك تدرك أن من يقرأ رسالة استلمتها منذ ثمانية أيام وأنه أثنـاء قراءتها يكذب عليك بكل خبث وبكل بساطة، لن تقوى أجمل الأشـياء فـي العالم على نسيان مافعلت». وفي المحصلة، إذا كانت هذه الميول موجـودة عند أندريه ولم تخفِ ذلك إطلاقاً، وإذا كانت البيرتين تكنّ لها وداً كبيراً، مـع أن أندريه لم تمارس أية علاقة جسدية مع البيرتين لا بل جهلت وجود مثـل هذه الميول عند البيرتين، فذلك يعني أن البيرتين لم تعرف هذه الميول وأنـها لم تمارس مثل تلك العلاقات لا مع أندريه ولا مع غيرها. وعندمـا ذهبـت أندريه، لاحظت أن تأكيدها القاطع قد جلب إليها الطمأنينة. ولكن، قد يكـون الواجب هو الذي أملاه عليها، وهو واجب اعتبرت أندريه نفسها مجبرة عليه تجاه الميتة التي مازالت لها ذكرى في قلبها: وهو عدم إفساح المجال للاعتقاد بما طلبت منها البيرتين نفيه، أثناء حياتها.

بعد أن حاولت مرات كثيرة أن أتخيل تلك المتع، تراءى لـي مـرة أخرى أنني أفاجىء خلوتهما بشكل آخر غير العينين، فظننت أنني أسـمعها. لقد استجلبت إلى أحد المواخير لغاسلتين صغيرتين من الحي الـذي كـانت تتردد عليه البيرتين. وتحت مداعبات إحداهما، راحت الأخرى فجأة تصـدر صوتاً لم أتبينه في البداية، لأن المرء لايفهم تماماً معنى صوت فريد يعـبر عن إحساس لم نشعر به. وإذا سمعنا هذا الصوت من إحدى الغرف المجاورة دون أن نرى شيئاً، نظن أنه قهقهة، وماهو إلا ألم ينتاب المريض الذي أجري له عمل جراحي ولكن دون تخدير. أما الصوت الذي تصدره أم علمت تـوا بموت ولدها، فقد يبدو لنا، إن لم نعرف السبب، عصياً على التفسير البشري، إذ يشبه صوتاً يصدره حيوان وقد يكون صوتاً ينبعث من آلة الهارب ويلزمنا بعض الوقت لنفهم أن هذين الصوتين يعبران مجازاً عما شعرنا به نحن مـع أنه مختلف، وندعوه ألماً؛ واحتجت أيضاً إلى بعض الوقت لأفـهم أن هـذا

الصوت يعبر مجازاً عما شعرت به وكان شديد الاختلاف، وسميته متعة؛ وكان يتعين على هذا الأخير أن يكون قوياً جداً ليزعزع الشخص الذي يشعر به فيصدر تلك اللغة المجهولة التي تدل وتفسر، على مايبدو، جميع مراحل المأساة اللذيذة التي عاشتها تلك المرأة الصغيرة التي حجبها عن ناظري الستار المسدل إلى الأبد في وجه الآخرين والذي غطى ماحدث لكل مخلوق في سره الحميم. ولم تستطع هاتان الصغيرتان أن تقولا لي شيئاً، ولم تكونا تعلمان من هي البيرتين.

غالباً ما يدّعي الروائيون في مقدمة رواياتهم، أنهم أثناء أسفارهم إلى أحد البلدان صادفوا شخصاً روى لهم حياة شخص. فيتركون عندئذ الكلام لهذا الصديق العابر، والقصة التي يرويها لهم تصبح بالضبط روايتهم. وهكذا رويت حياة «فابريس ديل دونغو» (Fabrice del Dongo) للكاتب «ستاندال» على لسان أحد كبار الكهنة في مدينة بادوفا[1]. وكم نود، عندما نعشق، أي عندما نرى أن حياة شخص آخر هي غامضة، أن نجد راوية مطّلعة. ولابد أنه موجود. ألا نروي نحن في أغلب الأحيان، دون أي انفعال، حياة هذه المرأة أو تلك لصديق لنا أو لغريب لايعرفان شيئاً عن مغامراتها العاطفية ونستمع إليها بفضول؟ الرجل الذي كنته عندما تكلمت مع «بلوخ» عن الأميرة «دي غيرمانت» وعن «مدام سوان»، هو إنسان عاش وكان باستطاعته أن يكلمني عن البيرتين، إن هذا الإنسان موجود فعلاً... ولكننا لانلتقي به قط. ويبدو لي أنني لو وجدت نساء عرفنها لأدركت كل ماجهلته. ومع ذلك يبدو للأغراب أنه ما من أحد غيري استطاع أن يعرف حياتها. ألم أتعرف على أندريه، وهي أفضل صديقة لديها؟ هكذا يظن الناس أن صديق الوزير يجب أن يعرف الحقيقة حول بعض الأمور أو أنه لايمكن أن يتورط في دعوى قضائية. ومع الزمن، تعلم هذا الصديق وحده أنه كلما تكلم في السياسة مع الوزير، كان هذا الأخير يبقى في العموميات وكان لايقول له أكثر مما قالته الصحف؛ وإذا حصل أنه تعرض لبعض المتاعب، فإن التماساته العديدة لدى الوزير تؤدي كل مرة إلى هذه العبارة: «هذا ليس من صلاحياتي» ولا بالطبع من صلاحيات الصديق. فقلت لنفسي: «لو أنني استطعت التعرف على

---

[1] يشير بروست هنا إلى رواية «دير الشارتريين في مدينة بارما» (١٨٣٩) (المترجم).

بعض الشهود!»، ولو عرفتهم فعلا، لما حصلت على شيء أكثر مما قالته لي أندريه التي تخفي سرا لاتريد البوح به. لقد كنت مختلفا في هذا عن «سوان» الذي عندما كف عن الغيرة توقف فضوله عما كانت «أوديت» تفعلـــه مـــع «فورشيفيل» (Forcheville)؛ وحتى بعد أن تخليت عن غيرتي، ماكنت أعشـــقه هو التعرف على غسالة البيرتين وعلى سكان حيها، كـــي أســتعيد مراحــل حياتها ودسائسها. وبما أن الرغبة تنجم عادة عن جاذبية مسبقة، كما حصــل لــ«جيلبيرت» وللدوقة «دي غيرمانت»، ففي تلك الحـــارات حيــث كـــانت البيرتين تعيش سابقا، بحثت عن نساء بحثت عن نساء من وسطها وتوخيــت وجودهن وحدهن. وحتى دون أن أتمكن من معرفة شيء، النساء الوحيـــدات اللواتي جذبنني كن هاتيك اللواتي عرفتهن ألبيرتين أو اللواتي كان الممكن أن تتعرف عليهن، أي نساء بيئتها أو البيئات التي ارتاحت لها، وبوجيز العبـــارة النساء اللواتي في نظري حظظن بمشابهتها أو اللواتي أعجبت بهن. ومن بين هاتيك لابد من ذكر بنات البلد، لأن حياتهن كانت متباينة عن الحيـــاة التـــي عرفتها والتي عشنها. من الأرجح أن المرء لايمتلك الأشياء إلا عن طريـــق الفكر وحده، فإنه لايملك لوحة لأن اللوحة موجودة في غرفة السفرة إذا لـــم يعرف أن يفهمها، كما أنه لايعرف بلادا يقيم فيها دون أن يشاهدها. ولكـــن كنت أتوهم سابقا بأنني أستعيد إدراك «بالبيك»، عندما كانت البيرتين تـــأتي إلى باريس لتراني فأضمها بين ذراعي؛ كذلك كنت أطلـــع اطلاعـــا كثيفـــا وخاطفا على حياة البيرتين، وعلى جو المشاغل، وعلى أحـــاديث طـــاولات المقاهي، وعلى روح الأكواخ، عندما كنـــت أقبـــل إحـــدى العـــاملات. إن «أندريه» وهاتيك النساء الأخريات، ـ وأريد أن أصل منهن إلـــى البـــيرتين لأنها بقيت دون أن تتغير في «بالبيك»- كن رديفات في الملذات تحل واحـــدة مكان الأخرى في تقهقر متتال، فيسمحن لنا أن نستغني عما لم نعد نســـتطيع الوصول إليه، كالسفر إلى «بالبيك» أو عشق البيرتين أو عشق تلـــك المتـــع (كمتعة الذهاب إلى متحف اللوفر لمشاهدة لوحة لــ«تيسيان» الفنان الذي سلا نفسه عن استحالة ذهابه إلى مدينة البندقية) التي، بسبب التفاصيل الدقيقة التي تفصل بينها، تجعل من حياتنا تتمة لمناطق متراكزة ومتلاصقـــة ومنســـجمة ومتقهقرة، وتدور حول متعة أصلية، وتستبعد كل مالاينصهر فيها، وتنشـــر طابعها المتسيد (كما حدث لي مثلا مع دوقة «الغيرمانت» ومع «جيلبيرت»).

كانت أندريه وهاتيك النساء بما يثرن من رغبة من أن تكون ألبرتين بجانبي، رغبة كنت أعلم أنني لم أعد أستطيع تحقيقها، ما كان عليه في ليلة ما عنقود العنب الطازج الذي لوحت الشمس تعاريجه وذلك قبل أن أتعرف على ألبرتين معرفة تتعدى النظر، حينما كنت أعتقد أنني لن أستطيع أبدا تحقيق رغبة إيجادها بجواري. وهكذا عندما تذكرت إما البيرتين نفسها وإما النوع الذي كانت تفضله، أثارت في هاتيك النسوة إحساسا جائرا بالغيرة أو بالندم، تحول إلى فضول لايخلو من الافتتان، بعد أن سكن حزني.

إن السمات الجسدية والاجتماعية لألبيرتين، مع أنني أحببتها بالرغم من ذلك، وهي السمات التي ترتبط الآن بذكرى حبي، كانت توجه صبابتي نحو سمراوات البورجوازية الصغرى، مع أنني في الماضي لم أستهوهن. أجل، إن ماراح يتخلق في جزئيا هو تلك الغربة الجائرة التي لم يستطع حبي لالبيرتين أن يرويها، تلك الرغبة الهائلة في معرفة الحياة التي عشتها سابقا على دروب «بالبيك» وفي شوارع باريس، تلك الرغبة التي آلمتني إيلاما شديدا، عندما ظننت أنها تعتمل في قلب البيرتين، فأردت أن أحرمها من وسائل ممارستها مع آخرين غيري. والآن بعد أن تمكنت من احتمال فكرة رغبتها، لأن هذه الفكرة استيقظت مع رغبتي، فتطابقت هاتان الشهوتان، تمنيت أن نستسلم كلانا لها، فقلت لنفسي: «هذه الفتاة أعجبتها». وبهذه المواربة المفاجئة، بعد أن فكرت فيها وفي موتها، أحسست بحزن هائل صدني عن الاستمرار في صبابتي أبعد من ذلك. وكما أن جانب «ميزيغليز» (Méséglise) و«غيرمانت» قد أرسيا أسس تذوقي للريف وحالا دون أن أجد سحرا عميقا في بلدة لاتوجد فيها كنيسة قديمة ونباتات الترنجان والحوذان الحريفي، كذلك فإنني ربطتهما في داخلي بماض عابق بالسحر ودفعني حبي لألبيرتين إلى البحث حصرا عن نوع معين من النساء؛ فبدأت، قبل أن أحب، أبحث عن صنوات مستبدلات لها يتناغمن مع الذكرى التي تناقصت حصريتها. لاأستطيع الآن أن ارتاح لدى دوقة شقراء مزهوة بنفسها، لأنها لن تثير في أي انفعال ينطلق من البيرتين ومن صبابتي لها ومن الغيرة التي خلفتها في أشكال عشقها، ومن آلامي لموتها، لأن أحاسيسنا كي تكون قوية تحتاج إلى أن تحرك فينا شيئا مختلفا عن هذه الأحاسيس، تحرك عاطفة لاتستطيع أن تتحقق في المتعة، ولكنها تنضاف إلى الرغبة وتضخمها وتجعلها ترتبط ارتباطا يائسا بالمتعة. إن شعور البيرتين بالحب نحو بعض النساء لم يعد يؤلمني، وراح يربط هؤلاء النساء بماضي ويعطيهن قواما أكثر واقعية، كما كان يعطي الحوذان الحريفي والزعرور ذكرى «كومبري»

واقعية أكبر مما يعطيها للأزهار الجديدة. وحتى عن «أندريه» لم أعد أقول بحنق: «إن البيرتين كانت تحبها» بل بالعكس، وذلك لأشرح صبابتي لنفسي، صرت أقول بنبرة حنان: «إن البيرتين كانت تعشقها». أتفهم الآن الرجال الثكلان الذين نظنهم حصلوا على العزاء، ويثبتون على العكس أنهم لايتعزون، لأنهم يتزوجون من أخوات زوجاتهم.

وهكذا بدأ حبي الآفل يسوغ لي مغامرات عشقية جديدة، وأسوة بالنساء اللواتي عشقن لذاتهن واللواتي لاحقا شعرن بأن حرارة الحبيب بدأت تفتر صرن، بعد المحافظة على سلطتهن لديه، يكتفين بدور القوادات، بدت لي البيرتين، كما «لابومبادور» (La Pompadour) مع لويس الخامس عشر[١]، عبر فتيات صغيرات جديدات. في الماضي كنت أجزئ الفترات التي اشتهي فيها هذه المرأة أو تلك. فعندما كانت اللذات العنيفة التي تؤمنها إحداهن تهدأ، كنت أتمنى تلك التي تغدق علي حنانا شبه صاف، إلى أن تعيدني حاجة الملامسات الجادة إلى شهوتي الأولى. أما الآن فقد انتهت هذه التبديلات، أو بالأحرى ألاحظ أن فترة من هذه الفترات تستمر دون أن تنتهي. ماكنت أريده هو أن تعيش القادمة الجديدة في بيتي وأن تعطيني قبلة عائلية كأخت، قبل انصرافها في المساء. وهكذا يتهيأ لي-إن لم أجرب حضور إحداهن الذي لايطاق- أنني كنت أفتقر لقبلة أكثر من افتقاري لشفاه، لمتعة وليس لحب، لعادة وليس لشخص. وكنت أتمنى أيضا أن تعزف لي القادمة الجديدة لحنا من ألحان «فانتوي» كما فعلت البيرتين، وتكلمني عن «الستير» مثلها. وكان كل هذا مستحيلا، لأن حبهن لايتساوى مع حبها، هكذا فكرت؛ فإما أن يكون هناك حب تجتمع فيه أحداث جمة، كزيارة المتاحف والأمسيات الموسيقية والحياة المعقدة التي تتيح التراسل والتخاطب والغزل التمهيدي وصولا إلى العلاقات بحد ذاتها والصداقة المتينة لاحقا، وينطوي هذا الحب على ثروات تفوق ذاك الحب لامرأة لاتعرف إلا أن تهب نفسها، كما في أوكسترا لا آلة موسيقية فيها إلا البيانو؛ وإما أنني احتاج إلى حنان أعمق من ذلك الحنان الذي كانت تمنحني إياه البيرتين، أحتاج إلى حنان فتاة مثقفة جدا تكون لي بمثابة أخت في آن -وهذا يختلف عن حاجتي لنساء من بيئة البيرتين نفسها- فتحيي ذكرى البيرتين وذكرى حبي لها. وشعرت مرة أخرى أن الذكرى أولا ليست خلاقة، وأنها تعجز عن الرغبة في شيء آخر، بل عن لاشيء أفضل

---

[١] المركيزة دي بومبادور (١٧٢١-١٧٦٤): أصبحت خليلة الملك لويس الخامس عشر عام ١٧٤٥، وتعرضت لدسائس البلاط ومكائده. ولكن حظوتها لدى الملك لم تفتر، بالرغم من فتور عشقه لها. فصارت تساعده وتشرف على مغامراته العاطفية. إلى جانب ذلك كانت تحسن للأدباء والفنانين، وشجعت ديدرو على إكمال موسوعته. (المترجم).

مما امتلكنا؛ وثانيا الذكرى هي شيء روحي بحيث أن الواقع لايستطيع أن يقدم لها الحالة المنشودة؛ وأخيرا عندما تنبع الذكرى من شخص ميت، فإن الإحياء الذي تجسده هو دون إحياء الحاجة إلى الحب، كما يبدو لنا، بل هو إحياء لحاجة الشخص الفقيد. وهكذا أيضا فإن تشابه المرأة التي اخترتها مع البيرتين، أي تشابهها مع البيرتين في الحنان الذي، إن حصلت عليه، أشعرني أكثر بفقدان مانلته ومابحثت عنه دون أن أدري وماكان ضروريا لتخلق سعادتي من جديد، أي أنني بحثت عن البيرتين نفسها وعن الزمن الذي عشناه معا وعن الماضي الذي سعيت إليه دون أن أدري.

نعم في أيام الصحو كانت باريس تظهر لي مزهرة كثيرا بجميع فتياتها، وهذا لايعني أنني اشتهيتهن، وإنما كن يضربن بجذورهن في ظلمة الشهوة وفي الأماسي المجهولة لألبيرتين. وقالت لي عن إحداهن في البداية، قبل أن تحذر مني: «إنها رائعة هذه الصغيرة، ماأجمل شعرها!» إن جميع أشكال الفضول التي انتابتني سابقا حول حياتها قبل أن أعرفها إلا بالنظر، ذابت في ذلك الفضول الوحيد الذي ضم جميع رغائب الحياة، أي كيف كانت البيرتين تشعر باللذة وهل سأراها مع نساء أخريات، وإذا تم ذلك وذهبن سأبقى وحدي معها، سأكون الأخير والسيد. وإذ رأيت ترددها حول فائدة قضاء السهرة مع هذه أو تلك، وإذ لاحظت إرهاقها وربما خيبتها بعد مغادرة تلك الفتاة، توضحت لي الغيرة التي بعثتها البيرتين في وأرجعتها إلى حدودها الصحيحة، ولدى اكتشافي لهذه المشاعر عندها فإنني قدرت حدود متعها واكتشفتها.

فقلت لنفسي: آه كم هي الملذات التي حرمتنا منها، وياللحياة الرغيدة التي افتقدنا، بسبب هذا التعنت! وتذكرت فجأة عبارة قلتها لها في «بالبيك» يوم أعطتني قلما. ولأني لمتها على أنها لم تتركني أقبلها، قلت لها إنني أجد ذلك طبيعيا وأجد أيضا أن علاقات المرأة بالمرأة هو أمر شنيع. واحسرتاه، ربما البيرتين تذكرت ذلك.

فأعدت البنات اللواتي أعجبتني أقل من غيرهن، وكنت أمسد ضفائر هذه العذراء وأعجب بهذا الأنف الصغير البديع أو بشحوبة هذا الوجه الإسباني. صحيح أنني في الماضي، وإزاء امرأة لمحتها فقط على طريق «بالبيك» أو في شارع من شوارع باريس، شعرت بما في رغبتي من طابع شخصي، وشعرت بأنني أزيف هذا الطابع إن أسعى إلى إشباعه بهدف آخر. ولكن الحياة، التي كشفت لي تدريجيا استدامة حاجاتنا، علمتني أنني عندما افتقر إلى شخص، يتعين علي أن أرضى بشخص آخر وشعرت أن ماطلبته

من البيرتين كانت امرأة أخرى، الآنسة «دي سيترماريا» تستطيع أن توفره لي. ولكن كان الأمر مع ألبيرتين؛ وبين إشباع حاجاتي إلى الحنان وبين خصائص جسدها، قامت سلسلة مترابطة من الذكريات وكانت على درجة متينة من الحنان بحيث تعذر علي أن أنتزع من رغبة الحنان هذه جميع هذه التطريزات في ذكريات جسم البيرتين. وحدها كانت قادرة على منحي هذه السعادة. إن مفهوم الفرادة لم يعد مفهوما قبليا ماورائيا مستقى مما كان متفردا عند البيرتين، كما كان في الماضي لعابرات السبيل، ولكنه مفهوم بعدي مؤلف من تداخل الذكريات العارض والذي لاتنفصم عراه. لم أعد أقوى على الرغبة في حنان دون أن أحتاج إليها ودون أن أعاني من غيابها. لابل لم يعد التشابه بين المرأة المختارة والحنان المنشود من جهة وبين السعادة التي عرفتها، الا يشعرني بشكل أفضل كل مافتقر إليه ليستطيع أن يولد من جديد. وكنت أجد ذلك الفراغ نفسه الذي شعرت به في غرفتي منذ أن راحت البيرتين والذي ظننتني أسده بمعانقة بعض النساء، كنت أجده فيهن. فهن لم يكلمنني قط عن موسيقى «فانتوي» ولا عن مذكرات «سان سيمون»[١]، ولم يتضمخن بعطر نفاذ عند مجيئهن ليرينني، ولم يلعبن بتلامس أهدابهن بأهدابي، وكلها أشياء مهمة لأنها تخولنا، كما بدا لي، أن نحلم بأشياء تجانب الفعل الجنسي نفسه وتوهمنا بالحب، ولأنها في الحقيقة تشكل جزءا من ذكرى البيرتين ولأنني كنت أبحث عنها بالذات. ماكان لهؤلاء النساء من البيرتين جعلني أشعر شعورا قويا بما افتقرن إليه منها، وكان كلا متجانسا ولن يتكرر، لأن البيرتين قد ماتت. وهكذا ماكان حبي لألبيرتين الذي جذبني نحو تلك النسوة، يدفعني إلى اللامبالاة تجاههن، وماكان تحسري على البيرتين واستمرار غيرتي -وقد تجاوزت مدتهما أكثر توقعاتي تشاؤما- يغير شيئا كثيرا، لو أن حياتهن التي لم تتوثق مع باقي حياتي قد خضعت فقط للعبة ذكرياتي، وللأفعال وردود الأفعال العائدة لنفسية يمكن تطبيقها على حالات جامدة، ولو لم تنجذب نحو نظام أرحب تتحرك فيه النفوس زمنيا وتتحرك فيه الأجساد مكانيا.

كما أن هناك هندسة فضائية، هناك نفسية مرتبطة بالزمن، حيث لاتكون الحسابات المتعلقة بنفسية مسطحة صحيحة من بعد لأننا لم نأخذ بالاعتبار لاوجود الزمن ولا شكلا من أشكاله وهو النسيان. وبدأت أشعر

---

(١) الدوق دي سان سيمون (١٦٧٥-١٧٥٥): عسكري ورجل سياسة راهن على نجاح الدوق دي بورغوني ليخلف لويس الرابع عشر، ولكنه توفي قبله. فاعتزل سان سيمون وكتب مذكراته التي تغطي عددا من الأحداث الممتدة من عام (١٦٩١) إلى (١٧٢٣) في فرنسا. وتعتبر مذكراته عملا أدبيا متميزا في النثر الفرنسي (المترجم).

بقوة النسيان الذي هو وسيلة هائلة للتكيّف مع الواقع لأنه يدمّر فينا تدريجياً الماضي الذي لم يندثر والذي يتناقض معه باستمرار. وفي الحقيقة كان بودي أن أخمن قبل الأوان أنني سأكف عن حب البيرتين. فمن خلال الفرق الموجود بين أهمية شخصيتها وبين أعمالها، في نظري وفي نظر الآخرين، عندما أدركت أن حبي لها أقل من حبي لذاتي، كان بوسعي أن أدمّر شتى النتائج لهذه السمة الذاتية لحبّي، ولأنني حالة ذهنية، كان هذا الحب يستطيع بخاصة أن يستمر مدة طويلة ويبقى بعد الشخص المحبوب؛ ولأنني أيضاً لم أقم مع هذا الشخص أية علاقة حقيقية، ولأنني لم أحظ بأي دعم من خارج ذاتي، توجب علي، كحالة ذهنية أو كحالات أكثر استمرارا، أن أجد نفسي معطلاً ذات يوم وينبغي «استبدالي»، وفي هذا اليوم بالذات يتلاشى في نظري كل ماظننته يربطني ربطا لطيفا ووثيقا بذكرى البيرتين. من سوء طالع الأشخاص أنهم لايمثلون لنا إلا لوحات من مجموعات يستهلكها ذهننا. وبسبب ذلك بالضبط نؤسس عليها عدداً من المشاريع يتحمس لها ذهننا، ولكن الفكر يتعب والذكرى تتقوّض: سيأتي يوم أعطي فيه عن طيب خاطر غرفة البيرتين لأول قادمة، كما سبق لي أن أعطيت البيرتين كرة من العقيق وهدايا أخرى كانت لـ«جيلبيرت».

هذا لايعني أنني كففت عن حب البيرتين، ولكنني لم أعد أحبها بالطريقة التي أحببتها فيها في الفترة الأولى؛ لا، بل بطريقة الأيام الغابرة التي كان فيها كل مايرتبط بها من أماكن وبشر يجعلني أشعر بفضول تجاوز السحرُ فيه الألمَ. وأحسست الآن فعلاً أنني قبل أن أنساها تماماً – كمسافر يعود من نفس الطريق الذي انطلق منه– يتعين علي، قبل الوصول إلى اللامبالاة الأولى، أن اجتاز بالاتجاه المعاكس جميع المشاعر التي مررت فيها قبل أن أصل إلى حبي الكبير. ولكن تلك المراحل وتلك الفترات الماضية ليست جامدة، إذ حافظت على القوة الهائلة والجهل السعيد للأمل الذي كان ينطلق نحو زمن أصبح الآن جزءاً من الماضي ولكنّ الهلوسة تجعلنا للحظة ما نظنه بشكل استرجاعي جزءاً من المستقبل. قرأت رسالة لها تقول لي فيها إنها ستزورني هذا المساء، وللحظةٍ سررت بانتظاري إياها. عندما نعود من بلد لن نرجع إليه وعلى خط القطار نفسه، نتذكر اسم وشكل جميع المحطات التي مررنا فيها أثناء الذهاب، ويحدث أننا خلال توقفنا في إحدى المحطات نتوهم أن القطار ينطلق ويتوجه نحو المكان الذي أتينا منه كما في المرة الأولى. وينتهي الوهم فورا، ولكننا للحظة نشعر بأننا منجرفون نحوه، وهذه هي وحشية الذكرى.

ومع ذلك فإننا قبل العودة إلى اللامبالاة التي انطلقنا منها، إذا لم نستطع الاستغناء عن تغطية المسافات التي قطعناها بالاتجاه المعاكس لنصل إلى الحب، فإن طول الرحلة والخط الذي نتبعه ليسا هما نفسهما بالضرورة. فيشتركان في أنهما ليسا مباشرين، لأن النسيان والحب لايتقدمان بانتظام. ولكنهما لايسلكان السبل نفسها بالضرورة. وفي طريق العودة الذي سلكته عرفت بعد الوصول بكثير أربعَ مراحل لاأتذكرها بشكل خاص، لأنني لاحظت فيها أشياء لاعلاقة لها بحبي البيرتين، أو أنها على الأقل لاتمت له بصلة لأن ماكان في النفس قبل الحب الكبير يرتبط به، إما لأنه يغذيه وإما لأنه يقاتله وإما لأنه، من أجل عقلنا المحلِل، يشكل معه تعارضاً وصورة.

وبدأت المرحلة الأولى في أوائل فصلٍ من فصول الشتاء، وفي يوم أحد كان الناس يحتفلون فيه بعيد جميع القديسينَ، وخرجت فيه من بيتي. وعندما اقتربت من «غابة بولونيا» تذكرت بأسى عودة البيرتين التي أتت لتأخذني معها من الـ«تروكاديرو»؛ أما الآن فأجد نفسي في اليوم نفسه، ولكن دون البيرتين. وبأسى ولكن بشيء من المتعة أيضاً، لأن الاستئناف الرثائي المصغر، لذلك الشكل نفسه الذي ملأ نهاري سابقاً، ولأن مكالمات «فرانسواز» الهاتفيةِ عن عدمِ وصول البيرتين، الذي لم يكن شيئاً سلبياً وإنما كان في الواقع إلغاء لما تذكرته، وسمت ذلك النهار بمسحة من الألم وجعلت منه يوماً أجمل من أي يوم موحَّد وبسيط، إذ إن غاب فيه وماإستؤصل منه بقي مطبوعاً فيه بحرف مقعّر. ودندنت بعض الجمل من سوناتا «فانتوي». لم أعد أتألم كثيراً عندما أفكر في أن البيرتين عزفته لي مراراً، لأن جميع ذكرياتي عنها تقريباً دخلت في تلك الحالة الكيميائية الثانية وصارت لاتثير انقباضاً مقلقاً في القلب بل تثير شيئاً من العذوبة. وأحياناً في المقاطع التي كانت تعزفها كثيراً، اعتادت أن تدلي برأي كنت أجده لطيفاً أو أن تقترح فكرة تذكرتها، فقلت لنفسي: «ياللصغيرة المسكينة!»، ولكن دون أسى، فأضيف فقط إلى المقطع الموسيقي قيمة ثانية، قيمة تاريخية وطريفة إلى حدّ ما، تشبه تلك القيمة التي انضافت إلى لوحة «شارل الأول» التي رسمها الفنان «فان ديك» -وهي لوحة جميلة جداً بحد ذاتها- لأنها دخلت في المجموعات الوطنية بإرادة من «مدام دو باري» (Mme de Barry) لإدهاش الملك. وعندما تبددت الجملة الصغيرة قبل تلاشيها الكامل من كل عناصرها وطفت لحظة بأجزائها، لم تكن بالنسبة لي -كما في السابق لـ«سوان»- رسولة لالبيرتين المتلاشية. ولم تثِر هذه الجملة الصغيرة تداعيات الأفكار نفسها عندي كما عند «سوان». كنت بخاصة حساسا لصياغة ومحاولة

وتكرار و«مستقبل» جملة تتكون أثناء عزف السوناتا كما لو كانت حباً نشأ أثناء حياتي. والآن، بعد أن عرفت كم من عنصر يتبدد يومياً من عناصر حبي، كان جانب الغيرة أو جانب آخر يعود تدريجيا في ذكرى ضبابية إلى انطلاقة البدايات الضعيفة، وبدا لي أن حبي يتلاشى أمامي، عبر تلك الجملة الصغيرة المفتتة.

وتحت إحدى الغابات، عندما كنت أسير على الدروب المتباعدة المتسربلة بثوب يقصر كل يوم، وعندما كنت أشعر بذكرى نزهة قمت بها والبيرتين قربي في العربة وعدنا منها معاً فأحسست أنها سربلت حياتي، وراحت هذه الذكرى تحوّم حولي عبر الضباب المحيط بالأغصان المعتمة التي كانت الشمس الغاربة تتخللها فتضيء الأفق المتناثر بأوراق ذهبية(*)؛ لم أكن أكتفي برؤيتها بعيون الذاكرة، لقد كانت تهمني وتؤثر فيّ، مثل تلك الصفحات الوصفية التي يُدخل فيها الفنان قصة خيالية أو رواية كي يجعلها تكتمل. وكانت تلك الطبيعة تأخذ هكذا سحر الأسى الذي يستطيع الوصول إلى قلبي. وبدا لي أن سبب هذا السحر هو حبي لالبيرتين الذي مازال على حاله، أما السبب الحقيقي فيختلف لأن النسيان كان يغزوني ولأن ذكرى البيرتين لم تعد قاسية لدي، أي أنها تغيّرت. مهما حاولنا التمحيص في انطباعاتنا، كما ظننتني أفعل لأرى سبب حزني، لانعرف كيف نصل إلى معناها الأبعد، شأننا في ذلك شأن الطبيب الذي يصغي إلى العلل التي يرويها له مريضه، ويعود انطلاقاً منها إلى سبب أعمق يجهله المريض؛ كذلك الحال بالنسبة لانطباعاتنا وأفكارنا، لأن قيمتها تكمن في أعراضها المرضية. لشعوري بالسحر وبالشجن اللطيف وضعت غيرتي جانبا، واستقيظت حواسي فيّ. ومرة أخرى، كما حصل لي عندما توقفت عن رؤية «جيلبيرت»، سما عندي حب المرأة، وتخلص من كل تداع يربطه حصرا بامرأة سبق لي أن أحببتها، وراح يطفو مثل تلك الكائنات التي حررتها التهديمات السابقة فتهيم تائهة في الهواء الربيعي، ولم يعد يبحث إلا عن مخلوقة جديدة يتحد بها. لاتنمو في أي مكان زهرة تسمى «لاتنساني»، إلا في المقابر. ونظرت إلى الفتيات اللواتي أزهرن بكثرة في ذلك اليوم الجميل، كما نظرت سابقاً إلى عربة «مدام دي فيلباريسي» أو إلى العربة التي كنت أستقلها مع البيرتين في يوم ذلك الأحد نفسه. وما إن حط نظري على هذه أو تلك منهنّ حتى التحم

(*) كنت أرتجف أحياناً، شأني شأن الناس الذين عندهم فكرة ثابتة، فيرون في كل درب تقف فيه أية امرأة تشابهاً وتماهياً مع المرأة التي يفكرون فيها. فيقولون: «ربما هي». يعذب الإنسان نفسه، وتتابع العربة تقدمها، ولانعود إلى الوراء.

فوراً مع النظرة الغريبة والهاربةِ والمغازِلة التي تعكس أفكاراً عصية على الفهم والتي انقضّت عليها خاطفةً من عينَي البيرتين ثم التقت بعينيَّ كأنها جناح لِغزي سريع ولازوردي فبعثت في تلك الدروب التي كانت طبيعية حتئذ رعشةَ مجهولٍ لم تكفِ رغبتي الشخصية لتجديدها، لو بقيت وحدها، لأن هذا المجهول، في نظري، لم يكن فيه أي شيء غريب.

أحياناً كانت قراءة إحدى الروايات الحزينة تعيدني فجأة إلى الوراء، لأن بعض الروايات هي أشبه بمآتم كبرى مؤقتة تخرجنا عن المعتاد وتعيد صلتنا بواقع الحياة، ولكن لبضع ساعات فقط، كأننا في كابوس، ذلك أن قوى العادة والنسيان الذي تحدثه والحبور الذي تعيده بسبب عجز المخ عن مقاومتها وإعادة خلق الحقيقة، تدحر الاقتراح التنويمي الذي، إلى حدٍّ ما، يصدر عن كتاب جميل والذي -ككل الاقتراحات- له تأثير قصير جداً.

في «بالبيك» عندما أردت أن أتعرف على البيرتين للمرة الأولى، ألم يحدث ذلك لأنها بدت لي وكأنها تمثل تلك الفتيات اللواتي أوقفتني نظراتهن مراراً في الشارع وفي الدروب، ورأيت أن البيرتين تستطيع أن تختزل حياتهن؟ أليس من الطبيعي ونجم حبّي يأفل الآن بعد أن تكثفن فيه، أن يختفي هذا النجم ثانية في غبار السديم المتناثر؟ كلهن ظهرن لي صنوات لألبيرتين، لأن الصورة التي كنت أحملها في داخلي جعلتني أجدها في كل مكان، وحتى أن إحداهن التي صعدت إحدى السيارات في منعطف درب ذكرتني كثيراً بها، بحيث تساءلت لحظة أنها هي التي رأيتها لتوي، وأنهم ربما خدعوني عندما رووا لي خبر موتها. رأيتها هكذا في زاوية أحد الدروب، ربما في «بالبيك»، رأيتها تصعد إلى السيارة بالطريقة نفسها، هي التي كانت تثق بالحياة ثقة كبيرة. ولم أنظر إلى ركوب تلك الفتاة السيارة بعيني وبنظرة عابرة، كما يحدث الأمر كثيراً أثناء النزهات، إذ أصبحت نظرة مستدامة كأنها تمتد أيضاً إلى الماضي، من هذه الزاوية التي أضيفت إليها والتي تستند بشبق وبحزن إلى قلبي.

ولكن الفتاة اختفت. ورأيت في البعيد مجموعة من ثلاث فتيات أكبر سناً، وربما كنّ نساء شابات، يخطرن بأناقة وحيوية هما اللتان فتنتاني يوم لمحت البيرتين وصديقاتها، فاقتفيت أثر الفتيات الثلاث ولكنني لما ركبن إحدى السيارات بحثت يائساً عن فتاة أخرى في شتى الاتجاهات فوجدتها، وإنما متأخراً جداً. لا لم أجدها. إلا أنني بعد ذلك بأيام، وفي طريق العودة لمحت الفتيات الثلاث اللواتي تتبعتهن في «غابة بولونيا» يخرجن من تحت قنطرة بيتنا. وكانت السمراوان خاصة والأكبر سناً بين هؤلاء الفتيات

المخمليات اللواتي كنت أراهن عبر نافذتي أو أصادفهن في الشـارع، همـا اللتان جعلتاني أفكر بألف مشروع وأحب الحياة، مع أنني لـم أتمكـن مـن معرفتها. وكانت الشقراء ذات قوام ناحل ومتألم تقريبا، فأعجبتني أقل. بيـد أنها هي التي كانت السبب في أنني لم أكف عن النظر إليهن لحظة واحـدة، فبتلك التطلعات الثابتة العصية على التحول وبحملقتها كأنها منكبة على مشكلة من المشاكل، أدركت أنه يترتب عليّ أن اذهب ابعد مما أرى. أثناء مرورهن أمامي، لو لم ترمني الشقراء بنظرة أولى عابرة –ألأنني كنت أتفرس فيهن؟– ثم بعدما اجتزنني، التفتت وألحقتها بنظرة ثانية أنهت تأجيجي، لتركتهن علـى الأرجح يمررن مرور الكرام مثل أخريات كثيرات. ولكن لأنها كفـت عـن الاهتمام بي وعادت تتكلم مع صديقتيها، فإن حميتي زالت، لو لم يضاعفـها مئة مرة الحدث التالي. سألت البواب عنهن، فقال: «لقد سألن عـن السـيدة الدوقة. أظن أن واحدة منهن فقط تعرف الدوقـة وأن الفتـاتين الأخريين رافقتاها حتى الباب. هذا هو اسمها. لاأعرف إن كتبتـه بشـكل واضـح». فقرأت اسم الآنسة «ديبورشـوفيل» (Déporcheville)، وأمعنـت النظـر فيـه، «ديبورشوفي»، أي حسبما أتذكر اسم الفتاة ذات العائلة العريقة التي تقـرب إلى حدّ ما عائلة الـ«غيرمانت» والتي كلمني عنها «روبير» (Robert) قـائلا إنه التقاها في بيت من بيوت الدعارة وإنه أقام علاقة معها، ففـهمت عندئـذ معنى نظرتها، ولماذا التفتت واختفت عن رفيقتيها. كم مـرة فكـرت فيـها وتخيلتها حسب التسمية التي ذكرها «روبير». وها أنا أراها الآن غير مختلفة عن زميلتيها، ماعدا تلك النظرة المتسترة التي تهيئ بيني وبينها دخولا سـويا إلى أجزاء حياتها التي تجهلها زميلتاها بالطبع والتي تجعلها تظـهر سـهلة المنال أكثر منهن (كأنني تملكتها نصف تملك) وأكثر رقة أكثر من الفتيـات الارستقراطيات بالعادة. ففي ذهنها، صارت مسبقا بينـي وبينـها سـاعات مشتركة قد نمضيها معا، لو كانت لها حرية أن تعطيني موعدا. أليـس هـذا ماعبّرت عنها نظرتها بفصاحةٍ بيّنةٍ بالنسبة لي؟ فخفق قلبي بجميع نياطـه، لاأستطيع أن أقول بدقـة كيـف هـو قـوام الآنسـة «دي ايبورشـيفيل» (D'Eporcheville)، رأيت بغموض وجها أشقر لمحته لمحة جانبية، ولكنني صرت عاشقا مجنونا بها. وفجأة أدركت أنني أفكر في من، بين الفتيـات الثـلاث، كانت الآنسة «دي ايبورشيفيل»، أهي الشقراء التي التفتـت ونظـرت إلـي مرتين؟ والحال أن البواب لم يقل لي ذلك. فعدت إلى مقصورته وسألته مـرة ثانية، فأجابني أنه لايستطيع أن يفيدني في هذه النقطة، لأنهن أتين اليوم للمرة الأولى ولم يكن هو موجودا أثناء ذلك. ولكنه سيسأل زوجته التي رأتهن مرة واحدة. وكانت تنظف درج الخدم. من منا أثناء حياته لم يمـرّ بمثـل هـذه

الترددات اللذيذة؟ أحد الأصدقاء العطوفين الذي وصفنا له شكل فتاة رآها في حفلة البال، أمعن النظر ووجد أنها يجب أن تكون إحدى صديقاته، فدعاك معها. ولكن ألا يمكن أن يقع خطأ، بعد أن تكون قد قدّمت عنها وصفاً شفوياً بسيطاً؟ أليست الفتاة التي ستراها بعد قليل فتاة أخرى غير التي ترغب فيها؟ أو على العكس ستصافح بابتسامة تلك التي تمنيت أن تكون هي؟ إن هذه الإمكانية الأخيرة كثيرة الحدوث، دون أن يبررها دائماً تفكير مقنع يتعلق بالآنسة «دي ايبورشيفيل»، إذ تنجم عن نوع من الحدس إذ تنجم أيضاً عن هبّة حظ تعمل أحياناً لمصلحتنا. وعندما نراها نقول لأنفسنا: «إنها هي فعلاً. وتذكرت أنني، من بين مجموعة الفتيات اللواتي كنّ يتنزهن على شاطئ البحر، خمّنت تماماً تلك التي كانت تدعى «البيرتين سيمونيه». وأثارت في هذه الذكرى ألماً حاداً ولكن مقتضباً؛ وبينما كان البواب يبحث عن زوجته ظننت بخاصة أنه سيخبرني أن الآنسة «دي ايبورشيفيل» هي إحدى السمراوين –فكرت في هذه الآنسة، وكما يحصل في دقائق الانتظار التي نطابق فيها بين اسم أو معلومة وصلتنا عن طريق الصدفة وبين وجه من الوجوه تحرر للحظة وطفا إلى السطح بين وجوه عديدة، وصار جاهزاً، إذا انضم إلى وجه جديد، إن يجعل الوجه الأول الذي استدللت عليه وجهاً غير معروف وبريئاً وزئبقياً– وإذا صح الأمر، تلاشى الشخص الذي آمنت بوجوده وبدأت أحبه ولم أفكر إلا في تملكه؛ وسيفصل الجواب الوبيل تلك الآنسة الشقراء والخفية (الآنسة «دي ايبورشيفيل») عن الآنستين الأخريين ويميزها عنهما، علماً بأنني جمعت تعسفيا بينهن، على طريقة الروائي الذي يصهر عناصر مختلفة مأخوذة من الواقع ليخلق شخصية خيالية، وعندما يؤخذ كل عنصر على حده –ولايؤكد الاسم مايقصده النظر– يفقد كل معناه. وفي هذه الحالة تنهار حججي، ولكنها كم تعززت عندما عاد البواب ليقول لي إن الآنسة «دي ايبورشيفيل» هي فعلاً الآنسة الشقراء!

عندئذ لم أعد أستطيع الاعتقاد بوجود تطابق اسمي. وكانت المصادفة كبيرة جداً بحيث تسمَّى إحدى الفتيات الثلاث الآنسة «دي ايبورشيفيل»، أي تلك التي (وكان هذا أول تحقق منهجي لافتراضي) نظرت إليّ بتلك الطريقة، فابتسمت لي تقريباً ولم تكن هي التي كانت تتردد إلى بيوت الدعارة.

وبدأ عندئذ نهار من الاضطراب المجنون. وقبل أن اذهب لشراء مارأيته خاصاً بزينتي لأحدث أجمل الانطباعات في اليوم التالي عندما سأزور «مدام دي غيرمانت» التي سأجد عندها فتاة سهلة أتواعد معها (إذ سأجد طريقة للتحدث معها ولو للحظة في زاوية من زوايا الصالون)،

ولزيادة في التأكد سأذهب لأرسل برقية لـ«روبير» لأسأله عن الاسم الدقيق للفتاة وعن وصفها، آملاً أن يجيبني بين اليوم والغد، لأن الفتاة، كما قال لي البواب، ستذهب لزيارة «مدام دي غيرمانت»؛ وسأذهب (دون أن أفكر لحظة بشيء آخر، ولاحتى بالبيرتين)، مهما حصل لي حتى ذلك الوقت، لزيارة الدوقة في نفس الساعة، حتى إذا مرضت وحُملت إليها على محمل. أأرسل برقية إلى «سان لو» -مع أنه لم يبق عندي أي شك حول هوية الرجل- علما بأن الفتاة التي رأيتها وتلك التي كلمني عنها مختلفتان في نظري؟ وأشك في أنهما نفس الفتاة. ولأنني لم أطق الانتظار إلى مابعد الغد، استعذبت أن تصلني برقية حولها، فتكون لي عليها دالة سرية، برقية مليئة بالتفاصيل. وفي مكتب البرقيات، كتبت نصا بحمية رجل يحميه الأمل، وشعرت بأنني الآن أصبحت أكثر جرأة مما في طفولتي، وذلك إزاء «جيلبيرت» وإزاء الآنسة «دي ايبورشيفيل». ومنذ أن كلفت نفسي بكتابة البرقية، ولم يبق على الموظف إلا أن يأخذها، وعلى أسرع شبكات الاتصال الكهربائي إيصالها، صار امتداد فرنسا والبحر الأبيض المتوسط، وصار كل ماضي «روبير» الماجن ينكب على معرفة الشخص الذي التقيته لتوي، تحت تصرف الرواية التي بدأت ترسيمتها والتي لم أعد بحاجة إلى التفكير فيها، لأن كل هذه العناصر ستتولى إنهاءها في هذا الاتجاه أو ذاك قبل انصرام الساعات الأربع والعشرين. في الماضي عندما كانت «فرانسواز» تعيدني من الشانزليزيه، وكنت أكبت عندي في البيت رغباتي العاجزة، دون التمكن من اللجوء إلى الوسائل العملية للحضارة، كنت أحب كانسان همجي، أو كنت أحب كزهرة، إذ كنت أفتقر إلى حرية الحركة. ومنذ هذه اللحظة، صار زمني محموما؛ لقد طلب مني والدي أن أغيب عن باريس لمدة ثمان وأربعين ساعة لأقضيها معه، ولكنها كانت ستعطل زيارتي للدوقة، فاستشطت غضبا وانتابني اليأس لدرجة أن والدتي تدخلت وتوصلت مع أبي أن يبقيني في باريس. ولكن غضبي لم يهدأ إلا بعد ساعات طويلة؛ أما الآن فإن رغبتي في الآنسة «دي ايبورشيفيل» قد تضاعفت مئة مرة بسبب الحاجز الذي وضع بيننا، وبسبب الخوف الذي انتابني للحظة من أن تلك الساعات التي كنت ابتسم لها مسبقا ودون توقف، ومن أن زيارتي لمدام «دي غيرمانت» لن تتحقق. يقول بعض الفلاسفة إن العالم الخارجي غير موجود وإننا نطور حياتنا في داخلنا. ومهما يكن من أمر، فإن الحب، حتى في أذل بداياته، هو مثال حي على الواقع القليل بالنسبة لنا. هل يتعين علي أن أرسم عن ظهر القلب لوحة للآنسة «دي ايبورشيفي»، وأحدد وضعها وعلاماتها الفارقة؟ يستحيل هذا علي، لابل يستحيل أن أتعرف عليها في الشارع. لقد لمحتها مواربة وهي تتحرك، فبدت

لي جميلة وبسيطة وطويلة وشقراء، لاأستطيع أن أقول عنها أكثر من ذلك. ولكنّ جميع ارتكاسات الرغبة والقلق وضربة الخوف القاتلة من ألا أراها لو أن أبي اصطحبني، كل ذلك -بالإضافة إلى صورة تقول إنني لا أعرفها ويكفي أن أعلم بأنها لطيفة المعشر- صار يشكل الحب. وأخيراً في صباح اليوم التالي، بعد ليلة من السهاد السعيد، استلمت برقية «سان لو»: «اسمها: دي لورجيفيل (de L'Orgeville) (de) حرف جر، (orge) من الحبوب كالشعير، (ville) كالمدينة، إنها صغيرة وسمراء وممتلئة، وهي الآن في سويسرا». لم تكن هي.

وبعد برهة دخلت أمي الى غرفتي حاملة بريدي الذي وضعته على السرير بإهمال، متظاهرة بالتفكير في شيء آخر وانسحبت للتو لتتركني وحدي. وأنا الذي كنت أعرف حيل أمي العزيزة وكيفية قراءة وجهها دون الخوف أبداً من الوقوع في الخطأ، إذا أخذت الرغبة في إسعاد الآخرين كمفتاح، فابتسمت وفكرت: «هل أتاني بالبريد شيء مهم؟ فتصنعت أمي اللامبالاة واللاانتباه كي تبقي على مفاجأتي كاملة وكي لاتفعل مثل الناس الذين يحرمونك نصف سعادتك عندما يبشرونك بشيء. ولم تبق في الغرفة لأنها خشيت، لأنانيتي، من إخفاء فرحتي، فأشعر عندئذ بها منقوصة». ولكنها عندما توجهت نحو الباب للخروج صادفت «فرانسواز» وهي تدخل الى الغرفة. فأجبرت أمي «فرانسواز» على التراجع وقادتها إلى الخارج وهي مجفلة ومتفاجئة، لأنها اعتبرت أن مهمتها تمنحها الحق بالدخول إلى غرفتي في كل ساعة وبالبقاء فيها إن طاب لها. ولكن الذهول والغضب اللذين ظهرا على وجهها زالا، وحلت محلهما ابتسامة سوداء لزجة تعبر عن شفقة متعالية وتهكم فلسفي، وهما أكسير دبق كانت تفرزه أنانيتها المثلومة للشفاء من جرحها. ولكي لاتشعر بأنها ممقوتة، كانت تمقتنا وكانت تعلم أننا أسياد ولنا نزواتنا وأننا لانتألق بذكائنا وأننا نجد متعة في فرض الخوف على الأشخاص اللطفاء وعلى الخدم ليُظهروا أنهم أسياد فيعطون أوامر غريبة كغلي الماء أثناء الأوبئة وشطف الغرفة بخرقة مبلولة والخروج منها عندما يهم الإنسان الدخول إليها. ولتسرّع أمي الأمور، أخذت معها الشمعة. ولاحظت أنها وضعت البريد قربي كي لايهرب مني. ورأيت أن البريد لم يكن يحتوي جرائد. فعلى الأرجح، هناك مقالة لكاتب مُقِل أحبه ستكون مفاجأة لي. فتوجهت نحو النافذة وفتحت الستائر. وفوق النهار الشاحب والضبابي، كانت هناك سماء وردية يشبه لونها لون أفران المطابخ التي تشعل الآن، فملأتني

أملاً ورغبة في قضاء ليلتي وفي استيقاظي في تلك المحطة الجبلية الصغيرة التي رأيت فيها بائعة الحليب ذات الخدين الورديين.

وفتحت جريدة الفيغارو. ماأسأمها! بالضبط كانت المقالة الأولى تحمل عنوان المقالة نفسه التي أرسلتها ودون أن تنشر. ولم يكن نفس العنوان فقط، بل كان هناك تطابق في عدد من الكلمات؛ مما زاد على الحد. سأرسل احتجاجاً(*). ولكن لاينطوي الأمر على بعض الكلمات، كانت المقالة كلها، وبتوقيعي. كانت مقالتي التي نشرت أخيراً. ولكن عقلي الذي بدأ يشيخ ويتعب قليلاً في تلك الفترة بقي يفكر لحظة كما لو أنه لم يفهم أن المقالة مقالتي، شأني شأن الشيوخ الذين يضطرون أن ينهوا على الكامل حركة بدأوها، حتى إذا أصبحت غير مفيدة، وحتى إذا اعترضها عائق مفاجئ يُلزمهم بالتراجع عنها فوراً ويجعلها خطيرة. ثم نظرت إلى الخبز الروحي الذي هو الجريدة، التي مازالت ساخنة ورطبة لأنها طبعت للتو ولأن ضباب الصباح أثر عليها. وتوزع في الفجر على الخادمات كي يحملنها إلى أسيادهن مع القهوة بالحليب والخبز العجائبي الكثير الطيات الذي هو واحد وعشرة آلاف في آن ويبقى هو هو لكل الناس ويدخل بكثرة جميع البيوت.

ماكان بين يديّ ليس نسخة معينة من الجريدة، وإنما نسخة عادية من بين العشرة آلاف نسخة؛ وليس فقط ماكتبته، بل ماكتبته وسيقرأه الجميع. ولكي أقوّم بدقة الظاهرة التي تحدث الآن في البيوت الأخرى، يجب أن أقرأ هذه المقالة لا كمؤلف وإنما كقارئ من قرّاء الجريدة؛ فلم تكن مقالتي هي ماكتبته، بل كانت رمزاً لتجسدها في أذهان كثيرة. ثم يتعين عليّ، كي أقرأها، أن أكف لحظة عن البقاء كمؤلف، وأن أكون قارئاً عادياً من قراء الجريدة. ولكن خامرني في البداية قلق أول. هل القارئ غير الفطن سيرى هذه المقالة؟ وبشرود فتحت الجريدة كما يفعل هذا القارئ غير الفطن، وتظاهرت بأنني أجهل ماكتب هذا الصباح في جريدتي وأسرعت في النظر إلى أخبار المجتمع والسياسة. ولكن مقالتي كانت على جانب من الطول بحيث أن من يريد تحاشيها (ولأبقى في الحقيقة وكي لاأرجّح الكفة إلى جانبي، كنت كشخص ينتظر ويعدّ أرقاماً عن قصد وببطء شديد)، يقع على جزء منها أثناء تصفح الجريدة. ولكن كثيرين مما رأوا المقالة الأولى، وحتى الذين يقرأونها، فإنهم لاينظرون إلى التوقيع. وأنا بنفسي عاجز عن القول من كتب المقالة الأولى

(*) وسمعت فرانسواز التي غضبت لطردها من غرفتي لأنها كانت تدخلها بحرية، سمعتها تدمدم: «ياللبؤس، لقد رأيت هذا الولد عندما ولد. صحيح أنني لم أره عندما صنعته أمه، هذا أكيد. ولكنني عندما عرفته، والحق يقال، لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره».

في عدد الأمس. فوعدت نفسي أنني من الآن فصاعداً سأقرأ اسم كاتبها؛ بيد أنني كنت كذلك العاشق الغيور الذي لايخدع عشيقته ليصدق أنها مخلصة له، ففكرت بأسى أن اهتمام العتيد لن يرغم بالمقابل اهتمامي الآخرين ولم يرغمهم. ومنهم من ذهبوا إلى الصيد أو من خرجوا باكراً من بيوتهم. وعلى كل حال سيقرؤه بعضهم. وفعلت مثل هؤلاء وبدأت. إنني أعلم تمام العلم أن كثيراً من الناس الذين سيقرؤون هذه المقالة سيجدونها قميئة، وأثناء قراءاتي مارأيته في كل كلمة بدا لي أنه على الورق فحسب، لا أستطيع التصديق أن كل شخص عندما يفتح عينيه لن يرى مباشرة تلك الصور التي أراها، ظناً مني أن فكرة المؤلف قد أدركها القارئ مباشرة، بينما تعتمل في ذهنه فكرة أخرى، فتكون سذاجته كسذاجة أولئك الذين يظنون أن الكلام الذي تلفظنا به هو الذي ينتقل كما هو عبر خطوط الهاتف؛ فحين أريد أن أكون قارئاً عادياً، يعيد ذهني كمؤلف عمل أولئك الذين سيقرؤون مقالتي. إذا لم يفهم السيد «دي غيرمانت» هذه الجملة أو تلك التي أحبها «بلوخ»، فإنه بالمقابل يستطيع أن يتسلى بتلك الخاطرة التي قد يحتقرها «بلوخ». وهكذا فإن كل جزء قد يهمله القارئ السابق، يدركه الهاوي الجديد، فيرفع الجمهور المقالة بمجملها إلى السحب فتفرض نفسها على ارتيابي بنفسي التي لم تعد بحاجة لدعمها. في الواقع تكمن قيمة المقالة، مهما كانت لامعة، في أنها تشبه ملخصات الجلسات البرلمانية؛ فليست كلمتا «سنرى لاحقاً» التي تلفظ بهما أحد الوزراء إلا جزءاً، وربما الجزء الأدنى أهمية، من الجملة التي يجب أن تقرأ كالتالي: رئيس المجلس، وزير الداخلية والأديان: «سنرى لاحقاً» (فتنطلق الاحتجاجات الصارخة من أقصى اليسار .جيد جداً. جيد جداً! وعلى بعض المقاعد في اليسار والوسط، والنهاية هي أجمل الوسط وتليق بالبداية): ويكمن قسم من جمالها –وهذه هي آفة هذا النوع من الأدب الذي لايستثنى منه كتاب «أحاديث الاثنين» المشهور[1]– في الانطباع الذي يحدثه لدى القارئ. إنها فينوس جماعية، لايملك فكر القارئ إلا عضواً مجتثاً منها، ولاتتحقق بكاملها وتمامها إلا في أذهان قرائها. ففيهم تكتمل. وكما أن الجمهور، وإن كان نخبوياً، ليس فناناً، فإن الصفة الأخيرة التي يعطيها إياها تحافظ دائماً على شيء عادي. وهكذا يستطيع «سانت بوف» يوم الاثنين أن يتصور «مدام دي بواني» (Mme de Boigne) في سريرها العالي الأعمدة وهي تقرأ مقالته المنشورة

---

[1] كتب سانت بوف (١٨٠٤-١٨٦٩) هذا الكتاب الضخم (١٥ جزءاً، ألحقها بتتمّة مؤلفة من ١٣ جزءاً بعنوان «أيام الاثنين الجديدة») ودرس فيه عدداً كبيراً من الأدباء من العصر اللاتيني (عصر أوغسطس) حتى القرن التاسع عشر. وركز فيه على نشأة الكتّاب وتربيتهم، ظنّاً منه أنهما العنصر الحاسم في فهم الأدب. وكتب بروست كتاباً ينتقد فيه هذه النظرية وعنوانه: «تصدياً لسانت بوف». (المترجم).

في جريدة «الكونستيتوسيونيل» (Constitutionnel)، فتعجب بتلك الجملة الجميلة التي نالت حظوة كبيرة في عينيه والتي ربما لم يكتبها لو لم يجدها مناسبة ليحشو بها ديباجته، كي تصيب الضربة هدفها الأبعد. وعلى الأرجح، عندما يقرأ المستشار هذه الجملة بدوره سيتحدث عنها مع صديقته العجوز أثناء الزيارة التي سيقوم بها لها لاحقا. وعندما سيصحبها دوق «دي نواي» (le duc de Noailles) بعربته هذا المساء، وهو يرتدي سروالا رماديا، سيطلعها على رأي المجتمع في هذه الكلمات، إلا إذا كانت «مدام داربوفيل» (Mme d'Arbouville) قد أعلمتها بها. عندما أدعم ارتيابي بنفسي حول هذه التأييدات العشرة آلاف التي ساندتني، فإنني استقي من القراءات في تلك الفترة فأجد فيها شعوراً بقوتي وأملاً في الموهبة، كما استقيت منها الارتياب سابقا، لمّا كنت أكتب لذاتي فقط. ورأيت في هذه الساعة بالذات فكرتي تلتمع لدى أناس كثيرين –وفي حال لم يستطع بعضهم أن يفهم فكرتي، فإنهم سيرددون اسمي ويذكرون شخصي ويزينونه– وتلون أفكارهم بذلك الشفق الذي يملأني بمزيد من القوة والفرح المنتصر، أكثر من ذلك الشفق المتعدد الذي كان يظهر وردياً على جميع النوافذ في الآن نفسه[*]. وأيضاً، ماإن أنهيت هذه القراءة المنشطة، حتى تمنيت أن أعيدها فوراً، مع العلم أنني كنت أفتقر إلى الشجاعة لأعيد قراءة مخطوطي، فهو خاو ولا علاقة له بمقالة قديمة كتبتها وقال القراء عنها: «عندما قرأناها كانَ باستطاعتنا أن نعيد قراءتها». ووعدت نفسي بشراء نسخ أخرى عن طريق «فرانسواز»، لكي أوزعها على الأصدقاء، هكذا سأقول لها، وفي الحقيقة لألمس بأصابعي معجزة تكاثر فكرتي، ولأقرأ –كما لو كنت سيداً آخر راح يقرأ في «الفيغارو» نفس

(*) رأيت «بلوخ» و«الغيرمانت» و«ليغراندن» (Legrandin) و«أندريه» و«السيد (X)» يستخلصون من كل جملة الصور التي تتضمنها في حين أحاول أن أكون قارئا عاديا، وأقرأ كمؤلف. ولكن لكي يجمع الشخصُ المستحيل ماأسعى لأكونه، لكي يجمع كل المتعارضات التي تستطيع أن تفيدني، فإنني إن قرأت ككاتب أحاكم نفسي كقارئ، دون أية مقتضيات للنص يقارن فيها المثال الأعلى الذي أراد الكاتب أن يعبّر عنه. عندما كتبت هذه الصفحات وجدتها شاحبة أمام فكرتي، ومعقدة وكتيمة أمام رؤياي المتسقة والشفافة، ومليئة بالثغرات التي لم أتمكن من ردمها، فكانت قراءتها مؤلمة لي، وزادت عندي الشعور بالعجز وبنقص مزمن في الموهبة. ولكنني الآن، بسعيي أن أكون قارئا، فإنني ألقي على الآخرين واجب محاكمتي الأليم، فأنجح على الأقل في العودة إلى الصفر في ماقصدت قوله، فرُحتْ أقرأ ماكتبت. قرأت المقالة ساعيا لإقناع نفسي بأنها لكاتب آخر. فكانت جميع صوري وأفكاري وصفاتي التي أخذت بحد ذاتها وبمعزل عن تذكر الإخفاق الذي تتمثله أمام مقاصدي، تسحرني ببهائها وعفويتها وعمقها. وعندما كنت أشعر بشطط كبير، كنت ألجأ إلى روح القارئ العادي المنذهل، فأقول لنفسي: «كيف يستطيع القارئ أن يلاحظ هذا؟ من الممكن أن يكون هنا شيء ناقص. ولكن لايهم إن لم يعجبهم. في النص كثير من الأشياء الجميلة، أكثر مما لديهم بالعادة».

الجمل، ولكن في نسخة أخرى. منذ زمن طويل لم أر «الغيرمانت»، سأذهب لزيارتهم لأتبين منهم رأي الناس في مقالتي.

فكرت في تلك القارئة التي كنت أحب كثيراً الدخول إلى غرفتها والتي ستنقل الجريدة إليها فكرتي، دون أن تتمكن من فهمها، أو على الأقل تحمل إليها اسمي، فتكون لي بمثابة مديح. ولكن المدائح التي تقال في شيء لانحبه لاتقيّد القلب أكثر من الأفكار التي لاتستهوي العقل والصادرة عن ذهن لانستطيع اختراقه. ولكن بالنسبة لأصدقاء آخرين، كنت أقول لنفسي: «إذا استمرت صحتي في التدهور فاستحالت علي رؤيتهم، سيكون من المستحسن أن أستمر في الكتابة، لكي أتمكن من التواصل معهم وأكلمهم عبر السطور وأجعلهم يفكرون فيّ فأعجبهم ويقبلونني في قلوبهم. قلت لنفسي هذا، لأن العلاقات الاجتماعية المخملية شغلت حتئذ مكانا في حياتي اليومية وصار يخيفني المستقبل إن افتقر إليها، وعزّيت نفسي بأن تلك الوسيلة التي ستخولني جذب انتباه أصدقائي نحوي وإثارة إعجابهم ربما، حتى يجيء ذلك اليوم الذي ستتحسن فيه صحتي فأعود لرؤيتهم. قلت لنفسي ذلك ولكنني شعرت بأن الأمر غير صحيح، وبأنني إذا استطبت تصور اهتمامهم كموضوع لمتعتي (وكانت هذه المتعة متعة داخلية وروحية وإرادية، فلايستطيعون هم توفيرها لي ولاأستطيع أنا أن أجد هذه المتعة في التحدّث معهم بل بالكتابة بعيدا عنهم. وقلت لنفسي إنني إن باشرت الكتابة بهدف رؤيتهم بشكل غير مباشر كي يأخذوا فكرة افضل عني، وكي أُعدّ لنفسي مكانة مرموقة في العالم، فقد تنزع مني الكتابة ربما الرغبة في رؤيتهم، كما تفقدني الرغبة في التمتع بالمكانة التي سيخصني بها الأدب، لأن رغبتي لن تنصب على العالم وإنما على الأدب.

وبعد الغداء، عندما ذهبت إلى بيت «مدام دي غيرمانت»، لأرى دون حماس الآنسة «ديبورشيفيل» التي فقدت أفضل صفة في شخصيتها بسبب برقية «سان لو» ولأرى الدوقة نفسها بصفتها قارئة من قارئات مقالتي، مما سيتيح لي الفرصة لأستكشف رأي الجمهور من المشتركين في جريدة «الفيغارو» وشرّائها. وفي المحصلة كنت أذهب بسرور إلى بيت «مدام غيرمانت». وقلت في نفسي أن مايميز هذا الصالون عن الصالونات الأخرى هو برأيي الدربة الطويلة التي خلقها في خيالي، وبعد أن تبينت أسباب هذا الفرق لم ألغِهِ من ذهني الذي كان يخصّ الـ«غيرمانت» بمجموعة من الأسماء. وإذا كان الاسم الذي علق بذاكرتي كما في دفتر للعناوين لايرتبط بأي بعد شعري، فإن بعض الأسماء القديمة التي كانت تعود إلى فترة لم أكن

فيها بعد قد تعرفت على «مدام دي غيرمانت» كانت قابلة للتشكّل فيّ، وبخاصة عندما لاأرى أصحابها مدة طويلة وعندما لايطفىء الوضوح الساطع لشخصية الوجه البشري الأشعة الخفيّة للاِسم. ومن جديد رحت أفكر في منزل «مدام دي غيرمانت» كما لو كان منزلاً تجاوز الواقع، وكذلك رحت أفكر في تلك الـ«بالبيك» الضبابية التي نشأت فيها أحلامي الأولى كما لو أنني بعدئذ لم أقم بتلك الرحلة في قطار الساعة الواحدة وخمسين دقيقة وكما لو أنني لم أستقل هذا القطار. فنسيت للحظة علمي بأن هذا غير موجود، كما يفكر المرء أحياناً بشخص حبيب وينسى أنه مات. ثم عادت فكرة الواقع عندما دخلت إلى غرفة انتظار الدوقة. وعزيت نفسي قائلاً إنها في نظري، بالرغم من كل شيء، نقطة التقاطع الحقيقية بين الواقع والحلم.

وعندما دخلت إلى الصالون رأيت الفتاة الشقراء التي ظننتها خلال أربع وعشرين ساعة الفتاة نفسها التي كلمني عنها «سان لو» وهي نفسها التي طلبت من الدوقة أن «تقدمني مرة ثانية» إليها. أجل، ما إن دخلت، حتى تهيأ لي أنني أعرفها جيداً، ولكن الدوقة أزالت هذا الانطباع فقالت لي: «آه! هل سبق لك أن التقيت بالآنسة «دي فورشيفيل»؟ على العكس، كنت متأكداً أن أحداً لم يقدمني قط لآنسة تحمل هذا الاسم؛ ولو حدث ذلك للفت الاسم انتباهي بالتأكيد، لاسيما وأنه كان مألوفاً في ذاكرتي منذ أن رويت لي لاحقاً قصة مغامرات «أوديت» العاطفية وغيرة «سوان». فبحد ذاته ذكرني الخطأ المزدوج في الاسم بـ«دي لورجيفيل»(de l'Orgeville) على أنه «دي ايبورشيفيل» الذي عدّلته فصار «ايبورشيفي» في حين أنه «فورشيفيل» (Forcheville)، ولم تكن في ذلك أية غرابة. خطأنا هو أننا نقدم الأشياء كما هي، والأسماء كما تكتب، والناس كما يعطي التصوير وعلم النفس عنهم فكرة ثابتة. ولكننا في الواقع لاندرك ذلك البتة؛ لأننا ننظر ونسمع العالم بشكل مقلوب تماماً. ونكرر اسماً كما سمعناه، إلى أن تصحّح لنا التجربة خطأنا، وهذا لايحدث دائماً. جميع الناس في «كومبري» تكلموا مع «فرانسواز» خلال خمس وعشرين سنة عن «مدام سازيرا» (Mme Sazerat)، وبقيت فرانسواز تقول «مدام سازيران» (Mme Sazerin)، ليس بسبب إصرارها المستميت والمتغطرس على أخطائها –وكان هذا الإصرار معتاداً عندها ويتعزز مع مناقضتنا ويشكل كل ماأضافته في بلدتها إلى فرنسا «سانت أندره دي شان» من مبادئ ١٧٨٩ حول المساواة– (ولم تناد إلا بحق واحد للمواطن، وهو عدم اللفظ على طريقتنا والإصرار على أن كلمات «فندق» و«صيف» و«هواء» المؤنثة بالفرنسية هي كلمات مذكرة)، وإنما لأنها في

الواقع بقيت تسمع دائما «سازيران». إن هذا الخطأ المستمر، الذي يشكّل «الحياة» فعلاً، لايعطي العالم المرئي والمسموع أشكاله الألف فقط، بل يعطيها أيضاً للعالم الاجتماعي والعاطفي والتاريخي، الخ... إن أميرة لوكسمبورغ كانت في نظر زوجة الرئيس الأول امرأة قوّادة، ولم تكن لذلك نتائج تذكر؛ ولكنّ النتيجة المهمة هي أن «أوديت» كانت امرأة صعبة بالنسبة لـ «سوان»، ولذا فإنه بنى رواية كاملة أصبحت أكثر إيلاماً عندما اكتشف خطأه. أما النتائج الكبرى فهي أن الفرنسيين لايحلمون، في نظر الألمان، إلا بالثأر. ليس العالم بالنسبة لنا إلا رؤى فقدت شكلها، رؤى مفتتنة نكملها بتداعيات أفكار تعسفيّة تخلق إيحاءات خطيرة. لم أتعجب إذن من سماعي اسم «فورشيفي» (وتساءلت إن كانت قريبة من أقارب عائلة الـ «فورشيفي» التي سمعت عنها كثيراً)، لو لم تبادرني الفتاة، وقصدها تحذيري بلباقة من طرح أسئلة محرجة، بقولها: « ألا تتذكر أنك عرفتني كثيراً في الماضي، لقد كنت تأتي إلى البيت مع صديقتك «جيلبيرت». لاحظت أنك لم تعرفني. أما أنا فعرفتك فوراً». (قالت ذلك كما لو أنها عرفتني فوراً في الصالون، والحقيقة أنها عرفتني في الشارع وقالت لي صباح الخير، وفيما بعد قالت لي «مدام دي غيرمانت» إنها روت لها حادثة مضحكة وغريبة، وهي أنني لاحقتها في الشارع ولامستها معتبراً إياها عاهرة). وماعرفت إلا بعد أن ذهبت، لماذا تسمّى بالآنسة «دي فورشيفيل». بعد موت «سوان»، تعجب جميع الناس للحزن البالغ والمستديم والصادق الذي ألمّ بـ«أوديت»، فوجدت نفسها أرملة غنية جداً. فتزوجها «فورشيفي»، بعد أن قام بجولة طويلة بين القصور ليتأكد من أن عائلته ستقبل بزوجته. (نعم، لقد أبدت العائلة بعض الصعوبات، ولكنها رضخت لأنها لم تعد مضطرة إلى دفع التكاليف لقريب محتاج سينتقل من الفقر المدقع بصورة ما إلى اليسر والثراء). وفيما بعد توفي أحد أعمام «سوان»، وكان، بعد موت أقارب عديدين له، قد نزل عليه إرث هائل، فآلت كل هذه الثروة إلى جيلبيرت، التي أصبحت من جراء ذلك إحدى الثريات الكبيرات في فرنسا عن طريق الإرث. وكان ذلك بعد عقابيل قضية «دريفوس» (Dreyfus)[1]، إذ نشأت حركة لا ساميّة موازية لحركة أخرى وهي حركة اختراق اليهود الكبرى للطبقة الفرنسية العليا. ولم يخطئ

---

(١) الفريد دريفوس (١٨٥٩-١٩٣٥): ضابط فرنسي يهودي كان يعمل في الاستخبارات العسكرية، فاتهم خطأً بتسليمه عدداً من الوثائق للعدو الألماني؛ فحوكم عام ١٨٩٤ محاكمة متسرعة ونُفي إلى جزيرة الشيطان في مستعمرة غويانا الفرنسية. وعام ١٨٩٩ أعيد النظر في المحاكمة؛ ولم تتم إعادة الاعتبار لدريفوس إلا عام ١٩٠٦. فأعيد إلى صفوف الجيش واسترجع أوسمته. وسببت قضية دريفوس أزمة كبرى في حياة الجمهورية الثالثة في فرنسا، وقسمت المجتمع الفرنسي إلى مؤيدين ومعارضين. (المترجم)

السياسيون عندما اعتقدوا أن اكتشاف الخطأ القضائي سيُلحق الضرر بمعاداة السامية. ولكنّ معاداة السامية في المجتمع الراقي ازدادت، مؤقتاً على الأقل، وثارت حفيظتها. لقد تيقن «فورشيفيل»، بصفته صغيراً من صغار النبلاء، من بعض الأحاديث العائلية، أن اسمه أقدم من اسم «لا روشفوكو» (La Rochefoucauld)، واعتبر أنه بزواجه من أرملة رجل يهودي سيحقق عملاً خيرياً يشبه صنيع رجل مليونير يلتقط عاهرة من الشارع ويخلصها من البؤس والحمأة. وكان مستعداً لبسط طيبته على شخص «جيلبيرت» التي قد تعينها الملايين العديدة، ولكن اسم «سوان» العبثي الذي تحمله سيعيق الزواج. وصرّح أنه سيتبناها. ونعرف أن «مدام دي غيرمانت» التي كانت تعشق الاستفزاز ومعتادة عليه، رفضت، بعد زواج «سوان»، أن تستقبل ابنته وزوجته، مما أثار دهشة مجتمعها. ويبدو أن هذا الرفض كان على درجة من القساوة تمثلت لدى «سوان» في إمكانية زواجه من «أوديت»، وتمثلت بخاصة في تقديم ابنة «مدام دي غيرمانت» لأمها. ولابد أنه عرف، وهو شخص خبرَ الحياة، أن هذه اللوحات التي يتصوّرها الإنسان لاتتحقق قط لأسباب مختلفة، وبينها سبب جعله لايفكر كثيراً في الندم على هذا التصوّر. والسبب هو التالي: مهما كانت الصورة، من سمكة التروتة التي نأكلها في غروب الشمس الذي يدفع رجلاً مقيماً إلى أن يستقل القطار، إلى الرغبة في التمكن ذات مساء من إبهار موظفة صندوق متعجرفة بالوقوف أمامها بموكب جليل، فإنها هي التي تدفع رجلاً بدون ذمّة إلى ارتكاب جريمة قتل أو إلى تمني موت الأقارب كي يرثهم – فإما أن يكون رجلاً شجاعاً أو خاملاً، وإما أنه يذهب بعيداً في متابعة أفكاره أو أنه يبقى يدغدغ بداياتها-؛ ذلك أن الفعل الذي يخولنا بلوغ الصورة (أكان هذا الفعل سفراً أو زواجا أو جريمة، الخ)، فإنه يغيّرنا تغييراً عميقاً كي لانعلق من بعد أهمية، أو كي لاتخطر ببالنا مرة واحدة، على الصورة التي كوّنها من لم يصبح بعد مسافراً أو زوجاً أو مجرماً أو مستوحداً (انكبّ على العمل في سبيل المجد، وتخلى بالتالي عن الرغبة في ذلك المجد)، الخ. وإذا تعنتنا في عدم الرغبة في العمل عبثاً، يرجّح أن تأثير الشمس لن يظهر؛ فإذا كنا نشعر وقتها بالبرد ورغبنا في حساء قرب النار وليس في تورتة تؤكل في الهواء الطلق، فإن موكبنا قد يترك موظفة الصندوق لامبالية لأنها، ولأسباب نجهلها، ربما كانت تقدّرنا تقديراً كبيراً، بينما قد تدفع هذه الثروة المفاجئة إلى أخذ الحذر. وبوجيز العبارة، رأينا «سوان» المتزوج يقيم بخاصة وزنا لعلاقات زوجته وابنته بـ«مدام بونتان»، الخ.

إلى هذه الأسباب جميعها، وهي الأسباب المستخلصة من طريقة عائلة «الغيرمانت» في فهم الحياة الاجتماعية المخملية، والتي دفعت الدوقة إلى عدم التعرف على السيدة والآنسة «سوان»، نضيف أن الناس الذين لايحبون يبتعدون بسهولة سعيدة عما يلومونه عند العشاق، وأن تصرّف العشاق يشرح موقفهم. «آه، إنني لاأتدخل في كل هذا؛ إذا طاب للسيد سوان أن يرتكب حماقات ويدمّر حياته، فهذا شأنه، ولكنهم لن يخدعوني بهذه الأشياء، قد ينتهي كل ذلك نهاية سيئة، أتركهم يتدبرون أمرهم». كنْ «كاليم الكبير الهانئ» (Suave mari magno)، بهذه العبارة اللاتينية نصحني «سوان» كيف أتصرف مع عائلة الـ «فيردوران»، عندما كف منذ أمد طويل عن عشق «أوديت» ولم يعد يركز على القبيلة الصغيرة. وهذا هو الذي يجعل آراء الآخرين حول أشكال العشق التي لم يعرفوها وحول التصرفات المعقدة التي تؤدي إليها، آراء حكيمة جداً.

وأصرت «مدام دي غيرمانت» إصراراً متعنتاً على استبعاد السيدة والآنسة «سوان»، مما أثار الدهشة. وعندما بدأت السيدتان «مولي» و «دي مارسانت» بالارتباط بالسيدة «سوان» وبجذب عدد كبير من نساء المجتمع الراقي إلى بيتها، لم يفتر تعنتها فحسب، بل تدبرت أمرها وقطعت جميع الجسور، وحذت الأميرة «دي غيرمانت» حذوها. وفي غمرة الأزمة التي حصلت أثناء حكومة «روفيه» (Rouvier)، ظن الناس أن الحرب وشيكة بين فرنسا وألمانيا؛ وبينما كنت في أخطر يوم من أيام تلك الأزمة أتعشى وحدي مع «مدام دي غيرمانت» مع السيد «دي بريوتي» (de Bréauté) وجدت الدوقة مهمومة. وبما أنها كانت تهتم كثيراً بالسياسة، ظننت أنها مهمومة بسبب خشيتها من الحرب. وذات يوم، بينما كانت متوجهة إلى غرفة الطعام والهموم ظاهرة على وجهها، وبالكاد كانت تجيب بكلمة قصيرة على الأسئلة، سألها أحدهم بخجل عن سبب هذه الهموم فأجابته بنبرة رزينة: «إن الصين تقلقني». ولكن «مدام دي غيرمانت» فسّرت سبب همومها الذي عزوته أنا إلى خشيتها من الحرب، فقالت للسيد «دي بريوتي»: «يقال إن ماري أينار (Marie-Aynard) تفكر في رفع شأن سوان وعائلته. ينبغي عليَّ بأي شكل أن أذهب في صباح الغد لأرى ماري جيلبير (Marie-Gilbert) لتساعدني على منع ذلك. وبدون هذه الخطوة، سينتهي المجتمع. إن قضية دريفوس أمر جميل. ولكن ماينقصنا هو أن بقالة الحارة تدَّعي أنها وطنية وتريد مقابل ذلك أن تدعى إلى بيتنا». ودهشت من هذا الكلام الطائش الموجّه لشخص كنت أنتظره، دهشة القارئ الذي يبحث في جريدة «الفيغارو» عن الزاوية المعتادة

لنشر آخر الأخبار المتعلقة بالحرب الروسية اليابانية، فيجد مكانـــها لائحـــة بالأشخاص الذين قدموا الهدايا بمناسبة عرس الآنسة «دي مورتيمـــار» (de Mortemart) فيعجبون من أهمية الزواج الأرستقراطي الذي دفع بأخبار المعارك الأرضية والبحرية إلى آخر الجريدة. وانتهى الأمر بالدوقة إلـــى شـــعورها بالكبرياء من جراء هذه المثابرة المستميتة، ولم تترك أية مناسبة للتعبير عنه. فقالت: «يدعي بابال (Babal) أننا الشخصان الأكثر أناقة في بـــاريس، لأننـــا الشخصان الوحيدان اللذان لايتركان الآنسة والسيدة سوان تســـلمان علينـــا. ويؤكد بابال أن الأناقة منوطة بعدم التعرف على السيدة سوان». وضحكـــت الدوقة من كل قلبها.

ومع ذلك، عندما توفي «ســـوان»، حصـــل أن قـــرار «مـــدام دي غيرمانت» بالا تستقبل ابنته قد آل إلى إعطائها جميع أشكال الرضا بالكبرياء والاستقلال والحكم الذاتي والاضطهاد التي كان يتوقع منها استخلاصها والتي انتهتِ بموت الشخص الذي كان يشعرها بمقاومتها المستلذة له والذي لم يكـن قادراً على تفنيد قراراتها. فانتقلت عندئذ إلى إصدار قرارات أخرى تستطيع، إن طبّقت على الأحياء، أن تشعرها بأنها سيدة قراراتها وبأنها تفعل مـــايطيب لها. لم تكن تفكر بابنة «سوان» الصغيرة، ولكن عندما كانوا يكلمونها عنـــها، كانت الدوقة تشعر بفضول، كأنها تريد التعرف على مكان جديد، فضول لـــم تعد تخفيه عنها رغبتها في مقاومة «سوان» المدعي. أجل هنـــاك مشـــاعر مختلفة وعديدة تستطيع المساهمة في تشكيل شعور وحيد، وهـــو أن المـــرء لايستطيع أن يبت في وجود عاطفة كانت تكنها لـــ«ســـوان». ففـــي جميـــع طبقات المجتمع تشل الحياة المخملية والطائشة المشاعرَ وتزيـــل الإحســـاس بإحياء الموتى؛ لقد كانت الدوقة تحتاج إلى حضور الشخص أمامها كي تحبـه فعلاً، كما كان هذا الحضور – وهذا شيء نادر– يشعرها أيضاً بمقته علـــى نحو ما، وكانت كسليلة من عائلة الـــ«غيرمانت» تتقن إطالة هذا الحضـــور. وغالباً ماكانت مشاعرها تجاه الناس، والتي علقتها عنهم أثناء حياتهم بســـبب غضبها من تصرفاتهم معها، تعود وتظهر بعد مماتهم. فتكاد تنتابها رغبة في التعويض، لأنها لم تعد تتصورهم –وبغموض– إلا بصفاتهم الحقيقية وبمعزل عن شهواتهم وادعاءاتهم التي كانت تزعجها أثناء حياتهم. هذا كان يعطـــي «مدام دي غيرمانت» بعض النبل في تصرفها المشوب بكثير مـــن الدنـــاءة، وذلك بالرغم من طيشها. فبينما نجد أن ثلاثة أرباع البشر يتملقون الأحيـــاء ولايعيرون أي اهتمام بالأموات، فإنها كانت بعد مماتهم تعاملهم بالحسنى التي تمنوها أثناء حياتهم.

أما «جيلبيرت»، فجميع الأشخاص الذين أحبوها وشعروا بعزة نفسها لم ينشرح صدرهم لتغيّر مشاعر الدوقة تجاهـــها وظنـــوا أنـــها بالإشـــاحة الاحتقارية عن هذه التمهيدات التي ظهرت بعد خمسة وعشرين عامـــاً مـــن الإهانة، فإنها تنتقم لهم. ولسوء الحظ لاتكون الارتكاسات الأخلاقية مطابقـــة دائماً لما يتخيله الحس السليم. فمن ظنَّ بسبب شتيمة ناقصة أنه فقد إلى الأبـد كل الآمال التي كان يعقدها على شخص يُصِرّ على المحافظة عليـــه، فإنـــه يحفظها هكذا. إن «جيلبيرت» التي كانت تبالي قليلاً بالأشخاص اللطفاء، لـــم تكف عن التفكير بإعجابها بصفاقة «السيدة دي غيرمانت» وبالتســاؤل عـــن أسباب تلك الصفاقة، لا بل إنها ذات مرة –وهذا ماجعل الناس الذين كـــانوا يكنون لها بعض الصداقة يموتون من الخجل عليها– أرادت أن تكتب للدوقـــة كي تسألها عن أسباب غضبها من فتاة لم تفعل لها شيئاً. وفي نظرها أخـــذت عائلة «الغيرمانت» أبعاداً لاتستطيع نبالتهم أن تمنحها إياها؛ إذ إنها ما كـــانت تضعها فوق كل النبلاء فحسب، بل فوق جميع العائلات الملكية.

واهتمت كثيراً بـــ«جيلبيرت» مجموعة مـــن الصديقـــات الســـابقات لـــ«سوان». وعلمت الأرستقراطية بآخر تركة قدمتها، وراحت تلاحظ كـــم أنها امرأة مهذبة وكم ستكون فاتنة. وقيل إن الأميرة «دي نييفـــو» (de Nièvre) وهي ابنة عم «مدام دي غيرمانت»، كانت تفكر فيها لابنها. أما «مـــدام دي غيرمانت» فكانت تمقت «مدام دي نييفر». ولهلع هذه الأخيرة، فإنها أكـــدت أنها لم تفكر قط بهذا المقت. وذات يوم صحا طقسه، وبعـــد الغـــداء، أرادت «مدام دي غيرمانت» أن تتنزه مع صديقتها، فأصلحت قبعتها أمـــام المـــرآة وأمعنت النظر في عينيها الزرقاوين وفي شعرها الذي مازال أشقر، وكـــانت خادمتها تحمل في يديها عدة مطريات لتختار معلمتها واحدة منـــها. وكـــانت أشعة الشمس تتدفق من النافذة، فقررت العائلة الاستفادة مـــن ذلـــك النـــهار الجميل لتزور منطقة «سان كلو» (Saint-Cloud). وكان السيد «دي غيرمـــانت» جاهزاً تماماً ويضع قفازين رماديين فاتحين وقبعة على رأسه، ويقول لنفســه: «إن أوريان Oriane مدهشة فعلاً. وأجدها عذبة». ولما وجد أن طوية زوجتـــه حسنة قال: «بالمناسبة. عندي رسالة يجب أن أبلغك إياها من قبل «مـــدام دى فيريليف»(Mme de Virelef) إنها تدعوك يوم الاثنين إلى الأوبرا. وبما أن بنـــت سوان عندها، فقد طلبت مني أن أجس النبض. إنني لاأبدي أي رأي، أنقـــل الرسالة فقط. والله يبدو لي أننا نســـتطيع..» هـــذا ماأضافـــه بشـــرود، لأن مشاعرها نحو شخص ما كانت مشاعر جماعية وتنشأ متطابقة لديهما، وأدرك وحده أن عداوة زوجته تجاه الآنسة «سوان» قد تناقصت وأنها كانت علـــى

جانب من الفضول للتعرف عليها. وأنهت «مـــدام دي غيرمـــانت» تركـــيز منديلها واختيار مطريتها وقالت:

ـ «ولكن كما تريد، لاأعير الأمر اهتماماً. لاأجد أي مانع لنتعـــرف على هذه الصغيرة. أنتِ تعرف تماماً أنني لا أكن لها أي كره. فقط لم أرد أن يبدو علينا وكأننا نستقبل عائلات أصدقائنا المزيفة. هذا كل شيء.

ـ كان معك حق، وتمام الحق، أجابها الدوق. أنت الحكمة بالذات، يا مدام، وأيضاً إنك رائعة بهذه القبعة.

ـ ما ألطفك من رجل!» قالت «دي غيرمانت» وهي تبتسم لزوجـــها وتتجه نحو الباب. ولكنها قبل أن تدخل إلى السيارة أصرت علـــى إضافـــة بعض الشروح: «الآن كثير من الناس يرون الأم، على كل حال معـــها كـــل الحق بأن تمرض ثلاثة أرباع السنة. يبدو أن الصغيرة لطيفة جداً. الجميـــع يعلمون أننا كنا نحب سوان كثيراً، وسيجدون ذلك طبيعياً جداً». وانطلقا معـــاً نحو «سان كلو».

وبعد شهر كانت ابنة «سوان»، ولم تكن تسمى بعـــد «فورشـــيفيل» تتغذى عند الـــ«غيرمانت». فتكلموا عن ألف شيء وشيء. وبعد الغداء قالت «جيلبيرت» بخجل: «أظن أنكِ عرفت أبي معرفة ممتازة –أظن ذلك فعـــلاً»، هذا ماقالته «مدام دي غيرمانت» بنبرة حزينة تثبت أنها كانت تفـــهم أســـى الفتاة، وقالت ذلك بحميّة زائدة مقصودة تنمّ عن إخفائها عدم تأكدها من تذكـــر الأب تذكراً جيداً. «لقد عرفناه تمام المعرفة، وأتذكر ذلك بشكل جيد جـــداً». (أجل كان بوسعها أن تتذكر ذلك، كان يأتي ليراها كل يوم تقريباً، وخـــلال خمس وعشرين سنة). وأضافت كما لو أنها أرادت أن تشرح لابنتـــه أي أب كان لها، وأن تعطي تلك الفتاة معلومات عنه: «أعرف تماماً من هو، وسأقول لكِ إنه كان صديقاً كبيراً لحماتي وكان أيضاً على صلة وثيقة مـــع صـــهري بالاميد (Palamède).

كان يأتي إلى هنا، لا بل كان يتغذى هنا، هذا ما أضافه «الســـيد دي غيرمانت»، بتفاخر وتواضع ودقة متناهية. «تذكرين ذلك يا أوريان. كـــان أبوك رجلاً طيباً. كم كان المرء يشعر بأنه ينحدر من عائلة شرفاء. يضـــاف إلى ذلك أنني لمحت في الماضي أباه وأمه. أجل أنهما وإنـــه مـــن النـــاس الطيبين!».

ويشعر من ذلك أن الأبوين والابن، لو بقيا على قيد الحياة، لما تـودد الدوق «دي غيرمانت» في النصح بتشغيلهما كبستانيين. وهكذا كـان حـي الـ«فوبور دي سان جيرمان» يتكلم مـع كـل بورجـوازي عـن بـاقي البورجوازيين، إما ليمدحه لأنه استثناء، وذلك في معرض الحديث لصـالح المخاطب أو المخاطبة، وإما بالأحرى لإذلاله في الوقت نفسه. وعلـى هـذا النحو قال أحد المعادين للساميّة لأحد اليهود، بعد أن غمره بالترحاب، أشـياء سيئة عن اليهود تتيح له الفرصة بعامة أن يكون جارحاً دون أن يقـع فـي الابتذال.

ولكن «مدام دي غيرمانت»، بصفتها ملكة اللحظة، لأنها كانت تتقـن فن الإشادة بك بحيث لاتستطيع أن تتركك تذهب، كانت أيضاً عبدة اللحظـة. في غمرة الحديث، استطاع «سوان» أحياناً أن يخلـق لـدى الدوقـة وهـم صداقتها له، فلم يعد يستطيع ذلك. «كان رائعا»، قالت الدوقة ذلك بابتسـامة حزينة بعد أن ألقت على «جيلبيرت» نظرة رقيقة جداً تظهر للفتاة –إن كانت حساسة– أن كلامها قد فهم وأن «مدام دي غيرمانت» –لو وجـدت وحدهـا معها ولو سمحت الظروف– لأحبت أن تكشف لها عمق أحاسيسها الكـامل. ولكن السيد «دي غيرمانت»، إما أنه ظن أن الظروف غير مناسـبة للبـوح بهذه العواطف الجياشة، وإما أنه اعتبر أن المبالغة في العواطف مـن شـأن النساء وأن الرجال لايهتمون بأشياء أخرى، ماعدا اختصاصـهم بـالمطبخ والخمور، فوجد أنه من المستحسن عدم الخوض في الموضوع كي لايطـول الحديث الذي استمع إليه بتبرّم ملحوظ. وبعد أن عـبّر عـن ذلـك الفيـض العاطفي، أضافت «مدام دي غيرمانت» بطيش المجتمـع الراقـي موجهـة الحديث لـ«جيلبيرت»: «أريد أن أقول لكِ إنه كان صديقا كـ كـ كبـيراً لصهري «شارلو» (Charlus) وصديقاً عزيزاً «لفوازينـون» (Voisenon) (وهـو قصر أمير الغيرمانت)، ليس لأن التعرف علـى السـيد «دي شـارلوس» والأمير كان صدفة لـ«سوان» في ظرف من الظروف، علمـا بأنـه كـان مرتبطا بجميع الناس في ذات المجتمع، وإنما أرادت «مدام دي غيرمـانت» أن تفهم «جيلبيرت» من هو نوعاً ما أبوها وأن «تحدده» لها عـن طريـق بعض الإشارات التي لاتخفى عمّن يريد أن يشرح علاقاته به، أو أنها –كـي تشخص قصتها– ذكرت الرعاية الخاصة لشخص معين. أما «جيلبيرت» فقـد كانت أشد سعادة عندما لاحظت أن الحديث الذي كانت تريده أن يتغـيّر قـد تداعى، فقد ورثت من «سوان» ذلك الإحساس اللطيف المصحوب بالذكـاء الساحر، وهما خصلتان اعترف بهما الدوق والدوقة واستساغاهما فطلبا مـن

«جيلبيرت» أن تعود عما قريب. وبدقةٍ الناس الذين يُمضـون حياتـهم دون هدف، لاحِظا وجود صفات بسيطة جداً عند الناس الذين ارتبطا بهم، فانذهلوا بها انذهالاً ساذجاً كما ينذهل ابن المدينة عندما يكتشف بقعةٍ من العشـب، أو أنهم يضخمون الأمور ويمررونـها بمكروسكوب ويعلقـون دون نهايـةٍ ويفضحون أصغر العيوب، وفي أغلب الأحيان ينالون من الشخص نفسه، كل بدوره. ولاحظت «جيلبيرت» أن النباهة الخاملة للسيد «غيرمانت» وزوجتـه تناولت في البداية إيجابياتها فقالت الدوقة لزوجـها بعـد مغادرتـها: «هـل لاحظتِ الطريقة التي تلفظ بها بعض الكلمات، إنها تلفظ فعلاً مثـل سـوان، ظننتني اسمعه.

- يا أوريان، كدت أشير إلى نفس الملاحظة التي أبديتها.

- إنها ظريفة بظرافة أبيها تماما.

- أرى أنها تتفوق عليه كثيراً. أتذكريـن كيـف روت قصـة الاستحمام في البحر، عندها براعة لم تتوفر لسوان.

- ولكنه هو أيضاً كان من الظرفاء

ـ لم أقل إنه لم يكن ظريفاً، قلت إنه كان يفتقر إلى البراعة»، هـذا ماقاله السيد «دي غيرمانت» بلهجةِ المشتكي، لأن مرض النقرس كان جعلـه عصبياً، وعندما لم يكن يجد شخصاً يشهد انزعاجه، كان يظـهره للدوقـة. ولعجزه عن فهم الأسباب، فقد كان يفضّل أن يتخذ شكل الإنسـان الـذي لا يفهمه الآخرون.

ودفعت هذه الاستعدادات كلاً من الدوق والدوقة إلى أن يتلفظا أحيانـاً بعبارة «أبوك المسكين» التي لم يستخدماها من قبل؛ ذلـك أن «فورشـيفي» كان قد تبنى الفتاة في الفترة نفسها. وكانت تقول لـ«فورشيفيل»: «يا أبـي»، فتسحر النساء المسنات بسياستها وتميّزها، واعترف الناس بأن «فورشـيفيل» إذا تصرف بروعةٍ معها، فلأن الصغيرة كانت ذا قلب وتعرف كيف تكافئـه. ولأنها كانت أحياناً قادرة وراغبة في إظهار كثير من اليسر، فإنها كشفت لـي شخصيتها وكلمتني عن أبيها الحقيقي. ولكن ذلك كان استثناء، ولم يعد الناس يجرؤون أن يلفظوا اسم «سوان» أمامها.

ولدى دخولي إلى الصالون، لاحظت لتوي فعـلاً وجـود رسـمين لـ«إلستير» كانا قد أودعا في غرفة من الغرف العليا، فلم أرهمـا إلا عـن طريق الصدفة. ولم تكن «مدام دي غيرمانت» تجد لنفسها العـزاء بعـد أن

أعطت بنت عمها عدداً كبيراً من لوحاته، لا لأنها كانت جزءاً من موضة العصر، بل لأنها هي أصبحت تتذوقها الآن. وفعلاً تصنع الموضة من شغف مجموعة من البشر تمثل بعائلة الغيرمانت. ولكنها لم تستطع التفكير بشراء لوحات أخرى له، لأن أسعارها ارتفعت بشكل جنوني منذ فترة. وكانت تريد على الأقل أن تعلق في صالونها بعض أعمال «إلستير»، فأمرت بتنزيل هذين الرسمين وصرّحت بأنها تفضلهما على لوحاته الزيتية. وتعرفت «جيلبيرت» على طريقة الرسم هذه، فقالت: «كأنها من لوحات إلستير». فأجابتها الدوقة دون انتباه: «نعم إنهما منكم (ولم تلفظ الكلمة بكاملها)..، إنهما من أصدقاء لنا اشتروها خصيصاً لنا. إنهما رائعان. اسمع وبرأيي إنهما يفوقان لوحاته الزيتية». وأنا الذي لم اسمع هذا الحوار، اقتربت لأشاهد اللوحتين. فقلت: «آه، إنهما من إلستير الذي...» ورأيت الإيماءات اليائسة تصدر عن «مدام دي غيرمانت». «آه نعم، إنه رسم لألستير الذي أعجبت به وهو فوق، ومكانه فوق أفضل من مكانه في هذا الممر. في مايخص إلستير، أمس ذكرتهُ في مقالة نشرتها الفيغارو. هل قرأتموها؟» فصرخ السيد «دي غيرمانت» بنفس العنف كما لو أنه هتف: «كتبت مقالة في الفيغارو. ولكنها بنت عمي» قائلا: «لقد كتبت مقالة في الفيغارو؟ – نعم، أمس. – في الفيغارو، هل أنت متأكد؟ هذا يدهشني كثيراً. فكلانا عنده نسخة من الفيغارو، فإن فاتت المقالة أحدنا لرآها الآخر. أليس هذا صحيحاً، ياأوريان، لم نرَ شيئاً». فأُتي بجريدة «الفيغارو» للدوق ولم يتبين له الأمر إلا عندما اتضح، كما لو أنني أخطأت في اسم الجريدة التي أكتب فيها. وقالت لي الدوقة وهي تبذل جهداً لتتكلم عن شيء لايهمها: «ماذا؟ إنني لاأفهم، لقد عملت مقالة في الفيغارو؟» وقالت: «ولكنك ياعزيزي بازان (Basin) ستقرأ ذلك فيما بعد. فقالت «جيلبيرت»: كلا، الدوق ممتاز هكذا، إنه الآن يغرس لحيته الطويلة في الجريدة. سأقرأ فوراً كل هذا عندما أعود. – نعم، إنه يربي لحيته الآن بينما يحلقها جميع الرجال، هذا ماقالته الدوقة، إنه لايعمل قط شيئاً مثل الآخرين. عندما تزوجنا كان لايحلق ذقنه فقط بل شاربيه. وكان الفلاحون الذين لايعرفونه لايصدقون أنه فرنسي. وكان يدعى آنئذ بأمير لوم (Laumes). فسألت «جيلبيرت» التي كانت تهتم بكل مايتعلق بالناس الذين رفضوا ولمدة طويلة أن يقولوا لها صباح الخير: هل أمير «لوم» موجود حتى الآن؟ فأجابت الدوقة بنظرة أسى وقالت: «كلا». فقالت «جيلبيرت»: «إنه لقب جميل جداً!. إنه من أجمل الألقاب الفرنسية!»، وأزفت الساعة ليتلفظ بعض الأشخاص الأذكياء بعدد من التفاهات المتوقعة. «نعم إنني آسفة أيضاً. بازين (Basin) كان يريد من حفيده أن يصلح الأمر، ولكن المسألة ليست نفسي

الشيء؛ في الحقيقة قد يكون الوضع هكذا لأنه لايتعلق وجوباً بالابن البكر، فقد ينتقل ذلك من البكر إلى الابن الذي يليه. قلت لكم إن بازين كان حليقاً؛ وذات يوم عندما حجّ إلى باري لي مونيال(Paray-le-Monial)، أتذكر ذلك ياصغيري (هذا ماقالته لزوجها، فإن صهري «شارلوس» الذي كان يحب التحدث مع الفلاحين كان يقول لهذا أو ذاك منهم: «من أين أنت؟ وبما أنه كان كريماً فقد كان يعطيهم شيئاً ثم يدعوهم ليشربوا. لا أحد أرقى وأبسط من ميمي (Mémé). تراه يرفض إلقاء السلام على دوقة من الدوقات لأنه لايعتبرها دوقة كما يجب، ويغدق العطاء لخادم حقير. عندها قلت: يا«بازين» قل لهم شيئاً. أما زوجي الذي لايتمتع بروح ابتكارية متطورة... - شكراً ياأوريان، قال الدوق دون أن يكف عن قراءة مقالتي التي غاص فيها. - فقد استدعى أحد الفلاحين وطرح عليه نفس السؤال الذي طرحه على أخيه: «وأنت من أين؟ - إنني من لوم (Laumes). أنت من لوم، إذن أنا أميرك». عندها نظر الفلاح إلى وجه «بازين» الأمرد وأجابه: «ليس هذا صحيحاً. انك إنكليزي». وهكذا كانت تستشف من أقاصيص الدوق الألقاب الطنانة، ومن بينها لقب «دوق لوم» التي كانت تبرز في مكانها الحقيقي وفي حالتها القديمة ولونها المحلي، كما كان الناس يلاحظون وفي كتب الساعات، في خضمّ الجمهور آنذاك، سهم «بورج» (Bourges) .

وأتى أحد الخدم بمجموعة من الأوراق. «لاأعرف ماذا دهاها، لاأعرفها، أدين لكِ بذلك، يا بازين. ومع ذلك فإن هذا النوع من العلاقات لم يناسبك، ياصديقي المسكين». ثم التفتت إلى جيلبيرت وأردفت: «لاأستطيع أن أشرح لك من هي، انك لاتعرفينها بالتأكيد، اسمها الليدي روفوس إسرائيل (Rufus Israël)». فتضرجت وجنتا جيلبيرت وقالت: «إنني لاأعرفها (والأنكى من ذلك أن الليدي «اسرائيل» كانت، قبل موت «سوان» بسنتين، قد تصالحت معه وكانت تنادي «جيلبيرت» باسمها الأول)، ولكنني أعلم تماماً، عن طريق الآخرين أنها الشخص الذي تعنينه».

علمتُ أن فتاة سألت، إما عن خبث وإما عن رعونة، عن اسم أبيها، لابالتبني وإنما الاسم الحقيقي، وبسبب اضطرابها ولتحريف ماكان عليها أن تقول، فقد لفظت اسم «زفان» (Svann) بدلاً من سوان (Souann)، ولاحظت لاحقاً أن هذا التبديل في الأحرف انتقاصي، إذ صار الاسم ذو الأصل الإنكليزي اسماً ألمانيا. لا بل أضافت بمذلة كي ترفع من شأنها: «تقال حول

---

(١) تعتبر كاتدرائية سانت اتيين في مدينة بورج الفرنسية من أهم الصروح الغوطية وبنيت مابين القرن الثاني عشر والرابع عشر، ومن روائع الكاتدرائية سهمها الرئيسي الشاهق. (المترجم)

ولادتي أشياء متباينة جداً، ويتعيّن عليّ أن أنساها كلها». إذا خجلت «جيلبيرت» جداً في بعض الأوقات، وعند تفكيرها في أهلها (وحتى مدام سوان كانت بمثابة أم صالحة وكانتها فعلاً)، فمن هذه الطريقة في النظر إلى الحياة؛ يجب أن يفكر المرء ولسوء الحظ أن عناصر تفكيره مقتبسة من أهله، لأن الإنسان لايصنع نفسه من العدم. وانضافت إلى مجمل الأنانية الموجودة عند الأم أنانية مختلفة تعود إلى عائلة الأب، وهذا لايعني دائماً أن الأنانيتين قد جُمعتا حسابياً أو أنهما استخدمتا فقط بصيغة الجمع، ولكنهما خلقتا أنانية جديدة أقوى إلى مالانهاية ومخيفة. ومنذ أن أنشئ العالم، ومنذ أن وجدت عائلات شابها نفس العيب وإنما بتسمية أخرى (وهذا يخلق لدى الطفل تنويعاً كبيراً ومقيتاً)، فإن الأنانيات المتراكمة (إن اقتصرت هنا على الأنانية فحسب) قد تكتسب قوة هائلة تستطيع أن تدمّر العالم بأسره، إن لم يُلجَم الشرّ بقيود طبيعية قادرة على تحجيمه، وهي قيود تشبه تلك التي تحول دون التكاثر اللا محدود للنقاعيّات كي لاتدمر كوكبنا، والتي تمنع إخصاب النباتات الوحيدة الشق من تقويض مملكة النبات، الخ. ومن حين إلى آخر نرى فضيلة من الفضائل تأتي لتؤلف مع هذه الأنانية قوة جديدة وغير مغرضة. إن المركبات التي تثبت بها الكيمياء الأخلاقية العناصر المخيفة وتجعلها غير ضارة هي كثيرة، ومن شأنها أن تمنح تاريخ العائلات تنويعاً مذهلاً. وتتعايش مع هذه الأنانيات المتراكمة هذه الفضيلة الجميلة أو تلك عند الوالدين، وهذا ماحصل لـ«جيلبيرت»؛ لقد أتت في لحظة ما لتكون بمثابة فاصل مسرحي ولتمثّل دورها المؤثر بصراحة تامة. ولم تتجاوز «جيلبيرت» التلميح بأنها قد تكون البنت الطبيعية لأحد الكبار، ولكنها بعامة كانت تخفي أصولها. وربما كان الإفصاح عن ذلك يزعجها، فكانت تفضل أن يأتي الاطلاع على ذلك من الآخرين. وربما كان تظن أنها تخفيها فعلاً (مع العلم أن هذا الظن غير اليقيني ليس الشك، لأنه لايترك مجالاً لما يتمناه الإنسان، ويعطي الكاتب «موسيه» (Musset) مثالاً على ذلك عندما تكلم عن الأمل بالله[1].

وأردفت «جيلبيرت»: «إنني لاأعرفها شخصياً». عندما سمّت نفسها الآنسة «دي فورشيفيل»، هل كانت تأمل منا أن ننسى أنها ابنة «سوان»؟ واحتراماً لبعض الأشخاص ربما، فإنها كانت تأمل أن تصبح مع الزمن العالمَ كله تقريباً. ولم يكن عندها أوهام كثيرة حول عددهم الحالي، وكانت تعرف

---

[1] لقد كتب «الفريد دى موسيه» (١٨١٠-١٨٥٧) كتاباً عنوانه: «الأمل بالله» (١٨٣٨) عبّر عن قلقه وأمله بوجود الله. ولايُذكر هذا الكتاب كثيراً في أعماله، لأنه يتعارض نوعاً ما مع خط «موسيه» العام. (المترجم)

على الأرجح أن كثيراً من الناس يهمسون: «إنها ابنة سوان». ولم تكن تعلم ذلك إلا بذلك العلم نفسه الذي يكلمنا عن أشخاص يقتلون أنفسهم من البؤس بينما نحن نذهب إلى حفلات البال، أي بذلك العلم البعيد والغامض الذي لانصرّ على استبداله بمعرفةٍ أدق ناجمة عن انطباع مباشر. وبما أن البعد يجعل لنا الأشياء أكبر حجماً وأكثر اشتباهاً وأقل خطراً، فإن «جيلبيرت» كانت تفضل الابتعاد عن أولئك الأشخاص الذين سيكتشفون وقتها أنها ولدت في عائلة «سوان»[*]. وبما أن الإنسان يتصوَّر الأشخاص الذين يقربهم، وبما أنه يستطيع أن يتصور الناس الذين يقرأون جرائدهم، كانت «جيلبيرت» تفضل أن تسميها الجرائد الآنسة «دي فورشيفي». صحيح أنها في الكتابات التي هي مسؤولة عنها، أي رسائلها، حضّرت خلال فترة معينة لتلك النقلة فكانت توقع ج.س. فوشيفيل (G.S.Forcheville). وكان النفاق الحقيقي في هذا التوقيع يتجلى في إلغاء باقي الحروف في اسمي «سوان» و«جيلبيرت». فبتقليص الآنسة «دي فورشيفيل» اسمها الأول البري، واختزاله بحرف G، فإنها نوهت لدى أصدقائها بأن نفس البتر الذي طبّق على اسم «سوان»، لم يكن إلا من باب الاختصار. لابل كانت تعطي أهمية خاصة لحرف الـ S بتطويل ذنبها بحيث تشطب حرف الـ G، ولكن المرء كان يشعر بأن ذلك الذنب مؤقت وآيل للزوال، شأنه شأن الذنب الطويل لدى القرد والذي زال عند الإنسان.

ومع هذا، فقد كان في حذلقتها شيء ذكي من فضول «سوان». أتذكّر أنها في ذلك العصر سألت «مدام دي غيرمانت» إذا ما عرفت السيد «دي لو» (du Lau)، فقالت لها الدوقة إنه مريض ولايخرج من بيته، فأضافت «جيلبيرت» التي احمر وجهها قليلاً أنها سمعت الناس يتكلمون كثيراً عنه. (أجل، لقد كان المركيز دي لو أحد الأصدقاء الحميمين لـ«سوان» قبل زواج هذا الأخير، وربما أن «جيلبيرت» لمحته في فترة لم تكن تهتمّ فيها بهذا المجتمع). فسألت: «هل يستطيع السيد دي بريوتيه (de Bréauté) أو الأمير «داغريجانت» (d`Agrigente) أن يزوداني بمعلومات أكثر؟»، فصاحت «مدام دي غيرمانت» «كلا، قطعاً»، وكانت شديدة الحساسية لتلك الفروق الريفية فتعطي صوراً مقتضبة عنها تلوّنها بصوتها الذهبي الأجش وتذبّل عينيها البنفسجيتين. «كلا، قطعاً. لقد كان دي لو من أشراف بيريغور Périgord،

---

* في غضون تلك السنوات كانت جيلبيرت تنتمي، ومازالت، إلى ذلك النوع من معشر الناس الأكثر انتشاراً، أي ذاك الذي يخفي رأسه على أمل، لا أن يرى –وهو غير وارد كثيراً في نظره–، بل لايرى أن الآخرين يرونه، وهذا شيء عظيم لهم ويخولهم فرصة تسليم أمورهم للحظ، في نهاية المطاف.

ورجلاً لطيفاً يمارس جميع الطرق الجميلة ويرفع الكلفة بسرعة على طريقة أهل الريف. في «غيرمانت» عندما كان يأتي ملك إنكلترا الذي ارتبط بصداقة متينة مع «دي لو»، ليصطاد كانت تقام له عصرونية بعد الصيد؛ واعتاد «دي لو» في تلك الساعة أن يخلع نعليه ويلبس جوارب سميكة من الصوف. نعم لم يكن وجود الملك إدوار وجميع الارشيدوفات يزعجه إطلاقاً، فكان ينزل إلى صالون غيرمانت الفسيح بجواربه الصوفية. ذلك أنه كان يعتبر نفسه المركيز «دي لو دالمان» (d`Allemans) ولايزعج نفسه بشيء بسبب ملك إنكلترا. هو وصنوه «دي بريتوي» (de Breteuil) كانا الشخصين الذين كنت أحبهما أكثر. يضاف إلى ذلك أنهما كانا صديقين كبيرين لـ... (وكادت أن تقول: لأبيك، ولكنها قطعت الكلمة. كلا، هذا لاعلاقة له بـ «غري.. غري» ولا بـ«بريوتيه». لقد كان السيد الأكبر الحقيقي «للبيريغور». وأيضاً نجد أن ميمي (Mémé) يستشهد بصفحة كتبها «سان سيمون» عن أحد مركيزات «دالمان». هذا هو بالذات. وقال في الكلمات الأولى التي وصفه فيها: « كان السيد دالمان رجلاً قوياً فريداً وسط طبقة من النبلاء في البيريغور ووسط عائلته، وبمكانته استحق أن يكون حكماً عاماً يلجأ إليه الجميع بسبب نزاهته واقتداره ودماثته، ولكونه ديكاً من ديوك الريف..» فقالت «مدام دي غيرمانت»: «في هذا بعض الحقيقة، لاسيما وأن دي لو كان وجهه دائماً أحمر كالديك».فقالت جيلبيرت: «نعم، أتذكر أنني سمعت بهذا الوصف»، ولم تضف أنها سمعت ذلك من أبيها الذي كان من المعجبين الكبار بـ«سان سيمون».

وكانت تحب أيضاً أن تتكلم عن أمير «أغريجانت» وعن السيد «دى بريوتيه»، ولكن لسبب آخر، فقد ورث أمير «أغريجانت» هذا اللقب عن آل «أراغون» (Aragon)، ولكن اقطاعيتهم كانت في منطقة الـ«بواتو» (Poitou). أما قصره، وعلى الأقل القصر الذي يقيم فيه، فلم يكن قصر عائلته بل قصراً للزوج الأول لأمه وكان يتوسط المسافة بين «مارتانفيل» (Martinville) و«الغيرمانت». وكانت «جيلبيرت» تتكلم عنه وعن السيد «دي بريوتيه» كجارين ريفيين يذكرانها بريفها سابقاً. مادياً كان في كلامها شيء من الكذب لأنها فقط في باريس، وعن طريق الكونتيسة «موليه» (Molé)، قد عرفت السيد «دي بريوتيه» الذي كان صديقاً قديماً لأبيها. أما حبها التكلم عن ضواحي «ترانسونفيل» (Transonville) فقد يكون صادقاً. في نظر بعض الناس، يتطابق التحذلق مع تلك المشروبات اللذيذة التي يمزجون فيها مواد نافعة. كانت «جيلبيرت» تهتم بهذه المرأة الأنيقة أو تلك لأنها تملك كتباً عملاقة أو

لوحات رسمها «ناتييه» (Nattiers)[1]، ولم تذهب صديقتي القديمة بدون شك إلى المكتبة الوطنية والى متحف اللوفر لمشاهدتها، وأتصور - رغم القرب الكبير - أن التأثير الجاذب لـ«ترانسونفيل» لم تنجح «جيلبيرت» في ممارسته كفاية على السيدة «سازيرا» (Sazerat) أو على السيدة «غوبيل» (Goupil)، وإنما بخاصة على السيد «داغريجانت».

وقالت «مدام دي غيرمانت»: «آه، يابابال ويا غري غري يالكما من مسكينين! فهما أكثر مرضاً من دي لو، أخشى أن يموت كلاهما قريباً».

عندما انتهى السيد «دي غيرمانت» من قراءة مقالتي، وجّه لي تهانيء ملتبسة. فقد أسف للشكل المصطنع لهذا الأسلوب الذي نجد فيه «التفخيم والاستعارات التي تعتور نثر شاتوبريان الذي أكل الدهر عليه وشرب»، ولكنه هنأني دون تحفظ لأنني "أشغل نفسي" بشيء فقال: «أحب الإنسان الذي يعمل شيئاً بأصابعه العشرة؛ لا أحب الناس غير المفيدين، فهم دائماً إما من المهمين وإما من المهتاجين. يا للفصيلة الغبيّة!».

وصرّحت «جيلبيرت» التي صارت تقلّد تصرفات المجتمع الراقي بسرعة قصوى، كم أنها ستكون فخورة عندما تقول إنها صديقة لأحد الأدباء. «برأيك ماهو الأفضل أن أقول: لقد سررت بمعرفتك، أو تشرفت بمعرفتك؟».

«ألا تريد أن تأتي معنا غداً إلى الأوبرا كوميك؟ "قالت لي الدوقة، وفكرت أننا على الأرجح سنكون في نفس المغطس الذى رأيتها فيه للمرة الأولى وبدت لي وقتها عصيّة المنال كملكة النيرييدات[2] القابعة في قاع البحر. فأجبت بصوت حزين: «كلا، لاأذهب إلى المسرح، لقد فقدت صديقة كنت أحبها كثيراً". وكدت أبكي وأنا أقول ذلك، مع أنني سررت لاول مرة أتحدث فيها عن الموضوع. ومنذ بدأت أكتب للجميع عن حزني العميق، وكففت عن الشعور به.

عندما انصرفت «جيلبيرت» قالت لي «مدام دي غيرمانت»: «أرى أنك لم تفهم إشاراتي، كنت أريد ألا تتكلم عن سوان». فاعتذرت، فقالت: «أفهمك تماماً؛ كدت أسميه أنا، استدركت نفسي في آخر لحظة، هذا مريع،

---

(١) جان مارك ناتييه (١٦٨٥-١٧٦٦) رسام فرنسي اختص في رسم اللوحات الأسطورية، وأصبح رساماً للملكة ولبناتها. (المترجم)

(٢) في الأساطير اليونانية كانت النيرييدات -وعددهن خمسون- من إلاهات اليمّ. ويعبّر اسم كل واحدة منهن عن صفة من صفات البحر. وتصوّرهن اليونانيون كالحوريات الجميلات والمرحاتٍ. (المترجم)

لحسن الحظ أنني توقفتُ في الوقت المناسب. تعلم ياباز ان أن هـــذا مربـك جداً». وتوجهت إلى زوجها لتخفف قليلاً من خطأي وتظاهرت بالاعتقاد أنني رضخت لمنحى عام يتبعه الجميع ومن الصعب مقاومته. فأجـــاب الــدوق: «ماذا أستطيع أن افعل. ماعليك إلا أن تأمري بإعادة اللوحتين إلى الطـــابق العلوي، لأنهما يذكرانك بسوان. إذا لم تفكري بسوان، فلن تتكلمي عنه».

وفي اليوم التالي استلمت رسالتي تهنئة أدهشتاني كثيراً، الأولى مــن السيدة «غوبيل» (Goupil)، وهي سيدة من «كومبري» فإنني لــم أرهــا منــذ سنوات عديدة، وحتى في «كومبرى» لم أتكلم معها أكثر من ثلاث مـــرات. وسلمها أحد مكاتب القراءة جريدة الفيغارو. وهكذا عندما يحدث لــك شـــيء مُدَوٍ في الحياة، تأتينا الأخبار من أشخاص بعيدين جداً عن دائـــرة علاقاتنـــا وذكراهم قديمة جداً لأنهم يبدون على مسافة بعيدة، لاسيما في مجال العمــق. وهناك صداقة مدرسية منسيّة تستذكرونها في عِشرين مناسبة، فتكون مؤشرا للحياة لايخلو من السلوى. فـ«بلوخ Bloch» مثلاً الذي تقت كثيراً إلى ســـماع رأيه حول مقالتي، لم يكتب لي. صحيح أنه قرأ هذه المقالة واعترف لي بذلك فيما بعد، ولكن بوقع عكسي. أجل إنه كتب بعد بضع ســـنوات مقالـــة فـــي الفيغارو وأراد فورا أن يعلمني بها. ولأنه ظن أنه حظي بامتياز، فإن غيرتــه قد دفعته إلى تجاهلِ مقالتي السابقة، وككبّاس ارتفع بعد أن ضُغِطَ كلمني عــن مقالتي وكان مشتاقاً أن يسمع رأيي في مقالته فقال: «عرفت أنك أنت أيضـــا كتبت مقالة. ولكنني لم أر مناسباً أن أكلمك عنها خشية أن أزعجك، إذ ينبغي على المرء ألا يكلم أصدقاءه عن أشياء مهينة تحدث لهم. وبالطبع من المشين أن يكتب المرء في جريدة من الجرائد عن السيف ومرشه المـــاء المقــدس، وشاي الساعة الخامسة، دون أن ينسى جرن الماءِ المقدس». كان طبعه قـــد بقي على حاله، ولكن أسلوبه قد أصبح أقل تحذلقاً، ويحدث هذا لبعض الكتّاب الذين يهملون تصنعهم وينقطعون عن كتابة القصائد الرمزية وينتقلون إلـــى كتابة الروايات المسلسلة.

ولكي أعزّي نفسي عن صمته، قرأت مـــرة ثانيـــة رســـالة الســـيدة «غوبيل»؛ ولكنها كانت دون حرارة، لأن الأرستقراطية إذا استعملت بعــض العبارات البديهية، فبين كلمة «سيدي» في البداية و«العواطف الصادقة» فـــي النهاية، قد تبزغ صرخات فرح وإعجاب كما تبزغ الأزهار والحشائش فيفوح أريجها فوق تلك البديهيات. ولكن الاصطلاحية البورجوازيـــة تشــد داخــل الحروف إلى شبكة من العبارات مثل «نجاحكم المستحق جداً» أو كحد أعظم «نجاحكم الجميل». فتظن بنات الحمى المخلصـــات للتربيـــة التـــي تلقينـــها

والمتحفظات في هندامهن أنهن يفضن بالبؤس أو بالحماس إذا كتبن «أفكر فيكم». أما عبارة «أمي تنضم إلي» (Mère se joint à moi) فهي الحد الأقصى الذي نادرا مانتمتع به. وتلقيت رسالة أخرى غير رسالة السيدة «غوبيل»، ولكن اسم «سانيلون» (Sanilon) كان مجهولا لدي. وكان خط الرسالة شعبياً ولغتها لطيفة. فانزعجت لعدم تمكني من اكتشاف مرسلها إلي.

وبعد يومين سررت في الصباح لإعجاب «بيرغوت» (Bergotte) الشديد بمقالتي التي لم يقرأها من دون حسد. ولكن فرحي بعد برهة تلاشى؛ ذلك أن «بيرغوت» لم يكتب كلمة واحدة. فتساءلت فقط إن كان قد أحب هذه المقالة، وخشيت أن يكون الجواب بالنفي. وعندما طرحت على نفسي هذا السؤال، أجابتني الآنسة «دي فورشيفيل» أنه أعجب بها غاية العجب، ووجد أنها كتبت بقلم كاتب كبير. ولكنها قالت لي ذلك بينما كنت أنام، إنه حلم. جميع الناس تقريباً يجيبون على الأسئلة التي نطرحها بتأكيدات معقدة وتنطبق على شخصيات كثيرة، ولكن دون أن يكون لها مستقبل.

في ما يتعلق بالآنسة «دي فورشيفيل»، لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير فيها بشيء من الأسى. ماذا؟ هي ابنة «سوان» التي أحب أن يراها تتردد على عائلة الـ«غيرمانت»، ولكن هذه العائلة رفضت أن تستقبل ابنة صديقها الكبير، ثمّ بحثت فجأة عنها، ومر الزمن الذي يجدد ويعطيه شخصية أخرى، كما يقال عنها، لأولئك الأشخاص الذين لم نرهم منذ أمد طويل، منذ أن جدّدنا نحن إهابنا واتخذنا عادات أخرى. وكان سوان يقول لهذه البنت أحياناً، وهو يضمّها إلى صدره ويقبّلها: «جميل ياعزيزتي أن تكون لي بنت مثلك؛ عندما أموت، إذا تكلموا أيضاً عن أبيكِ المسكين بعد موته، فعلوا ذلك معكِ فقط وبسببكِ»؛ ولأن «سوان» كان يأمل بخوف وقلق أن يبقى على قيد الحياة بعد أن يموت، فقد كان مخطئاً، كما يخطئ المصرفي العجوز الذي يقول لنفسه، بعد أن كتب وصية لراقصة صغيرة كان يعيلها وذات سلوك حسن، إنه ليس لها إلاّ صديقاً كبيراً، ولكنها ستبقى وفيّة لذكراه. كان سلوكها محتشماً مع أنها من تحت مائدة الطعام كانت تمرّر رجلها على أجسام أصدقاء المصرفي العجوز الذين يعجبونها وتفعل ذلك بمنتهى السرية وبمظاهر خارجية ممتازة. ولبست ثياب الحداد على الرجل الرائع، وبعد أن أحست بأن الجو خلا لها راحت تستفيد لامن السيولة المالية فحسب بل من أراضيه وأملاكه والسيارات التي تركها، وألغت في كل مكان اسم المالك القديم الذي كان يخجلها بعض الخجل، ولم تربط التمتع بالعطاء بأي ندم على الواهب. ليس أوهام الحب الأبوي أقل من أوهام المحبوب؛ فكثير من الفتيات

لايعتبرن آباءهن إلا كمسنين تركوا لهن ثرواتهم. فعوض أن يكون وجود «جيلبيرت» في الصالون مناسبة للتكلم أحياناً عن أبيها، كان عائقاً لفهم أولئك الفتيات النادرات جداً اللواتي قد يفعلن ذلك. أما حول الكلمات التي تفوّه بها هذا الأب والأشياء التي أعطاها، فإنهن اعتدن عدم ذكر اسمه؛ والبنت التي كانت تود تجديد ذكراه وتخليدها، هرعت للاستفادة مما فعله الموت والنسيان.

ولم تمارس «جيلبيرت» عملية النسيان إزاء «سوان» فقط، بل عجّلت عندي عملية نسيان البيرتين. وبفعل الرغبة، ومن ثمّ بفعل الرغبة في السعادة التي أثارتها «جيلبيرت» عندي خلال بضع ساعات ظننتها فيها شخصاً آخر، صدرت عني بعض الآلام والمشاغل الحزينة التي كانت قبل ذلك بقليل تهجس في بالي، وجذبت معها كتلة من الذكريات الهشة التي تفتتت منذ أمد طويل ربما والتي تتعلق بالبيرتين. فإذا أسهمت الذكريات العديدة المرتبطة بها في حافظتي على التأسف لموتها، بالمقابل فإن التأسف نفسه كان قد ثبّت الذكريات. وهكذا فإن التشتت المستمر في النسيان الذي تكوّن يوماً بعد يوم بشكل خفي هو الذي غيّر حالتي النفسية فجأة، وخلق لدي انطباعاً أحسست به للمرة الأولى في ذلك اليوم، انطباعاً بالفراغ وزوال جزء عظيم من تداعيات الأفكار عندي. وقد ينتاب هذا الانطباع رجلا انفجر أحد شرايينه المخيّة التالفة منذ أمد فزال وانشل قسم كبير من ذاكرته*.

إن زوال ألمي وكل ما جلبه لي هذا الألم، تركني منقوصاً، كالشفاء من مرض كان يمثل مكاناً أساسياً في حياتنا. وقد يكون السبب في ذلك أن الذكريات لاتبقى دائماً حقيقية لأن الحب ليس خالداً، ولأن الحياة مصنوعة من تجدد الخلايا المستمر. ولكن هذا التجدد في الذكريات يتعرّض مع ذلك للتأخير بسبب الانتباه الذي يوقف ويثبت لبرهةٍ مايجب أن يتغيّر. وبما أن الحزن يشبه الرغبة في النساء، وأن المرء يكبر وهو يفكر فيهما، فإن الانهماك فيهما يجعل الأمر اكثر سهولة، شأنه في ذلك شأن العفة والنسيان.

وكردة فعل أخرى (لاسيّما وأن الترفيه- أو الرغبة في الآنسة «دي بورشيفيل»- هو الذي جعل النسيان فجأة يصبح واقعاً ملموساً)، يبقى أن الزمن هو الذي يقود تدريجياً إلى النسيان، ذلك أن النسيان يغيّر مقولة الزمن تغييراً عميقاً. فهناك أخطاء بصرية في الزمان كما في المكان. أن تبقى فيّ هشاشة العمل القديمة، وأن أعوّض الزمن الضائع، وأن أغيّر نمط الحياة، أو

* لم أعد أحب البيرتين. إن بعض الأيام بخاصة، عندما يغير الطقس عاطفتنا ويوقفها، تعيد صلتنا بالواقع، فكنت أشعر بحزن شديد لما أفكر فيها. وكنت أعاني من حبّ لم يعد له وجود. وهكذا فإن المبتوري الأعضاء، في بعض تقلبات الطقس، يحسّون بألم في الساق التي فقدوها.

بالأحرى أن أبدأ في العيش، خلق لديّ وهماً: وهو أنني مازلت شاباً. بيد أن ذكرى جميع الأحداث التي تتالت في حياتي –وتلك التي تتالت في قلبي، لأن الإنسان عندما يتغيّر يميل إلى الاعتقاد بأنه عاش حياة أطول –، وخلال الأشهر الأخيرة من حياة البيرتين، جعلتني أراها أطول من سنة بكاملها. والآن فإن هذا النسيان الذي طوى أشياء كثيرة، هذا النسيان الذي فصلني بمجموعة من الفراغات عن أحداث وقعت مؤخراً وتراءت لي قديمة، لأنني حصلت على الوقت الكافي لنسيانها، هذا النسيان بتحريفه وتفتيته وعدم انتظامه في ذاكرتي – كأنه ضباب كثيف فوق الاوقيانوس، يلغي النقاط العلامة للأشياء – هو الذي كان يخرّب ويقطع إحساسي بالمسافات الزمنية المقلصة تارة والممطوطة طوراً، وهو الذي كان يشعرني أحياناً بأنني نأيت وأحياناً أخرى بأنني اقتربت من الأشياء أكثر مما أنا في الواقع. في الفضاءات الجديدة الممتدة أمامي والتي لم أقطعها، بما أن آثار حبي لألبيرتين زالت واندثرت في الأوقات الضائعة التي اجتزتها مؤخرا، كما زالت آثار حبي لجدتي – لأنها تمّت في فترات متعاقبة أدى الفاصل الزمني بينها إلى خلخلتها وتباعدها – فبدت لي حياتي مفتقرة إلى دعم أناي الخاصة المتماثل والمستمر، كما بدت لي عديمة الفائدة الآن وفي المستقبل، وبدا لي الموت كأنه وضع لها حداً هنا أو هناك، دون أن يقضي عليها نهائياً. وكانت تشبه تلك الدروس التي تعطى عن تاريخ فرنسا والذي يتفنن الأساتذة ببراعتهم والبرامج ببلاغتها في إنهاء فتراتها، فيقولون تارة إنها ثورة ١٨٣٠ وطوراً ثورة ١٨٤٨ وتارة أخرى خاتمة الإمبراطورية الثانية.

قد يكون التعب والحزن اللذان شعرت بهما ناجمين قليلاً عن أنني أحببت سدى ما نسيته الآن، وكثيراً عن أنني بدأت استعذب نفسي مع أحياء جدد، وبشر من المجتمع الراقي، وأصدقاء لعائلة الـ«غيرمانت» فقط، وهم قليلو الأهمية بحد ذاتهم. وربما واسيت نفسي فلاحظت بيسر أن التي أحببتها لم تكن بعد مدة إلا ذكرى شاحبة وأنني وجدت في دخيلتي ذلك النشاط الباطل الذي يدفعنا إلى زركشة حياتنا بناميات بشرية نشيطة ولكنها طفيلية فتصبح العدم عندما تموت هذه الناميات، كما تصبح غريبة عن كل ماعرفناه، ولكن شيخوختنا الثرثارة والكئيبة والمغندرة تتوق إليها. وظهر فيّ الإنسان الجديد الذي يطيق بيسر أن يعيش بدون البيرتين، لأنني استطعت أن أتحدث عنها في بيت مدام «دي غيرمانت» بكلمات متأسية ودون ألم عميق. وقد أرعبتني دائماً تلك الانوات الجديدة عندما ظهرت، الأنوات التي يتعين عليها ان تتخذ اسماً غير الاسم الأول، لأنها لم تبالِ بما أحببت. وحول «جيلبيرت» كان

أبوها يقول لي: إن سافرت لاعيش في أوقيانيا فلن أعود؛ ومؤخراً قرأت في مذكرات أحد الكتاب التافهين أنه انفصل شاباً عن زوجته التي كان يعبدها، وروى أنه عندما شاخ كان يراها دون متعة ودون الرغبة في رؤيتها ثانية. على العكس فإن هذه الحالة قد جلبت لي، إلى جانب النسيان إلغاء شبه كامل للألم، وقدمت لي إمكانية عيش رغيد لذلك الشخص المرهوب الجانب والمحسن والذي لم يكن سوى تلك الأنوات البديلة التي يحافظ القدر لنا عليها ويبدّلها لنا عنوة فيتدخل بحق في الأنا الكليمة، كما يفعل الطبيب النبيه والسلطوي الذي لايصغي لتوسلاتنا. وينجز القدر هذا التبديل من وقت لآخر، كما يحدث للنسج الجسمية التالفة التي تتجدد؛ ولكننا لانتنبه لتبدلها إلا إذا آلمتنا النسج القديمة، وإذا شعرنا أن جسمنا صار غريباً وجريحاً واندهشنا من أنه أصبح جسماً آخر لم يعد ألم الجسم الأول إلا ألم جسم آخر نتكلم عنه بإشفاق لأننا لانشعر به. وسيّان بالنسبة لنا أن نكون قد عرفنا مثل تلك الآلام، لأننا لانتذكر إلا بغموض أننا قاسيناها. وكذلك من الممكن أن تكون كوابيسنا في الليل مرعبة. ولكننا بعد الاستيقاظ نكون شخصاً آخر لايبالي بذاك الذي كان في نومه يجري أمام القتلة.

لاشك أن هذه الأنا حافظت على بعض الصلة بالأنا القديمة؛ إنها كصديق لايبالي بمأتم، ومع ذلك يتكلم مع الحاضرين بنبرة الحزن المناسبة ويعود من وقت لآخر ليرى الأرمل الذي كلفه بتقبل التعازي عنه والذي مازال نشيجه مسموعاً. وكنت أنشج عندما أصبحت ولو للحظة صديق البيرتين القديم. ولكنني كنت أتوق لأصير بكاملي شخصاً جديداً. لا لأن الآخرين قد ماتوا، يضعف حبنا لهم، بل لأننا نموت نحن أيضاً. لم تلم البيرتين صديقها على شيء. والتي اغتصبت هذه الصفة لم تكن إلا وارثتها. لايستطيع الإنسان أن يكون مخلصاً إلا لما يتذكره، ولا يتذكر إلا مايعرفه. أثناء نمو أناي الجديدة في ظل الأنا القديمة، لاحظتها تستمع إلى مايقال عن البيرتين؛ وعبر هذه الأنا، ومن خلال القصص التي جَمَعَتها عنها، كانت تظن أنها تعرفها؛ ومع أنها كانت لغزية فقد أحبتها، ولكن تلك العاطفة لم تكن سوى عاطفة ثانوية.

هناك شخص آخر نسي على الحري البيرتين بسرعة في تلك الفترة، وساعدني بالتالي على عملية النسيان هذه (وشكلت ذكرى المرحلة الثانية قبل النسيان النهائي)، هو «أندريه». لا أستطيع فعلاً أن أنسى السبب الوحيد لنسياني البيرتين، لا بل السبب الرئيسي، أو على الأقل السبب الملزم والضروري، وهو حديث «لأندريه» معي جرى ستة أشهر تقريباً بعد الحديث

الذي أوردته واختلف جدا عما قالته لي في المرة الأولى. أتذكر أن الحديث جرى في غرفتي، لأنني في ذلك الوقت كنت أحظى بنصف علاقة جنسية معها، بسبب النزعة الجماعية التي عرفها حبي واستأنفها الآن مع فتيات المجموعة الصغيرة التي لم تنفرط حبات مسبحتها لمدة طويلة؛ وحصل ذلك في لحظة ارتبطت بشخص البيرتين، وتم في الأشهر الأخيرة التي سبقت وأعقبت موتها.

كنا في غرفتي لسبب آخر يخولني أن احدد تماما حيثيات ذلك الحديث. فقد طردت من باقي الشقة، لأن ذلك اليوم كان مخصصا لأمي التي ترددت في الذهاب إلى بيت السيدة «سازيرا». وبما أن السيدة «سازيرا» في «كومبري» كانت بارعة في دعوة أناس مملين، قررت أمي، التي كانت متأكدة من أنها لن تتسلى، أن تعود مبكرة لأنها لن تخسر أية متعة. فعادت إلى البيت في الوقت المناسب ودون ندم؛ ذلك أن السيدة «سازيرا» لم تدع إلا أشخاصا ثقيلي الدم تجمد الدم في عروقهم نبرة صوتها التي كانت تستعملها عندما تستقبل، وهذا ماكانت أمي تطلق عليه «صوتها يوم الأربعاء». وبمعزل عن ذلك، كانت أمي تودها، وترثي لحالها بسبب قلة حظها -وهو مانجم عن طيش أبيها مع الدوقة دي فلان- وهو حظ عاثر كان يلزمها أن تمضي السنة بكاملها تقريبا في «كومبرى»، ماعدا بضعة أسابيع تقضيها عند ابنة عمها في باريس و"رحلة استجمام" تقوم بها كل عشرة أعوام.

أتذكر أن أمي في عشية ذلك اليوم، وبإلحاح مني استمر أشهرا بحالها، ولأن أميرة «بارم» (Parme) كانت تطالب دائما بذلك -هي التي لم تكن تقوم بزيارات واعتاد الناس أن يسجلوا أسماءهم لزيارتها- أصرت على أن تأتي أمي لرؤيتها، نظرا لأن المراسم كانت تحول دون مجيئها إلى بيتنا. وعادت أمي منزعجة جدا وقالت لي: «لقد خدعتني دون أن تدري، بالكاد قالت لي أميرة «بارم» صباح الخير، لقد اهتمت بالسيدات اللواتي كانت تتحدث معهن دون أن تهتم بي، ولأنها لم تكلمني غادرت بعد عشر دقائق ودون أن تصافحني كنت منزعجة للغاية، وأثناء انصرافي التقيت أمام الباب دوقة «الغيرمانت» التي كلمتني كثيرا عنك. ياللفكرة الغريبة التي خطرت على بالك عندما كلمتها عن البيرتين! لقد أخبرتني أنك قلت لها إن موتها سبب لك حزنا هائلا. (صحيح أنني قلت ذلك للدوقة ولكنني لم أتذكره ولم أؤكد عليه. ولكن الأشخاص الطائشين جدا ينتبهون في الغالب لكلمات تطلق على عواهنها، ونظنها طبيعية جدا، وتثير فضولهم بعمق). ولكنني لن أعود قط إلى بيت أميرة بارم. لقد دفعتني إلى ارتكاب حماقة».

وفي اليوم التالي، وهو يوم أمي، أتت «أندريه» لتراني. وكانت مستعجلة لأنها ستذهب للعشاء مع «جيزيل» التي كانت متعلقة بها. فقالت لي: «إنني أعرف عيوبها، ولكنها مع ذلك أفضل صديقة لدي وهي الشخص الذي أوده للغاية». لا بل أنها ارتعبت من أن أطلب منها أن أتعشى معهن. لقد كانت متعلقة بالناس، وإذا ما منعها شخص مثلي يعرفها جيداً من الاستسلام، فإنه يمنعها من التمتع معهن بشكل كامل.

صحيح أنني لم أكن موجوداً عندما أتت. وعندما لمحتها مررت في الصالون لأذهب وأراها ولكنني سمعت صوتاً ينبئ بزيارة أخرى لي. فهرعت للقاء «أندريه» التي كانت في غرفتي، دون أن أعلم من هو الشخص الآخر إذ أدخل إلى غرفة أخرى؛ فأرخيت أذني للحظة أمام باب الصالون، لأن الزائر لم يكن وحده إذ كان يتكلم مع امرأة فدمدم قائلاً: «آه ياعزيزتي، إنه في قلبي!» مستشهداً بأبيات لـ أرمان سيلفستر (Armand Silvestre). «نعم ستبقين دائما عزيزة علي بالرغم من كل مافعلته بي»:

«يرقد الموتى بسلام في باطن الأرض.

وهكذا ينبغي أن ترقد عواطفنا المطفأة.

لذخائر القلب هذه غبارها؛

علينا ألا نمس بأيدينا رفاتهم المقدسة»

هذا شيء أكل الدهر عليه وشرب، ولكنه جميل! هذا هو أيضاً ما كنت أود أن أقوله لك منذ اليوم الأول:

«أيضاً ستُبكينهن، أيتها الطفلة الجميلة المحبوبة..»

كيف، ألا تعرفين ذلك؟

«... جميع هؤلاء الأطفال، رجال المستقبل،

الذين يعلقون أحلامهم الشابة

بأهداب عينيك الصافيتين المغناجين»

آه! كنت أظن أنني أستطيع أن أخاطب نفسي لحظةً:

«في المساء الأول الذي أتى فيه إلى هنا

لم أعد أعبأ بالأنفة

أيضاً قلت له: ستحبني

أطول ماستطعت

لم أكن أنام قرير العين إلا بين ذراعيه. »

ولفضولي، كان علي أن أؤخر للحظة زيارة «أندريه» السريعة، فقد أردت أن أعرف على أي نوع من النساء كان ينصبّ هذا السيل من الأبيات، ففتحت الباب. كان يلقيها السيد «دي شارلوس» على جندي عرفته بسرعة وهو «موريل» (Morel) الذي سيذهب للخدمة. لم يكن من ثم على وفاق مع السيد «دي شارلوس»، ولكنه كان يراه أحياناً ليطلب منه خدمة. وكانت للسيد «دي شارلوس» الذي يعطي الحب بالعادة شكلاً أكثر ذكورة، صبواته. في طفولتي، كي أتمكن من فهم قصائد الشعراء وتذوقها، اضطررت لاعتبارها موجهة لا لغادة خائنة وإنما لأحد الفتيان. فتركتهما على جناح السرعة، مع أنني شعرت بأن زياراتي بصحبة «موريل» كان يرتاح لها السيد «دي شارلوس» ارتياحا كبيرا، إذ كان للحظة يتوهم أنه يتزوج مرة ثانية. وكان يوفق في شخصه تحذلق الملكات وتحذلق الخدم.

صارت ذكرى البيرتين عندي مبعثرة بحيث أنها كفّت عن إثارة حزني، فلم تعد سوى انتقال إلى رغبات جديدة، كأنها توافق آلات موسيقية يهدف إلى تغييرات في النغم. لا بل إنني، بعد أن استبعدت كل تفكير في نزوة شهوية عابرة، لأنني مازلت مخلصاً لذكرى البيرتين، كنت أكثر سعادة لقربي من «أندريه» مما مع البيرتين لو عثرت عليها بمعجزة. ذلك أن «أندريه» كانت تستطيع أن تقول لي أشياء جمّة عن البيرتين عجزت هذه عن قولها. مازالت المشاكل المتعلقة بألبيرتين راسخة في ذهني، في حين أن عاطفتي نحوها، الحسية والمعنوية على السواء، قد تلاشت . وصارت رغبتي في التعرّف على حياتها، رغبتي التي لم تفتر، أكبر من حاجتي إلى تواجدها. إلى ذلك، أصبحت إمكانية وجود علاقات إحدى النساء بألبيرتين تدفعني إلى الرغبة في إقامة علاقة مع هذه المرأة. هذا ماقلته لـ«أندريه» وأنا أداعبها. ودون أن تحاول التوفيق بين ماقالته الآن وبين ماتفوهت به منذ بضعة أشهر، قالت لي «أندريه» وهي تبتسم بتحفظ: «نعم، ولكنك أنت رجل. ولانستطيع أيضاً أن نمارس معاً وتماماً الأشياء نفسها التي كنت أمارسها مع البيرتين». فإما أنها ظنت أن هذا يضاعف رغبتي (وعلى أمل أن تبوح قلت لها في الماضي إنني أحب أن تكون لي علاقات مع امرأة أقامت علاقة مع البيرتين)، أو يضاعف حزني أو قد يهدم عندي شعوراً بالتفوق عليها فتظن

أنني الوحيد الذي أقام علاقات مع البيرتين. «نعم لقد أمضينا معاً ساعات جميلة، لقد كانت تحب المداعبة كثيراً وكانت متيّمة. ولم تكن تتمتع معي وحدي. فقد التقت في بيت مدام «فيردوران» بشاب وسيم اسمه «موريل»، فتفاهما فوراً واستسمحها بالمتعة هو أيضاً، فقد كان يحب الفتيات الغريرات، وما إن كان يضعهن على طريق السوء حتى يتركهن. وكان يعشق أن تعجب به صيّادات صغيرات يصطدن في شاطئ بعيد، كما كان يهتم بالغسّالات الصغيرات اللواتي كن يتعلقن بالشبان دون الفتيات. وما إن كان يسيطر على الفتاة الصغيرة، حتى يأتي بها إلى مكان آمن جداً حيث يسلمها لالبيرتين. ولئلا تخسر الفتاة الصغيرة «موريل» الذي كان يهتم بالباقي، كانت تذعن دائماً؛ ومع ذلك فإنها كانت تخسره؛ فلخوفه من النتائج، ولاكتفائه بالممارسة مرة أو مرتين، كان يختفي بعد تركه عنواناً خاطئاً. ولقد تجرأ ذات مرة هو والبيرتين إلى أخذ إحداهن إلى بيت للنساء في «كوليفيل» (Couliville) فمارس معها أربعة أو خمسة أشخاص معاً أو بالتتالي. وكان هو والبيرتين مولعين بذلك. بيد أن البيرتين شعرت بعدئذ بتأنيب الضمير الممضّ. وأظن أنها عندك قد لجمت هواها وأرجأت الاستسلام له يوماً بعد يوم. ثم إن صداقتها لك كانت على درجة من الكبر بحيث أنها صارت فريسة للوساوس. ولكنها بكل تأكيد إن تركتك ستعود إلى ذلك. وأظن أنها إن استسلمت لهذه الرغبة الجائرة ستصاب بتأنيب أكبر للضمير. لقد كانت تأمل منك أن تنقذها وتتزوجها. وفي الواقع كانت تشعر بأن ذلك شكل من أشكال الجنون الإجرامي، وتساءلت كثيراً إن كان هذا الأمر يؤدي إلى انتحار في العائلة وإن كانت هي قد قتلت نفسها. ويجب أن أعترف أنها في بداية إقامتها لم تتخل تماماً عن عبثها معي. ويبدو أنها في بعض الأيام كانت تحتاج لذلك، ولو مرة واحدة، مع العلم أن ذلك أسهل لها في الخارج، ولم تتردد في توديعي بعد أن أجلستني قربها في بيتك. ولكن لم يحالفنا الحظ، وكاد أمرنا ينكشف. لقد استفادت من ذهاب «فرانسواز» لشراء إحدى الحاجات، ومن غيابك. فأطفأت الأنوار كلها بحيث تضيّع أنت قليلاً من الوقت أثناء فتحك الباب بمفتاحك وأثناء بحثك عن زر الكهرباء، وأغلقت باب غرفتها. وسمعناك تصعد، فلم يسعني إلا أن أرتب هندامي وأنزل. ولكن تسرعي كان سدى، لأنك، وعلى سبيل الصدفة العجيبة، نسيت مفتاحك واضطررت أن تقرع الجرس. ومع ذلك طار صوابنا، ولإخفاء حرجنا خطرت على بالنا الفكرة ذاتها، دون سابق اتفاق، وهي التظاهر بالخوف من رائحة شجيرة الليلك التي كنا مغرمتين بها، عكس ماتظاهرنا به. فقد كنت تحمل أنت غصناً طويلاً من هذه الشجيرة، مما أتاح لي الفرصة كي أشيح ناظري وأخفي

حرجي. ولم يمنعني ذلك من أن أقول لك برعونة صارخةٍ إن «فرانسواز» قد صعدت ربما وتستطيع أن تفتح لك، وقبل ذلك بثوان كذبت عليك قائلة إننا عدنا لتونا بعد النزهة وان «فرانسوازِ» لم تنزل بعد وصولنا (وهذا صحيح). ولكن إطفاء الضوء كان مصيبة –ظناً منا أن مفتاحك معك– لأننا خشينا أنك أثناء صعودك ستراه يشعل من جديد، ولأننا على الأقل ترددنا كثيراً. وبقيت البيرتين ثلاث ليال دون أن يغمض لها جفن لأنها خافت طويلاً من أن تظن أنت الظنون ومن أن تسأل «فرانسواز» لماذا لم تشعل الضوء قبل أن تذهب. ذلك ان البيرتين كانت تخشاك كثيراً، وكانت تؤكد أحياناً أنك مخادع وخبيث وتمقتها في داخلك. وبعد ثلاثة أيام فهمت من هدوئك أنك لم تفكر في الاستفهام لدى «فرانسوازِ» عن أي شيء، فعاد إليها النوم. ولكنها كفت عن ممارساتها معي، إما خوفاً أو تأنيباً، إذ كانت تدعي أنها تحبك كثيراً، أو تحب شخصاً آخر. وعلى كل حال لم نعد نتكلم عن الليلك أمامها دون أن يتضرج خداها ودون أن تمرر يدها نحو وجهها ظناً منها إخفاء خجلها».

كما أن هناك بعض الأفراح، هناك أيضاً بعض الأتراح، ولكنها لاتؤثر الآن فينا كما في الماضي. ومن هذه الأتراح التي نزلت عليّ إفشاء «أندريه» الرهيب. وحتى عندما يتعين على الأخبار السيئة أن تحزننا، يحدث في عبثنا وفي تجاذبنا أطراف الحديث، إنها تمرّ أمامنا دون أن نتوقف، ولأننا منشغلون بالإجابة عليها بألف طريقة وطريقة، ولأننا تحولنا إلى أشخاص آخرين رغبة منا في إثارة الإعجاب لدى باقي الناس، ولأننا نحميها ولو لهنيهة من غائلة العواطف، فإن الآلام التي فارقناها لنعود إليها ولنجدها أمامنا عندما يتلاشى سحرها القصير العمر فلا نجد الوقت لاستقبالها. ومع ذلك فإن هذه العواطف وهذه الآلام مسرفة في الهيمنة، فلا ندخل إلا شاردي اللب إلى منطقة العالم الجديد والمؤقت حيث لانستطيع أن نغير إهابنا، لأننا حريصون جداً على التألم. عندئذ تتواصل الكلمات فوراً مع قلبنا الذي لم يبق خارج اللعبة. ولكنّ الكلمات المتعلقة بألبيرتين فقدت منذ زمن قدرتها الضارة كالسم عندما يتبخر. وصارت المسافة متباعدة؛ وكمتجول يرى في فترة مابعد الظهر هلالاً ضبابياً في السماء فيقول لنفسه ماهذا إلا البدر، قلت لنفسي: «كيف ! هذه الحقيقة التي بحثت عنها كثيراً وخشيتها كثيراً هي هذه الكلمات القليلة التي وردت في حديثٍ ما والتي لانستطيع حتى التفكير فيها تماماً لأننا لسنا وحدنا! ثم إن أندريه أخذتني فعلاً على حين غرة، فتعبت معها كثيراً. وفعلاً تمنيت أن أكون أكثر قوة لأكرسها لحقيقة كهذه؛ فقد بقيت خارجية عليّ، ذلك أنني لم أجد لها مكاناً بعدُ في قلبي. يشاء الناس أن تتكشف لنا

الحقيقة عبر إشارات جديدة، وليس عبر جملةٍ، كتلك الجمل التي طالما رددناها على أنفسنا. إن عادة التفكير تحول أحياناً دون الإحساس بالواقع وتحصّننا تجاهه وتظهره من الفكر أيضا. فلا توجد فكرة لاتحمل في ثناياها دحضاً ممكناً لها، كما لاتوجد كلمة إلا وفيها كلمة مضادة.

على كل حال، إذا صح ذلك الآن، فإن هذه الحقيقة العديمة الجدوى والمتعلقة بحياة عشيقة رحلت، هذه الحقيقة التي تنطلق من الأعماق، تظهر في وقت لم نعد نستطيع فيه أن نفعل شيئا. عندئذ (نفكر ربما في شخص آخر نحبه الآن وقد يحدث له شيء مشابه، إذ إننا لم نعد نعبأ بتلك التي نسيناها) نتأسف ونقول: «لو أن التي تحيا تفهم كل هذا، لأدركت أنها عندما تموت سأطلع على كل ماأخفته عني !» ولكن الحلقة حلقة مفرغة. فلو تمكنت من أن أجعل البيرتين تعيش، لما كشفت لي «أندريه» شيئاً مما كشفته. وهذا هو حال العبارة الخالدة التي تقول «سترى عندما أكف عن حبك»، فهي عبارة في غاية الصحة والعبث، لأن المرء سيحصل على الكثير إن لم يعد يحب، ولكنه لن يهتم ربما بالحصول عليه. فكلا الأمرين سيّان. لأن المرأة التي نراها ثانية بعد أن زال حبّنا لها، فإن قالت لك كل شيء، فهذا يعني أنها ليست هي هي وأنك لست أنت أنت، ذلك أن الشخص العاشق قد انتهى. وهنا أيضاً نرى أن الموت قد مرّ وجعل كل شيء يسيراً ودون جدوى. كانت هذه الأفكار تدور في بالي، مفترضاً أن «أندريه» صادقة -وهذا ممكن- وأنها تصدقني القول لأنها تقيم الآن علاقة معي، وعلى طريق «سانت أندريه دي شان» (Saint-André-des-Champs) الذي سلكته معي البيرتين في البداية. وساعدها على ذلك هنا أنها لم تعد تخشى البيرتين، لأن واقع الناس لايبقى عندنا إلا فترة قصيرة بعد موتهم؛ وبعد سنوات قليلة يصبحون كآلهة الأديان المندثرة التي نهينها دون خوف لأننا لم نعد نؤمن بوجودها. ولكن عدم إيمان «أندريه» بحقيقة البيرتين قد ساهم في أنها لم تعد تهاب اختراع أكذوبة تشي فيها لاحقاً مَن تدّعي أنها تواطأت معها (فخانت حقيقة كانت قد وعدت بعدم كشفها). وغياب التهيّب هذا هل أتاح لها أن تكشف الحقيقة أخيراً، فقالت لي ماقالت، أو أنها دبّجت أكذوبة، ظناً منها -ولسبب من الأسباب- أنني سأكون في منتهى السعادة والكبرياء، أو ربما لأنها كانت تريد تكديري؟ وقد تكون حانقة مني (وأخفت هذا الحنق عندما رأتني تعيساً لاأعرف العزاء) لأنني كنت على علاقة مع ألبيرتين، وربما أنها كانت تحسدني على امتياز لم تحصل عليه ولم تتمناه، ظناً منها أنني كنت أرى نفسي أحسن حالاً منها. وهكذا فإنني غالباً ماسمعتها تقول لأشخاص يتمتعون بصحة جيدة إنهم

مرضى جداً، وكانت تغتاظ بخاصة من وعيهم صِحتهم الجيدة فتقول –آملة إغضِابهم– إن صحتها بألف خير، وكانت لاتكف عن التصريح بذلك عندما اشتدّ عليها المرض، ولما دنا أجلها لم تعد تكترث بأن يكون السعداء بخير وبأن يعرفوا أنها مشرفة على الموت. ربما اغتاظت مني لسبب لاأعرفه، كما فعلت عندما صبّت جام غضبها على شاب خبير في قضايا الرياضة، وجاهل في ماسواها، التقيناه في «بالبيك» وراح منذئذ يعيش مع «راشيل»، فراحت «أندريه» تتناوله بافتراءاتها، متمنية أن ترفع عليها دعوى القذف، كي تتمكن من اتهام أبيها بارتكاب أفعال معيبة لن يتمكن من إثبات خطأها. والحال أن هذا الحنق مني كان يعاودها، ولكنها كانت تكف عنه عندما تراني حزيناً جداً. صحيح أن عينيها كانتا تقدحان شرراً على هؤلاء الذين تمنت إذلالهم وقتلهم ومحاكمتهم ولو بشهادة زور، ولكنها عندما كانت تراهم حزانى ومهانين، تكف عندئذ عن تمني الشر لهم وتصير مستعدة لإغداق عطاياها عليهم. فلم تكن في دخيلتها شريرة، وإذا لم تكن طبيعتها الخفية والعميقة إلى حدّ ما قائمة على اللطف الذي يظنه الناس أولاً بسبب لفتاتها الرقيقة، وإنما قائمة بالأحرى على الحسد والعجرفة، فإن طبيعتها الثالثة الحقيقية والأكثر عمقاً والتي لم تتبلور تماماً كانت تنحو إلى الطيبة وحب القريب. وككل الأشخاص الذين في وضع معين يرغبون وضعاً أفضل منه، ولأنهم لايعرفون هذا الوضع إلا عن طريق التمني فإنهم لايدركون أن الشرط الأول للوصول إليه هو قطع الصلة بالأول – كذلك حال المصابين بالانهيار العصبي أو المدمنين على تعاطي المورفين ممّن يرغبون في الشفاء ولكن دون أن يُحرموا من لوثاتهم أو من مورفينهم، وكذلك حال قلوب الرهبان أو أفكار الفنانين المتعلقة بهذا العالم والتي ترغب في العزلة ولكنها تتصوّرها مع ذلك دون أي تخل مطلق عن حياتهم السابقة –وكانت أندريه مستعدة لأن تحبّ جميع المخلوقات، ولكن بشرط أن تنجح أولاً في ألا تتصورها منتصرة، ولهذا فإنها كانت تبدأ بإذلالها. ولم تكن تفهم أنه ينبغي أن نحب حتى المستكبرين ونقهر استكبارهم بالمحبة وليس باستكبار أعتى. ولكنها كانت كالمرضى الذين يريدون الشفاء بالطرق التي تطور المرض، فيحبون ويكفون فوراً عن المحبة إن تخلوا عن هذه الطرق. ومع أن المرء يريد تعلم السباحة، فإنه يترك رِجْلاً على اليابسة.

وفي مايتعلق بالشاب الرياضي، وهو حفيد من عائلة الـ«فيردوران»، الذي التقيته أثناء إقامتي الاثنتين في «بالبيك»، يجب القول في هذه المناسبة، وبشيء من التسبيق، أنه وقعت، بعيد زيارة «أندريه» (وهي زيارة سأعود إليها بعد لحظات)، أحداث تركت أبلغ الأثر. أولاً، إن

هذا الشاب (لتذكري البيرتين التي أحبها دون أن أعلم) خطب أندريه وتزوجها، ضاربا عرض الحائط بيأس «راشيل» التي لم يكترث بها إطلاقا. وكفت «أندريه» عن اعتباره شاباً بائساً (أي بعد الزيارة التي تكلمت عنها ببضعة أشهر)، ولاحظت فيما بعد أنها قالت إنه لم يكن كذا لأنها كانت متيّمة به، في حين أنها كانت تظن أنه لايريدها. ولكن حدث حدثٌ آخر لافت. فقد مثّل هذا الشاب بعض الاسكتشات، بديكورات وأزياء خاصة به أدت في الفن المعاصر إلى ثورة تضاهي على الأقل الثورة التي أحدثتها الباليه الروسية. وبوجيز العبارة، اعتبر أساطين الحكام أعماله رئيسية، تكاد تكون أعمالاً عبقرية، وأعتقد شخصياً أن هذا الأمر صحيح وأؤيد في ذلك رأي «راشيل» السابق. وكان الناس الذين عرفوه في «بالبيك» يرون أنه يهتم فقط بطريقة تفصيل الثياب التي يلبسها الأشخاص الذين عرفهم إن كانت أنيقة أم لا، وأنه كان يُمضي كل وقته في العاب القمار وسباق الخيل وفي لعبتي الغولف والبولو، ويعرفون أنه كان في المدرسة تلميذاً كسولاً وأنه طرد منها (ولإزعاج أهله، فقد أمضى شهرين في ماخور كان السيد «دي شالوس» يظن أنه سيفاجئ فيه «موريل»)، ربما أن إحدى مآثره تأتي من «أندريه» التي كانت تؤثر مجده على مجدها لحبّها له، والتي على الأرجح كان يدفع لها بعض المبالغ من ثروته الشخصية التي عانت من جنونه، ويظنون أن أحد المحترفين العبقريين والمحتاجين هو الذي ساعده على النجاح (ويظن هذا المجتمع الغني – الذي لم تصقله علاقاته بالأرستقراطية، والذي يجهل تماماً ما هو الفنان، إذ لايرى فيه إلا ممثلاً يأتون به ليُلقي بعض المونولوغات بمناسبة خطبة ابنتهم ويعطونه صورتها سراً في أحد الصالونات المجاورة، لأن أحد الفنانين قد رسمها بعد الزواج وقبل مجيء الأولاد، ويتركون له أملاً فيها –أن أشخاص المجتمع الراقي الذين يكتبون ويؤلفون ويرسمون يكلفون غيرهم لإنجاز هذه الأعمال ويدفعون لهم أجورهم كي يتمتعوا هم بصيت الكتاب، أسوة بما يفعله بعض النواب للحصول على مقاعدهم). ولكن كل هذا كان خاطئاً، لأن ذلك الشاب كان المؤلف الحقيقي لأعماله الرائعة. وعندما عرفت ذلك، تنازعتني فرضيات شتى. فإما أنه خلال سنوات عديدة ظهر وكأنه «الغبي البليد» ولكنه تعرّض لتحوّلات نفسية عميقة حرّكت فيه العبقرية الغافية كما حصل لعروس الغابة، وإما لأنه في تلك الفترة من بلاغته العاصفة ومن رسوبه المتكرر في الشهادة الثانوية ومن خساراته الكبيرة في القمار عندما كان في «بالبيك» ومن خشيته ركوب الترام مع أنصار عمته «فيردوران» بسبب ثيابهم الرثة، كان عبقرياً، وربما غافلاً عن عبقريته، معرضاً عنها لطفرة أهوائه الشابة، وإما أيضاً لأنه كان إنساناً

عبقرياً واعياً عبقريته، وأنه إن كان الأخير في صفه فإنما لأنه كان يقرأ «رامبو» أو «غوته» بينما الأستاذ يقرأ بعض الترهات عن «شيشرون». صحيح أن لاشيء كان ينمّ عن هذا الاحتمال عندما التقيته في «بالبيك» حيث تمثلت لي اهتماماته مرتبطة فقط بترتيب أمور العربات وبتحضير الكوكتيلات. ولكن الاعتراض لم يكن اعتراضاً لايُدحض. فبوسعه أن يكون مفرطاً في الادعاء، وهذا أمر لايتنافى مع العبقرية، وأن يتألق بالطريقة المناسبة لإبهار المجتمع الراقي الذي كان يعيش فيه والذي لم يعجز عن إثبات معرفته العميقة بكتاب «التجانسات الاصطفائية» بل على «التفاخر والتباهي». ولست متأكداً أنه عندما أصبح صاحب هذه الأعمال الرائعة والفريدة أنه أحب أن يقول، خارج المسرح، «صباح الخير» لشخص لايرتدي السموكنغ كما يفعل المبتدئون في المهنة- مما يدل عنده على الغرور وليس على الحماقة، ومما يدل بشكل عملي على مواءمة غروره مع عقلية الحمقى الذين كان يميل لهم إذ كانوا يرون أن السموكنغ يلمع ربما أكثر من لمعان المفكرين. فمن يعرف أن رجلاً موهوباً كهذا وأن رجلاً دون موهبة ويحب الأمور الفكرية، إن نظر إليه من الخارج، مثلي أنا، لم يترك لدى مَنْ صادفه في «ريفيبيل» (Rivebelle) في فندق «بالبيك»، وفي سد «بالبيك»، أثراً يقول إنه المعتوه الأكثر اكتمالاً وادعاءً؟ ويرى «أوكتاف»[1] أن الأعمال الفنية يجب أن تكون حميمية وحية تتخلل تضاعيف الذات، فلم يستطع أن يتكلم عنها مثل مافعل «سان لو» مثلاً الذي كان يعتبر أن الفنون تؤثر مثلما تؤثر العربات، ثم إنه كان مغرماً بالقمار، ويقال إنه حافظ على هذا الولع. ومع ذلك، إذا كانت التقوى التي أحيت عمل «فانتوي» قد خرجت من الوسط المعكر للـ«مونجوفان» (Montjouvain)، فإنني لم استنكر التفكير في أن الروائع المذهلة في عصرنا قد خرجت من المسابقات العامة ومن الثقافة الأكاديمية المثالية، كما حصل للأخوين «بروغلي»[2]، وإنما خرجت من وزن فرسان سباقات الخيل، كما خرجت من البارات الكبرى. على كل حال كانت الأسباب التي دفعتني في «بالبيك» إلى تعريفه على البيرتين وصديقاتها غريبة أيضاً على قيمته وتستطيع فقط أن تسلط الضوء على الالتباس القديم المتعلق بـ«المثقف» (المتمثل نوعيا فيّ) وبأشخاص المجتمع الراقي (المتمثلين بالشلة

---

(١) لقد نسي بروست أن يحدد من هو «أوكتاف» هذا. وعلى الأرجح هو العم أوكتاف، أحد الفنانين الذين كان يلتقي بهم بروست.(المترجم)

(٢) الأخوان موريس (١٨٧٥-١٩٦٠) ولويس (١٨٩٢-١٩٨٧) دي بروغلي هما عالما فيزياء مشهوران اهتما بدراسة الطيف وأشعة اكس والميكانيك التموجي، وأسسا للفيزياء الكوانتية. نال لويس جائزة نوبل عام ١٩٢٩. (المترجم).

الصغيرة) حول شخص من هذا المجتمع الراقي (وهو لاعب الغولف الشاب). لم أكن أحس إطلاقاً بموهبته وكان تأثيره في نظري يتمثل، بالرغم من ادعائهن، في أنه صديق صديقاتي وأنه صار ينتمي إلى شلتهن أكثر مني، شأنه في ذلك شأن مدام «بلاتان» (Blatin). من جهة أخرى كانت البيرتين و أندريه ترمزان في هذا إلى عجز المجتمع الراقي عن التفكير السليم في الأشياء الفكرية لنزوعهما إلى انتحال الأعذار الكاذبة، لذا فإنهما لم تبتعدا عن حيّز الحماقة لأنني تقت للتعرف على معتوه كهذا، ودهشتا بخاصة لأنني، كلاعب غولف مثله، اخترت الرجل الأكثر تفاهة. أما الشاب الذي أردت الارتباط به فهو «جيلبير دي بيلوفر» (Gilbert de Belloeuvre)، الذي عدا الغولف كان متحدثاً وحصل على درجة عالية في المسابقة العامة وكان يقرض الشعر بتلذذ (ولكنه كان في الواقع أغبى رجل في العالم). ولو كان هدفي "كتابة بحث" أو" كتاب"، لقلت إن «غي سوموا» (Guy Saumoy) –الذي كان في غاية الجنون واختطف بنتين من المجموعة– هو على الأقل رجل طريف «قد يعجبني». لقد كان هذان معقولين، إن صح القول، أما الآخر فأية خصلة يمكن أن أجد فيه؟ كان من النوع "الفظ الكبير"، "الفظ الغليظ".

للعودة إلى «أندريه»، بعد أن باحت لي لتوّها عن علاقتها بـألبيرتين، فإنها أضافت أن السبب الرئيسي الذي دفع البيرتين إلى هجري هو ماقد تفكر فيه صديقاتها في الشلة الصغيرة أو النساء الأخريات وهو الإقامة في بيت شاب دون أن تكون قد تزوجته إذ قالت: «أعرف أنك تسكن عند أمك. ولكن هذا نفس الشيء. إنك لاتعرف عالم هؤلاء الفتيات ومايضمرن لبعضهن. رأيت بينهن فتيات يمارسن صرامة هائلة على الشبّان فقط لأنهم يعرفون صديقاتهن ويخشين كلام الناس؛ وحتى هؤلاء فقد شاءت الصدفة أن أراهن على حقيقتهن، دون أن يعلمن». وقبل ذلك بأشهر، بدت لي المعلومات التي تعرفها «أندريه» عن الدوافع التي كانت فتيات الشلة الصغيرات يُذعنّ لها نفيسة للغاية. ربما ماقالته كان كافياً ليشرح لي أن البيرتين التي استسلمت لي في باريس تمنعت عليّ في «بالبيك» لأنني كنت أرى صديقاتها باستمرار، وكنت أظن عبثاً أن ذلك كان أفضل لأكون معها على أحسن حال. وبعد أن حلت بيني وبين أندريه بعض الثقة، تهوّرت وقلت لها إن البيرتين تريد أن تنام في «الفندق الكبير»، علماً بأنها قبل ساعة كانت مستعدة لمنحي بكل بساطة بعض المتع، ولكنها غيّرت رأيها وهدّدت بقرع الجرس. بيد أنها كانت سهلة مع أناس كثيرين. وأيقظت هذه الفكرة غيرتي وقلت لأندريه إنني أريد أن أسألها شيئاً:

ـ «هل كنتِ تفعلين هذا في شقة جدتك التي لم تكن مسكونة؟

ـ لا، أبداً، لأننا سنتعرض للازعاجات.

ـ كنت أظن، وكان يبدو لي أن...

ـ كانت البيرتين تحب أن تمارس هذا في الريف.

ـ أين؟

ـ في الماضي، عندما كانت تفتقر الى الوقت للذهاب بعيداً، كنا نذهب إلى «بوت- شومون» حيث كانت تعرف بيتاً هناك، أو كنا نفعل ذلك تحت الأشجار بدون أن يرانا أحد، أو في مغارة «تريانون الصغير» أيضاً. - كيف أستطيع أن أصدّقكِ؟ لقد أقسمتِ لي منذ سنة أنكِ لم تفعلي شيئاً في «بوت-شومون»- خشيت أن أكدرك» وكما قلت، ظننت، لاحقاً جداً فقط، أن «أندريه» في يوم البوح هذا وللمرة الثانية سعت إلى تكديري. وأثناء حديثها، خطرت على بالي فورا فكرة شعرت بالحاجة إليها، لو أنني أحببت البيرتين حباً جماً. ولكن حديث «أندريه» لم يكدرني إذ كان علي أن اعتبره حديثاً كاذباً على الفور. وعليه، إذا صحّ ماقالته «أندريه»، ولم أشك في ذلك بداية، فإن الالبيرتين الحقيقية التي كنت أكتشفها، بعد تعرفي على مظاهر مختلفة عن البيرتين، اختلفت قليلاً عن الفتاة الفاحشة التي بزغت أمامي في اليوم الأول فوق سدّ «بالبيك»، والتي ظهرت أمامي بأشكال متعددة، شأنها شأن تلك الصروح القائمة والمتغيرة التي تسحق وتحجب العميرة الأساسية التي كنا نشاهدها وحدها في الأفق البعيد. لقد كانت كمدينة ندنو منها، وإذا عرفناها معرفة صحيحة وقدّرناها تمام التقدير، لاحظنا أن أبعادها الحقيقية هي تلك التي حددها المنظور لأول وهلة؛ أما الباقي الذي مررنا به فليس سوى سلسلة متتالية من الخطوط الدفاعية التي يقيمها جميع الناس أمام ناظرنا، ويتعيّن علينا أن نجتازها خطاً بعد خط، ونعاني من ذلك كثيرا قبل الوصول إلى مركزها. فإن لم أحتج إلى التصديق المطلق أن البيرتين بريئة، لأن ألمي قد تناقص، لاستطعت القول تناوباً إنني، إن لم أتألم كثيرا لهذا البوح، فلأنني رحت منذ مدّة أومن بأن البراءة المختلقة لألبيرتين قد انقلبت دون أن أدري إلى إيماني بأنها مذنبة. وإن كففت عن الإيمان ببراءتها فلأنني لم أعد أحتاج وأتوق إلى تصديق ذلك. إن الرغبة هي التي تولّد التصديق؛ وإذا لم ندرك ذلك بالعادة، فلأن معظم رغباتنا الخلاقة لشتى أنواع التصديق لاتنتهي -خلافاً للرغبة التي أقنعتني أن البيرتين بريئة- إلا بانتهائنا نحن. إلى جانب الإثباتات التي تؤيد رأيي الأول، آثرت ببلاهة تصريحات البيرتين

فقط. لماذا صدقتها؟ إن الكذب عنصر رئيسي لدى البشر. فقد يلعب لديهم دورا كبيرا يضاهي البحث عن المتعة، ويتحكم بها فعلا هذا البحث. إن الناس يكذبون كي يحموا متعهم ومباهجهم، إذا تعارض البوح بالمتعة مع الشرف. إننا نكذب طيلة حياتنا ونكذب بخاصة، وفقط ربما، على من يحبوننا. ذلك أن هؤلاء وحدهم هم الذين يجعلوننا نخاف على متعتنا فنرغب في ودهم. ظننت أولا أن البيرتين مذنبة، ولكن رغبتي وحدها التي حركت قوى ذكائي نحو الشك هي التي جعلتني أضل الطريق. قد نعيش محاطين بإشارات كهربائية وزلزالية، يترتب علينا أن نفسرها بنية حسنة كي نتعرف على حقيقة الطباع. ومع أن أقوال «أندريه» أحزنتني كثيرا، إن وجب علي التصريح بذلك، إلا أنني وجدت أن ماهو أجمل من الحقيقة هو ماشعرت به في غريزتي، فتجاوز التفاؤل البائس الذي استسلمت له لاحقا وبكل جبن. فكنت أود أن تتماشى الحياة مع حدوسي. فقد عرفت تلك الحدوس في أول يوم وجدت فيه على الشاطئ، إذ ظننت أن هؤلاء الفتيات يجسدن جنون اللذة والرذيلة، ورأيت في مساء ذلك اليوم معلمة البيرتين تدخل فتاتها المغرمة إلى دارتها الصغيرة، وكانت تدفع بها كما يدفع الحيوان المتوحش إلى قفصه دون أن تتمكن من ترويضه، بالرغم من جميع المظاهر. ألم تكن هذه الأقوال لاتتوافق مع ماقاله لي «بلوخ» عندما أراني أن الأرض رائعة وأظهر لي في كل لقاء من لقاءاتنا أن الرغبة تشمل جميع البشر، فجعلني أرتجف في نزهاتي كافة؟ ومع كل شيء ربما، كان يجدر بي ألا ألقي مرة ثانية هذه الحدوس الأولى إلا محققة كما هي الآن. وبينما كان حبي لألبيرتين لايزال مستمرا، عذبتني هذه الحدوس وأنهكتني ففضلت ألا يبقى منها إلا أثر بسيط يتمثل في شكي المستمر في الأشياء التي لاأراها والتي مع ذلك تجاورني باستمرار، ويتمثل ربما في أثر آخر أسبق وأكبر، أي حبي نفسه. وبالرغم من إنكارات عقلي كلها، ألم يكن اختياري وحبي لها تعرفا على البيرتين بكل مايمثل هذا التعرف من بشاعة؟ وحتى في تلك اللحظات التي كان الاشتباه يضعف فيها، ألم يكن الحب استمرارا لهذا الاشتباه وتحولا له؟ وبما أن الرغبة تتوجه عندنا دائما نحو النقيض، فترغمنا على محبة مايعذبنا، أليس هذا برهانا على النجابة (وهو برهان يستعصي فهمه على العاشق)؟ وبالتأكيد تدخل في الافتتان بشخص ما، وبعينيه وفمه وقامته، تلك العناصر التي نجهلها والتي قد تجعلنا في غاية التعاسة بحيث يكون شعورنا بالانجذاب نحوه وببداية حبنا له أكثر براءة مما ندعي، وبحيث نقرأ جميع خياناته وأخطائه قراءة مختلفة.

إن تلك المفاتن التي -لتجذبني- تمثل هكذا الأشياء الضارة والخطيرة والقاتلة لدى شخص ما، هل كانت بسمومها الغامضة ترتبط مباشرة ارتباط العلة بالمعلول أكثر من ارتباط الخصوبة المغوية والنسغ المسموم الذي يسري في عروق بعض الأزهار السامة؟ وقلت لنفسي ربما كان هذا هو عيب البيرتين نفسه، وهو العيب الذي سبب آلامي العتيدة، وهو العيب الذي أثار عند البيرتين تلك التصرفات الجميلة والصريحة التي تعطي انطباعا بأن الألفة الصادقة والكاملة معها هي كالألفة مع رجل. إنه عيب يوازي ذلك العيب الذي أثار عند السيد «دي شارلوس» رهافة أنثوية في المشاعر والأفكار. وفي قمة العمى الكامل، تحافظ البصيرة على شكل الاصطفاء والعاطفة، بحيث يخطئ من يتكلم في الحب عن الاختيار السيء، إذ، عندما يكون هناك اختيار، لايمكنه إلا أن يكون سيئا. فقلت لأندريه: «عندما أتيت إلى البيت تبحثين عنها، هل كنتما تقومان بجولات في بوت شومون؟

_ كلا، وذلك منذ أن عادت البيرتين معك من بالبيك، إلا ماقلته لك، إنها لم تفعل معي شيئا بعد ذلك. لا بل إنها لم تعد تسمح لي بأن أكلمهَا عن هذه الأشياء.

_ ولكن، ياصغيرتي أندريه، لماذا مازلت تكذبين؟ لم أكن أسعى إلى معرفة أي شيء، ولكنني عن طريق الصدفة المحضة عرفت كثيرا من التفاصيل عما كانت ألبيرتين تفعله قرب الماء مع إحدى الغسالات، قبل أن تموت بأيام فقط، وأستطيع أن أؤكد لك ذلك.

_ ربما بعد أن تركتك، لاأعرف بالضبط. لقد شعرت بأنها لم تستطع ولن تستطيع قط أن تعيد إليك الثقة بها».

لقد كدرتني كلماتها الأخيرة هذه، ثم فكرت في غصن الليلك في ذلك المساء، وتذكرت أنني بعدها بخمسة عشر يوما – وكانت غيرتي قد توجهت عندئذ نحو شخص آخر – سألت ألبيرتين إن أقامت علاقة مع «أندريه»، فأجابتني: «لم يحصل هذا قط، صحيح أنني أعبد أندريه وأنني أكن لها عاطفة عميقة، ولكنها كأختي، حتى ولو ظننت أنني أميل إلي هذه الأشياء. إنها آخر شخص أفكر فيه حول هذا الموضوع، واستطيع أن أقسم لك بكل ماتريده، بعمتي وبقبر أمي المسكينة». فصدقتها مع أنني لم استرب من التناقض بين اعترافاتها السابقة المجزوءة وبين الأشياء التي أنكرتها لاحقا، ماإن رأت أنني لست حياديا تجاه ذلك؛ وكان علي أن أتذكر «سوان» واقتناعه بصداقات

السيد «دي شارلوس» الأفلاطونية وتأكيده لي مساء ذلك اليوم الذي رأيت فيه صانع الصداري والبارون في باحة بيته. كان علي أن أدرك وجود عــالمين متناظرين، عالم يضم الأشياء التي يعلن عنها الفضلاء والصادقون، وعــالم يقبع خلف الأول ويضم الآثار التي خلفها هؤلاء وراءهم.. فعندما تتكلم امرأة عن شاب وتقول لك: «صحيح أنني أكن له صداقة هائلة، ولكنــها صداقــة بريئة جدا وطاهرة جدا، وأستطيع أن اقسم بحياة والدي رحمهما الله»، يتعيـن علينا، بدل أن نتردد أن نقسم أنها خرجت لتوها من الحمام الذي كانت تـهرع إليه بعد كل موعد مع ذلك الشاب، كي لاتحمل منه. كــان غصــن الليلــك يحزنني حتى الموت، طالما أن البيرتين صدقتني وقالت عني أننــي مخــاتل وأمقتها. أما أكاذيبها غير المتوقعة فصعب على عقلي أن يستوعبها. ذات يوم قالت لي إنها كانت في معسكر للطيران وإن الطيار صديقها (وقالت ذلك على الأرجح كي تحرف ظنوني بالنساء، ظنا منها أننــي أقــل غــيرة بالنسـبة للرجال)؛ وكان من الطريف أن أرى انشداه «أندريه» أمام ذلك الطيار وأمـلم أشكال التكريم والتبجيل اللذين يبديهما لألبيرتين، بحيث أن «أندريــه» أرادت أن تعمل معه نزهة بالطائرة. والحال أن هذه القصة قد اختلقت بكاملــها، لأن «أندريه» لم تذهب قط إلى معسكر للطيران، الخ..

عندما انصرفت «أندريه»، حان وقت العشاء فقالت لي أمــي: «لــن تخمن قط من زارتني لأكثر من ثلاث ساعات. قلت ثلاث ســاعات، ومــن الممكن أكثر. لقد وصلت تقريبا في الوقت الذي وصلت فيه الزائرة الأولــى وهي السيدة «كوتار»(Cottard). ورأت أكثر من ثلاثين سيدة زرنني يدخلن ثـم يغادرن، وهي جالسة دون أن تتحرك، ولم تغادرني إلا منذ ربع ساعة. لو لم تكن صديقتك أندريه معك، لناديتك.

_ بالله عليك، من هي.

_ شخص لايزور قط.

_ أميرة بارم؟

_ بالطبع، لدي ابن أذكى مما ظننت. لم أتمتع بجعلك تبحث عن اسـم من الأسماء، لأنك تجده فورا.

_ ألم تعتذر عن برودها أمس؟

_ كلا، من الحماقة أن تعتذر، زيارتها كانت هذا الاعتذار؛ ولوجدتــه جدتك المسكينة مناسبا هكذا. يبدو أنها حوالي الساعة الثانية سألت أحد خــدم

البيت إن كان عندي يوم للاستقبال. فأجابها بأنه اليوم، فصعدت». ولم أجوؤ أن أكشف لأمي فكرتي الأولى، وهي أن أميرة «بارم» التي كانت محاطة أمس بأشخاص لامعين ووثيقي الصلة بها وتحب التحدث إليهم، عندما رأت أمي تدخل لم تحاول أن تخفي مشاعرها. وفي ذلك كانت تشبه تماما النساء الألمانيات الكبيرات اللواتي يعوضن -كما نظن- عن كبريائهن باللطف الزائد. وظنت أمي، وظننت مثلها لاحقا، ن أميرة «بارم» لم تعرفها بكل بساطة، وظنت بالتالي أنها ليست ملزمة بالاهتمام بها، وأنها بعد مغادرة أمي عرفت من هي، إما عن طريق دوقة «غيرمانت» التي التقت بها أمي في الطابق الأرضي، وإما عن طريق لائحة الزائرات اللواتي كان الحراس يسألونهن عن أسمائهن ويكتبونها في أحد السجلات. لم تجد من اللائق أن ترسل أحدا ليقول لأمي: «لم أعرفك» أو أن تقول ذلك هي. ولكن ماكان ينطبق بعض الشيء على أدب البلاطات الألمانية وعلى تصرفات الـ«غيرمانت»، حسب رأيي، هو التفكير في أن الزيارة -وهذا شيء استثنائي من طرف جلالتها- الزيارة التي دامت عدة ساعات ستقدم لأمي، بشكل لا مباشر ومقنع تماما، ذلك التفسير، وهذا ماحصل فعلا.

بيد أنني لم أتوقف طويلا عند طلبي من أمي أن تروي لي أحداث زيارة الأميرة، لأنني تذكرت عددا من الوقائع الخاصة بـألبيرتين أردت أن أسأل «أندريه» عنها. كم كانت زهيدة الأشياء التي أعرفها عن ألبيرتين، وكم كانت مقتضبة تلك القصة عنها التي يمكنني أن أطلع عليها والتي تهمني على وجه الخصوص، أو على الأقل التي يعاودني الاهتمام بها في بعض الأحيان. الإنسان هو كائن لايملك عمرا ثابتا، كائن يستطيع في بضع ثوان أن يقلص عمره سنوات عديدة، كائن يسبح بين جدران الزمن الذي عاش فيه، كأنه في حوض ماء يختلف مستواه باستمراره فيجعله أحيانا على هذا المستوى وأحيانا على ذاك. كتبت لـ«أندريه» أن تعود. فلم تتمكن من ذلك إلا بعد أسبوع. وقلت لها في بداية زيارتها تقريبا: «أخيرا، وبما أنك تدعين أن ألبيرتين لم تعد تمارس هذا النوع من الأشياء عندما كانت تعيش هنا؛ فهل، في رأيك، تركتني لتمارسها بحرية أكبر، ولكن مع أية صديقة؟

_ بالتأكيد كلا، ليس لهذا قطعا.

_ إذن لأنني كنت كريها جدا؟

_ كلا، لا أعتقد ذلك. أظن أنها أجبرت على تركك من أجل عمتها التي اختارت لها، كما تعلم، ذلك الشاب الوغد الذي أسميته أنت «أنا في حقل

الملفوف»، ذلك الشاب الذي أحب البيرتين وطلب يدها. ولما رأى ذووها أنك لم تتزوجها خافوا من أن يحول استمرار بقائها الفاضح عندك دون أن يتزوجها ذلك الشاب. ولأن الشاب لم يكف عن التأثير في مدام «بونتان» فإنها استدعت البيرتين. في المحصلة كانت البيرتين تحتاج إلى عمها وعمتها، وعندما علمت أن الصفقة صارت مضمونة، غادرتك». بسبب غيرتي لم يخطر على بالي إطلاقا هذا التفسير، فكرت فقط في شهوات البيرتين للنساء وفي رقابتي عليها، ونسيت أن مدام «بونتان» موجودة وأنها تستطيع أن تجد ماصدم أمي في البداية أمرا غريبا. وكانت مدام «بونتان» تخشى على الأقل ألا يصدم وضع البيرتين هذا الخطيب المحتمل، إذ كانت تحتفظ به كإجاصة لتروي من العطش، إن لم أقدم على الزواج من البيرتين. أما هذه -خلافا لما كانت تظنه أم أندريه، فقد وجدت ضالتها في هذا الوسط البورجوازي. وعندما سعت لترى مدام «فيردوران»، وعندما كلمتها سرا، وعندما استشاطت هذه السيدة غضبا من أنني ذهبت للسهر دون إعلام البيرتين بذلك، وجدت أن الأحبولة التي يحيكانها لاتهدف إلى تعريف البيرتين بالآنسة «فانتوي» وإنما بترتيب لقاء مع حفيدها الذي كان يحب البيرتين. وكانت مدام «فيردوران» راضية عن بعض الزيجات التي تفاجئ عددا من العائلات والتي لاتتماشى مع العقلية السائدة، لذا فإنها لم تصر على زواج ثري. والحال أنني لم أفكر مجددا بذلك الحفيد الذي ربما أخرج البيرتين من عباطتها وبفضله أقدمت هي على تقبيلي أولا. وكان علي أن أجد بديلا لمخطط هواجس البيرتين الذي وضعته أنا، أو كان علي أن أرفده بمخطط آخر قد لايستبعد المخطط الأول، إذ إن ميلها نحو النساء لايمنعها من الزواج. هل كان هذا الزواج هو السبب الفعلي لرحيل البيرتين؟ ألأنها كانت تحب نفسها وتتظاهر بأنها غير تابعة لعمتها، ألأنها لم تجبرني على الزواج منها، فقد أبت أن تصرح لي بذلك؟ بدأت أتبين أن نظام الأسباب العديدة العائدة لفعل معين، والذي كان ينطبق على علاقات البيرتين بصديقاتها فتجعل كل واحدة منهن تظن أنها أتت من أجلها، لم يكن سوى رمز مصطنع ومقصود للوجوه المتعددة الذي يأخذها الفعل بناء على الزاوية التي ننظر منها إليه. لقد عجبت وخجلت من أنني لم أتساءل مرة واحدة عن كون البيرتين عندي هو وضع خاطئ قد يزعج عمتها؛ ولن تكون المرة الأولى ولا الأخيرة التي ينتابني فيها هذا العجب. وبعد أن حاولت فهم العلاقات القائمة بين شخصين والأزمات التي تؤدي إليها، كم مرة حصل وسمعت فجأة شخصا ثالثا يحدثني عن وجهة نظره هو، لأن علاقته بهذين الشخصين قوية، وقد تكون وجهة النظر هذه هي سبب الأزمة. فإذا بقيت الأفعال غير أكيدة

على هذا النحو، فكيف لايكون الأشخاص كذلك؟ إذا أصغينا للناس الذين يدعون أن البيرتين هي مخادعة أرادت الزواج من هذا أو ذاك، يصعب علينا أن نفترض كيف نظروا إلى حياتها عندي. ومع ذلك أرى أنها كانت ضحية، وضحية لم تكن بريئة تماما، وبالتالي مذنبة لأسباب أخرى، وذلك بسبب رذائلها التي لم تذكرها إطلاقا.

ولكن يتوجب على المرء أن يقول لنفسه مايلي: من جهة غالبا ما يكون الكذب سمة في الطباع؛ ومن جهة أخرى يكون، عند النساء اللواتي بدون هذه السمة يعتبرن غير كاذبات، دفاعا طبيعيا وعفويا ينتظم تدريجيا ليتصدى لذلك الخطر المفاجئ والقادر على تدمير كل حياة، ألا وهو الحب. أضف إلى ذلك أن الأشخاص المثقفين والحساسين يستسلمون دائما – لا عن طريق الصدفة – لنساء أدنى منهم ويفتقرون إلى المشاعر؛ ومع ذلك نراهم يتعلقون بهن، إلى أن يتبين لهم أن هؤلاء النساء لايحببنهم ومع ذلك يبقون غير مستعدين للتضحية بهن. إذا قلت إن هؤلاء الرجال يحتاجون إلى أن يتألموا، فأنا مصيب، إذ ألغي الحقائق الأولية التي تجعل الحاجة إلى الألم – وهي غير إرادية إلى حد ما – نتيجة معقولة جدا لهذه الحقائق. أضف إلى ذلك أن الطبائع الكاملة نادرة، إذ إن الشخص المثقف جدا والحساس يفتقر بالعادة إلى الإرادة فيصبح ألعوبة العادة والخوف الفجائي من الألم، ويقدس الأوجاع الدائمة، لذا فإنه يكتفي بالنزر اليسير من الحب، ولكن يجدر بنا أن نتصور الألم الذي يسببه له الحب الذي يشعر به. ويتعين علينا ألا نرثي كثيرا لحال هذا الألم، لأن هجران الحبيبة أو موتها هما صدمتان هائلتان من صدمات الحب التعس، كأنهما نوبتان من نوبات الشلل التي تصعقنا في البداية، ولكن العضلات تقود بعدها إلى مرونتها وحيويتها. إلى هذا، ليس هذا الألم دون تعويض. فهؤلاء الأشخاص المثقفون والحساسون قلما يميلون إلى الكذب. ويعتريهم الكذب على حين غرة؛ فعلى ذكائهم المفرط نراهم يعيشون في عالم الممكنات، وقلما تكون لهم ردود أفعال، ويستمرؤون الألم الذي أنزلته عليهم إحدى النساء بدل أن يدركوا بوضوح مراميها وأفعالها والأشياء التي تحبها؛ ولا يتأتى هذا الإدراك إلا للطبائع الحازمة التي تتدارك المستقبل بدل أن تبكي الماضي. فنرى هؤلاء الأشخاص يشعرون بأنهم مخدوعون دون أن يدروا كيف.. ومن هنا فإن المرأة الوضيعة التي نتعجب من حبهم لها تثري عالمهم أكثر من المرأة الذكية. فخلف كل كلمة من كلماتها يشعرون بالكذب، وخلف كل بيت قالت إنها ذهبت إليه هناك بيت آخر، وخلف كل فعل هناك فعل آخر، وخلف كل شخص هناك شخص آخر. وعلى الأرجح إنهم

يجهلون كل هذا، ويفتقرون إلى الحيوية وربما إلى إمكانية التوصل إلى معرفة ذلك. فالمرأة الكذابة تستطيع بحركة بسيطة جداً أن تخدع حشداً من الأشخاص، دون أن تكلف نفسها العناء لتبديل أحبولتها، فهي قادرة على أن تخدع الشخص نفسه عدة مرات، ويفترض فيه أن يكتشف ذلك. وكل هذا يخلق، للمثقف الحساس، عالماً موغلاً في العمق تحاول غيرته سبره ويستمرئه ذكاؤه. ودون أن أكون تحديداً من هؤلاء سيتسنى لي ربما – بعد أن ماتت البيرتين– أن أكتشف سرّ حياتها. ولكن هذه التلصصات التي لاتتم إلا بعد أن تنتهي حياة هذا الشخص الأرضية، ألا تثبت أن لاأحد في المحصلة يؤمن بوجود حياة أخرى؟ إذا كانت هذه التلصصات حقيقية، يتعيّن علينا أن نخشى انتقام الشخص الذي نكشف أفعاله، عندما نلتقي به في السماء، مع العلم أننا كنا نهاب ذلك أثناء حياته، وأننا كنا نعتقد أنفسنا ملزمين على إخفاء سرّه. وإذا تبين أن هذه التلصصات كاذبة ومختلقة، لأن ضحيتها رحلت دون تكذيبها، يجب علينا أن نخشى خشية أكبر غضب الميتة، إن كنا نؤمن بالسماء. ولكن لاأحد يؤمن بها.

وهكذا قد اعتملت مأساة كبرى في قلب البيرتين التي كانت تراوح بين البقاء عندي أو هجري، وقد هجرتني ربما بسبب عمتها أو بسبب ذلك الشاب، وليس بسبب نساء لِم تفكر ربما فيهن إطلاقاً. والأنكى بالنسبة لي كانت «أندريه» التي لم يبقَ عندها شيء تخفيه عليّ من تصرفات البيرتين الأخلاقية، وأقسمت لي أنه لم يحدث شيء من هذا بين البيرتين من جهة والآنسة «فانتوي» وصديقتها من جهة أخرى (كانت البيرتين تجهل ميولها الشخصية عندما تعرفت عليهما؛ أما هما فكانتا –بسبب الخوف من ارتكاب الخطأ بالاتجاه المرجو، مما يخلق أغلاطاً تتجاوز الرغبة نفسها– تعتبر أنها معادية جداً لهذه الأشياء. وربما اكتشفتا لاحقاً تطابق ميولهن، ولأنهما كانتا تعرفان البيرتين معرفة زائدة، ولأن البيرتين كانت تعرفهما كذلك، فيصعب أن تكونا قد فكرتا بممارسة هذه الميول معا).

وفي المحصلة مازلت لاأفهم لماذا تركتني البيرتين. إذا صعب على العينين أن يدركا صورة المرأة لأنهما لايستطيعان التحديق في هذا الحيز المتحرك كله وفي الشفتين، فما قولك بالذاكرة التي تبدلها الغيوم حسب وضعها الاجتماعي وحسب ارتفاع الموقع الذي نكون فيه، وماقولك أيضا بالسحاب الكثيف المسدل الذي يفصل بين الأفعال التي نراها منها وبين دوافعها! ذلك أن الدوافع تكون على مستوى أعمق لانراه، وتخلق أفعالا تختلف عن الأفعال التي نعرفها وتتناقض معها تناقضا مطلقا. ففي كل عصر

نجد مسؤولاً سياسياً ظنّه أصدقاؤه مسربلاً بالقداسة، ثم اكتشفوا بعدئذ أنه زيّف العملة وسرق الدولة وخان بلاده. ويحدث كل سنة أن يسرق محاسب سيده من النبلاء، مع العلم أن هذا الأخير ربَّاه وأقسم أنه رجل طيب، وربما هو كذلك. والحال أن هذا الستار المسدل على دوافع الآخرين، كم هو عصيّ على الاختراق، إذا كنا نحب هذا الشخص! فالحب يعتم قدرتنا على المحاكمة، كما يحجب أفعال تلك المرأة التي تشعر بأنها محبوبة فتكف فجأة عن الاكتراث بالأشياء الخاصة بها، كالثروة مثلاً. وقد يدفعنا إلى التظاهر جزئيا بأننا نزدري الثروة على أمل أننا بتعذيبنا الآخرين ننال أكثر. وقد تختلط المساومة بأشياء أخرى؛ وحتى الأحداث الإيجابية في حياتها، ولنقل دسيسة لم تَبُحْ بها لأحد خوفاً من أن تنكشف لنا – وربما علم بها الكثيرون لو تاقوا لمعرفتها مثلنا، ولكنهم حافظوا على حرية أكبر في التفكير وأثاروا لدى المرأة المعنية أقل قدر من الشكوك– وهي دسيسة لم يجهلها بعضهم، مع العلم أننا لانعرفهم ولانستطيع أن نعرف أين هم. ومن بين الأسباب التي تجعل الموقف بيننا عصيّاً على الشرح، لابد من إدراج هذه الطباع الخاصة التي تدفع الإنسان –إن إهمالاً لمصلحته وإن حقداً وإن حباً بالحرية وإن لانفجارات غضبية مفاجئة وإن خوفاً مما يفكر فيه بعض الناس – إلى أن يتصرف على عكس مانظن. وهناك أيضاً اختلافات البيئية والتربية، وهي اختلافات لانريد تصديقها؛ وعندما نتحدث في مابيننا نحن الاثنين نلغيها من كلماتنا، ولكننا نجدها عندما نكون بمفردنا، فنوجّه تصرفات كل واحد منا توجهاً معاكساً بحيث ينتفي كل لقاء حقيقي ممكن.

«ولكنك ياعزيزتي أندريه مازلت تكذبين. تذكري (وأنت بُحتِ لي بذلك عندما خابرتك بالهاتف أمس، أتذكرين؟) أن ألبيرتين تاقت وأخفت الأمر عني كأنني يجب أن أجهله، التحضر صباحية الـ«فيردوران» التي كان المفترض أن تأتي إليها الآنسة «فانتوي».

ـ نعم، ولكن البيرتين كانت تجهل تماماً أن الآنسة فانتوي ستأتي إليها.

ـ كيف ذلك؟ لقد قلتِ لي إنها قبل ذلك بأيام قد قابلت السيدة فيردوران. فمن غير المجدي، ياأندريه، أن يخدع أحدنا الآخر. لقد وجدت ذات صباح في غرفة البيرتين كلمة من السيدة فيردوران تحثها فيها لحضور تلك الصباحية». وأريتها تلك الكلمة التي حرصت «فرانسواز» على وضعها فوق أشياء البيرتين قبل مغادرتها لي بأيام؛ وخشيت من أن «فرانسواز»، بإبراز الورقة على هذا الشكل، كانت تريد دفع البيرتين إلى الظن أنني فتشت

أغراضها، أو أنها عل الأقل كانت تريد إعلامها بأنني رأيت تلك الورقة. وكثيراً ماتساءلت إن كانت حيلة «فرانسواز» هذه سبباً وجيهاً لرحيل البيرتين التي أدركت أنها لم تعد تقوى على إخفاء أي شيء عني، وشعرت بأنها محبطة ومهزومة. وأريتها الورقة: « لاأشعر بأي تأنيب للضمير لأن مشاعري العائلية الحميمة تشفع فيّ»[1] «تعلمين تمام العلم ياأندريه أن البيرتين قالت دائماً إن صديقة الآنسة فانتوي هي بالنسبة لها أم وأخت.

ـ ولكنك أسأت فهم هذه الورقة. فالشخص الذي كانت مدام «فيردوران» تريد تلتقي به البيرتين، لم تكن إطلاقاً صديقة الآنسة فانتوي وإنما الخطيب «أنا في حقلِ الملفوف»؛ أما المشاعر العائلية فهي تلك التي كانت مدام «فيردوران» تكنها لهذا الخسيس الذي هو ابن أخيها. ومع ذلك أعتقد أن «البيرتين» عرفت من ثم أن الآنسة فانتوي ستحضر، لأن السيدة «فيردوران» قد أعلمتها بذلك عرضاً. لاشك أن فكرة رؤيتها صديقتها ابهجتها وذكرتها بماض جميل، ولكن كم تكون مسروراً إذا ماذهبت إلى مكان ما وعلمت أن «السّتير» فيه، ولكنك لم تعلم أكثر من ذلك. كلا، إن لم تقل لك البيرتين لماذا أرادت الذهاب إلى بيت السيدة «فيردوران»، فلأن حفلة موسيقية كانت تحضّر عندها ولم تدع إلي حضورها إلا عدداً قليلاً جداً من الناس، ومن بينهم ابن أخيها الذي التقيت به في «بالبيك» والذي كانت تريد تزويجه من البيرتين التي أزمعت التحدث إليه. لقد كان شاباً سافلاً. وأضافت أندريه أن لاحاجة لمزيد من الإيضاحات إن الله يعلم كم كنت أحبّ «البيرتين»، تلك الفتاة الطيبة، وأحببتها بخاصة منذ أن أصيبت بحمى التيفوئيد (وذلك قبل تعرّفك علينا جميعاً بسنة)، لقد كانت دماغاً مشتعلاً. وفجأة تقززت مما كانت تفعله، وتغيرت بسرعة خاطفة، ولم تعرف هي نفسها السبب. هل تذكر السنة الأولى لمجيئك إلى «بالبيك»، السنة التي تعرّفت فيها علينا؟ ذات يوم وصلتها برقية تستدعيها إلى باريس، وبالكاد استطعنا تحضير حقائبها. وفعلاً لم يكن هناك أي داع لذهابها؛ وجميع الذرائع التي قدمتها كانت خاطئة، وباريس كانت مملّة بالنسبة لها. أما نحن فكنا جميعاً في «بالبيك»، ونادي الغولف لم يُغلق كما لم تنتهِ التحضيرات للجائزة الكبرى التي تاقت للحصول عليها. وبالتأكيد كانت ستحصل عليها، لو انتظرت ثمانية أيام فقط. ولكنها ذهبت مهرولة. وغالباً ماكلّمتها بعد ذلك عن ذهابها، فقالت إنها لاتعلم هي نفسها لماذا ذهبت، وقالت إن الحنين إلى

---

[1] إن نص بروست مبتور، وورد في المخطوط «إنني أريد إنقاذك من الرجل الغيور». ولكن بروست شطب هذه الجملة (المترجم).

الأوطان هو السبب (والأوطان هنا هي باريس، وأنت تعلم أرجحية ذلك) وإنها غير مسرورة في «بالبيك»، إذ كانت تظن أن بعض الناس يسخرون منها». كان شيء من الحقيقة في ماقالته «أندريه»، فإذا شرحت الاختلافات بين الأذهان الانطباعات المختلفة لدى هذا الشخص أو ذاك عن الفعل نفسه، فإن اختلاف المشاعر يشرح استحالة إقناع شخص لايحبك؛ وهناك أيضا الاختلافات في الطباع، وتتسبب هي أيضا في الأفعال؛ لذا ماقالته «أندريه» ينطوي على شيء من الصحة. ثم كففت عن التفكير في هذا الشرح وقلت لنفسي كم هو صعب على الإنسان أن يعرف الحقيقة في هذه الحياة.

لقد لاحظت فعلاً رغبة البيرتين في الذهاب إلى بيت السيدة «فيردوران» وإخفاءها عني، ولم أخطئ في ذلك. ولكن عندما نجد أنفسنا أمام حدث معيّن، ينسحب الآخرون، لأننا لانرى إلا مظاهرهم، ولا تمر أمامنا إلا قامات باهتة، فنقول عندئذ لأنفسنا: هي كيت وكيت، وهي أو تلك هما السبب. لقد ظهر لي أن الكشف عن اسم الآنسة «فانتوي» هو التفسير، لاسيما وأن البيرتين بادرت وأخبرتني بذلك. ولاحقاً، ألم ترفض أن تقسِم بأن وجود الآنسة «فانتوي» لم يكن يسرّها؟ وهنا أتذكر شيئاً يتعلق بذاك الشاب. قبل ذلك بفترة، وبينما كانت البيرتين تقيم عندي، التقيت به، وكان.. خلافاً على تصرفه في بالبيك، لطيفاً للغاية، لا بل حنوناً معي، فتوسّل إليّ أن أسمح له بالمجيء ليراني، وهو أمر رفضته لأسباب عديدة. وعلى بساطتي، أفهم الآن أنه عندما عرف أن البيرتين تقيم في بيتي، أراد تحسين علاقته بي كي تسهل عليه رؤيتها وخطفها مني، فاستنتجت أنه بائس. وعندما وردتني بعد ذلك أخبار هذا الشاب، بقيت أقول إنه لم يتلهف للمجيء إلى بيتي إلا بسبب البيرتين. ومع أنني وجدت الأمر غير سوي تذكرت أنني في الماضي لم أذهب لزيارة «سان لو» في «دونسيير» إلا لأنني كنت أحب السيدة «دي غيرمانت». صحيح أن الحالة مختلفة، لأن «سان لو» لم يكن يحب السيدة «دي غيرمانت»، ولأن شيئاً من المخاتلة كان يشوب عاطفتي، على أنني لم أرتكب أية خيانة. ولكنني فكرت لاحقاً في أن تلك العاطفة التي نكنها لشخص يملك الشيء العزيز الذي نبتغيه، نشعر بها أيضاً إذا ملَكَ هذا الشخص ذلك الشيء وأحبّه لنفسه. لاشك أنه يتعين عندئذ التصدي للصداقة التي تؤدي مباشرة إلى الخيانة. وهذا، على ماأظن، هو مافعلته دائماً. ولكننا لانستطيع أن نقول عن العاجزين إن الصداقة التي يصطنعونها مع مالك هذا الشيء ليست مجرد حيلة؛ إنهم يحسّونها بصدق ولذا فإنهم يظهرونها بحماس يجعل الزوج أو العاشق المخدوع يستنكر خيانتهم مذهولا فيقول: «ياليتكم سمعتم

عبارات الود التي كان هذا الوغد يمطرني بها! أن يأتي أحدهم لسلبك كنزك، أتفهم ذلك؟ ولكن عندما يحس بحاجة شيطانية إلى تأكيد صداقته لك أولا، أجد الأمر على درجة من الخسة والدناءة لايستطيع أحد تصورها». كلا، لاتوجد متعة واضحة تماما في الدناءة ولا في الكذب.

أجد عذرا آخر في اصطناع الصداقة التي خصني بها في ذلك اليوم خطيب البيرتين المزعوم، لأن هذا الاصطناع كان أكثر تعقيدا من كونه تفرعا بسيطا عن حبه لألبيرتين. ومنذ فترة وجيزة وجد نفسه مثقفا واعترف بذلك وأراد أن يعلن اسمه كمثقف. وللمرة الأولى بزغت في حياته قيم غير رياضية وغير مجونية، ولأن «الستير» و «بيرغوت» كانا يقدرانني، ولأن البيرتين حدثته ربما عن طريقتي في الحكم على الكتاب وعن تصورها لأسلوب كتابتي، فإنني صرت فجأة في نظره (أي في نظر الإنسان الجديد الذي ظن أنه أصبحه) شخصا مهما يسعده أن يرتبط به ويكشف له مشاريعه ويطلب منه ربما أن يقدمه لـ«بيرغوت». وهكذا كان صادقا عندما طلب مني المجيء إلى بيتي وعبر عن مودة اجتهد أن تكون صادقة، لأسباب ثقافية ولارتسام ظل البيرتين أيضا. صحيح أنه لم يصر على زيارتي وعبر عن استعداده للتخلي عن كل شيء، *من أجل ذلك*. ولكنه كان يجهل ربما هذا السبب الأخير الذي توج السببين الأولين، لأنهما كانا موجودين فعلا، كما وجد فعلا عند البيرتين – عندما أرادت في أصيل ذلك اليوم بعد التمرين الموسيقي أن تذهب إلى بيت السيدة «فيردوران – رغبة شريفة تماما في أن ترى صويحباتها أيام الطفولة ظننا منها أنهن لسن فاسقات وظننا منهن أنها ليست كذا، وفي أن تتحدث اليهن وتثبت لهن أن الصغيرة المسكينة التي عرفنها في الماضي صارت تدعى إلى الصالونات الراقية. وراودتها أيضا رغبة ربما في الاستماع إلى موسيقى «فانتوي». إذا صح كل هذا، فإن احمرار وجه البيرتين، عندما تكلمت عن الآنسة «فانتوي» كان مبعثه أنني نوهت بذلك الصباح الذي أرادت إخفاءه عني بسبب مشروع الزواج الذي كان علي ألا أعرفه. ولأن ألبيرتين رفضت أن تقسم لي بأنها لم تشعر بأية متعة في رؤية الآنسة «فانتوي» وقتئذ قد فاقم عذابي وعزز شكوكي، ولكنها كانت تثبت لي بالتالي أنها حريصة على الصدق، وحتى في أمر بريء، وربما لأن هذا الأمر بريء. ومع ذلك بقي قائما ماقالته لي «أندريه» حول علاقاتها مع البيرتين. إلا أنه لم يذهب بي الأمر إلى الظن أن «أندريه» اختلقتها كلها كي تحول دون سعادتي وكي لاأعتقد أنني متفوق عليها؛ وأستطيع القول إنها بالغت قليلا في ماكانت تفعله مع البيرتين، وأن البيرتين

-لتخفيفه ذهنيا- كانت تختزل مافعلته مع «أندريه» مستخدمة، على طريقة اللاهوتيين اليسوعيين، بعض التعريفات التي صغتها أنا بحماقة حول هذا الموضوع، واجدا أن علاقاتها مع أندريه لم تنسجم مع مااعترفت لي به، وأنها تستطيع إنكارهما دون أن تكذب. ولكن لماذا أظن أنها هي الكاذبة وليست «أندريه»؟ كم الحقيقة والحياة هما عسيرتان! ويبقى لي منهما دون أن اعرفهما في المحصلة، انطباع يشوبه الحزن المثقل بالتعب.

عندما تذكرت للمرة الثالثة أنني وعيت اقترابي من اللامبالاة المطلقة بألبيرتين (وشعرت هذه المرة أنني توصلت إلى ذلك) حدث ذلك ذات يوم في مدينة البندقية، بعد زيارة البيرتين الأخيرة بمدة طويلة. أخذتني أمي لنمضي بضعة أسابيع فيها ـ إن للأشياء المتواضعة جمالها كما للأشياء النفيسة. فتلذذت هناك بانطباعات تشبه تلك التي شعرت بها قديما في «كومبري»، ولكنها انطباعات منقولة بشكل مغاير وأغنى. وعندما كان الخدم يأتون في العاشرة صباحا ليفتحوا نوافذ غرفتي، كنت أرى الملاك الذهبي في برج الجرسية التابع لكاتدرائية «القديس مرقص» يتوهج، عوضا عن المرمر الأسود الذي أصبح يتلألأ فوق سطوح كنيسة «القديس هيلاريون». وكان الملاك الذهبي يحمر تحت الشمس فيصبح من المستحيل أن ينظر إليه المرء، ويعدني بجناحيه المبسوطين عندما سأصل إلى الساحة الصغيرة (Piazzetta) بعد نصف ساعة بفرح أكيد أكثر من ذاك الذي بشر به البشر من ذوي النوايا الطيبة. لم أكن ألمح وأنا نائم إلا الملاك، ولكن بما أن العالم ليس إلا ساعة شمسية هائلة نعرف الوقت فيها من خلال أحد الجوانب ا لمشمسة، فكرت منذ الصباح الباكر بدكاكين «كومبري» المطلة على ساحة الكنيسة والتي أوشكت على الإغلاق عندما أتيت لحضور القداس، وكان هشيم السوق يبعث رائحة قوية تحت أشعة الشمس الحارة، ولكن مارأيته في اليوم الثاني وأدهشني ونهضت له (إذ اختلط المشهد في ذاكرتي ورغبتي بذكريات كومبري)، كان تلك الانطباعات التي حفظتها بعد النزهة الأولى في مدينة البندقية حيث الحياة اليومية لم تكن أقل واقعية مما هي عليه في «كومبري». ففي يوم الأحد صباحا كان يطيب لنا في «كومبري» أن ننزل إلى شارع يحتفل بالعيد، ولكن ذلك الشارع كان ينضح كله بالماء اللازوردية التي ترطبها الأنفاس الفاترة وكان لونه على درجة من الثبات بحيث استطاعت عيناي المتعبتان أن تحطا أنظارهما عليه كي ترتاحا دون أن تخشيا إذعانه لهما. وكالناس البسطاء في شارع «لوازو» (L'Oiseau) في كومبري، كان سكان هذه المدينة الجديدة أيضا يخرجون من بيوتهم المتلاصقة إلى الشارع الكبير. ولكن دور البيوت التي

فرشت بعض الظل تحت أقدامها كان يوكل في البندقية إلى قصور من الرخام السماقي واليشب؛ وفوق الأبواب المقوسة تظهر رؤوس آلهة ملتحية (وتتجاوز الخط المنظور، كمقارع الأبواب في «كامبري»، مما أدى إلى تغميق نورها المنعكس، وليس تغميق الأديم الرمادي بل تغميق الماء ذات الزرقة الرائعة. على الـ«بياتسا» (Piazza) كانت الظلال التي يسكبها شادر دكان الكلف وآرمة صالون الحلاقة في «كامبري» يشبهان الأزهار الصغيرة الزرقاء المرسومة على البلاط المشمس والمقفر الذي تعلوه الرسوم الناتئة في إحدى الواجهات العائدة لعصر النهضة الإيطالية؛ وذلك لايعني أن الناس في البندقية وفي «كامبري» كانوا مضطرين عندما تسطع الشمس وحتى على ضفة القنال لإهدال ستائرهم. ولكن هذه الستائر كانت مسدلة مابين مربعات الفصوص وغصنيات النوافذ. وسأقول الشيء نفسه عن واجهة فندقنا، إذ كانت تنتظرني أمي أمام أعمدة درابزونها وهي تنظر القنال بصبر افتقرت إليه سابقا في «كامبري» وهي تحتثي على آمال لم تتحقق بعدها، ولم تشأ أن تشعرني كم كانت تحبني. والآن أحسست بأن برودها الظاهري لم يعد يغير شيئا وشعرت بأن الحنان الذي أغدقته علي كان كتلك الأطعمة الممنوعة التي يتوقف الناس عن رفضها للمرضى عندما يتيقنون أن شفاءهم مستحيل. إن السمات المتواضعة التي أعطت طابعا شخصيا لنافذة غرفة عمتي «ليوني» (Léonie) المطلة على شارع «لوازو»، وإن عدم تناظر هذه السمات بسبب المسافة المتفاوتة بين النافذتين المتقاربتين، وإن العلو الشاهق لإطارها الخشبي، وإن المسكة الملتفة لفتح درفاتها، وإن قطعتي السندس الأزرق الجامدتين والمفصولتين برباطين يباعدان بينهما، كل هذا وجدته في هذا الفندق البندقي الذي سمعت فيه تلك الكلمات الخاصة والبليغة التي وطدت معرفتي بالفندق الذي كنا نعود إليه للغداء؛ وكل هذا يبقى في ذاكرتنا كشهادة تقول إن هذا الفندق كان منزلنا لفترة ما؛ ولكن الحرص على قول هذه الأشياء في البندقية كان مختلفا عما كان عليه في «كامبري» كما في أي مكان آخر بالنسبة للأشياء البسيطة جدا، لا بل القبيحة جدا؛ ونجم عن قنطرة نصفها عربي في الواجهة، وصبت من هذه القنطرة مجسمات اقتنتها جميع المتاحف وترى صورتها في جميع الكتب الفنية، وتعتبر من روائع العمارة المنزلية في القرون الوسطى. وبعد تجاوزي مباشرة كنيسة القديس جورج الكبير، وعندما كنت من البعيد، ألمح هذه القنطرة المطلة علي كان زخم أقواسها الحادة يضيف إلى ابتسامة الترحاب نظرة راقية متميزة وتكاد لاتفهم. ولأن أمي كانت تنتظرني وهي تقرأ خلف أعمدة الدرابزون الرخامي المتعددة الألوان، مجمعة رأسها بمنديل صغير من الشاش الأبيض الناصع كبياض

شعرها الذي أحسست بأن شـيبه يبكيـها فتخفـي دموعـها، وراء قبعتـها المصنوعة من القش، لالتظهر أنيقة أمام نزلاء الفندق بل لتبدو لي أقل حـدادا وحزنا ولتقول إنها وجدت إلى حد ما عزاءها؛ ولأنها لم تعرفني للحال عندما ناديتها من فوق الغندول، فإنها أرسلت إلي من أعماق قلبـها حبـها الـذي لايتوقف إلا عندما يفقد كل سند له، ونظرت إلي نظرة شغف سعت أن تكـون أقرب القرب إلي، وحاولت أن ترفعها وتقرب شفتيها بابتسامة الكتوم، خيـل إلي أنها تقبلني بها، ورأيت، في إطار وتحت سقف الابتسامة القنطرة التـي أضاءتها شمس الظهر – بسبب ذلك اتخذت هذه النافذة في ذاكرتـي عذوبـة الأشياء التي كان لها معنا والى جانبنا نصيبها في ساعة أزفت لنا وللأشـياء؛ ولأن القواطع الحجرية لتلك النافذة العظيمة كانت تعج بالأشكال الرائعة، فإنها (النافذة) بالنسبة لي كانت كصورة حميمية لرجل عبقري أمضينا معه شـهرا في المصيف نفسه فكن لنا فيه بعض الصداقة، فكلما رأيت نسخة مـن تلـك النافذة في أحد المتاحف، اضطرت إلى حبس دموعـي، لأن النـافذة وبكـل بساطة كانت تقول لي الشيء الذي يستطيع أن يؤثر في بالغ التأثير: «إننـي أتذكر أمك جيدا».

ولكي أذهب لأرى أمي التي غادرت النافذة، شعرت وأنا أترك حـر الهواء الطلق برطوبة كنت أحس بها في «كومبري» عنـد صعـودي إلـى غرفتي؛ ولكن في البندقية كان هناك مجرى هواء بحري ينمي هذا الشـعور، لايخترق درجا خشبيا ذا درجات متقاربة، بل يخترق درجات مرمرية فسيحة وراقية تنسكب عليها في كل حين أشعة شمسية مخضرة تنضاف فيها دروس الفنان «شاردان» (Chardin) التي أعطيت سابقا إلى دروس الفنان «فيرونيزى» (Veronese). وبما أننا نجد في البندقية الأعمال الفنية الرائعة التي من شأنها أن تعطينا انطباعات أليفة عن الحياة، أرى أن طابع هذه المدينة يندثر بذريعة أن البندقية – كما رآها بعض الفنانين – ذات جمالية باردة في جانبها المشـهور (باستثناء الدراسات اللامعة التي كتبها «ماكسيم ديتوماس» (Maxime Dethomas)؛ ويندثر أيضا عندما، على النقيض، لاتظهر فيها إلا الجوانب البائسـة التـي تلغي عظمتها، ولكي نجعل من البندقية مدينة أكثر حميمية وواقعية ماعلينا إلا أن نشابهها بـ «أوبيرفيلييه» (Aubervilliers). وارتكب كبار الفنانين هذا الخطـأ تصديا طبيعيا لتلك البندقية المصطنعة التي رسمها أردأ الفنانين، وركزوا فقط على المدينة الواقعية جدا، مدينة الساحات المتواضعة والشـوارع المحاذيـة للسواقي.

وغالبا في الأصيل حيث كنت أكتشف هذا الجانب من المدينة، عندما لأخرج مع أمي. فيسهل علي أن أجد فيها نساء الطبقة الشعبية، كصانعات علب الكبريت وناظمات حبات الخرز وصانعات الزجاج والدانتيلا والعاملات الصغيرات المتشحات بالمناديل السوداء الفضفاضة ذات الأهداب واللواتي لم يمنعني شيء عن حبهن، إذ نسيت البيرتين إلى حد كبير، فظهرن لي أكثر تشويقا من غيرهن، لأنني عندئذ تذكرتها قليلا. من يستطيع أن يقول لي بالضبط في هذا البحث التواق عن النساء البندقيات، مابقي عندهن وعند البيرتين من رغبتي التالدة في السفر إلى البندقية؟ إن أدنى رغبة فينا، مع أن فرادتها هي كفرادة التناغم الموسيقي، تتضمن العلامات الموسيقية التي تتبني عليها حياتنا كلها. وأحيانا، إذا ألغينا علامة من علاماتها، مع أننا لانسمعها ولانعيها ولاترتبط إطلاقا بالموضوع الذي نتابعه، نرى أن كل رغبتنا في هذا الموضوع تتلاشى. كانت هناك أشياء كثيرة لم أسع إلى استخلاصها بسبب هرولتي المنفعلة بحثا عن البندقيات.

كان الغوندول الذي ركبتُه يتجه نحو الأقنية الصغيرة؛ وكيد جني سحرية اصطحبتني في تلافيف تلك المدينة الشرقية، كانت الأقنية، كلما تقدمت، تشق لي طريقا تحفره في قلب أحد الأحياء فتقسمه شقين وتكاد – بأخدود رقيق ترسمه اعتباطا– تفصل البيوت العالية ذات النوافذ الصغيرة بطرازها العربي؛ كأن الدليل السحري أمسك بشمعة بين أصابعه وأضاء لي الطريق؛ وكانت تلك الأصابع تجعل شعاع الشمس يتلألأ وتشق له الطريق. وبين المنازل الفقيرة التي فصلها القنال الصغير للتو والتي لولا ذلك لشكلت كتلة متراصة، كنت أشعر بأن الأمكنة كلها كانت للجميع وغير محجوزة. وهكذا كانت جرسية الكنيسة أو عرائس الحدائق تطل من عل إلى الريو، كما لو كانت المدينة مغمورة بالمياه. ولكن في الكنائس كما في الحدائق، وبفضل التبديل نفسه كما في القنال الكبير، كان البحر مطواعا ليقوم بدور المسرب أو الشارع، صغيرا كان أم كبيرا، في ضفتي القنال الصغير، وكانت الكنائس تسمق من الماء التي أصبحت حيا قديما مكتظا وفقيرا كأنها رعيات دينية متواضعة ومطروقة تحمل طابعها المحتم عليها، طابعها كمكان يرتاده كثير من الناس البسطاء؛ وكانت الحدائق التي يشقها القنال تخلف وراءها في الماء أوراق شجرها أو ثمارها الذاهلة، وعلى حواف البيوت ذات الحجارة الصلصالية غير المنحوتة والخشنة كما لو تم اقتطاعها دون تحضير، كان الأطفال المبغوتون والمحافظون على توازنهم ينزلون سيقانهم عموديا في الفضاء كما يفعل البحارة الجالسون فوق جسر متحرك انفلق قسماه للتو فأتاحا

للبحر أن يمر بينهما. وأحيانا كان يظهر صرح جميل زرع هنا فجأة كأنه علبة رحنا نفتحها، وظهر فيها هيكل عاجي صغير بطرزه الكورنثية وبتمثاله الرمزي ذي الهامة المستغربة بعض الشيء بين الأشياء المألوفة التي نسي فيها، فحاولنا جهدنا أن نفسح له مكانا، ولكن رواق القنال ذا الأعمدة بدا كرصيف ميناء لشحن البقول. لقد اهتاجت رغبتي وخيل إلي أنني لست خارج بيتي، وأنني أتوغل في مكان سري؛ ودائما كنت أجد شيئا يتموضع في ذاتي هنا أو هناك، أجد صرحا صغيرا أو ساحة غير متوقعين، فيبدو على الذهول من الأشياء التي أراها للمرة الأولى دون أن أدرك غاياتها وفوائدها تماما. وعدت ماشيا عبر الأزقة الضيقة، واستوقفت بنات شعبيات كما فعلت البيرتين ربما وتمنيت لو كانت معي. ولكن هؤلاء الفتيات لم يكن هن هن عندما زارت البيرتين البندقية، إذ كن مازلن أطفالا. ولكنني بسبب جبني بعد أن خنت أولا كل رغبة من رغباتي التي خلتها فريدة، لأنني بحثت عن شيء مشابه، وليس عن الشيء الذي توخيته، أراني الآن أبحث بانتظام عن نساء لم تحصل عليهن البيرتين ولم تتعرف عليهن، لا بل إنني لم أعد أبحث عن نساء اشتهيتهن سابقا. أجل لقد حصل لي كثيرا أن تذكرت، وبرغبة عنيفة لاتصدق هذه الفتاة الصغيرة أو تلك في «ميزيغليز» (Meseglise) أو باريس، أو بائعة الحليب التي رأيتها ذات صباح في سفح رابية، أثناء رحلتي الأولى إلى «بالبيك». ولكن للأسف، كنت أتذكرهن كما كن عندئذ، ولكنهن الآن قد تغيرن بالتأكيد. وهكذا إذا سبق لي أن طوعت انطباعي عن وحدانية الرغبة فاستبدلت تلميذة راهبات ضائعة بتلميذة أخرى مشابهة لها، لرأيت الآن أن الفتيات اللواتي عكرن سكون صباي أو صبا البيرتين، يدفعني الآن للقبول باستثناء آخر مرتبط بمبدأ فردية الرغبة؛ إن اللواتي يتعين علي البحث عنهن لسن أولئك الفتيات اللواتي كان عمرهن عندئذ ست عشرة سنة، بل أولئك اللواتي ناهزن الآن السادسة عشرة، ذلك أنني الآن، لافتقادي ماهو خاص جدا عند الشخص وماغفلت عنه، أحب الشباب بخاصة. كنت أعلم أن شباب من عرفتهن لم يعد موجودا إلا في ذاكرتي الملتهبة، وكنت أعلم –على توقي إلى بلوغهن عندما أتصورهن في ذاكرتي – أنهن لسن اللواتي يجب علي أن أقطفهن، إن ابتغيت فعلا أن أجني الشباب وزهرة السنة.

كانت الشمس مازالت في كبد السماء عندما ذهبت لالتقي بأمي في الساحة الصغيرة (Piazzetta). فنادينا غوندولا. وقالت لي أمي وهي تشير بإصبعها إلى قصر الدوقية الذي يطل على البحر حسبما صممه مهندسه المعماري وحافظ عليه بأمانة، علما بأن القصر كان ينتظر بصمت قضاة

المدينة الراحلين، قالت: «كم كانت جدتك المسكينة تحب هذه العظمة البسيطة جدا! لو كانت هنا لأحبت رقة هذه الألوان الوردية لأنـــها بـدون تصنــع، ولأحبت البندقية وتلك الألفة التي قد تنافس ألفة الطبيعة، ولوجـــدت أشـياء كثيرة في كل هذا الجمال لاتحتاج إلى أي تنظيم، لأنها تقدم نفسها كما هـــي؛ فهناك قصر الدوقية بشكله المكعب، وهناك الأعمدة التي -كما قلـــت لـــي- أخذت من قصر هيرودوس، في وسط الساحة الصغيرة، وهناك أعمدة مدينــة عكا التي تنام هنا لأنهم لم يجدوا لها مكانا آخر، وأنظر إلى تلك الأحصنـــة التي تزين شرفة كاتدرائية القديس مرقص! لو كانت جدتك معنـــا لسـعدت برؤية الشمس تغرب على قصر القضاة، بدل أن تغرب علــى جبـل مــن الجبال». وكان في ماقالته أمي شيء من الحقيقة؛ فبينما كان الغندول يصعـد في طريق العودة نحو القنال الكبير، نظرنا إلى صف القصور التي كنا نمــر بينها وهي تعكس الضوء والساعة على جنباتها الوردية وتتغير معهما، ولـم تكن تشبه المنازل الخاصة والصروح الشهيرة بل كانت تشبه بالأحرى سلسلة من السفوح الرخامية يذهب الناس يتنزهون مساء تحت أقدامـــها ويمـرون بالزوارق في قنال كي يشاهدوا غروب الشمس. وكذلك كانت المنازل القائمة على جانبي القنال تذكر بمناظر طبيعية، ولكنها من طبيعة خلقــت روائعــها بخيال بشري. وفي الوقت ذاته (وبسبب طابع الانفعالات المدينية دائما فـإن البندقية تظهر وكأنها في عرض البحر فوق تلك الأمواج التي نشعر بمدهـا وجزرها مرتين في اليوم والتي بارتفاعها وانخفاضها تغطي أدراج القصـور الرائعة أو تبرزها)، كما كنا نفعل في باريس على الشوارع العريضة وفـي الشانزليزيه وفي غابة بولونيا، إذ في كل شارع رئيسي راق كنا نلتقي فـي ضوء المساء الشفيف بأكثر النساء أناقة، وهن في الغـالب مـن الأجنبيـات اللواتي يستندن بكسل إلى طنافس عبارتهن ويتتابعن ويقفن قرب أحد القصور كي يزرن فيه صديقة من صديقاتهن ويطلبن أن يسأل إن كـانت موجـودة، وفي انتظارهن الجواب كن يخرجن بطاقاتهن احتياطا كما كن يفعلـن فـي قصر الــ«غيرمانت»، وكن يبحثن في دليلهن عـن عصـر ذلـك القصـر وطرازه، وكأنهن فوق قمة الموج الأزرق فيهتززن عندمـا يتحـرك المـاء المتلألئ والملجوم والمذهول من حبسه بين الغونـدول الراقـص والرخـام الرنان. وهكذا فإن النزهات التي قمنا بها للزيارات أو ثنينا فيـها بطاقـات الزيارة كانت فريدة في البندقية وزادت ثلاث مرات، وفيها كانت المجـاملات الاجتماعية في ذات الوقت كناية عن زيارات ساحرة لمتحف من المتاحف أو مشوار بحري.

لقد تحولت قصور كثيرة في منطقة القنال الكبير إلى فنـــادق. ولأن أمي كانت تحب تغيير الأماكن، ولأنها أرادت إظهار ودها للسيدة «ســازيرا» (Sazerat) التي التقينا بها هنا (فالتعرف غير المتوقع وغير المناسب نجده فـــي كل رحلة من رحلاتنا)، فقد دعتها، وأردنا ذات مساء أن نسعى للعشاء فــــي فندق غير فندقنا إذ أدعى بعضهم أن الطبخ هناك أفضل. وبعد أن دفعت أمي النقود لصاحب الغندول ثم دخلت مع السيدة «سازيرا» إلى الصـــالون الــذي حجزته، أردت أنا أن القي نظرة على صالة المطعم الكـــبرى ذات الأعمــدة الرخامية والتي كانت في الماضي مغطاة كلها بجداريات سيئة الترميم. وكان نادلان يتحدثان بالإيطالية فترجمت أقوالهما.

«هل سيأكل العجوزان في غرفتهما؟ إنهما لاينبهاننا أبدا. هذا مرهــق جدا، لا أعرف إن كان يجب علي أن أحجز لهم طاولتهما. ثم سيكون الحـــق عليهما إن نزلا ووجداها مشغولة. لاأستطيع أن أفهم كيف يستقبل فنـــدق راق جدا أجانب كهؤلاء. إنهما مختلفان عن الناس هنا».

وبالرغم من تعبير النادل عن احتقاره، فإنه أراد أن يعـــرف مـــاهو القرار الذي سيتخذه بالنسبة للطاولة، وكاد يطلب من عامل المصعد أن يصعد إلى طابقهما للاستعلام، ولكن الجواب سرعان مأتاه، فقد لمح العجوز وهـــي تدخل. وبالرغم من مسحة الحزن والتعب الناجم عن ثقل السنين، وبالرغم من إصابتها بنوع من القوباء أو الجذام الأحمر الذي غطى وجهها، لم يصعـــب علي أن أتعرف على المركيزة «دي فيلباريسيس» التي كانت تضع قبعة ذات شبكة سوداء مصنوعة عند.. w ، والتي كـــان العـــوام يشـــبهونها بقبعـــات الخادمات العجائز. وتشاء الصدفة أن المكان الذي كنت أقف فيه لأتأمل آثـــار الجدارية التي يحيط بها إطار مرمري، كان خلف الطاولة التي جلست إليـــها للتو مدام «دي فيلباريسي».

فقال النادل: «إذن لن يتأخر السيد دي فيلياريسيس في النزول. فمنـــذ شهر وهما يقيمان هنا، لم يتناول أحدهما طعامه دون الآخر إلا مرة واحدة».

فتساءلت عن ذلك القريب من أقاربها الذي كانت تسافر معه ويطلـــق عليه اسم السيد «دي فيلياريسي»، وإذا بي بعد لحظات أرى شـــخصا يتقـــدم نحو طاولتها ويجلس قربها، وكان عشيقها السابق السيد «دي نوربـــوا» (de Norpois).

وكانت السنون قد أضعفت صوته الجهوري، ولكنها بالمقابل أعطتـــه شراهة في الكلام، بعد أن كان مقلا جدا فيه. وقد يكمن السبب فـــي شـــعوره

بأنه لن يبقى له متسع من الوقت لتحقيق طموحاته فامتلأ جموحا وعنفوانا، وربما لأنه أهمل من السياسة التي كان يتوق إلى الانغماس فيها، فظن، في رغبة ساذجة، أنه بانتقاداته الجارحة سيجبر الذين كان يريد أن يحل محلهم إلى تقديم استقالاتهم. وهكذا نرى عددا من السياسيين المخضرمين أن الحكومة التي لايشتركون فيها ستعمر ثلاثة أيام فقط. ولكن من المبالغ فيه أن نصدق بأن السيد «دي نوربوا» قد فقد تماما تقاليد اللغة الدبلوماسية. فما إن يتعلق الأمر بـ«القضايا الكبرى» حتى يجد نفسه، كما سنرى، أي يصبح ذلك الرجل الذي عرفناه، ولكنه في باقي الوقت كان ينهال على هذا أو ذاك بذلك العنف الذي يمارسه بعض المعمرين الذين تجاوزوا الثمانين فيصبونه على نساء لم يعودوا يقدرون إيذاءهن بشدة.

ولمدة دقائق، حافظت السيدة «دي فيلياريسيس» على صمت المرأة العجوز التي أكدها تعب الشيخوخة من نقل ذاكرتها من الماضي إلى الحاضر. ثم انتقلت إلى الأشياء العملية الموسومة بحب متبادل مستديم:

ـ هل مررت إلى بيت «سالفياتي» (Salviati)؟

ـ نعم

ـ هل سيرسلون غدا؟

ـ لقد أتيت معي بالكوب. سأريك إياه بعد العشاء. لنر الآن لائحة الطعام.

ـ هل أعطيتهم أوامر في البورصة ليتابعوا أسهمي في شركة السويس؟

ـ كلا، لأن البورصة تهتم الآن بسندات البترول. ولكن السرعة ليست ضرورية، لأن مؤشرات السوق ممتازة. هذه هي لائحة الطعام. من المقبلات عندنا سمك السلطان إبراهيم. هل تريدين أن نطلبه.

ـ أنا نعم، أما أنت فهذا ممنوع عليك. أطلب بدله صحن أرز ولحم. ولكنهم لايعرفون تحضيره.

ـ لايهم. يانادل، إئتنا بسلطان إبراهيم للسيدة ولي صحن أرز ولحم.

ثم من جديد خيم صمت طويل.

«أتيتك بالجرائد، عندك «جريدة المساء» و«جريدة الشعب» الخ. هل تعرفين أن هناك حركة دبلوماسية الآن وسيكون أول كبش فداء فيها السفير

باليولوغ المعروف بأدائه الخفيف في صربيا؟ قد يحل لوزيه (Lozé) محله، وهناك منصب شاغر في القسطنطينية. ولكن السيد دي نوربوا أردف محتداً أن سفارة بمثل هذه الأهمية -في جميع الأحوال إن لبريطانيا العظمى دائما الدور الأول في المداولات- من الحكمة بمكان أن يشغلها رجال مخضرمون ومطلعون جداً كي يتصدوا لمكائد الأعداء الذين يتربصون بحليفنا البريطاني، فهم أفضل من دبلوماسيي المدرسة الجديدة الذين يقعون في الفخ صلغرين». وبطلاقة محتدّة قال السيد «دي نوربوا» هذه الكلمات، وسببُ احتداده أنه ذهب إلى الجرائد وأوصاها بذكر اسمه، ولكنها ذكرت أن صاحب الحظ سيكون وزيراً مفوضاً شاباً. فأضاف: «يعلم الله أن كبار السن مستبعدون بسبب المناورات الملتوية، فيستبدلون بمعيّنين عاجزين. وعرفت عدداً كبيرا من هؤلاء الدبلوماسيين الأدعياء الذين يمارسون الطريقة التجريبية ويضعون كل آمالهم في بالون اختبار لا أتوانى عن تنفيسه. لاشك أن الحكومة إذا تهورت وسلمت زمام السلطة في الدولة لأيدٍ مضطربة، فإن المجندين عندما يدعوهم الواجب يجيبون دائماً: حاضر. ولكن من يعلم (وكان السيد دي نوربوا يعلم تمام العلم عمّن يتكلم)، ربما تتغير الأحوال ويأتون ذات يوم برجل مخضرم جهبذ ومحنك. أرى أن كل إنسان له وجهة نظر، ولكن منصب القسطنطينية يجب ألا يحسم قبل تسوية مشاكلنا المعلقة مع ألمانيا. لاندين لأحد بشيء، ولكن لايجوز أن يأتوا كل ستة أشهر، وبمناورات تدليسية وتعسفية، ليطالبونا ببراءة ذمة ترفع رايتها صحافة مرتزقة. يجب أن نضع حداً لهذا. وبالطبع فإن الرجل المفضال والمختبر، الرجل الذي يعتبر -إن صح القول- أذن الإمبراطور يجب أن يحظى بمزيد من السلطة أكثر من أي شخص آخر، ليضع حداً للنزاع».

عندما أنهى السيد «دي نوربوا» عشاءه، سلّم عليه أحدهم، فقال المركيز:

— آه ! هذا هو الأمير فوجي.

— لاأعرف بالضبط من تعني، قالت السيدة «دي فيلباريسي».

— أجل تعرفين. إنه الأمير «أودون»، وهو صهر ابنة عمك «دوديفيل». أتتذكرين أنني اصطدت معه في «بونيتابل» (Bonnétable)؟.

— آه، أودون الذي كان يعمل في الرسم؟

— قطعاً لا، هو الذي تزوّج بنت الدوق الكبير نـ....

كان السيد «دي نوربوا» يقول كل هذا بنبرة كريهة تشبه نبرة الأستاذ المستاء من تلميذه، وكان بعينيه الزرقاوين يحملق في السيدة «دي فيلباريسي».

وعندما انتهى الأمير من قهوته وغادر المائدة، نهض السيد «دي نوربوا» وحث خطواته نحوه وبإشارة جليلة تباعد وتقلص وقدمه للسيدة «دي فيلباريسي». وأثناء الدقائق القليلة التي بقي فيها الأمير واقفا معهما، لم يكف السيد «دي نوربوا» لحظة عن مراقبة السيدة «دي فيلباريسيس» بحدقتيه الزرقاوين، إما لأن العاشق القديم كان متساهلا وإما لأنه صارم، وكان يخشى بخاصة أن تستسلم إلى شطط كلامها الذي أحبه وصار الآن يخشاه. وما إن قالت للأمير شيئا غير دقيق حتى صحح هو وحملق في عيني المركيزة المضنكة والراضخة دون أن يغض طرفه عنها، كما يفعل المنومون المغناطيسيون.

وأتى النادل ليقول لي إن أمي تنتظرني، فتبعته واعتذرت من السيدة «سازيرا» وقلت لها إنني تسليت برؤية السيدة «دي فيلباريسي». ولدى تلفظي هذا الاسم امتقع لون السيدة «سازيرا» وكادت أن يغمى عليها. وحاولت ضبط أعصابها فقالت لي:

ـ السيدة «دي فيلباريسي»، الآنسة «دي بويون»؟

ـ نعم.

ـ ألا أستطيع أن أراها ولو لثانية؟ هذا حلم حياتي.

ـ لاتضيعي أية دقيقة، ياسيدتي، لأنها أوشكت أن تنتهي من عشائها، ولكن كيف يمكن أن تهتمي بها؟

ـ كان اسم السيدة «دي فيلباريسي» من زواجها الأول: دوقة «دافريه» (d'Havré)، وكانت جميلة كالملاك وخبيثة كالشيطان، فجننت أبي وجعلته يفلس ثم تركته فورا بعدها. نعم لقد حاولت كل جهدها أن تتصرف معه كأخس البنات، فكانت السبب في أنني أنا وأفراد عائلتي عشنا بالضنك في «كومبري». والآن بعد أن مات أبي، عزائي هو أنه تزوج أجمل امرأة في عصره؛ ولأنني لم أرها قط، من اللائق - بالرغم من كل شيء- أن....

فقدت السيدة «سازيرا» التي كانت ترتجف من التأثر، إلى المطعم وأريتها السيدة «دي فيلباريسي».

وكالعميان الذين يحطون أبصارهم على الأماكن غير المقصودة، فإن السيدة «سازيرا» لم تحط ناظريها على مائدة السيدة «دي فيلباريسيس» بل على نقطة أخرى من الصالة:

ـ يجب أن تكون قد ذهبت، لاأراها حيث أشرت لي.

وكانت تبحث دائما ناقلة بصرها الممقوت والمعبود الذي سكن مخيلتها منذ أمد طويل.

ـ إنها هنا، وراء المائدة الثانية.

ـ إننا لا نعد من النقطة ذاتها. حسب عدي، وراء الطاولة الثانية، قرب رجل عجوز، امرأة قصيرة محنية الظهر محمرة الوجه ودميمة.

ـ هي بالذات!

ولكن السيدة «دي باريسي» طلبت من السيد «دي نوربوا» أن يجلس الأمير «فوجي». ودار حديث لطيف بينهم ثلاثتهم، فتكلموا عن السياسة؛ فصرح الأمير أنه غير مهتم بمصير الحكومة وأنه سيبقى أسبوعا آخر بكامله في البندقية. وكان يأمل في غضون ذلك أن يتم تلافي كل تلك الأزمة الوزارية. وظن الأمير «فوجي» للوهلة الأولى أن تلك القضايا السياسية لاتهم السيد «دي نوربوا»، لأنه بعد أن تكلم باحتدام شديد، لزم صمتا كأنه صمت الملائكة الذي لن ينتعش بعد عودة الصوت إلا إذا انطلقت ترنيمة بريئة وشجية من تلحين «ميندلسون» (Mendelssohn) وسيزار فرانك (César Franck) وظن الأمير أن هذا الصمت ناجم عن تحفظ رجل فرنسي أمام رجل إيطالي ولايريد الخوض في أمور إيطاليا. وفي الواقع كان خطأ الأمير خطأ فادحا. ذلك أن الصمت والتظاهر باللامبالاة لم يكونا عند السيد «دي نوربوا» علامة على التحفظ بل المقدمة المعتادة للخوض في مسائل مهمة. وكما رأينا، كان المركيز لايطمح في منصب سوى منصب القسطنطينية، بعد تسوية مسبقة للقضايا الألمانية، ولأجل ذلك كان يريد أن يضغط على حكومة روما. وكان المركيز يعتبر من جهته أن أي عمل ذي بعد دولي قد يكون تتويجا لائقا لوظيفته، وربما أيضا بداية لمكرمات جديدة ومهمات صعبة لم يتخل عنها. ذلك أن الشيخوخة تجعلنا أولا عاجزين عن الإقدام، ولكن قادرين على الرغبة. وفي مرحلة ثالثة من مراحل الشيخوخة يتخلى الطاعنون في السن عن الرغبات، بعد تخليهم عن الأفعال، فيكفون عن الانتخابات السخيفة بعد

أن حاولوا كثيرا الفوز فيها، ولاسيما انتخابات رئاسة الجمهورية. فيكتفون بالتنزه والأكل وقراءة الجرائد، ويعيشون من قلة الموت.

ولكي يخلق الأمير جوا مناسبا للمركيز وليشعره بأنه يعتبره كمواطن له، راح يتكلم عن الأخلاف الممكنين لرئيس مجلس الوزراء الحالي، وقال إن رجلا سياسيا من المستوزرين، وهي أسماء سمعها السفير السابق وعيناه الزرقاوان نصف مغلقتين دون أن يحرك ساكنا، قطع السيد «دي نوربوا» صمته أخيرا وتلفظ بهذه الكلمات التي ستبقى خلال عشرين سنة مادة للحديث في السفارات، ومن ثم بعد أن طواها النسيان ستنبشها شخصية نشرتها في إحدى الجرائد ووقعت عليها لقب «مطلع» أو «شاهد» أو «ماكيافيل» وفعلت فعلها بعد كل هذا النسيان. إذن ذكر الأمير «فوجي» أمام الدبلوماسي الذي بقي جامدا وصامتا كأخرس، فرفع السيد «دي نوربوا» رأسه قليلا، وبالأسلوب الدبلوماسي الذي كتبت فيه مداخلاته الأكثر وقعا، ولكن هذه المرة بجرأة متزايدة واقتضاب أقل، تساءل بلباقة: «ألم يذكر أحد اسم السيد «جيوليتي» (Giolitti)؟» وعندها انقشعت الغشاوة من عيني الأمير «فوجي» كأنه سمع همسة سماوية. ثم راح السيد «دي نوربوا» يتكلم عن أمور متعددة ولم يخش أن يحدث ضجة، كما يفعل الناس بعد استماعهم لحنا رائعا لسيبستيان باخ ينتهي بنغمة عالية، فلا يخشون بعدها التكلم بصوت عال والذهاب إلى الأمانات لاسترداد معاطفهم. وشدد على التأزيم عندما طلب من الأمير تبليغ احتراماته لصاحبي الجلالة الملك والملكة عندما تتاح له الفرصة أن يراهما؛ وعبارة النهاية هذه تعادل مايقال في نهاية حفلة أوركسترا بصوت جهير: «نادوا الحوذي أوغست في شارع بيلوا (Belloy)». إننا نجهل تماما انطباعات الأمير فوجي. لقد تهلل بالتأكيد لدى سماعه هذه الرائعة: «ألم يذكر أحد اسم السيد جيوليتي؟» ذلك أن السيد «دي نوربوا» الذي أخمدت السنون لديه أو بعثرت أجمل خصاله، قد أتقن وهو يشيخ «نغمات المروءة»، شأنه شأن بعض الموسيقيين المسنين الذين تراجعوا في كل شيء ولكنهم في موسيقى الحجرة، وحتى آخر يوم، توصلوا إلى تحليق كامل لم يبلغوه من قبل.

وما حدث للأمير «فوجي» هو أنه، بعد أن قرر قضاء خمسة عشر يوما في البندقية، عاد إلى روما في اليوم نفسه وقابل الملك بعد ذلك ببضعة أيام بشأن بعض ممتلكاته في جزيرة صقلية، كما نوهنا بذلك سابقا. واستمرت الوزارة مراوحة في مكانها، أكثر من المتوقع. وبعد سقوطها، استشار الملك عدة رجال دولة عمن يليق به أن يرأسها. ثم استدعى السيد جيوليتي فقبل.

وبعد ذلك بثلاثة أشهر، روت إحدى الصحف وقائع المقابلة التي دارت بين الأمير «فوجي» والسيد «دي نوربوا»، ونقلت الحديث كما فعلنا نحن، ولكن بفارق بسيط. فبدل عبارة: «تساءل السيد نوربوا بلباقة» قالت: «ذكر بابتسامته اللطيفة والساحرة التي عهدناها». ورأى السيد «دي نوربوا» أن كلمة «بلباقة» كانت تحمل قوة تفجير كافية لدى الدبلوماسي، وأن تلك الإضافة كانت على أقل تقدير في غير مكانها. فطلب من وزارة الخارجية الفرنسية أن تقدم تكذيبا رسميا، ولكن مشاغلها كانت زائدة. ومنذ أن كشفت الجريدة النقاب عن المقابلة، راح السيد «بارير» يرسل إلى باريس عدة برقيات في الساعة ليعرب عن تذمره من أن سفيرا غير رسمي موجود في قصر «الكيرينال» لينقل استياء أوروبا كلها من ذلك. ولم يتجسد هذا الاستياء، ولكن السفراء المختلفين كانوا مفرطين في الأدب كي يكذبوا السيد «بارير» الذي أكد لهم أن جميع الناس مغتاظون. ولأن السيد «بارير» كان لايصغي إلا لرأيه، فقد اعتبر أن هذا الصمت المجامل موافقة. وأرسل فورا برقية لباريس تقول: «تكلمت لمدة ساعة كاملة مع المركيز فيسكونتي فينوستا (Visconti- Venosta)، الخ..» أما معاونوه فقد كانوا على أحر من الجمر.

بيد أن السيد «نوربوا» كان على علاقة طيبة بجريدة فرنسية قديمة جدا، خدمته حتى في عام ١٨٧٠ عندما كان سفيرا لفرنسا في بلد ألماني. وكان أسلوب هذه الجريدة متقنا ورائعا (لاسيما في مقالتها الأولى التي لم تكن تحمل توقيعا). ولكن هذه المقالة الأولى صارت تثير الاهتمام أكثر بكثير (وأطلق عليها في الماضي اسم «باريس الأولى» وتسمى اليوم افتتاحية، لاأعرف السبب في ذلك) عندما يسوء أسلوبها وتتكرر مفرداتها إلى مالا نهاية. عندئذ كان كل قارىء يشعر منفعلا بأن المقالة «مستلهمة»، وربما من السيد «دي نوربوا» وربما بمعلم كبير آخر من معلمي الساعة. ولكي نعطي فكرة مسبقة عن أحداث إيطاليا سنظهر كيف أن السيد «دي نوربوا» استخدم هذه الجريدة عام ١٨٧٠؛ قد يقول البعض عبثا، لأن الحرب وقعت مع ذلك. أما هو فكان يقول إن استخدامي لها كان فعالا، لأن مبدأه كان يركز قبل كل شيء على تحضير الرأي العام. وكانت مقالاته التي وزنت فيها كل كلمة، تشبه تلك النغمات المتفائلة التي تعقب مباشرة موت المريض. فعشية إعلان الحرب في عام ١٨٧٠، مثلا، وعندما أوشكت التعبئة العامة على الانتهاء، فكر السيد «نوربوا» (الذي بقي في الظل طبعا) أنه من الضروري إرسال الافتتاحية التالية لتلك الجريدة المشهورة:

«يبدو أن الرأي العام يرجّح في الأوساط المأذونة أن الوضع، منذ أصيل أمس، دون الاتسام بالتذعير طبعاً، قد يُنظر إليه كأنه جدّي لا بل يُعتبر في بعض جوانبه محرجاً. إن المركيز دي نوربوا قد قابل كما يقال وزير بروسيا عدة مرات ليتدارس معه بروح من الحزم والتصالح، وبطريقة ملموسة جداً، شتى أسباب الخلاف، إن جاز التعبير هكذا. عندما بدأنا بطباعة هذا العدد، لم نكن قد استلمنا الخبر، لسوء الحظ، وهو أن معاليهما قد تمكنا من الاتفاق على صيغة يمكن أن تكون أساساً لوسيلة دبلوماسية».

آخر ساعة: «لقد علمنا بارتياح في الأوساط الشديدة الإطلاع، أن انفراجاً خفيفاً قد طرأ، في مايبدو، على العلاقات الفرنسية البروسية. ونعلق أهمية خاصة على اللقاء الذي تم بين السيد دي نوربوا «تحت ظلال الزيزفون» وبين الوزير الانكليزي، والذي دام حوالي عشرين دقيقة. واعتبر هذا النبأ مُرضيا (وبعد كلمة Satisfaisante وضعت كلمة Befriedigend بين قوسين). وفي اليوم التالي قرأنا في الافتتاحية مايلي: «بالرغم من مرونة السيد دي نوربوا الفائقة، والجميع يقدّرون فيه تلك الحيوية المحنكة التي بها دافع عن الحقوق الفرنسية غير القابلة للتقادم، فإن القطيعة -إن صح القول- لايمكن تقريباً تلافيها».

ولم تستطع الجريدة إلا نشر بعض التعليقات على الافتتاحية، والسيد نوربوا هو الذي أرسلها إليها. وربما لاحظنا في الصفحات السابقة أن الزمن الفعلي الاحتمالي كان الصيغة النحوية المفضلة لدى السفير في الأدب الدبلوماسي. (فقال: «قد نعلق أهمية خاصة» بدل أن يقول: «يبدو أننا نعلق أهمية خاصة»). ذلك أن صيغة الفعل بالحاضر، لابمعناها المعتاد، وإنما بمعنى التمني، لم يكن السيد «دي نوربوا» يكرهها. أما التعليقات التي أعقبت الافتتاحية فكانت كالتالي:

«لم يبرهن الجمهور قط عن مثل هذا الهدوء الرائع. [لقد كان بودّ السيد دي نوربوا أن يكون ذلك صحيحاً، ولكنه كان يخشى العكس] فقد تعب من الهيجان العقيم وعلم بارتياح أن حكومة جلالته ستضطلع بمسؤولياتها حسب الاحتمالات التي يمكن أن تحدث. ولايطلب الجمهور أكثر من ذلك [صيغة التمني]. والى جانب هدوء أعصابه الجميل، والذي هو مؤشر نجاح، نضيف نبأ طيباً لطمأنة الرأي العام، إن احتاج إلى ذلك. يؤكد بعضهم أن السيد دي نوربوا الذي كان من المتوقع له أن يعود إلى باريس لأسباب صحية كي يستجم قليلاً، قد غادر على الأرجح برلين حيث لم يعد يجد لحضوره فائدة ترجى».

آخر ساعة: «في هذا الصباح غادر جلالة الإمبراطور قصر كومبيين (Compiègne)» متوجهاً إلى باريس كي يتداول مع المركيز دي نوربوا ومع وزير الحربية والماريشال بازين (Bazaine)، لأن الرأي العام يثق به ثقة خاصة. وقد ألغى جلالة الإمبراطور العشاء الذي كان ينوي إقامته لدوقة ألب (Albe) أخت الإمبراطورة. وما إن عُرف هذا الإجراء حتى أحدث في كل مكان انطباعاً إيجابياً جداً. واستعرض الإمبراطور قوات الجيش التي كان حماسها لايوصف. وبناء على أوامر التعبئة التي صدرت منذ وصول جلالتهما إلى باريس، فإن بعض الفيالق أصبحت، حسب كل الاحتمالات، جاهزة للتوجه إلى بلاد الراين».

حين كنت أعود أحياناً إلى الفندق في الغسق، كنت أشعر بألبيرتين الماضية، غير مرئية بالنسبة لي، ومع ذلك فقد كانت في أعماق نفسي كما في قيعان مدينة البندقية الداخلية، حيث يتسبب أحياناً حادث ما بإزاحة الغطاء المتصلب فيسمح لي بالانفتاح على هذا الماضي.

فمثلاً ذات مساء، وصلتني رسالة من سمساري في البورصة، ففتحت لبرهة أبواب السجن الذي كانت تعيش فيه البيرتين في داخلي، ولكنها كانت بعيدة جداً وقاصية، بحيث لم أستطع الوصول إليها. منذ وفاتها لم أعد أهتم بالمضاربات التي كنت أقوم بها لكي أحصل على المزيد من المال لأجلها. لكن الوقت قد مرّ، والكثير من القناعات الماضية قد كذبتها القناعة الحالية، كما حصل في الماضي مع السيد "تيير" (Thiers) الذي كان يقول إن السكك الحديدية لا يمكن أن تنجح أبداً، وكما حصل أيضاً للسندات التي قال عنها السيد "دى نوربوا" : "إن عائداتها ليست مرتفعة على الأرجح، ولكن رأس مالها على الأقل لن يفقد من قيمته أبداً"، وكانت تلك العائدات هي التي انخفضت في أغلب الأحيان. لقد اضطررت إلى دفع فروقات كبيرة لمضاربي البورصة، فقط من أجل الديون الإنكليزية المجمدة ومصافي تكرير "ساي" (Say) ، بالإضافة إلى الفوائد وتأجيل الاستحقاقات، لدرجة أنني في لحظة نزوية قررت أن أبيع كل شيء ووجدت نفسي أملك بالكاد خمس القيمة التي ورثتها عن جدّتي والتي كانت لا تزال ملكاً لي عندما كانت البيرتين حيّة. لقد أذيع الخبر في "كومبري" في أوساط ما تبقى من عائلتي ومن معارفي، وبما أنهم كانوا يعرفون أنني أخالط المركيز "دى سان لو" وعائلة "غيرمانت" فقد قالوا : "انظروا إلى أين تقود أفكار العظمة". لكانوا سوف يندهشون كثيراً لو علموا أنه من أجل فتاة من طبقة متوسطة مثل البيرتين كانت تحت حماية "فانتوي" مدرس جدتي القديم للبيانو، أنه من أجل تلك

الفتاة، قد قمتِ بهذه المضاربات. زد على ذلك، فإنه في حياة "كومبري" هـذه حيث يصنـف كل شخص بحسب عائداته المعروفة، كما في القبائل الهندية، لم يكن أحد يتصور مقدار الحرية الكبيرة التي تسود في أوساط "الغيرمـلنت"، حيث لا يعلـق أحد أية أهمية على الثروة، وحيث يمكن أن يعتبر الفقر كأمر مزعج، ولكنه لا يُفقد الإنسان قيمته، ولا ينتقص من مكانته الاجتماعية بأكثر مما يفعله مرض في المعدة. وبالمقابل فقد كانوا يعتقدون في "كومبري" بـلا شك، أن "سان لو" والسيد "دى غيرمانت" كانا من النبـلاء الذيـن خسـروا أموالهم، ورهنوا قصورهم وأنني كنت أقرضهم المال، في حين أنني لو فقدت أموالي لكانوا أول من يعرضون عليّ المساعدة ولكن دون جدوى. أما في ما يتعلق بانهيار حالتي الاقتصادية النسبي، فقد كنت منزعجـا خصوصـا لأن اهتماماتي في مدينة البندقية انصبت منذ فترة قصيرة على بائعةِ زجاج شابة، كان لون بشرتها الوردية يقدّم للعيون المبهورة سلماً مـن تدرجـات اللـون البرتقالي والتي كانت تعطيني الرغبة في رؤيتها كل يوم، لدرجةٍ أنني عندمـا شعرت بأننا سنغادر، أمي وأنا، مدينةِ البندقية عمّا قريب، قرّرت أن أهـيء لها في باريس مكانة ما، تسمح لي بألاّ أنفصل عنها. لقد كـان جمالـها ذو السبعة عشر ربيعاً على درجة من النبل والإشراق كلوحة أصليـة للرسـام "تيسيانِ" (Titien) يجب الحصول عليها قبل الرحيل. ولكن هل كـان القليـل الذي تبقي لي من ثروتي يسمح لي بأن أحاول دفعها لترك بلدها والمجـيء معي لتعيش لي وحدي في باريس؟

ولكني حين كنت أنهي رسالة المضارب، قرأتِ العبارة التي يقـول فيها : "سوف أهتم بتأجيل الوفاء بالنسبة لك"، لقد ذكرتني تلك العبارة المهنية والنفاقية، بجملة استخدمتها المستحمّة في "بالبيك" عندما كانت تتحـدّث مـع "ايميه" عن "البيرتين" إذ قالت : "أنا التي أهتم بها". وتلك الكلمات التي لم ترد إلى ذهني أبداً، لعبت دور "افتح يا سمسم" على مفصّـلات بـاب الزنزانـة. ولكنها بعد هنيهات انغلقت على تلك المسجونة داخل الجدران ـ والتـي لـم أكن مذنباً لعدم رغبتي في الوصول إليها، بما أنه لم يعد باستطاعتي رؤيتـها ولا تذكرها، ولأن الكائنات لا توجد بالنسبةِ لنا إلا عن طريق الفكـرة التـي نكوّنها عنها ـ، المسجونة التي غدت مؤثرة بسبب الهجران، والتي مع ذلـك لم تكن تعرف أنني تحسّرت لبرهة قصيرة، على ذلك الزمن البعيد الذي كنت فيه أتألم ليل نهار من مصاحبة ذكراها لي. ومرّة أخرى في "سان جورجيـو دى شيافوني" (San Giorgio dei Schiavoni) ، أيقظ صقر مرسوم بالقرب من أحـد الرسل، ومزخرف بالطريقة نفسها، أيقظ في داخلي الذكرى، بل الألم الـذي

سببه الخاتمان اللذان نبّهتني "فرانسواز" إلى تشابههما واللذان لم أكن أعلم من أعطاهما لألبيرتين.

ومع ذلك، ذات مساء، عشت ظروفاً بدا لي فيها أن حبّي كان يمكن أن يولد من جديد. في اللحظة التي توقف فيها غندولنا قبالة درج الفندق، والتي أعطاني فيها البّواب برقيّة، كان موظف التلغراف قد أتى بها ثلاث مرّات ليسلّمني إياها، بسبب غموض اسم المرسَل إليه (الذي فهمت من خلال تشويه الموظفين الإيطاليين له، أنه اسمي) و طلبوا وصل استلام يثبت بأن البرقية موجّهة لي. فتحتها ما إن دخلت إلى غرفتي، وألقيت نظرة سريعة على فحواها المليء بالكلمات السيئة النقل، فقرأت : "يا صديقي، كنت تعتقدني ميّتة، سامحني، إنني حيّة، وأريد أن أراك كي نتحدّث بأمر الزواج، فمتى تعود؟ بكل حنان. البيرتين." عندها حصل الشيء نفسه، ولكن بشكل معكوس، بالنسبة لجدّتي : عندما علمت أن جدّتي قد توفيت لم أشعر في البداية بأي حزن. ولم أتألم فعلياً لموتها إلا عندما جعلتها ذكرياتي اللاإرادية حيّة بالنسبي إليّ. والآن عندما لم تعد البيرتين حيّة في ذاكرتي، لم يُسبّب لي، خبر كونها حيّة، الفرح الذي كنت أعتقده. لم تكن البيرتين بالنسبة لي إلا شبكة من الأفكار، وكان بوسعها أن تستمر في الحياة بعد موتها المادي طالما بقيت هذه الأفكار حيّة في داخلي؛ وبالمقابل، بعد أن ماتت هذه الأفكار في داخلي، فإن البيرتين لم تبْعَث أبداً بجسدها بالنسبة إليّ. وعندما لاحظت أن بقاءها على قيد الحياة لم يفرحني، وأنني لم أعد أحبّها، كان يجب أن أكون أكثر اضطراباً من شخص نظر إلى نفسه في المرآة، بعد عدّة أشهر من السفر أو من المرض، ليكتشف أن شعره قد ابيضّ وأن له وجه رجل ناضج أو كهل. هذا يبعث على الاضطراب، إذ يعني أن : الرجل الذي كنتهُ، الشاب الأشقر لم يعد موجوداً، وأنني رجل آخر. أوليس تغييراً عميقاً، ذلك الموت الكامل للأنا الذي كنته، وذلك التبديل الكامل مع الأنا الجديد، بعمق رؤيتنا لوجه مجعّد يعلوه الشعر المستعار الأبيض الذي حل محل الشعر القديم؟ لكننا لا نتألم أكثر لأننا أصبحنا أشخاصاً آخرين ولأن السنين مرّت بحسب تعاقب الأزمنة، بل نتألم أكثر عندما نرى أننا أشخاص متناقضون في كل مرّة، إذ أننا نغدو وخلال الفترة نفسها : الشرير والحسّاس والرقيق والفظ واللامبالي والطموح. والسبب الذي لا يجعلنا نتألم هو نفسه، أي أن الأنا التي انخسفت ــ مؤقتاً في الحالة الأخيرة وعندما يتعلق الأمر بالطباع، ونهائياً عندما يتعلق الأمر بالأهواء ــ لم تعد موجودة لترثي لفقدان الأنا الأخرى، الأخرى التي

صارت في هذه اللحظة أنتم جِميعاً، فالفظّ يسخر من فظاظته لأننا أفظاظ، والناسي يحزن لفقدانه الذاكرة تماماً لأننا نسينا.

كنتُ عاجِزاً عن بعث البيرتين لأنني عاجز عن بعث نفسي، عن بعث الأنا التي كنتها. الحياة، التي كعادتها وعبر الأعمال الصغيرة التي لا تنتهي والتي تهدف إلى تغيير العالم، لم تقل لي غداة موت البيرتين : "كن شخصا آخر"، بل عن طريق التغيّرات غير الملحوظة، لكي تجعلني أنتبه بسبب طبيعة هذا التغيير، إلى أن كل شيء في داخلي قد تجدّد. بحيث أن فكري الذي اعتاد سيّده الجديد ــ أناي الجديدة ــ عندما اكتشف أنه قد تغيّر، فإنه تمسك بهذا الجديد. إن تمسّكي بالبيرتين وغيرتي عليها، يأتيان كما رأينا، وبواسطة تداعي الأفكار، من انتشار نواة بعض المشاعر العذبة أو المؤلمة لذكرى الآنسة "فانتوي" في "مونجوفان" ولقبلات البيرتين العذبة على عنقي في المساء. ولكن وبقدر ما كانت تلك الأحاسيس تضعف، كان حقل الانطباعات الواسع الذي لونته بمسحة مقلقة أو عذبة، قد بدأ يستعيد ألوانه المحايدة. ما إن يستولي النسيان على بعض نقاط الألم أو السعادة المسيطرة، حتى تنهزم مقاومة الحب، فلم أعد أحبُّ البيرتين. كنتُ أحاول أن أتذكّرها. لقد انتابني حدس صحيح قبل ذهاب البيرتين بيومين، وارتعبت لفكرة أن أعيش ثمان وأربعين ساعة بدونها. هذا كان يحصل سابقاً عندما كنتُ أكتب "لجيلبرت" قائلا لها : إذا استمر الوضع سنوات هكذا، فإنني سأتوقف عن حبّها. وحين طلب مني "سوان" أن أعود وألتقي "بجيلبرت" بدا لي الأمر مزعجاً كما لو أنني سألتقي امرأة متوفاة، لقد أدى الموت بالنسبة لألبيرتين ــ أو ما اعتقدته كذلك ــ نفس العمل الذي تسبَّبت به قطيعة "جيلبرت" الطويلة. إن الموت لا يفعل إلا فعل الغياب، فالوحش الذي ارتجف قلبي لدى ظهوره، هو النسيان، والذي كما اعتقدت، آل به الأمر إلى افتراس حبّي. إن خبر كونها على قيد الحياة، لم يؤد فقط إلى عدم إيقاظ حبّي لها، وإلى جعلي أكتشف كم كانت عودتي إلى اللامبالاة متقدمة، بل جعلني أشعر أيضاً في ذات الوقت بتسارع فجائي، حتى أنه حين كنت أستعيد الماضي، كنت أتساءل عن عكسية الخبر، أي هو خبر موتها الذي حين أنهى رحيلها، قد أجّج على العكس حبّي وأخر انحساره. أجل، ونتيجة لمعرفتي أنها على قيد الحياة، وأنني أستطيع الآن أن أجتمع بها، أصبحت فجأة قليلة الأهمية بالنسبة لي، وجعلني أتساءل إذا لم تكن تلميحات "فرانسواز" والقطيعة بحدّ ذاتها، حتى الموت (المتخيّل والذي اعتقدته حقيقياً)، لم تكن هي السبب في إطالة حبّي، إذ كثيراً ما كانت محاولات الآخرين ومحاولات القدر لإبعادنا عن امرأة ما،

تزيد من تعلّقنا بتلك المرأة. والآن يحدث عكس ذلك. فكنت أحاول تذكرها، وربما لأن إشارة مني كانت كافية لتعيدها لي، فإن الذكرى التي كانت ترد إلى ذهني، هي ذكرى فتاة سمينة، ومسترجلة وتبرز من وجهها الذابل، مثل شرنقة دودة القزّ، الصورة الجانبية للسيدة "بونتان". ما قد تمكنت من فعله مع "اندريه" أو غيرها لم يعد يهمني على الإطلاق. ولم أعد أعاني من الألم الذي طالما اعتقدت أن لا شفاء له، وفي الواقع كان بإمكاني التنبؤ بذلك. إن أسفنا على عشيقة، وغيرتنا المستديمة، هما مرضان عضويان مثلهما مثل السل أو سرطان الدم. ولكن يمكننا أن نميّز داخل الأمراض العضوية، الأمراض الناجمة عن عامل فيزيائي بحت والأمراض التي لا تؤثر على جسمنا إلا بواسطة العقل. وخاصة إذا كان الجزء المستخدم من العقل كوسيلة للنقل هو الذاكرة، ــ أي أنه إذا زال السبب أو ابتعد ــ مهما كان الألم شديداً، أو مهما بدا الاضطراب الذي أصاب الجسد عميقاً، فإنه من النادر ألا يكون التشخيص إيجابياً، ذلك لأن العقل يمتلك قدرة على التجدّد، أو بالأحرى، يعجز عن الحفاظ على ما لا تملكه أنسجة الجسم الأخرى. في نفس الوقت الذي يلزم لموت مريض مصاب بالسرطان، فإنه من النادر ألا يشفى أرمل أو والد مكلوم. وهكذا كان حالي. أمن أجل الفتاة التي أتصوّرها الآن منتفخة والتي هرمت بلا شك كما هرمت الفتيات اللواتي أحببتهنّ، هل يجب أن أتخلى من أجلها عن الفتاة المشرقة التي كانت في ذكرى الأمس، وأمل الغد، والتي لا يمكن أن أعطيها أي قرش، كما لا يمكنني إعطاء أي فتاة أخرى، إذا ما تزوجت البيرتين، يجب أن أتخلى عن "البيرتين الجديدة" تلك، "ليست البيرتين التي رآها عالم الموت" "وإنما البيرتين المخلصة، والفخورة، وحتى المتوحّشة قليلا"؟ إنها الآن ما عنته لي البيرتين في السابق : إن حبي لألبيرتين ما هو إلا شكل عابر من أشكال عبادتي لمرحلة الشباب. نعتقد أننا نحب فتاة شابة، ولا نحب فيها، للأسف، إلا هذا الصبح الذي يعكس وجهها، بحمرته المؤقتة. لقد انقضى الليل. وفي الصباح أعدت البرقية لبواب الفندق قائلا له إنها أعطيت لي عن طريق الخطأ وإنها ليست لي. فأجابني بما أنها قد فتحت الآن فإنه سوف يتعرّض لبعض الصعوبات، وأنه من الأفضل أن أحتفظ بها، فأعدتها إلى جيبي وقطعت على نفسي عهداً بأن أتصرف كما لو أنني لم أستلمها قط. لقد توقفت نهائياً عن حبّ البيرتين. إن ذاك الحب، الذي ابتعد تماماً عن الشكل الذي قايسته بحبّي "لجيلبرت"، وبعد أن اضطرني إلى الالتفاف الطويل والمضني، انتهى هو الآخر، بعد أن كان استثناء، وعاد إلى قانون النسيان العام. كما كان حال حبّي "لجيلبرت".

ولكنني أفكرت قائلاً : كنت متمسكاً بألبيرتين أكثر من تمسّكي بنفسي، ولم أعد متمسكاً بها الآن لأنني توقفت عن رؤيتها منذ بعض الوقت. إن رغبتي في ألاّ أنفصل عن ذاتي بسبب الموت، وفي أن أُبعَث بعد الموت، إن هذه الرغبة لم تكن تشبه رغبتي في ألاّ أنفصل عن البيرتين، لقد كانت تلك الرغبة مستمرّة. ولكن هل مرد ذلك هو اعتقادي بأني أهمّ منها، وبأني حين كنت أحبها كنت أحبُ نفسي أكثر من محبتي لها؟ لا، إن ذلك قد حدث لأني حين توقفت عن رؤيتها توقفت في الوقت نفسه عن حبّي لها، وإنني لم أتوقف عن حبي لنفسي لأن علاقتي اليومية مع ذاتي لم تنقطع كما انقطعت علاقتي بألبيرتين. ولكن ماذا لو انقطعت علاقتي بجسدي وبذاتي؟ لا شك أن الأمر ذاته كان سيحدث. إن حبنا للحياة ما هو إلا علاقة قديمة لا نعرف كيف نتخلص منها. ذلك أن قوتها في استمراريتها. ولكن الموت الذي يقطعها يشفينا من الرغبة في الخلود.

بعد الغداء، عندما لم أكن أتسكّع في شوارع البندقية، كنت أحضّر نفسي للخروج مع أمي، ولكي آخذ الدفاتر التي كنت أدون فيها ملاحظات تتعلق بدراسة كنت أقوم بها عن "روسكين" (Ruskin) ، وصعدت إلى غرفتي. أمام الضربة المفاجئة لزوايا الحائط التي كانت تتسبّب في انزياح أضلاعه، كنت أشعر بالقيود التي يفرضها البحر وبشحّ الأرض. وعندما نزلت للقاء أمي التي كانت تنتظرني، في تلك الساعة، حيث، في "كومبري"، كنا نستمتع بالشمس القريبة جداً وننعم بالعتمة التي تحافظ عليها مصاريع النوافذ المغلقة، هنا من أعلى الدرج الرخامي وإلى أسفله، وكما في لوحة من عصر النهضة، لم يكن باستطاعتنا أن نعرف إذا كان هذا الدرج في قصر أو في سجن، وكنا نحسّ بنفس الطراوة والشعور بجمال الخارج بسبب الخيمة التي تتأرجح أمام النوافذ المفتوحة باستمرار والتي يمر عبرها، من خلال تيّار هوائي مستمر، الظل الدافيء والشمس المخضرّة كما على سطح خفاق، مُذكرة بالجوار المتحرك، وإشعاع الأمواج غير المستقرة وانعكاساتها. كنت أذهب في أغلب الأحيان إلى كاتدرائية القديس مرقص، وبرغبة كبيرة، لأنه كان يتوجّب أولاً أن نركب جندولا للذهاب إلى هناك، لم تكن الكنيسة تبدو لي مجرّد بناء، بل نهاية رحلة فوق المياه البحرية والربيعية، التي كانت الكاتدرائية تشكل معها، بالنسبة إليّ، كلاً حيّاً، لا يتجزأ. كنّا تدخل، أنا وأمي، إلى جرن المعمودية (baptistère)، دائسين بأقدامنا فسيفساء الرخام والزجاج التي تبلّط الأرض، وأمامنا القناطر العريضة التي أحنى الزمن قليلاً واجهاتها الواسعة والزهرية اللون، فأعطى الكنيسة، هناك في الموضع الذي حافظ الزمن فيه

على نضارة الألوان، انطباعا يقول إنها بنيت من مادة ناعمة ومطواعة كشمع خلايا النحل العملاقة؛ أما في الأماكن التي تسبب فيها الزمن بتصلب المادة أو التي خرمها الفنانون وطلوها بالذهب، فكانت على العكس تبدو وكأنها غلاف إنجيل البندقية الضخم، الثمين والمصنوع من جلود قرطبة. وعندما كانت أمي ترى أنني سأمكث طويلا أمام الفسيفساء التي تمثل معمودية المسيح، وعندما كانت تشعر بالرطوبة الجليدية التي تهبط فوق جرن المعمودية، كانت ترمي شالا فوق كتفي. عندما كنت في "بالبيك" مع البيرتين، كنت أظن أنها تكشف عن أحد تلك الأوهام المتقلبة، التي تملأ رأس العديد من الناس الذين لا يفكرون بوضوح، وعندما كانت تتحدث معي عن المتعة ـ التي بالنسبة إلي لا ترتكز على شيء ـ كانت تحسها لما ترى معي إحدى اللوحات. حاليا، أنا واثق على الأقل من أن هذه المتعة موجودة، متعة أن ترى، أو أنك قد رأيت شيئا جميلا مع إنسان معين. لقد جاءت ساعة حين تذكرت فيها جرن المعمودية، أمام أمواج نهر الأردن حيث غمر يوحنا المعمدان السيد المسيح بالماء، بينما كان الغندول ينتظرنا بجانب "البيازيتا"، لم أكن غير مبال بأن تكون إلى جانبي، في هذا الظل الرطب الخفيف، امرأة متلفعة بحزنها الورع الجليل وحماس تلك المرأة المسنة التي نراها في البندقية في لوحة "كارباتشيو" (Carpaccio) المسماة "القديسة اورسولا"، وأن تكون هذه المرأة ذات الخدين الحمراوين والعينين الحزينتين، في غطائها الأسود، والتي لا يمكن لأي شيء أن يخرجها من معبد كاتدرائية القديس مرقص الخفيفة الإضاءة، لأنني متأكد من أنني سأجدها لأن مكانها محفوظ وثابت كفسيفساء، أن تكون تلك المرأة هي والدتي.

إن "كارباتشيو" الذي ذكرته لتوي، هو الرسام الذي كنا نزوره غالبا، حينما لم أكن أشتغل في "سان مارك"، هذا الرسام الذي أوشك يوما على تأجيج حبي لألبيرتين مرة ثانية. كنت أرى للمرة الأولى لوحة "البطريرك دى غراندو وهو يطرد الأرواح الشريرة من رجل ممسوس". كنت أتأمل السماء الرائعة القرمزية والبنفسجية اللون التي تبرز منها مداخن عالية ومرصعة، التي يذكرنا شكلها الممشوق واحمرار أزهار التوليب المتألق، بالعديد من لوحات الرسام "ويستلر" (Whistler) التي رسم فيها مدينة البندقية. ثم كانت عيناي تنتقلان من جسر "ريالتو" (Rialto) العتيق المصنوع من الخشب إلى جسر "فيكيو" (Ponte Vecchio) الذي بني في القرن الخامس عشر، إلى قصور الرخام المزخرفة بتيجان العواميد المذهبة، ثم تعودان بعدها إلى القنال والمراكب التي يديرها مراهقون يرتدون سترات زهرية اللون، وقلنسوات

تعلوها قنزعات شبيهة إلى حد كبير بتلك التي يصورها "كارباتشيو" في لوحته الرائعة "اسطورة يوسف" التي رسمها كل من "سيرت" (Sert)، و"شتراوس"(Strauss) و"كيسلر" (Kessler). في النهاية، وقبل أن تترك اللوحة، كانت عيناي تعودان إلى الضفة الحافلة بمشاهد من حياة البندقية في ذلك العصر. كنت أنظر إلى الحلاق وهو يمسح شفرته، والعبد الذي يحمل برميله، وأحاديث المسلمين، والنبلاء سادة البندقية في ملابسهم المصنوعة من البروكار الفضفاض والدمقس مع قبعات من المخمل الكرزي اللون، عندما شعرت فجأة بنهشة صغيرة في قلبي. على ظهر "رفيق الكالزا"، الذي نميزه من تطريزات الذهب واللؤلؤ التي كانوا ينقشون بها على أكمامهم أو ياقاتهم، شعار الجمعية السعيدة التي كانوا ينتمون إليها، لقد تعرفت لتوي على المعطف الذي أخذته البيرتين لكي تأتي معي في سيارة مكشوفة إلى "فرساي" في ذاك المساء الذي لم أكن أشك فيه مطلقا أن خمس عشرة ساعة كادت تفصلني عن موعد رحيلها من بيتي. كانت دائما مستعدة لكل شيء، عندما طلبت إليها الذهاب في هذا المساء الحزين الذي ذكرته في رسالتها الأخيرة "ثنائي الغسق، لأن الليل كان قد حل، ولأننا كنا سنفترق"، لقد رمت فوق كتفيها معطفا من عند "فورتوني" أخذته معها في الغد ولم أعد أراه في ذكرياتي. بيد أن فتى البندقية العبقري "فورتوني" قد أخذ هذا المعطف من لوحة "كارباتشيو" تلك، لقد انتزعه عن كتفي "رفيق الكالزا" لكي يرميه على أكتاف العديد من الباريسيات، اللواتي كن يجهلن بالتأكيد، كما كان هو حالي حتى تلك اللحظة، أن الزي كان موجودا وسط مجموعة من السادة، وفي المستوى الأول للوحة "بطريرك دى غرادو" في قاعة من أكاديمية البندقية. لقد تعرفت على كل شيء، والمعطف المنسي فتح عيني وقلب ذاك الذي كان يستعد للذهاب إلى "فرساي" مع البيرتين، لقد اجتاحني لعدة لحظات شعور مضطرب شتته الحزن والرغبة.

أخيرا كانت هناك أيام لم نكتف فيها، أنا ووالدتي، بزيارة متاحف وكنائس البندقية، وفي إحدى الزيارات كان الطقس جميلا بشكل استثنائي، فذهبنا لرؤية هذه "الرذائل" وهذه "الفضائل" التي أعطاني السيد "سوان" صورا لها والتي على الأرجح لا تزال معلقة في غرفة الدراسة في منزل "كومبري"، ذهبنا حتى "بادوفا" (Padou)، وبعد أن اجتزنا تحت الشمس حديقة "الأرينا" (Arena)، دخلت إلى كنيسة "الجيوتو" (Giotto) التي توحي قبتها الزرقاء الكاملة وخلفية اللوحات الجدارية الزرقاء فيها، بأن النهار الرائع اجتاز العتبة هو أيضا مع الزائر، وأتى ليضع لحظة، سماءه الصافية في الظل والبرودة،

سماءه الصافية التي كانت تكمد لأنها تخلصت من تذهيبات الضوء، كم كانت تلك الوقفات القصيرة التي كانت تقطع أجمل الأيام، عندما لم نكن نرى في السماء أية غيمة، والشمس قد أشاحت لبرهة بنظرها إلى جهة أخرى، وغدت الزرقة الآن أكثر رقة، ثم اكمدت. وعلى السماء المرسومة على الحجر المزرق كانت تطير ملائكة كنت أراها للمرة الأولى، لأن السيد "سوان" لم يعطني إلا صور "الرذائل" و"الفضائل"، ولم يعطيني صور اللوحات الجداريات التي تحكي قصة العذراء والسيد المسيح. وهكذا في طيران الملائكة، كنت أستعيد نفس الشعور الفعلي، والحقيقي تماما، الذي أعطتني إياه إيماءات "المحبة" أو "الحسد". بكثير من الورع السماوي، أو على الأقل بحكمة واجتهاد طفوليين، كان الملائكة يقربون أيديهم الصغيرة، فيبدون في "الارينا"، كأنهم طيور من نوع خاص وجدت فعلا، وظهرت في التاريخ الطبيعي للأزمنة التوراتية والإنجيلية. هذه الكائنات الصغيرة لم تكن تتوانى عن الطيران أمام القديسين أثناء نزهاتهم، وكان دائما هناك بعض الملائكة فوقها، وبما أن الملائكة هي كائنات حقيقية وتطير بالفعل،فقد كنا نراها ترتفع وترسم المنحنيات، وتنفذ بسهولة كبيرة حركات بهلوانية، متوجهة نحو الأرض، فتوجه رؤوسها نحو الأسفل وبمساعدة كبيرة من الأجنحة التي تسمح لها بالبقاء في وضعيات تتعارض مع قانون الجاذبية، كانت هذه الملائكة تذكرنا أكثر بنوع منقرض من الطيور أو بتلامذة "غاروس" (Garros) الصغار الذين يتدربون على التحليق، أكثر مما تذكرنا بملائكة عصر النهضة أو العصور اللاحقة، التي لم تكن أجنحتها إلا رموزا وكانت وقفتها هي بالعادة نفس وقفة الشخوص السماويين بين العديمي الأجنحة.

لدى عودتي إلى الفندق وجدت شابات أتين من النمسا بشكل خاص إلى مدينة البندقية لقضاء أيام الربيع الأولى التي لا زهر فيها. وكانت إحداهن لا تشبه البيرتين في ملامحها ولكنها أعجبتني لأن لها نفس نضارة وجهها ونظرتها الباسمة والخفيفة نفسها. وشعرت للتو بأنني كنت أخفي عنها نفس الألم الذي كنت أحسه عندما كانت تقول لي إنها لن تراني في الغد لأنها ستذهب إلى "فيرونا" (Vérone) فاعترتني الرغبة في الذهاب إلى "فيرونا" أنا أيضا. لكن ذلك لم يستمر، إذ عليها العودة إلى النمسا وقد لا أراها أبدا. ومع هذا الشعور الغامض بالغيرة الذي ينتابنا عندما نبدأ بالعشق كنت، وأنا أنظر إلى وجهها الساحر والمحير، أتساءل إذا ما كانت هي الأخرى تعشق النساء، وإذا ما كانت هذه الأشياء مشتركة بينها وبين البيرتين: نضارة وجهها ونظراتها ومظهرها الصريح الذي يغري الجميع والذي يأتي من أنها لا

تسعى لمعرفة ما يفعله الآخرون، لأن ذلك لا يهمها أبدا. ما يهمها هو أن تخفي أفعالها هي تحت غطاء من الكذب الطفولي؛ فتساءلت إذا ما كانت كل هذه الخصائص تشكل الصفات التكوينية الخاصة بالمرأة التي تحب النساء. أكان هذا الشيء الذي فيها والذي لم أدركه بشكل عقلاني هو الذي جذبني إليها وأثار قلقي (ربما كان سبب انجذابي الشديد هو ميلي لما هو مؤلم)، فجعلني حين أراها أشعر بالكثير من المتعة ومن الحزن، كتلك العناصر المغناطيسية الموجودة في الهواء والتي لا نراها وتسبب لنا في بعض المناطق الكثير من الوعكات الصحية؟ للأسف، لن أعرف الجواب أبدا. ووددت وأنا أقرأ وجهها أن أقول لها : "يجب عليك أن تخبريني به، هذا الأمر يعنيني لأنني مهتم بمعرفة قانون التاريخ الطبيعي للإنسان" ولكنها لم تجبني؛ كانت تصرح بكرهها الخاص لكل ما يشبه الرذيلة، وكانت تعامل صديقاتها ببرود. ربما هذا هو الدليل على أنها كانت تخفي شيئا ما، ربما لأنها تعرضت للسخرية أو للنبذ بسبب ذلك، وأن هذا المظهر الذي كانت تتخذه لتحاشي التفكير بهذه الطريقة، كان يشبه هذا الابتعاد الموحي للحيوانات، عن الأشخاص الذين ضربوها وأساءوا معاملتها. أما بخصوص الاطلاع على حياتها، فكان مستحيلا. آه كم من الوقت مر حتى عرفت بعض الأشياء عن البيرتين! لقد اقتضى الأمر أن تموت لكي تنفك عقدة الألسن. كم كانت البيرتين تتصرف تماما كهذه الشابة باحتراز يقظ! وحتى عن ألبيرتين، هل أنا متيقن من معرفتي شيئا؟ وبما أن شروط الحياة التي طالما حلمنا بها لا تعنينا، إذا ما توقفنا عن حب الإنسان الذي على الرغم منا كان يجعلنا نتمناها لأنها تسمح لنا بالعيش بالقرب منه وبإرضائه قدر المستطاع، كذلك الحال بالنسبة لبعض الاهتمامات الأدبية. إن الأهمية العلمية التي كنت أوليها لمعرفة جنس الرغبة الكامنة تحت تويجات تينك الخدين المائلين إلى اللون الزهري، في الضياء الصافي بلا شمس كالفجر، وفي تينك العينين الشاحبتين في تلك النهارات التي لم تحك أبدا، كل هذه الأهمية سوف تذهب حتما عندما أكف عن حب البيرتين أو عندما أتوقف عن حب هذه المرأة الشابة.

كنت أخرج وحيدا في المساء، وسط المدينة السحرية حيث كنت أجد نفسي، في الأحياء الجديدة، كشخصية من شخصيات "ألف ليلة وليلة". ولم يكن من النادر أن أكتشف في تجوالي بالصدفة ساحة مجهولة وواسعة لم يسبق أن حدثني عنها أي دليل أو مسافر. وتوغلت في شبكة من الشوارع الصغيرة (calli). في المساء، وكانت مداخنها العالية والواسعة التي تلونها الشمس بتدرجات اللون الزهري الفاقع والأحمر الفاتح، كحديقة تزهر فوق

المنازل، بتدرجات مختلفة تبدو مزروعة فوق المدينة، كأنـــها حديقــة هـــاو لأزهار التوليب في "ديلفت" (Delft) أو "هارليم" (Haarlem). ومن جهة أخرى كان التقارب الشديد بين المنازل يجعل من كل نافذة إطارا تنظر منه ربة مــــنزل فتحلم، أو صبية جالسة تسرح لها شعرها عجوز يبدو وجهها في الظل وكأنه وجه ساحرة، كان المشهد أشبه بمعرض لمئة لوحة هولندية متقابلــــة، لكــل منزل فقير، صامت وقريب بسبب الضيق الشديد لهذه الأزقة. وكـــانت هــذه الأزقة تنضغط على بعضها وتتفرع من شتى الاتجاهات فتشكل بمساربها ذلك الجزء من مدينة البندقية المتوازع بين القنال والهور (la lagune)، كأنه تجســـد في تلك الأشكال اللامعدودة والدقيقة والرقيقة. وفجأة وفي نهاية أحـــد تلــك الشوارع، بدا لي أن المادة المتجسدة قد تمددت، وإذا بميـــدان واســـع (campo) وفخم لم يخطر على بالي وجوده في نسيج الأزقة الضيقة تلك، لم أكن حتـــى أتصور وجود ساحة، إذا به يمتد أمامي، محاطا بقصور رائعة، شاحبا تحـت ضوء القمر. إنه أحد تلك المجمعات المعمارية التي، في المدن الأخرى، تتجه نحوها الشوارع وتقودك صوبها وتشير إليها. أما هنا فتبدو وكأنها عن عمـد مخبأة بين تقاطعات الأزقة، كقصور الحكايات الشرقية التي نجلب إليها فـــي الليل شخصية روائية، ثم نعيدها إلى منزلها قبل طلوع الفجر، بحيث لا تجـد المسكن السحري وينتهي بها الأمر إلى الاعتقاد بأنه لم تذهب إليـــه إلا فـــي الحلم.

ذهبت في الغد بحثا عن ساحتي الليلية الجميلة، كنت أتبع تلك الأزقـة التي تتشابه كلها والتي ترفض إعطائي أية معلومة، إلا لكي تزيدنـــي تيـــها. وأحيانا كانت إشارة غامضة، اعتقدت أني قد تعرفت عليها، تقودنـــــي إلـــى الاعتقاد بأني سأرى، داخل انعزالها ووحدتها وصمتـــها، ســـاحتي الجميلـــة والمنفية تبرز للعيان. في تلك اللحظة، كان بعض الجان الخبثاء الذين اتخذوا مظهر حارة ضيقة جديدة، يجعلونني أعود أدراجي رغما عني وكنـــت أجــد نفسي فجأة وقد عدت إلى القنال الكبير. وبما أنه لا توجد فروقات كبيرة بيــن ذكرى الحلم وذكرى الحقيقة، كنت أتساءل في نهاية المطاف إذا ما كان الأمر قد حصل برمته أثناء نومي، داخل بلورة معتمة مصنوعة في مدينة البندقيــة، توحي بسبب تموجاتها الغريبة، للمتأمل طويلا في ضوء القمر، بوجود ساحة محاطة بقصور رومانسية.

ولكن الرغبة في ألا نفقد إلى الأبد بعض النساء، أكثر مــــن فقــدان بعض الساحات، كانت تشعرني باستمرار، وأنا فـــي البندقيـــة، بـــاضطراب أصبح محموما يوم قررت أمي أننا سنغادر، وعندما كانت حقائبنا تحمل على

الغندول وتؤخذ إلى المحطة، قرأت على سجل الغرباء الذين ينتظر وصولهم إلى الفندق : "البارونة بوتبو وحاشيتها" (Putbus). وفي الحال، رفع الشعور بكل ساعات المتعة الجسدية التي سيحرمني منها رحيلنا هذا، تلك الرغبة الموجودة في داخلي بشكل مزمن، رفعها إلى درجة العاطفة وأغرقها في الكآبة والغموض؛ فطلبت من أمي تأجيل موعد رحيلنا عدة أيام أخرى، لكن شكلها الذي أوحى إلي بأنها لم تأخذ بعين الاعتبار ولا بشكل جدي رجائي هذا، أيقظ في أعصابي المتوترة بسبب ربيع البندقية، تلك الرغبة القديمة في مقاومة مؤامرة وهمية حاكها أهلي ضدي، إذ كانوا يتخيلون أنني مرغم على طاعتهم، أيقظ إرادة القتال التي دفعتني في السابق إلى فرض إرادتي بعنف على الأشخاص الذين كنت أحبهم أكثر من غيرهم، حتى ولو أنني التزمت في نهاية الأمر بإرادتهم ولكن بعد أن نجحت في جعلهم يستسلمون. قلت لأمي إنني لن أذهب، ولكنها لتصورها أنه من الأفضل ألا يبدو عليها الاعتقاد بأنني كنت أتكلم بجدية، التزمت الصمت ولم تجبني حتى. فأضفت بأنها سترى جيدا إذا ما كنت جادا أو غير جاد. جاء البواب بثلاث رسائل، اثنتان لها وواحدة لي، وضعتها في محفظتي وسط رسائل أخرى دون أن أنظر حتى إلى غلافها. وحينما أتت الساعة التي ذهبت فيها إلى المحطة، بعد رحيل كل أغراضي، طلبت شيئا أشربه على الشرفة، ثم جلست أراقب غياب الشمس بينما كان موسيقي يغني"وحيد أنا" (Sole mio) في مركب متوقف قبالة الفندق.

كانت الشمس لا تزال تهبط. ولم تعد أمي بعيدة الآن عن المحطة. سوف ترحل قريبا، وأبقى وحدي في البندقية، وحيدا مع حزني لإدراكي أنني تسببت بألمها، ولأنها ليست هنا لمواساتي. كانت ساعة رحيل القطار تقترب. وكانت وحدتي الكاملة تبدو قريبة جدا، حتى بدت كأنها قد ابتدأت فعلا وكأنها كاملة. فشعرت بأنني وحيد، وقد غدت الأشياء غريبة بالنسبة لي، لم يكن عندي الهدوء الكافي لأخرج من قلبي المرتجف تلك الأشياء وأدخل فيها بعض الاستقرار، هذه المدينة التي هي أمامي الآن لم تعد مدينة البندقية. كانت شخصيتها واسمها يبدوان لي كسرد خيالي كاذب، ولم تعد عندي الشجاعة الكافة لأرسخه في الحجارة. بدت لي القصور وقد تقلصت إلى أجزاء وبدت كميات رخامها متشابهة، وبان لي الماء كخليط من الهيدروجين والآزوت الأزلي، الأعمى، داخل وخارج البندقية، متجاهلا قصر "الدوج" (Doges) ولوحات "تورنير" (Turner). ومع ذلك فإن هذا المكان التافه كان غريبا كالمكان الذي نصل إليه ولا يعرفنا بعد، أو كالمكان الذي تركناه لتونا والذي نسينا الآن. لم يكن باستطاعتي إعلامه بأي شيء عني، أو ترك أي شيء

مني يرتكز عليه، فجعلني أنكمش على ذاتي، ولم أعد إلا قلبا يخفق وانتباها مشدودا يتابع بقلق تطور أغنية "وحيد أنا". حاولت جاهدا أن أشد تفكيري إلى الإنحناءة الجميلة في جسر "ريالتو"، لكنه لم يبد لي، بحكم تفاهة الأشياء البديهية، إلا جسرا لا قيمة له، بل بدا غريبا أيضا عن الفكرة التي كونتها عنه؛ إن هذا الممثل على الرغم من شعره المستعار الأشقر وثيابه السوداء، نحن نعرف أنه في جوهره لم يكن هاملت. وكذلك الحال بالنسبة للقصور والقنال وجسر "الريالتو" وقد جردت جميعها من فرادتها وذابت في موادها التافهة. لكن في الوقت ذاته، بدا هذا المكان التافه أقل تنائيا. في حوض صناعة السفن وبسبب العنصر العلمي الذي هو خط العرض، كانت الأشياء تتميز بخصوصية، وهي وإن كانت شبيهة بالأشياء التي نجدها في بلدنا، إلا أنها كانت تبدو غريبة في المنفى وتحت سماء أخرى؛ كنت أشعر بأن هذا الأفق القريب الذي أستطيع الوصول إليه بعد ساعة من الإبحار، كان انحناءة لأرض مختلفة تماما عما هي عليه في فرنسا. كان انحناءة بعيدة وجدت، بسبب طبيعة السفر المصطنعة، راسية بالقرب مني لكي تذكرني أكثر فأكثر بأنني بعيد عن وطني، لدرجة أن حوض السفن التافه والبعيد هذا، كان يملؤني بمزيج من الاشمئزاز والخوف الذي أحسست به للمرة الأولى عندما كنت طفلا وذهبت بصحبة والدتي إلى حمامات "دولينيي" (Deligny)، في هذا الموقع الرائع ذي الماء الداكن الذي لا تكسوه سماء ولا شمس والذي كان مع ذلك محاطا بغرف صغيرة، كنا فيه نشعر بالتواصل مع أعماق لامرئية مكسوة بأجساد بشرية. فتساءلت إذا ما كانت الخيم تحجب تلك الأعماق المخبأة عن الناس وتمنع رؤيتها من الشارع، تساءلت عما إذا كان مدخل البحار الجليدية يبدأ هنا، وعما إذا كان القطبان قد اندمجا فيها، وعما إذا كان هذا المكان الضيق هو بحر القطب الحر. وفي هذا الموقع المستوحد، اللاحقيقي والمتجمد الذي لا يرأف بي، حيث سأبقى وحدي، كان لحن "وحيد أنا" يرتفع كشكوى أوجهها لمدينة البندقية التي عرفتها، والتي تبدو شاهدة على تعاستي. كان الأولى بي ألا أستمع لهذا اللحن لو أنني أردت الالتحاق بأمي وركوب القطار معها؛ وكان الأولى أن أقرر رحيلي بدون أن أضيع ثانية واحدة. ولكن هذا بالضبط ما لم أكن أقوى عليه؛ بقيت ساكنا، فلا أقدر على الوقوف، بل لا أقدر على أن أقرر الوقوف. كان عقلي، لكي يتجنب اتخاذ القرار، مشغولا بأكمله في تتبع تتالي الجمل في أغنية "وحيد أنا" وذلك بغنائها ذهنيا مع المغني، وبتخمين الاندفاع الذي ستأخذه الجملة، ارتفاعا ثم تناقصا. لا شك أن هذه الأغنية التافهة التي سمعناها مائة مرة، لم تكن تهمني على الإطلاق. لم أكن أسعد أي شخص، ولا حتى أمتع نفسي بسماعها

خشوعا إلى آخرها كما لو كنت أودي واجبا. وفي النهاية ما من جملة من جملها التي كنت أعرفها سلفا، وتروي الحكاية العاطفية، كانت قادرة على تزويدي بالقرار الذي كنت أحتاجه، بل أكثر من ذلك، كانت كل جملة لدى مرورها تشكل حاجزا يحول دون هذا القرار، أو بالأحرى كانت تجبرني على اتخاذ القرار العكسي بألا أرحل، فتفوت علي موعد السفر. ومن هنا كان هذا الانشغال بسماع "وحيد أنا"، هذا الانشغال الخالي من أية متعة بحد ذاته، كان ينوء تحت ثقل حزن عميق وشبه يائس. كنت أشعر في الواقع أنني ببقائي هنا دون حراك، كنت أتخذ القرار بعدم الرحيل، فقلت لنفسي:"لن أرحل"، ولكني لم أستطع قوله بهذه الطريقة المباشرة بل على الشكل التالي: "سأسمع جملة أخرى من أغنية وحيد أنا"، هذا ممكن ولكنه مؤلم لدرجة كبيرة، لأن المعنى الحقيقي لهذه اللغة المجازية لم يكن يفوتني، فقلت لنفسي: "إني لا أفعل أكثر من سماع جملة إضافية من الأغنية"، فأدركت أن هذا يعني: "سأبقى وحدي في مدينة البندقية." وربما كان هذا الحزن، الذي يشبه نوعا من البرودة المخدرة، هو الذي أعطى كل هذا السحر، سحر الأغنية اليائس والآسر. كل نغمة كان يؤديها صوت المطرب بقوة وفخامة شبه عضلية، كانت تصيبني في صميم قلبي. عندما كانت الجملة تنتهي في القرار وتبدو كأنها انتهت، لم يكن المغني يقفلها وإنما يعيد عاليا كما لو أنه كان بحاجة إلى الإعلان مرة أخرى عن وحدتي ويأسي. وبنوع من الاحترام الأخرق لموسيقاه، كنت أقول لنفسي : "لا يمكنني أن أقرر بعد، لنكرر ذهنيا قبل كل شيء هذه الأغنية من الأعلى." ففاقمت وحدتي، إذ كانت تهبط جاعلة هذه الوحدة من دقيقة لأخرى أكثر اكتمالا، ونهائية عما قريب.

لم تكن أمي في هذه الأثناء بعيدة عن المحطة. وسوف ترحل عما قريب. وإذا بالبندقية التي سأبقى فيها بدون والدتي تمتد أمامي الآن. لم تكن فقط لا تضم أمي، ولكن لأنني لا أملك الهدوء الكافي لأترك تفكيري يتركز على أحد تلك الأشياء التي أراها أمامي، فإن هذه الأشياء لم تعد تتضمن أي شيء مني، لا بل توقفت عن تشكيل مدينة البندقية، كما لو أنني أنا وحدي من بث روحا في هذه الأحجار والقصور وماء في القنال.

وهكذا بقيت جامدا وبإرادة خائرة، بدون قرار واضح؛ لا شك أن القرار قد اتخذ في هذه اللحظات : إن أصدقاءنا بأنفسهم هم غالبا الذين يستطيعون اتخاذ التنبؤ بذلك. أما نحن فلا، وإلا لكنا تجنبنا الكثير من الآلام.

وفي النهاية من كهوف أشد ظلمة من تلك التي ينبثق منعا المذنب الذي نستطيع التنبؤ به ـــ بفضل قوة العادة الدفاعية المتأصلة التي لا تخطر

على بال، وبفضل المؤن الخبيئة التي يقذف بها في اللحظة الأخيرة إلى المعركة، بفعل تحريض مفاجىء انبثق فعلي أخيرا فأطلقت ساقي للريح، ووصلت بعد إغلاق البوابات ولكن في الوقت المناسب لأجد أمي وقد احمرت من شدة الانفعال، وهي تغالب دموعها، لأنها كانت تظن أنني لن آتي. "هل تعلم، قالت لي، كانت جدتك المسكينة تقول : يا للغرابة، لا يمكن لأي شخص أن يكون أكثر إزعاجا أو أكثر رقة من هذا الصغير." شاهدنا أثناء رحلتنا مديني "بادوفا" ثم "فيرونا" تأتيان أمام مقدمة القطار لوداعنا، وبينما كنا نبتعد، بقيتا هما دون ارتحال واستعادتا حياتهما واسترجعت إحداهما حقولها والأخرى هضبتها.

ومرت الساعات، ودون استعجال فتحت أمي رسالتيها لتقرأهما، وحاولت ألا تجعلني أسحب محفظتي مباشرة لقراءة الرسالة التي أعطاني إياها بواب الفندق. كانت تخشى دائما أن أجد الرحلة طويلة جدا، أو متعبة جدا، ولكي تشغلني في الساعات الأخيرة، كانت تؤخر إلى أبعد حد الوقت الذي كانت تخرج فيه البيض المسلوق وتعطيني الجرائد وتفك رزمة الكتب التي اشترتها دون أن تخبرني. نظرت في البداية إلى أمي التي كانت تقرأ رسالتها بدهشة، ثم رفعت رأسها، وبدت أنها تنقل ناظريها بين ذكريات مختلفة وغير متجانسة ولا تستطيع تقريبها من بعضها. بيد أنني تعرفت على خط "جيلبرت" على مغلفي. ففتحته. كانت "جيلبرت" تخبرني بزواجها من "سان لو". وقالت لي إنها أرسلت لي برقية بهذا الخصوص إلى مدينة البندقية ولكنها لم تتلق جوابا. وتذكرت كم كانوا يحدثونني عن سوء خدمة البرقيات البريدية. فأنا لم أستلم قط برقيتها. ربما لا تريد تصديق ذلك. وفجأة لمع في ذهني حدث كان كامنا على شكل ذكرى، ثم ترك مكانه وأعطاه لحدث آخر. إن البرقية التي استلمتها مؤخرا والتي حسبتها من البيرتين، كانت من "جيلبريت". وبما أن ابتكار "جيليبيرت" المصطنع في الكتابة يكمن خاصة في طريقة كتابتها للسطر، إذ إنها تضع في السطر الذي فوقه حواجز من حروف الـ t مهمتها لفت الانتباه للكلمات أو وضع النقاط على حرف الـ i ، وكانت هذه الحروف تبدو وكأنها تقطع جمل السطر الأعلى، وبالمقابل كانت تقطع السطر الأسفل بذيول ورقوش الكلمات التي كانت فوقها، لذلك كان من الطبيعي أن يقرأ عامل التلغراف دوائر حروف الـ s أو حرف الـ y الموجودة في السطر الأعلى، كمقطع الكلمة "ine" وهو ينهي كلمة "جيلبرت". والنقطة على حرف الـ i الموجود في اسم "جيلبرت" قد صعد إلى الأعلى وشكل اشارة تعجب. أما بالنسبة إلى حرف الـ G، فكان يشبه حرف الـ A

الغوطي. بالإضافة إلى ذلك كانت هناك كلمتان أو ثلاث مقروءة بشكل سيّء، وقد تداخلت (حتى أن بعضها بدا لي غير مفهوم)، كان هذا كافياً لتفسير تفاصيل خطأي، ولم يكن لهذا الأمر أي داع . كم حرفاً يقرأ في كلمة شخصٌ مشتت الانتباه وتم تحذيره بخاصة، شخص ينطّلق من فكرة أن الرسالة قد أرسلها شخص آخر؟ وكم كلمة يقرأ من الجملة؟ إننا نخمّن حين نقرأ، ونخلق؛ كل شيء ينطلق من خطأ نرتكبه في البداية، والأخطاء التي تليه (ليس فقط في قراءة الرسائل والبرقيات، ليس فقط في أيّة قراءة كانت)، مهما بدت غريبة للشخص الذي لا ينطلق من نقطة البداية نفسها، هي طبيعية كلها. إن جزءاً كبيراً مما نعتقد، وحتى في النتائج الأخيرة هو هكذا، ويأتي من التباس أولي في قراءة مقدّمات القياس، ونقوم به بنفس العناد وحُسن النيّة.

"هذا غير معقول، قالت أمي. اسمع، لا شيء يدهش الإنسان عندما يصل إلى عمري. ومع ذلك لا شيء أغرب من الخبر الذي تحمله لي هذه الرسالة. فأجبتها: اسمعي جيداً، مهما تكن غرابتها فإنها لا تفوق تلك التي في رسالتي. إنه خبر زواج. سوف يتزوج "روبير دى سان لو" من "جيلبرت سوان". أجابتني أميّ، إذن بلا شك هذا هو الخبر الذي تحمله الرسالة التي لم أفتحها بعد، لأنني تعرّفت على خط صديقك." وابتسمت لي أميّ بهذا التأثر الخفيف الذي منذ فقدها لوالدتها، بدأ يطغى عندها على كل حدث، مهما كان بسيطاً، إذا كان يهم كائنات حيّة جديرة بالألم والذكرى ولها أيضاً أشخاصها المتوفون. وهكذا ابتسمت لي أمي وقالت بصوت عذب، كما لو أنها خشيت، في حال لم تأخذ خبر هذا الزواج بجديّة، أن يسبب شجبها له مشاعر حزن لابنة وأرملة "سوان"، ولأم "روبير" المستعدة للانفصال عن ابنها والتي كانت أمي تسبغ عليهم مشاعرها البنيوية والزوجية والأمومية. قلت لها : "هل كان معي الحق عندما قلت إني لا أجد ما هو أكثر غرابة من ذلك؟" ــ "أجل، أجابتني بصوتها العذب، أنا من حصلت على الخبر الأكثر غرابة، لن أقول لك الأكبر، والأصغر، لأن ذلك الاستشهاد بالسيدة "دي سيفينيه" (de Sévigné) الذي يقوم به كل الناس الذين لا يعرفون إلا هذه الجملة، كان يدفع جدّتك إلى الغثيان بقدر ما تفعله عبارة "ما أجمل الذبول!." إننا لا نقبل باللجوء إلى هذا الاستشهاد بالسيدة "دى سيفينيه" الذي يستعمله الجميع. وتبلغني هذه الرسالة بزواج "كامبيرمير" (Cambremer) الصغير. ــ "هكذا إذا، قلت لها بلامبالاة، زواجه ممَن؟ على أية حال، تلغي شخصية العريس من هذا الزواج كل طابع مشوّق". ــ إلا إذا كانت شخصية العروس هي التي تعطيه إياه". ــ ومن هي هذه الخطيبة؟ "ــ لو قلت لك فوراً من هي، لما استحق الأمر العناء، هيّا

هي هذه الخطيبة؟ "ـ لو قلت لك فوراً من هي، لما استحق الأمر العناء، هيّا ابحث قليلاً"، قالت لي أمي التي حين لاحظت أننا لم نصل بعد إلى "تورينـو"، أرادت أن تنسيني همومي. "ولكن كيف تريدين مني أن أعرف؟ هل سيتزوج من امرأة لامعة؟ إذا كان "لوغراندان" (Legrandin) وأخته سعيدين، يمكننـــا أن نتأكد من أن هذا الزواج سيكون زواجاً مبهراً. ـ بالنسبة لـ "لوغرانـدان" لا أعرف لكن الشخص الذي أخــبرني بــهذا الــزواج يقــول إن السيــدة "دي كامبريمير" في غاية السعادة. ولا أعرف إذا كنت تسمي ذلك زواجاً ناجحــا. أما أنا فيذكرني بالزمن الذي كان فيه الملوك يتزوجون من راعية، ولكنـــها رائعة، مثل هذا الزواج يدهش جدتك ولا تستغربه. ـ وأخيرا قولي من هــي تلك الخطيبة؟ ـ إنها الآنسة "دولورون" (d'Oloron). ـ هذا يبدو اسما فخمـــا، ليست راعية على الإطلاق، ولكني لا أعرف من هي. إنه لقب كان موجــودا في عائلة "غيرمانت". ـ تماما، وقد أعطاه السيد "دى شـــارلوس" لابنـــة أخ "جوبيان" (Jupien) عندما تبناها. هي التي ستتزوج "كامبريمير" الصغـــير. ـ ابنة أخ "جوبيان"! هذا غير معقول! ـ هذه هي مكافأة الفضيلـــة. إنـــه زواج جدير بخاتمة رواية من روايـــات السـيدة "جــورج صـــاند" (Sand)، قـــالت أمي. وفكرت قائلا : "لا بل إنه ثمن الرذيلة، إنه زواج في نهاية رواية لـــــ "بلزاك" (Balzac). قالت أمي في النهاية "إذا فكرنا فسوف نجـــد هـــذا الأمـــر طبيعياً. هاهي عائلة "كامبريمير" وقد ترسّخت في عشيرة ال"غيرمانت" حيث لم يكونوا يحلمون أبداً بنصب خيمتهم؛ بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الصغـيرة ستحصل على أموال طائلة، وهذا أمر ضروري للـــ"كامبريمير" بعد أن فقدوا أموالهم؛ وفي المحصلة، هي فتاة بالتبني، وعلى الأرجح الفتـــاة الحقيقيـــة ـ الفتاة اللاشرعية ـ لشخص يعتبرونه أميراً من أمراء الأســـرة المالكـــة. إن الزواج من لقيط ينحدر من سلالة شبه ملكية، كان يعتبر دائماً كارتباط مغـــر للنبلاء الفرنسيين والأجانب. ودون الحاجة إلى البحث بعيداً، منذ ستة أشـــهر لا أكثر، في "لوسانج" (Lucinge)، هل تتذكر زواج صديق "روبير" من فتـــاة لا قيمة اجتماعية لها سوى أنهم كانوا يحسبونها، خطأ أو صوابا، ابنـــة غـــير شرعية لأمير متسلط." لإن أمي لا تزال متمسكة بـــالجوانب الطبقيـــة فـــي "كومبري"، ممّا سيصدم جدتي لو أنها عرفت بأمر هذا الزواج، فرغبت فـــي إظهار الحكم القيمي الذي كانت ستطلقه أمها، وأضافت قائلة: "أجل إن هـــذه الصغيرة كاملة الأوصاف، ولم تكن جدتك العزيزة بحاجة لطيبتها الكبـــيرة وتسامحها اللامتناهي لكي توافق على اختيار الشاب "كامبريمير". هل تتذكـــر كم وجدت منذ أمد بعيد تلك الصغيرة متميزة، يوم جاءت لتخيط تنورتها؟ لـــم تكن وقتها إلا طفلة. والآن على الرغم من أنها تقدمت في السن وأصبحـــت

فتاة عانسا، فهي الآن امرأة أخرى وكاملة أكثر بألف مرة مما كانت عليـــه. ولكن جدتك انتبهت بنظرة واحدة إلى ذلك كله. لقد وجدت ابنـــة أخ صـــانع الصداري أكثر نبلا من دوق غيرمانت. لم يكن يكفي أمي أن تمتدح جدتـــي، بل كان عليها أن تصرح بأن الأفضل أنها لم تعد موجودة هنا. كانت هـــذه هي الغاية القصوى لحنانها، كأنها تريد أن تجنبها حزننا أخيرا. قالت لي أمـــي "ولكن هل تعتقد مع ذلك، إن الأب "سوان" ــ الذي لم تعرفه أنت حقا ــ كان يمكن أن يفكر في يوم من الأيام أنه سيرزق بابن حفيد أو ابن حفيدة تجـــري في عروقهما دماء الأم "موزير" (Moser) التي قالت : "سباح الحـــير يـــا زادة" «Mezieurs Ponchour» ودماء دوق "دى غيز" (de Guise)! ــ لكن لاحظي يا أمي، أن الأمر أغرب أيضا مما تقولين. لأن عائلة "سوان" كانت عائلة جيدة جـــدا، و كان يتمتع ابنهم بمكانة مرموقة، فلو أنه أقدم على زواج جيد، لكان بإمكان ابنته أن تتزوج بشكل ناجح أيضا، لكن كل هذا قد فشل لأنه تزوج من امـــرأة تافهة. ــ تافهة، أعتقد أننا كنا أشرارا، وأنا لم أصدق كل ما قيل. ــ بلـــى، إنها تافهة، وسأكشف لك ذات يوم، أسرارا عائلية ولكن في يوم آخـــر." ثـــم قالت وهي لا تزال تسبح في حلمها: "ابنة امرأة ما كان يسمح لي والدك قـــط بتحيتها، تتزوج من ابن أخ السيدة "فيلباريسيس" (Villeparisis) التي لم يسمح لـــي والدك بزيارتها في بادىء الأمر، لأنه كان يرى أنها تنتمي لعالم أرفع مـــن عالمي!" ثم أضافت : "ابن السيدة "كـــامبريمير" الـــذي كـــان "لوغرانـــدان" (Legrandin) يخشى أن يوصينا به لأنه لم يكن يجدنا "أكابر" كفاية، يتزوج مـــن ابنة أخ الرجل الذي كان لا يجرؤ على الصعود إلـــى بيتنـــا إلا علـــى درج الخدم!.. ومع ذلك، لقد كانت جدتك المسكينة على حق، هل تتذكـــر عندمـــا كانت تقول إن الارستقراطية الكبيرة تفعل الأشياء التي تصـــدم البرجوازيـــة الصغيرة، وإن الملكة "ماري ــ اميلي" (Marie-Amélie) كـــانت مدللـــة بســـبب محاولاتها التقرب من عشيقة أمير "كوندي" (Condé) لكي تجير ذلـــك لصـــالح دوق "اومال" (Aumale)؟ هل تتذكر؟ لقد صدمت جدتك من الفكرة القائلة بـــأن بنات منزل "غرامون" (Gramont) اللواتي كن قديسات بحق، يحملن، منذ قرون، اسم "كوريزاند" (Corisande) بسبب علاقة إحدى جداتهن بالملك "هنري الرابـــع" (Henri IV). هذه الأشياء قد تحصل ربما في أوساط البرجوازية، ولكنهم يخفونها أكثر فأكثر. هل تعتقد أن هذا كان سيسلي جدتك المسكينة!" هذا ما قالته أمـــي بحزن. -لأن المتع التي تألمنا لحرمان جدتي منها، هي متع الحياة البســـيطة، وهي كناية عن قراءة قصة أو حضور مسرحية أو حتى أقل من ذلك، يمكـــن أن يسليها الانطباع بذلك فقط. ثم أضافت أمي :"هل تعتقـــد أن ذلـــك كـــان سيدهشها! أنا متأكدة من أنه سيصدمها، كم تؤلمها زيجات كهذه، أعتقد أنـــه

من الأفضل ألا تعرف بها"، ذلك أن أمي كانت تحب الاعتقاد أن جدتي سوف تشعر حيال أي حدث بانطباع خاص عائد إلى فرادة طبيعتها الرائعة. أمام أي حدث حزين تصورناه في يوم من الأيام، كفقدان أحد أصدقائنا القدامى حظوته أو ثروته،أو كوقوع مصيبة اجتماعية ما أو وباء أو حرب أو ثورة، كانت أمي تقول دائما، من الأفضل ألا ترى جدتي أيا من هذا، لأنها كانت ستتألم كثيرا وربما لن تستطيع تحمله. وحين يتعلق الأمر بحدث فاضح، كذلك الذي وقع، كانت أمي، وبعكس تصرف الأشرار الذين يسرهم الاعتقاد بأن من يكرهون قد تألموا أكثر مما نتصور، كانت أمي ترفض، بسبب عطفها الكبير على جدتي، وخوفا من أن يصيب جدتي أي حزن أو انتقاص. كانت دائما تتصور جدتي فوق كل أذية أو شر يقع، وتقول لنفسها إن وفاة جدتي في النهاية، كانت أمرا حسنا لأنها جنبت طبيعة جدتي النبيلة، التي ما كانت لتستسلم لهذا الوضع، مشهد هذا العصر الراهن البشع. ذلك أن التفاؤل هو فلسفة الماضي. فالأحداث التي وقعت، ومن بين كل أحداث ممكنة، هي الوحيدة التي يمكننا معرفتها، ونرى أن الضرر الذي سببته كان يبدو أمرا محتوما، كما نرى القليل من الخير الذي لم تستطع إلا أن تجلبه معها، هي تلك الأحداث التي نجلها، ونتخيل أنه لولاها لما تحقق ذلك. كانت تحاول في الوقت نفسه التكهن بما كانت ستشعر به جدتي لو علمت بكل تلك الأحداث، وتعتقد في آن أنه يستحيل على عقولنا الأقل رفعة من عقلها أن تتكهن به. قالت لي بداية: "هل تصدق! كم كانت جدتك المسكينة ستذهل من جراء ذلك!" وكنت أشعر أن أمي تتألم لأنها لا تستطيع إخبار جدتي بذلك، وتأسف لأن جدتي لم تعلم بالأمر، وترى أنه من الظلم أن تأتي الحياة في يوم ما، بأشياء لم تكن جدتي لتصدقها، في الوقت نفسه ترى أن معرفة جدتي للأشياء وللمجتمع، خاطئة وناقصة. إن طبيعة زواج ابنة عائلة "جوبيان" من ابن أخ "لوغراندان" كان من شأنها تغيير المفاهيم العامة لجدتي، ــ في حال تمكنت أمي من إيصاله لها ــ ومنها خبر التوصل إلى حل المشكلة التي اعتقدتها جدتي بدون حل، كمشكلة الملاحة الجوية ومشكلة التلغراف اللاسلكي. ولكن سنرى أن هذه الرغبة في مقاسمة جدتي فوائد العلوم، بدت رغبة أنانية جدا بالنسبة لأمي(*).

(*) إن ما علمته ــ لأنني لم أستطع إدراك كل ذلك وأنا في البندقية ــ أن الآنسة "فورشفيل" كان قد طلب يدها دوق "شاتيلورو" (Châtellerault) والأمير "دى سيليستري" (de Silistrie) ، بينما كان "سان لو" يسعى للزواج من الآنسة "دانتراغ (d'Entragues) ابنة دوق لوكسمبورغ. وهذا ما حصل. بما أن الآنسة "دى فورشوفيل" (de Forcheville) كانت تملك مائة مليون، فقد اعتقدت السيدة "دى مارسانت"de Marsantes)) أن ذلك سيكون زواجا رائعا لابنها. لكنها أخطأت في قولها إن تلك الفتاة رائعة حقا، وأنها

لقد أثارت تلك الخطوبة الأقاويل في مختلف الأوساط.

بعض صديقات أمي اللواتي قابلن "سان لو" في المنزل، أتين في "يومه هذا" للتأكد من أن الخطيب هو صديقي نفسه. وذهب بعض الأشخاص إلى الإدعاء بأن قصة الزواج الأخرى، لا تخص عائلتي "كامبريمير" و "لوغراندان". وقد اعتمدوا في معلوماتهم تلك على مصدر موثوق، ذلك لأن المركيزة التي كان اسمها "لوغراندان" قبل الزواج، قد نفت الخبر تماما عشية اليوم الذي أعلنت فيه الخطوبة. وتساءلت من ناحيتي، لماذا السيد "دى شارلوس" من جهة، و "سان لو" من جهة أخرى، وقد سنحت لهما فرصة الكتابة إلي، واللذان أخبراني عن مشاريعهما ورحلاتهما التي كانت تستبعد إمكانية القيام بتلك الاحتفالات، لم يعلماني بأي شيء عن موضوع الخطوبة. وتوصلت إلى النتيجة التالية، وذلك دون التفكير بالأسرار التي نحب أن نحتفظ بها في مثل هذه المواقف، وهي أنني لم أكن الصديق الذي كنت أظن، وهذا ما حز في نفسي وخاصة بالنسبة لعلاقتي ب "سان لو". وبما أنني كنت قد لاحظت أن اللطف والإدعاء بالمساواة والزمالة، ما هو إلا كذبة في الأوساط الأرستقراطية، فلماذا أتعجب لكوني لم أستثن من تلك المعاملة؟ في بيت النساء ــ حيث نجد مزيدا من الرجال ــ وحيث ضبط السيد "شارلوس" "موريل" (Morel) ، وحيث "معاونة ربة العمل"، وقارئة الـ "غولوا" (Gaulois) الكبرى، كانت تعلق على أخبار المجتمع، تلك العالمة[1]، ــ في معرض حديثها إلى ذلك الرجل الضخم الذي كان يأتي ليشرب عندها الشمبانيا مع مجموعة من الشبان، والذي كان ضخما في كل الأحوال، و قرر أن يصبح سمينا بحيث لن يستدعى، في حال نشوب حرب، إلى الجيش ــ ، قالت :

تجهل تماما إذا ما كانت غنية أو فقيرة، وأنها لا تريد أن تعرف ذلك، وأنه حتى بدون مهر، فإن الزواج من امرأة مثلها يعتبر ضربة حظ حتى بالنسبة للشاب الأكثر تطلبا. لقد كان الأمر جريئا جدا بالنسبة لتلك المرأة التي أغراها مبلغ المئة مليون وجعلها تغض الطرف عما تبقى. ثم فهمنا فيما بعد أنها كانت تفكر بابنها. فأطلقت الأميرة "دى سيليستري" أعلى الصيحات معلنة أنه إذا تزوج "سان لو" من ابنة "اوديت" وزوجها اليهودي، فإن حي "سان جيرمان"(Saint-Germain) سيختفي تماما. وعلى الرغم من ثقة السيدة "دى مارسانت" الشديدة بنفسها، إلا أنها لم تجرؤ على المضي أبعد من ذلك، فانسحبت أمام صيحات الأميرة "دى سيليستري" التي تقدمت بطلب الزواج لابنها. غير أن السيدة "دى مارسانت" رفضت الاعتراف بهزيمتها، فاتجهت فورا إلى الآنسة "دانتراغ" ابنة دوق لوكسمبورغ. وبما أن هذه الأخيرة لم تكن تملك إلا عشرين مليونا، فقد كانت تناسبها بشكل أقل، لكنها قالت للجميع إن "سان لو" لا يمكن أن يتزوج الآنسة "سوان" (و لم يطرح أبدا موضوع "دى فورشوفيل"). بعد مدة من الوقت، قال أحدهم من دون قصد، إن دوق "شاتيلورو" كان يفكر في الزواج من الآنسة "دانتراغ"، وبما أن السيدة "دى مارسانت"، التي كانت لا يعجبها العجب، نظرت إليه بترفع، وغيرت مسارها، وعادت إلى "جيلبيرت" وطلبتها لـ"سان لو"، وتمت الخطوبة مباشرة.

[1] بالمعنى المصري القديم للكلمة (المترجم).

"يبدو أن "سان لو" هو "هكذا"، وكذلك هو حــال "كــامبريمير" الشــاب. يــا للزوجات المسكينات! على أية حال إذا كنتــم تعرفــون هذيــن الخطيبيــن فأرسلوهما لنا، سيجدان هنا كل ما يريدان، ويمكن أن نربح منهما الكثير مــن المال." وعليه فإن الرجل السمين الذي كان هو أيضا "هكذا"، والــذي كــان يتشبه بالأكابر، قال إنه كان يلتقي غالبا بــ"كامبريمير" و"سان لو" عند أبنــاء عمومة "داردونفيليه"(d'Ardonvillers)، وأنهما كانا من هواة النساء وبعكس "هــذا" تماما. "هكذا إذن" قالت "معاونة ربة العمل؟ صاحبة المقهى" بصوت يشــوبه الشك، ولكنها لم تكن تمتلك أي دليل على ذلك، بل كانت مقتنعة بأن انحراف أخلاق عصرنا هذا يتفوق حتــى علــى افــتراءات الثرثــارين. إن بعــض الأشخاص الذين لم أرهم، كتبوا لي وسألوني "عن رأيي" بهذين الزواجيــن، وكان سؤالهم أشبه بإحصائية حول طول قبعات النساء في المسرح، أو حــول الرواية النفسية. لم أجد الشجاعة للرد على تلك الرسائل. إذ افتقرت إلى رأي بشأن هذين الزواجين. ولكني كنت حزينا للغاية، كما لــو أن جزئيــن مــن ماضيك قد رسيا بالقرب منك، وبنيت عليهما يوما بعد يــوم، ربمــا بســبب الكسل، بعض الآمال التي لم تبح بها، وها هما يبتعــدان نــهائيا كســفينتين، بطقطقة لهيبهما الفرحة، تتجهان نحو مصير غريب. أما بالنســبة للمعنييــن نفسيهما، فقد أحسا تجاه زواجيهما بمشاعر طبيعية جدا، ذلك لأن الأمــر لا يتعلق بالآخرين، بل بهما. لم يحصلا قط على هذا القدر من السخرية بســبب هذه "الزيجات الكبرى" المبنية على ثغرة متخفيــة. وحتــى ال"كــامبريمير" المتحدرون من بيت عريق جدا، وذوو الطموحات المتواضعة جدا، كانوا أول من نسي "جوبيان"، ليتذكروا فقط عظمة بيت "دولورون"، باستثناء الشــخص الذي كان من المتوقع أن يسر على وجه الخصوص بسبب هذا الزواج، وهــو المركيزة "كامبريمير ــ لوغراندان". ولكن بما أنها كانت شريرة بطبيعتها، فقد كانت تستمتع بإذلال ذويها أكثر من استمتاعها بتمجيد نفسها. ونظرا لأنها لــم تكن تحب ابنها أيضا، ولأنها قد كرهت مبكرا كنتها المستقبلية، فقد أعلنت أنه من المؤسف لشخص من عائلة "كامبريمير" أن يتزوج من امرأة لا نعــرف أصلها، بالإضافة إلى أن أسنانها ليست مصفوفة بشكل جميل. أمــا بالنســبة لميل "كامبريمير" الشاب إلى الاختلاط برجال الأدب من أمثــال "برغــوت" (Bergotte) وحتى "بلوخ" (Bloch)، فإن هذه المصاهرة المتميزة لم تجعلــه أكــثر تصنعا، ولكنه بدأ يعتبر نفسه وريث دوقيتي "دولورون" "الأمراء الحــاكمين"، كما قالت عنهم الصحف، فقد كان مقتنعا كفاية من رفعة مكانته لكي يختلــط بأي كان. وتخلى عن الأرستقراطية الصغيرة ليعاشر البرجوازية الذكية فــي الأيام التي لم يكن يخصص نفسه لأصحاب الجلالة. إن ملاحظات الصحــف،

المتعلقة خاصة ب "سان لو"، أعطت صديقي، صاحب الأصول الملكية المعروفة، عظمة جديدة ما كانت إلا لتزيد من حزني، كما لو أنه أصبح شخصا آخر، سليل "روبير لو فور" (Robert le Fort) أكثر من كونه الصديق الذي جلس منذ مدة قريبة على مقعد السيارة الذي يطوى، لكي أجلس مرتاحا في الصدر . إن عدم معرفتي مسبقا بزواجه من "جيلبرت"، الذي ظهر فجأة في رسالتي، مختلف جدا عما فكرت فيه أمس حول كليهما، كان الخبر مفاجئا مثل رسوب كيماوي يسبب لي الألم، بينما أعتقدت أن بإمكانه فعل الكثير، إلا أن الزيجات في المجتمع تتم هكذا فجأة في أغلب الأحيان لكي تعوض عن توليفة مختلفة كانت قد فشلت. إن الحزن، البائس كالانتقال من السكن، والمر كالغيرة، الذي سببه لي هذان الزواجان من جراء المفاجأة والصدمة، كان عميقا جدا لدرجة، أن بعضهم ذكرني به فيما بعد، وأنا أفتخر بشكل عبثي، كما لو أن الأمر هو عكس ما حصل في ذلك الوقت، حدس مضاعف، بل مضاعف ثلاث أو أربع مرات.

كان المجتمع الراقي الذي لم يعر "جيلبرت" أي اهتمام، يسألني باهتمام بالغ : "آه، هذه هي الفتاة التي ستتزوج المركيز "دى سان لو"؟" ويعاينها بنظرة متفحصة، ليست فقط كنظرة الأشخاص الولعين بمعرفة أحداث الحياة الباريسية، بل أيضا الأشخاص الذين يبحثون عن المعرفة والواثقين من عمق نظرتهم. أما الذين لم يكونوا يعرفون إلا "جيلبرت" فكانوا على العكس ينظرون إلى "سان لو" باهتمام شديد، ثم يطلبون مني (كانوا غالبا من الأشخاص الذين يعرفونني بالكاد) أن أدلهم عليه، وبعد أن أقدمهم له كانوا يعودون مزدانين بأفراح الاحتفال قائلين لي : "إن له شخصية رائعة". كانت "جيلبرت" مقتنعة بأن اسم المركيز "دى سان لو" أكبر ألف مرة من اسم دوق "اورليان"، ولكن بما أنها كانت تنتمي قبل كل شيء إلى جيلها المتذاكي، أرادت ألا تبدو أقل ذكاء من الآخرين، وكان يحلو لها أن تقول "الأم السامية" (mater semita) ثم كانت تضيف لكي تبدو أكثر ذكاء "بالنسبة لي على العكس، إنه والدي (pater).

قالت لي أمي "يبدو أن الأميرة "دى بارم" (de Parme) هي التي رتبت زواج كامبريمير الشاب"، وكان ذلك صحيحا. إن الأميرة "دى بارم" كانت تعرف منذ زمن أعمال "لوغراندان" الذي وجدته رجلا مميزا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت تعرف السيدة "دى كامبريمير" التي كانت تغير الحديث عندما تسألها الأميرة إذا ما كانت أخت "لوغراندان". وعرفت الأميرة الأسف الذي شعرت به السيدة "لوغراندان" لكونها بقيت على أبواب المجتمع

الأرستقراطي، الذي لم يكن أفراده يستقبلونها. وعندما سألت الأميرة "دي بارم"، التي أخذت على نفسها عهدا بإيجاد مكانة للآنسة "اورلون"، عندما سألت السيد "دى شارلو" إذا ما كان يعرف شخصا لطيفا ومثقفا يدعى "لو غراندان دى ميزيغليز" (Legrandin de Méséglise) (هكذا صار يلقب نفسه لوغراندان الآن)، أجاب البارون بالنفي في أول الأمر، ثم تذكر فجأة أنه تعرف بمسافر في مقطورة قطار ليلي قد ترك له بطاقته الشخصية. فابتسم ابتسامة غامضة. قال لنفسه "ربما هو الشخص نفسه". وعندما علم أنه ابن أخت "لوغراندان" قال: "إنه أمر غريب حقا! لن يزعجني الأمر إذا كان يشبه خاله، لقد قلت دوما إن بإمكانهم أن يكونوا أفضل الأزواج. ـ من هم؟ سألته الأميرة. لو كنا نلتقي أكثر كنت لشرحت لك الأمر يا سيدتي. لأنه يمكن التحدث معك. سعادتك ذكية جدا"، قال "شارلوس" الذي أحس فجأة برغبة في البوح لكنه كظمها. كان اسم "كامبريمير" يعجبه مع أنه لم يكن يحب الأهل، لكنه كان يعرف أنه أحد بارونيات مقاطعة "بروتاني" (Bretagne) الأربع، وأنه أفضل ما كان يأمل بالنسبة لابنته بالتبني، كان اسما قديما ومحترما وله صلات قوية في مقاطعته. كان تزويجها من أمير أمرا مستحيلا، بل وغير مرغوب فيه. كان هو المناسب. ثم جاءت الأميرة بعد ذلك ب "لوغراندان". كان شكله قد تغير، وللأفضل، منذ وقت قصير. مثل النساء اللواتي ضحين نهائيا بوجوههن لكي يحافظن على رشاقتهن، ولم يعدن يغادرن "مارينباد" (Marienbad)، فقد اتخذ "لوغراندان" الهيئة الرشيقة لضابط في الخيالة. بقدر ما تثاقل وتباطأ "دى شارلوس"، بقدر ما أصبح "لوغراندان" ممشوقا وسريعا؛ إنه التأثير المعاكس للسبب نفسه. على أية حال كان وراء هذه السرعة سبب نفسي. فقد اعتاد ارتياد بعض الأماكن السيئة حيث لم يكن يرغب في أن يراه أحد داخلا إليها أو خارجا منها، لذلك كان يغوص في داخلها. عندما حدثته الأميرة "دى بارم" عن آل "غيرمانت" وعن "سان لو"، قال إنه عرفهم منذ أمد طويل، إذ خلط نوعا ما بين معرفته لاسم أسياد قصر "غيرمانت" ولقائه في بيت عمتي بـ"سوان" شخصيا، هذا الذي سيصبح والد السيدة "دى سان لو" المستقبلية، "سوان" هذا الذي رفض "لوغراندان" في كومبري أن يخالط زوجته أو ابنته. "حتى أنني سافرت مؤخرا مع أخ دوق «دى غيرمانت» السيد «دى شارلوس». لقد فتح الحديث بشكل عفوي، وهذا مؤشر حسن، فهذا يثبت أنه ليس ثرثارا ولا مدعيا. أعرف ما قال عنه، لكنني لا أصدق هذا. على أية حال فإن حياة الآخرين الشخصية لا تعنيني. لقد بدا لي رجلا حساسا ومثقفا". عندها تحدثت الأميرة "دى بارم" عن الآنسة "دورلون". كانوا في أوساط "غيرمانت" يشفقون على نبالة قلب السيد "دى شارلو"، الذي اختار

ـلطيبته الدائمةـ أن يسعد فتاة فقيرة ورائعة. ربما أن دوق غيرمانت الذي كان يتألم من سمعة أخيه، أوحى أن هذا الأمر مهما بدا جميلا فهو في النهاية طبيعي جدا. ولفرط ذكائه كان يقول بشكل أخرق : "لا أعرف إذا كنتم تفهمونني جيدا، كل ما في هذا الأمر طبيعي جدا" . لكن هدفه كان الإشارة إلى أن الشابة كانت ابنة أخيه التي اعترف بها. وكان هذا يفسر حالة "جوبيان" (Jupien). لقد لمحت الأميرة "دى بارم" إلى هذه الرواية لكي تظهر لـ"لوغراندان" أن "كامبريمير" الشاب يستطيع في النهاية أن يتزوج من شيء يشبه الآنسة "دى نانت" إحدى فتيات لويس الرابع عشر غير الشرعية، اللواتي لم ينبذهن لا دوق "اورليان" ولا أمير "كونتي" (Conti).

وهذان الزواجان اللذان كنا نتحدث عنهما أنا وأمي في القطار الذي يحملنا إلى باريس، قد أثرا تأثيرا ملحوظا على بعض الشخصيات التي ظهرت حتى الآن في هذه الرواية. في البداية حول "لوغراندان" : لا داعي للقول بأنه دخل كالإعصار إلى فندق السيد "دى شارلو"، تماما كما يدخل إلى بيت مشبوه لا يجب إن يرى فيه، وكان ذلك في الوقت نفسه لإظهار شجاعته وإخفاء عمره ـ لأن عاداتنا ترافقنا حتى إلى الأماكن التي لا تخدمنا فيها بأي شيء ـ ولم يلاحظ أحد تقريبا أن السيد "دى شارلوس" وهو يقول له صباح الخير، قد وجه له ابتسامة خفيفية من الصعب ملاحظتها ومن الصعب أيضا تفسيرها، هذه الابتسامة التي تشبه في الظاهر ـ وفي الواقع عكس ذلك تماما ـ الابتسامة التي يتبادلها رجلان اعتادا الالتقاء في المجتمعات الراقية، إذا ما التقيا في مكان سيء السمعة [مثلا "الاليزيه" (Elysée) حيث كان الجنرال "دى فروبرفيل" (de Froberville) يلتقي سابقا بـ "سوان"، فكان حين يلمح "سوان" يرمقه بنظرة التواطؤ الساخرة والغامضة لرجلين من رواد الاميرة "دى لوم" (des Laumes) كانا يتعرضان للشبهات عند السيد "غريفي" (Grévy)]. لكن الأمر الجدير بالملاحظة هو التحسن الحقيقي الذي طرأ على طبيعته. كان "لوغراندان" ينمي منذ زمن بعيد ـ منذ كنت طفلا يذهب لتمضية عطلاته في "كومبري" ـ علاقات أرستقراطية مجزية في أكثر الأحيان، من دعوة منفردة إلى مصيف مهجور. ثم جاء زواج ابن أخته فجأة فوصل هذه القطع المتباعدة، وحصل "لوغراندان" على مكانة اجتماعية أثرت في بنائها علاقاته القديمة مع أناس لم يخالطوه إلا بشكل فردي وحميمي مما أعطاها نوعا من المتانة. بعض السيدات اللواتي كنا نظن أننا نعرفهن عليه، أخبرننا أنه قضى خمس عشرة يوما عندهن في بيوتهن الريفية، وأنه هو من أهداهن مقياس الضغط الجوي الجميل الموضوع في الصالون الصغير. لقد اندمج

صدفة بمجموعات فيها العديد من الدوقات الذين أصبحوا الآن من أنسبائه. بيد أنه منذ أن حصل على هذه المكانة الاجتماعية توقف عن الاستفادة منها. وذلك ليس لأنه أصبح معروفا الآن ومقبولا في هذه الأوساط بل لأنه لم يعد يستمتع بهذه الدعوات، فمن بين الرذيلتين اللتين كانتا تتنازعانه، أفسحت الرذيلة الأقل طبيعية، وهي التفذلك، المجال لأخرى أقل تصنعا لأنها تدل على الأقل على نوع من العودة، وإن تكن ملتوية، نحو الطبيعة. لا شك أن الرذيلتين لم تكونا متعارضتين، إذ يمكن أن نذهب لاكتشاف منطقة أو ناحية ونحن خارجون من حفل استقبال دوقة. لكن البرودة الناجمة عن التقدم بالسن كانت تبعد "لوغراندان" عن مراكمة الكثير من الملذات، وعن الخروج إلا بروية، وعن الأحاديث التي تأخذ وقتا طويلا وتجعله يقضي معظم وقته مع الشعب، تاركة القليل من الوقت لحياته الاجتماعية. حتى إن السيدة "كامبريمير" ذاتها غدت غير مبالية كثيرا بلطف دوقة "غيرمانت". وبما أن دوقة "غيرمانت" التي كانت مجبرة على معاشرة المركيزة، لاحظت كما يحصل غالبا في كل مرة نعايش فيها الأشخاص أكثر، أي أننا نلمس الكثير من الفضائل التي نكتشفها في نهاية المطاف أو تظهر لنا العيوب فنعتادها في آخر الأمر، لاحظت أن السيدة "دى كامبريمير" كانت امرأة تتمتع بذكاء وثقافة، لم أكن أنا شخصيا أقدرهما، لكنهما كما يبدو أثارا إعجاب الدوقة. لذلك كانت تأتي غالبا في المساء لرؤية السيدة "دى كامبريمير" وقضاء الكثير من الوقت في زيارتها. لكن تلك الأخيرة عندما لاحظت أن الدوقة تسعى لرؤيتها، فقدت شعورها بالسحر الرائع الذي كانت ترى أن دوقة "دى غيرمانت" تتمتع به. فكانت تستقبلها أدبا وليس عن رغبة.

لقد حصل أيضا تغير أكثر أهمية لدى "جيلبرت"، تغير مواز ومختلف في الوقت نفسه عن التغير الذي طرأ على "سوان" بعد زواجه. لا شك أن "جيلبرت" كانت سعيدة في الأشهر الأولى لاستقبالها في بيتها المجتمع المخملي، ولكن وبحكم العادة، كان يدعى الأصدقاء الحميميون الذين تتمسك بهم أمه، ولكن في بعض الأيام يكونون وحدهم منزوين وبعيدين عن الأكابر، كما لو أن احتكاك السيدة "بونتان" (Bontemps) أو السيدة "كوتار" (Cottard) مع أميرة "غيرمانت" أو أميرة "بارم"، سبب كوارث لا يمكن إصلاحها كالتي تحدث عندما يحتك نوعان من البارود غير المصفى. إلا أن آل "بونتان" و "كوشار" والآخرين، على الرغم من شعورهم بالخيبة لأنهم كانوا يأكلون وحدهم، فإنهم كانوا يفخرون لاستطاعتهم القول : "لقد تعشينا عند المركيزة "دى سان لو"، وتذهب الجرأة بهم فيدعون معهم السيدة "دى مارسانت"،

فكانت تظهر نفسها كسيدة عظيمة حقيقية مع مروحتها المصنوعة من درع السلحفاة (d'écaille) والريش، كل ذلك كان يصب في مصلحة الإرث. كانت تحرص فقط من حين لآخر على مدح الأشخاص الخجولين الذين لا نراهم إلا إذا هي بادرتهم بتحية لبقة ومتعالية، كان هذا التلميح موجهاً لمن أراد أن يسمعه من آل "كوتار" و"البونتان"، إلخ. ربما بسبب عشيقتي في "باالبيك" وبسبب العمة التي كنت أحب أن تراني في هذه الأوساط، كنت أفضل أن أكون جزءاً من هذه المجموعة. ولكن "جيلبرت" التي كانت تعتبرني الآن مجرد صديق لزوجها ولآل "غيرمانت" (وربما أيضاً منذ أيام "كومبري" عندما كان أهلي لا يزورون أمها، ومنذ العمر الذي لا نكتفي فيه بإضافة هذه الحسنة أو تلك على الأشياء، بل نصنفها بحسب أنواعها، منذ تلك الفترة، كانت "جيلبرت" قد خصتني بتلك الأبّهة التي لا نفقدها بعد ذلك)؛ فكانت تعتبر أن هذه السهرات غير جديرة بي وكانت تقول لي عندما أذهب : "لقد سررت جداً برؤيتك ولكن الأفضل أن تأتي بعد غد لكي تتمكن من رؤية خالتي "غيرمانت" والسيدة "دى بوا" (de Poix)؛ لقد دعوت اليوم أصدقاء أمي لكي أسعدَها". لكن ذلك استمر فقط عدة أشهر ثم تغيّر جذرياً فيما بعد. هل السبب هو أن حياة "جيلبرت" الإجتماعية يجب أن تبدي نفس التناقضات الموجودة في حياة "سوان"؟ على أية حال لم تكن "جيلبرت" قد أصبحت المركيزة "دى سان لو" إلا منذ فترة قصيرة (وعما قريب ستصبح، كما سنرى، دوقة "غيرمانت")، وبما أنها قد حصلت على الأرفع والأصعب، اعتقدت أن اسم "غيرمانت" قد امتزج بها كميناء أسمر ومُذهب، وأنها — وإن عاشرت أي شخص — فسوف تبقى بالنسبة للجميع دوقة "غيرمانت" (وهذا خطأ لأن ألقاب النبلاء مثل سندات البورصة، تصعد عندما نطلبها، وتهبط عندما نعرضها للبيع(*))، أي أنها كانت توافق رأي أحد شخصيات الأوبيريت

(*) كل ما يبدو لنا غير فان يترع نحو التهدم؛ إن المكانة الاجتماعية، مثلها مثل أي شيء آخر، لا تُبنى لتبقى إلى الأبد، كما تبنى عظمة الإمبراطورية في كل لحظة بواسطة نوع من الخلق المستمر، مما يفسر الشذوذ الواضح في التاريخ الاجتماعي أو السياسي خلال نصف قرن. إن خلق العالم لم يتم في البداية، بل تم يوماً بعد يوم. كانت المركيزة "دى سان لو" تقول لنفسها : "أنا المركيزة دى سان لو"، وكانت تعرف أنها رفضت بالأمس ثلاث دعوات موجهة إليها من قبل بعض الدوقات. ولكن حتى ولو أن اسمها يرفع، إلى حد ما، من سوية الوسط الأقل أرستقراطية الذي كانت تستقبله، فإن هذا الوسط الذي تستقبله المركيزة كان وبحركة معاكسة، يقلل من شأن الاسم الذي تحمله. لا شيء يمكنه مقاومة حركات كهذه، وأكبر الأسماء سوف تؤول إلى السقوط. ألم يعرف "سوان" تلك الأميرة من بيت فرنسا (La maison de France) التي فقد صالونها مرتبته لأنها كانت تستقبل فيه كل الناس؟ في اليوم الذي ذهبت فيه الأميرة "دى لوم"، بنوع من أنواع الواجب، لتقضي بعض الوقت مع جلالتها، فلم تجد إلا أناسا لا معنى لهم. ثم عندما ذهبت بعد ذلك إلى بيت السيدة "لوروا" (Le roi) قالت لـ"سوان" وللمركيزة "دى مودين" (de Modène) : "أخيرا وجدت نفسي في بلد صديق. لقد أتيت من بيت الكونتيسة فلانة...، ولم يكن هناك ثلاثة وجوه معروفة".

الذي أعلن : "إن اسمي يعفيني، على ما أظن، من أن أقول المزيد". وبدأت تبدي احتقارها لكل ما حلمت به طويلاً، وراحت تعلن أن سكان حي "سان جيرمان" هم أغبياء لا يمكن معاشرتهم، وأتبعت أقوالها بالأفعال وامتنعت عن الاختلاط بهم. إن الناس الذين تعرفوا عليها بعد تلك الفترة، والذين في بداية معرفتهم بها، سمعوا دوقة "غيرمانت" هذه تسخر بطريقة مضحكة من المجتمع الراقي الذي تستطيع مقابلته بسهولة، أدركوا أنها لم تكن تستقبل أي شخص ينتمي لهذا المجتمع، وإن تجرأ أحد أفراده، وحتى أذكاهم، على زيارتها، كانت تتثاءب في وجهه. كان هؤلاء الأشخاص الحديثو المعرفة بها، يحمرون خجلاً لأنهم انبهروا ببعض مظاهر هذا العالم الكبير، ولم يجرؤوا أبداً على البوح بضعفهم الماضي لامرأة كانوا يعتقدون أنها بسبب ترفعها الطبيعي، لا يمكنها أن تفهم مواطن الضعف هذه. كانوا يسمعونها تسخر بمهارة من الدوقات، وكانوا يرونها، وهذا أمر أشد دلالة، تساوق بين سلوكها وبين هذه السخرية! لا شك أنهم ما كانوا يسعون لمعرفة الحادث الذي جعل من الآنسة "سوان" الآنسة "دى فورشوفيل"، ومن الآنسة "دى فورشوفيل" المركيزة "دى سان لو" ثم دوقة "غيرمانت" فيما بعد. ربما لم يكونوا يفكرون أيضاً بأن هذا الحادث لن يخدم، لا بنتائجه ولا بأسبابه، في تفسير الموقف اللاحق ل"جيلبرت"، ذلك أن مصاحبة الدهماء لم تكن مماثلة للطريقة نفسها التي تتصورها الآنسة "سوان" أو التي تتصورها سيدة يدعوها الجميع "السيدة الدوقة"، وكانت الدوقات اللواتي يسببن لها الملل هن "ابنة عمي". إننا نحتقر بسهولة هدفاً لم ننجح في تحقيقه أو هدفاً حققناه تماماً. ويبدو لنا أن هذا الاحتقار يشكل جزءاً من الأشخاص الذين لا نعرفهم. لو تمكنا من العودة إلى الماضي، هل كنا سنجدهم ممزقين بعنف، أكثر من أي شخص، بسبب هذه الأخطاء نفسها الذين استطاعوا حجبها بشكل كامل أو تغلبوا عليها، بحيث لا نعتقد فقط أنهم منزّهون عن ارتكاب تلك الأخطاء، بل عن مسامحة الآخرين إذا ارتكبوها، لأنهم عاجزون عن تصور وجودها. ومن جهة أخرى فقد اتخذ صالون الماركيزة الجديدة "دى سان لو" طابعه النهائي (على الأقل في نظر المجتمع، لأننا سنرى بعد ذلك أية اضطرابات سوف يعاني منها بالتالي). إلا أن هذا الطابع كان مفاجئاً في تلك الناحية. لا نزال نذكر أن الاستقبالات الأكثر فخامة والأكثر رقياً في باريس، تلك التي تعادل في بريقها استقبالات أميرة "غيرمانت"، كانت حفلات استقبال السيدة "مارسانت" أم "سان لو". ومن ناحية أخرى، في الآونة الأخيرة، كان صالون "اوديت" المصنف

بشكل أقل بكثير، لم يكن يقل عنها روعة بسبب فخامته وأناقته. إلا أن "سان لو" الذي أسعده الحصول على كل ما كان يشتهيه من رغد بسبب ثروة زوجته، لم يكن يفكر في أكثر من أن يرتاح بعد عشاء جيد كان فيه الفنانون يقدمون له الموسيقى الراقية. وهذا الشاب الذي بدا في يوم من الأيام شديد الفخر والطموح كان يدعو بعض الأصحاب الذين كانت أمه تستقبلهم، لمشاطرته ترفه. أما "جيلبرت" فقد كانت من طرفها تطبق قول "سوان" : "إن النوعية لا تهمني كثيراً ولكنني أخشى الكمية". و"سان لو" الذي كان جاثياً أمام زوجته، لأنه يحبها ولأنه بفضلها كان يتمتع بهذا الرخاء، لم يكن يقوى على معارضة أهوائها القريبة جداً من أهوائه. بحيث أن كل حفلات الاستقبال الكبيرة التي أقامتها السيدة "دى مارسانت" والسيدة "دى فورشفيل" خلال سنوات وخاصة بمناسبة الزواج الباهر لولديهما، لم تشمل أبداً هذه الدعوات قط السيد والسيدة "دى سان لو". كانا يملكان أجمل الخيول لكي يركبا الحصان معاً، وأجمل يخت للرحلات البحرية ــ وما كانا يصطحبان فيه أكثر من مدعوين فقط؛ وبنوع من التراجع الطبيعي ولكن غير المتوقع، استعاضا في النهاية بعش صامت، بدل بَيتي الطيور الكبيرين اللذين كانت تمتلكهما والدتاهما.

إن الشخص الذي استفاد في أقل درجة من هذين الزواجيين، هو الآنسة "دولورون" التي كانت مصابة بالحمى التيفية يوم الزواج الكنسي، فجرّت نفسها جرا إلى الكنيسة وماتت بعد أسابيع قليلة. وبطاقة نعيها التي كتبت بعد موتها بأيام قليلة كانت تجمع بالإضافة إلى أسماء عديدة مثل "جوبيان" كل أسماء عظماء أوروبا من أمثال الفيكونت والفيكونتيسة "دى مونتمورانسي" (de Montmorency) ، وصاحبة الجلالة، والكونتيسة "دى بوربون ــ سواسون" (de Burbon -Soissons) والأمير "دى مودين ــ ايست" (de Modène-Este) ، والفيكونتيسة "دى ايدوميا" (d'Edumea) والليدي "اسيكس" (Essex) ، إلخ، إلخ. ولكن حتى بالنسبة للذين يعرفون أن المرحومة هي ابنة "جوبيان" فإن عدد هذه الصلات العائلية الكبرى لم يكن مفاجئاً. كل ما يتطلبه الأمر هو الحصول على صلة قربى مع عائلة كبيرة. وهكذا فإن حالة التضامن قد لعبت دورها، وموت الفتاة التي تنحدر من عامة الشعب جعل جميع عائلات الأمراء الأوروبيين في حالة حداد. لكن الكثير من شبان الجيل الجديد الذين لم يكونوا يعرفون الوضع الحقيقي، بالإضافة إلى أنهم كانوا يستطيعون الاعتقاد أن "ماري انطوانيت دولورون" (Marie-Antoinette d 'Oloron)، مركيزة "كامبريمير" هي سيدة نبيلة المولد، وقد يرتكبون الكثير من الأخطاء كذلك

لدى قراءتهم بطاقة النعي تلك. ولو أن تجوالهم عبر فرنسا عرفهم قليلا بمنطقة "كومبري"، فإنهم لدى رؤيتهم أسماء السيدة " ل. دى ميزيغليز " (L de Méséglise) والكونت "دى ميزيغليز" في أول الأسماء وبالقرب من اسم الدوق "دى غيرمانت" لن يدهشوا للأمر: إن جانب منازل "غيرمانت" وجانب منازل "ميزيغليز" قريبان جدا من بعضهما، "قطبقة النبلاء العتيقة التي تعيش في نفس المنطقة ربما تصاهرت من بعضها منذ أجيال عديدة، هذا ما كانوا سيقولون. من يدري؟ ربما هو فرع من "غيرمانت" هذا الذي يحمل اسم "ميزيغليز" ". إلا أن الكونت "ميزيغليز" لم تكن له أي علاقة مع ال"غيرمانت" حتى أنه لا يشكل فرعا جانب منازل "غيرمانت" بل جانب منازل "كامبريمير"، لأن الكونت "ميزيغليز"، الذي بسبب تقدمه السريع، لم يبق إلا سنتين باسم "لوغراندان دى ميزيغليز"، إنه صديقنا القديم "لوغراندان". لقب مزيف من أجل لقب مزيف، لا شك أنه لم يكن هناك شيء يكرهه ال"غيرمانت" أكثر من كرههم هذا الشخص. لقد كانوا فيما مضى أقرباء لكونتات ميزيغليز" الحقيقيين، الذين لم يتبق منهم إلا امرأة واحدة، ابنة أناس غامضين ومزعجين وقد تزوجت من مزارع كبير اغتنى لأن خالتي اشترت منه "ميروغران" (Mirougrain)، لقد كان اسمه (ميناجيه Ménager)، وهو الآن يلقب نفسه "ميناجيه دى ميروغران"، بحيث يقال إن زوجته قد ولدت في "ميزيغليز" وأنها من "ميزيغليز" كما أن زوجها هو من "ميروغران".

إن أي لقب مزيف آخر كان ليسبب مشاكل أقل بالنسبة لآل "غيرمانت". ولكن الأرستقراطية تحسن تحمل ذلك، وأشياء أخرى أيضا، بمجرد أن يدخل في الموضوع أمر زواج يعتبر مفيدا من وجهة نظر ما. وهكذا بتغطية من دوق "غيرمانت" أصبح "لوغراندان" يخص قسما من هذا الجيل، وسيغدو كذلك للبقية التي ستأتي فيما بعد، أي لعائلة الكونت "ميزيغليز" الحقيقي.

خطأ آخر قد يرتكبه أي قارىء شاب ليس على دراية تامة بالأمور، كأن يعتقد أن اسمي البارون والبارونة "دى مورشوفيل" كانا قد ذكرا لأنهما من أهل وعائلة حمى المركيز "دى سان لو"، أي أنهما من جانب منازل "غيرمانت". ولكن لا يمكن أن يذكرا من ذلك الجانب لأن "روبير" هو الذي كان قريب ال"غيرمانت" وليس "جيلبرت". لا، إن بارون وبارونة "دى فورشوفيل" وعلى الرغم من المظهر الخادع، هما حقا من أقرباء العروس، وليس من ناحية "كامبريمير"، وليس بسبب "غيرمانت" بل بسبب "جوبيان"، والذي يعرف قارئنا المضطلع بأن "اوديت" هي ابنة عمه الشقيق.

لقد انصب كل اهتمام السيد "دى شارلو" بعد زواج ابنته بالتبني من المركيز الشاب "دى كامبريمير" الذي كانت ميوله مطابقة لميول البارون، ولكن دون أن تمنعه من اختياره كزوج للآنسة "دولورون". وكان من الطبيعي أن يقدر تلك الميول بشكل أكبر عندما أصبح أرمل. لكن ذلك لا يعني أن المركيز لم يكن يتحلى بصفات أخرى لتجعل منه صاحبا رائعا للسيد "دى شارلو". لكن الموضوع يتعلق برجل رفيع المقام، وهي خصلة لا ينكرها الشخص الذي قبل به في حياته الخاصة، كما أنها تجعل منه الرجل الملائم لأنه يحسن أيضا لعبة الورق "الويست" (whist). لقد كان ذكاء المركيز الشاب حادا، وكما كان الناس يقولون في "فيتيرن" (Féterne)، فهو لا يزال طفلا، وكان إلى "جانب جدته" تماما، متحمسا مثلها وموسيقيا أيضا. وكان يعيد أيضا بعض خصوصياتها ولكنها كانت بدافع التقليد وليس بدافع الوراثة. وهكذا بعد وفاة زوجته بوقت قصير، تسلمت رسالة موقعة باسم "ليونور" (Léonor)، وحسب ما أذكر فإن هذاالاسم الصغير لم يكن اسمه، وعرفت فقط هوية الشخص الذي كتب لي عندما قرأت العبارة النهائية : "ثق بصدق عاطفتي". وعندما وضعت كلمة "صدق" في مكانها أضافت إلى اسم "ليونور" كنية "كامبريمير".

كان القطار قد وصل إلى محطة باريس ولم نزل أنا وأمي نتكلم عن هذين الخبرين، لكي لا يبدو لي الطريق طويلا، أرادت أمي أن تحتفظ بهما للقسم الثاني من الرحلة ولم تطلعني عليهما إلا بعد أن اجتزنا مدينة ميلانو. لقد عادت أمي سريعا إلى وجهة النظر التي كانت هي الوحيدة بالنسبة لها، إنها وجهة نظر جدتي. قالت أمي في البداية إن الخبر سيدهش جدتي، ثم قالت إنه سيحزنها، وكل ذلك كان يعني ببساطة أن جدتي كانت ستسر من خبر مدهش كهذا، وأن أمي لم تكن تتحمل أن تحرم جدتي من متعة ما، لذلك كانت تفضل الاعتقاد أن الأمور تسير نحو الأفضل، وأن هذا الخبر لم يكن ليجلب لها إلا الحزن. ما كدنا ندخل إلى المنزل حتى شعرت أن الأسف الشديد الأنانية يكمن في عدم إشراك جدتي في كل هذه المفاجئات التي تدخرها الحياة لنا. وآثرت الاعتقاد أن هذه المفاجآت لن تبغت جدتي، بل تؤكد توقعاتها. كانت تحب أن ترى فيها تأكيدا لرؤى جدتي التنبؤية، وبرهانا على أن جدتي كانت تمتلك تفكيرا أكثر عمقا، وبصيرة وصحة سليمتين أكثر مما كنا نعتقد. ولكي تصل أمي إلى وجهة نظر الإعجاب الصافي تلك، بادرت قائلة : "ومع ذلك، من يدري، فقد توافق جدتك على ذلك؟ لقد كانت متسامحة جدا. ثم إنك تعرف أن المكانة الاجتماعية لم تكن تعني لها شيئا،

المهم هو هذا التفرد الطبيعي. لكن تذكر، تذكر، كم هذا غريب، لقد أعجبت بكلتيهما. هل تذكر تلك الزيارة الأولى للسيدة "فيلباريسي"، عندما عادت وعبرت لنا عن شعورها بأن السيد "غيرمانت" شخص عادي، في حين أنها أثنت كثيرا على "جوبيان". يا لأمي المسكينة، هل تذكر؟ كانت تقول عن الأب: لو كان عندي فتاة أخرى لكنت زوجتها إياه، وابنته هي أيضا أفضل منه. و"سوان" الصغيرة كانت تقول عنها : إنها رائعة، سوف ترون، إنها ستوفق في زواج جيد. يا لأمي المسكينة، لو كان باستطاعتها أن ترى ذلك، لقد صدقت تنبؤاتها! حتى النهاية، وعلى الرغم من أنها رحلت عنا، إلا أنها تستمر في إعطائنا دروسا في البصيرة والطيبة وحسن تقدير الأشياء". وبما أننا كنا نتألم لحرمان جدتي من هذه المسرات، فإنها كانت مسرات صغيرة ومتواضعة في الحياة : كنبرة صوت ممثل كان من الممكن أن تسليها، أو طبق كانت تحبه، أو رواية جديدة لكاتب كانت تفضله. كانت أمي تقول : "كم كان ذلك سيدهشها، أو كم كان سيسليها! بأية رسالة جميلة كانت سترد!" وكانت أمي تستطرد قائلة : "هل تعتقد أن "سوان" المسكين الذي كان يتمنى كثيرا أن تستقبل عائلة آل "غيرمانت" ابنته "جيلبرت"، هل كان سيسعد إذا أصبحت ابنته فردا من عائلة "غيرمانت"؟ ـــ باسم غير اسمه، أن تقاد إلى مذبح الكنيسة تحت اسم الآنسة "دى فورشوفيل"، هل تعتقد أنه كان سيفرح لذلك؟ ـــ آه، حقا، لقد نسيت ـــ السبب الذي منعني من أن أفرح من أجل هذه الصغيرة "الشريرة" هو أن قلبها طاوعها على ترك اسم أبيها الذي كان طيبا جدا معها. ـــ أجل، معك حق، في النهاية، ربما كان من الأفضل لها ألا تعلم بذلك". بالنسبة للأموات كما بالنسبة للأحياء، لا يمكننا أن نخمن إذا كان هذا الأمر سيسبب لهم السعادة أم الحزن! "يبدو أن عائلة "سان لو" سوف تسكن في "تانسونفيل" (Tansonville). إن الأب "سوان" الذي كان يرغب كثيرا في أن يعرف جدك المسكين على مستنقعه، هل كان بإمكانه أن يفترض أن دوق "غيرمانت" كان سيراه بكثرة، وخاصة إذا علم بزواج ابنه المخزي؟ في النهاية، أنت الذي حدثت "سان لو" مطولا عن الأشواك الزهرية وعن الليلك والسوسن في "تانسونفيل"، سوف يفهمك بشكل أفضل. إنه هو الذي سوف يمتلكها". وهكذا كانت تجري في قاعة الطعام الوفية في بيتنا، وعلى ضوء المصباح الصديق، كان يجري أحد تلك الأحاديث فتستحوذ حكمة العائلات، وليس حكمة الشعوب، على بعض الأحداث، كالموت أو الخطبة أو الميراث أو الإفلاس، ثم تضعها تحت عدسة الذاكرة المكبرة، فتزيدها نتوءا، وتفصل، وتؤخر، وتضع في المنظور وفي النقاط المختلفة من المكان والزمان، ما يبدو بالنسبة للذين لم يعرفوها، أن أسماء

المتوفين والعناوين المتلاحقة وأصول الثروة وتغيراتها، وانتقال الملكية قد اختلطت على سطح واحد. إن هذه الحكمة لم تكن من وحي الإلهة التي يجب أن نتنكر لها أطول وقت ممكن، إذا أردنا الاحتفاظ ببعض الانطباعات الطازجة أو ببعض الفضائل الخلاقة. ولكن حتى أولئك الذين تجاهلوها سوف يقابلون في إحدى أماسي حياتهم، في أحد أروقة الكنيسة الريفية القديمة، وفي ساعة يشعرون فيها فجأة أنهم أقل تحسسا للجمال الأزلي الذي تعبر عنه منحوتات المذبح، من تحسسهم لمعرفتهم الأقدار المختلفة التي ستعيشها تلك المنحوتات، فتنتقل من المجموعات الخاصة إلى كنيسة صغيرة ثم إلى متحف ثم تعود إلى الكنيسة مجددا، أو من تحسسهم أنهم حين يسيرون فإنهم يطأون بلاطة تكاد تكون عاقلة، ومصنوعة من بقايا رماد "ارنولد" (Arnauld) أو "باسكال" (Pascal)[1]؛ أو أنهم بكل بساطة وهم يتخيلون ربما وجه فتاة ريفية نضر أثناء محاولتهم قراءة أسماء بنات الأعيان أو النبلاء الريفيين من على الصفحة النحاسية للمصلى الخشبي، إنهم سوف يقابلون ربة الألهام التي جمعت كل ما رفضته ربات الإلهام من فلسفة وفنون، كل ما هو غير مؤسس حقا، وكل ما هو عرضي، ولكنهم سيكتشفون قوانين أخرى : سيكتشفون التاريخ!

لقد جاءت بعض صديقات أمي القديمات، وكلهن من "كومبري" تقريبا، لرؤيتها والتحدث معها عن زواج "جيلبرت" الذي لم ينشدهن له إطلاقا. "هل تعرفين من هي الآنسة "دى فورشوفيل"، إنها ببساطة الآنسة "سوان". وشاهدها في عقد الزواج البارون "دى شارلو" كما كان يلقب نفسه، ما هو إلا هذا الكهل الذي كان يرعى فيما مضى أمها على مرأى ومسمع من "سوان" الذي كان يرى في ذلك مصلحته". فاحتجت أمي قائلة: ـ "ولكن ما هذا الذي تقلنه؟ أولا لقد كان "سوان" غنيا جدا. ـ يجب أن يصدق المرء أنه لم يكن على هذه الدرجة من الثراء بحيث يحتاج إلى مال الآخرين. ما الذي تمتلكه تلك المرأة إذن لكي تسيطر على عشاقها بهذه الصورة؟ لقد وجدت الوسيلة لكي يتزوجها الأول ثم الثالث وها هي تكاد تنشل الثاني من القبر لكي تستخدمه كشاهد على زواج ابنتها من عشيقها الأول أو من عشيق آخر. فكيف يستطيع الإنسان أن يتعرف على نفسه وسط هذه الكمية؟ هي نفسها لم تعد تعرف أي شيء! أقول الثالث، ولكن يجب أن نقول إنه رقم ثلاث مئة. فيما تبقى فأنت تعرفين أنها ليست من عائلة "فورشفيل" أكثر منك أو مني،

---

(١) في القرن السابع عشر لمع اسم "أرنو" اللاهوتي و"باسكال" العالم واللاهوتي. وكانا كلاهما من مؤيدي اللاهوت الجانسيني المأساوي. (المترجم)

وهذا يتناسب تماما مع الزوج الذي هو بطبيعة الحال ليس نبيلا. تعرفين أنه يجب أن يكون الرجل مغامرا ليتزوج من تلك الفتاة. يبدو أنه السيد "فلان" أو "علان"، أو أي شيء من هذا القبيل. ولو لم يوجد حاليا في "كومبري" هذا العمدة الراديكالي الذي لا يسلم حتى على الكاهن، لكنت عرفت أدق التفاصيل. إنه شيء جميل جدا بالنسبة للصحف وأصحاب دكاكين القرطاسية الذين يبعثون بطاقات الدعوات الخاصة أن يلقبوا أنفسهم بلقب الماركيز "دى سان لو". هذا أمر لا يزعج أحدا، وإن أمتع هؤلاء الناس البسطاء، فلست أنا الذي سيعيب عليه هذا ، لأنه لا يؤثر في بأي شكل من الأشكال. كيف لا أعاشر ابنة امرأة جعلت الناس ينالونها بأحاديثهم كثيرا، فبإمكانها أن تكون مركيزة تحكم سيطرتها على خادماتها. ولكن الأمر مختلف تماما في سجلات الأحوال المدنية. آه لو أن ابن عمي "سازيرا" (Sazerat) ما زال المعاون الأول في هذه المؤسسة، لكنت كتبت له، فلأخبرني تحت أي اسم بالضبط سجل الزواج".

من ناحية أخرى كنت أرى في تلك الفترة بكثرة "جيلبرت" التي عادت علاقتي بها من جديد، لأن حياتنا على طولها، ليست محسوبة حسب حياة صداقاتنا. بعد مرور فترة من الوقت نرى من جديد ظهور علاقات صداقة بين نفس الأشخاص الذين كانوا أصدقاء فيما مضى (كما في السياسة تعود بعض الوزارات وكما تعود إلى المسرح بعض المسرحيات المنسية فيعاد تمثيلها). بعد مرور عشر سنين يفقد هذا المرء الأسباب التي دفعته للحب بشدة ويفقد هذا الآخر الأسباب التي جعلته لا يطيق تحمل هذا التسلط الشديد التطلب، إن هذه الأسباب لم تعد موجودة. وحدها اللياقة تبقى، وكل ما رفضت أن تعطيني إياه "جيلبرت" فيما مضى، سوف تعطيني إياه بسهولة لأني لم أعد أرغب فيه. و ما بدا لها غير مقبول أو مستحيلا آنذاك، دون أن يعرب المرء أبدا عن سبب التغيير، فإنها سوف تكون مستعدة دائما لتأتي إلي، غير مستعجلة لتركي، ذلك لأن الحاجز قد اختفى : ألا وهو حبي.

كنت سأذهب بعد حين لقضاء عدة أيام في "تانسونفيل"(*)، إذ علمت أن "جيلبرت" بائسة لأن "روبير" قد خدعها، ولكن ليس بالطريقة الذي يظنها

(*) في الواقع كان هذا السفر يزعجني لأنه كان عندي فتاة تنام في البيت الذي استأجرته كموطىء قدم لي في باريس. كما يحتاج البعض لعطر الغابة وخرير النهر، كنت أحتاج إلى نومها بالقرب مني ليلا، وبقائها تلاصقني في سيارتي، نهارا. الحب لا ينسى ولكنه يحدد شكل الحب الذي سوف يتبعه. حتى العادات اليومية التي كانت موجودة في حبنا السابق، والتي لم نعد نذكر أصلها! إنه قلق اليوم الأول الذي جعلنا نتمنى بشغف بعض الأشياء، ثم نتخذها بشكل دائم كالعودة بالسيارة إلى بيت الحبيبة، أو إسكانها في بيتنا، أو وجودنا أو وجود شخص نثق به في كل هذه النزهات : كل هذه العادات هي نوع من الطرق الكبيرة الموحدة

الناس، والتي تظنها هي، كما قالت على أية حال. لكن حب الذات، والرغبة في خداع الآخرين، وخداع أنفسنا والمعرفة الناقصة بالخيانات، التي هي معرفة جميع المخدوعين، خاصة وأن "روبير" الذي هو فعلاً ابن أخ السيد "دى شارلو"، كان يتعمّد الظهور بصحبة عدد من النساء مما أساء لسمعتهن فاعتقد الناس و"جيلبرت" أيضاً أنهن عشيقاته... حتى أنه في أوساط المجتمع كنا نلاحظ أنه لا يخجل من ملاحقته الشديدة لإحدى النساء في السهرات ثم إيصالها إلى بيتها، تاركاً السيدة "دى سان لو" تتدبّر أمر عودتها كيفما استطاعت. من كان يجرؤ على القول إن تلك المرأة التي كان يورطها بهذه الطريقة، لم تكن في الواقع عشيقته، كان يُعتبر ساذجاً وأعمى أمام الحقيقة الواضحة. ولكنني لسوء الحظ وجدت الحقيقة التي سببت لي ألماً لا يوصف، بسبب عدة كلمات قالها "جوبيان" عن غير قصد. كم كانت دهشتي عظيمة حين ذهبت قبل عدة أشهر من سفري إلى "تانسونفيل" لأسأل عن أخبار صحة السيد "دى شارلوس" الذي كان يعاني من اضطرابات قلبية مقلقة للغاية، وحينما تحدثت مع جوبيان، الذي وجدته بمفرده، عن رسالة غرامية موجهة إلى "روبير" ومذيلة بتوقيع "بوبيت" (Bobette) ، كانت السيدة "دى سان لو" قد وجدتها، وهكذا علمت من "جوبيان" المشرف السابق على شؤون منزله، أن الشخص الذي يوقع باسم "بوبيت" ليس إلا عازف الكمان ومدون الأخبار الذي تحدثنا عنه والذي لعب دوراً كبيراً في حياة "دى شارلوس"! فتحدّث "جوبيان" عنه باستياء قائلاً : " كان هذا الصبي حراً يتصرف على هواه. ولكن إذا كانت هناك ناحية لا يحق له أن ينظر إليها، فهي ناحية ابن أخ البارون. لا سيما وأن البارون كان يحب ابن أخيه كما لو كان ابنه؛ لقد حاول تهديم تلك العائلة، يا للعار! وقد توجب لذلك وضعُ حيل جهنمية، إذ كان المركيز "دى سان لو" بطبيعته يعارض تلك الأشياء أكثر من أي شخص كان. هل اقترف كثيراً من الحماقات من أجل عشيقاته! لا، لقد ترك هذا العازف البارون بطريقة قذرة، ويمكننا أن نقول ذلك إذ كانت القذارة اختصاصه. ولكن أن يتحول إلى ابن الأخ! فهذه أشياء لا يقبل بها أحد." لقد كان "جوبيان" صادقاً في استيائه؛ فإنه عند الأشخاص الأخلاقيين، يكون الحس الأخلاقي قوياً كما هو الحال بالنسبة للأشخاص الآخرين، ولكن موضوع الاستياء هو الذي

في شكلها التي يَعبُرُها حبنا كل يوم والتي انصهرت سابقاً في النار البركانية لعاطفة متأججة. لكن هذه العادات تبقى حتى بعد رحيل ذكرى المرأة، فتغدو الشكل المعتمد لجميع قصص حبنا، أو على الأقل لبعض القصص التي يمكن أن تتناوب فيما بينها. وهكذا فقد فرض علي، كذكرى لـ"البيرتين" المنسية، وجود عشيقتي الحالية التي أخفيتها عن زائري والتي ملأت حياتي كما ملأتها "البيرتين" في السابق. وكي أذهب إلى "تانسونفيل" أصرَرت على أن تقبل بأن يحرسها في غيابي لعدة أيام، أحد أصدقائي الذين لا يحبون النساء.

يتغير. بالإضافة إلى ذلك فإن الأشخاص الذين لا يكون قلبهم هو المستهدف مباشرة، فإنه بوسعهم الحكم على العلاقات التي يجب تفاديها، والزيجات السيئة، كما لو أننا أحرار في اختيار من نحب، فهم لا يأخذون بعين الاعتبار الملذات التي يبرزها الحب والتي تغلف بشكل كامل ومتفرد الشخص المعشوق، حتى أن "الحماقة" التي يرتكبها رجل ما حين يتزوج من طباخة أو من عشيقة أعز صديق له، هي على وجه العموم التصرف الشاعري الوحيد الذي يقوم به خلال حياته كلها.

علمت أن قطيعة كادت تقع بين "روبير" وزوجته (وذلك دون أن تعي "جيلبرت" ماذا حصل تماما) وكانت السيدة "دى مارسانت" التي هي أم مُحبّة، وطموحة وفيلسوفة هي التي أصلحت كل شيء وفرضت المصالحة. كانت تنتمي إلى تلك الأوساط التي يتم فيها باستمرار التزاوج بين الأقارب، مما يجعل الثروات تتناقص فتتفاقم في مجال الأهواء الرذائل والشبهات المتوارثة والمصالحُ أيضاً. وهكذا فقد دافعت بنفس الحمية القديمة عن زواج السيدة "سوان" وزواج ابنة "جوبيان" وزواج ابنها من "جيلبرت"، مستخدمة من أجله وبإذعان مؤلم، نفسَ الحكمة الموروثة التي وظفتها لمصلحة الحيّ بأكمله. ألم تسرّع كثيراً هي نفسُها زواج "روبير" من "جيلبرت" في وقت من الأوقات، مما كلفها مشقة وحزناً أقل مما سببتها لها قطيعته مع "راشيل" (Rachel)؟ وخشيت أن يعيد الكرّة مع "امرأة سخيفة" أخرى ــ أو ربما مع "راشيل" نفسها لأن "روبير" لم ينساها بسهولة ــ كان كم الممكن أن يجد خلاصه في هذا الزواج الجديد. لقد فهمت الآن ما أراد "روبير" أن يخبرني به في بيت أميرة "غيرمانت" إذ قال : "من المؤسف أن صاحبتك القديمة في "بالبيك" لا تملك الثروة التي تتطلبها أمي، أعتقد أننا كنا سنتفاهم نحن الإثنين". لقد أراد أن يقول إنها من مدينة "عمورة" كما هو من مدينة "سادوم"، وحتى وإن لم يكن قد أصبح كذلك، فهو لم يكن يستمتع إلا بالنساء اللواتي يستطيع أن يحبهن بوضعية من الوضعيات وبوجود نساء أخريات. لقد كان بإمكان "جيلبرت" كذلك أن تخبرني عن "البيرتين". باستثناء بعض أوقات النكوص إلى الماضي، لو حصل أن فقدت الفضول لمعرفة أي شيء عن صديقتي، لكان بإمكاني سؤال "جيلبرت" وحتى زوجها عن "البيرتين". في الواقع لقد كان ذلك هو الدافع نفسه الذي دفعنا أنا و"روبير" إلى الرغبة في الزواج من "البيرتين" (أي أنها تحب النساء). لكن أسباب رغبتنا، وكذلك أهدافها كانت متعارضة. فكان دافعي أنا هو اليأس الذي أحسست به حين علمت بالأمر، أما "روبير" فقد كان دافعه الرضى؛ أنا لكي أمنعها عن ممارسة أهوائها بواسطة

مراقبتي الدائمة لها، أما "روبير" فقد كان من أجل تنمية هذا الميل لديها عن طريق الحرية التي كان يتركها لها في استقبال صديقاتها.

إذا كان "جوبيان" يعيد إلى وقت قريب نبأ الميل الجديد، المختلف تماماً عن الأول، والذي توجهت نحوه أهواء "روبير" الجسدية، فإن حديثاً جرى بيني وبين "ايميه" قد آلمني كثيراً وأظهر لي أن مدير فندق "بالبيك" القديم يعيد هذا الاختلاف وهذا الانقلاب إلى تاريخ أبعد من ذلك بكثير.

كانت مناسبة هذا الحديث إقامتي في "بالبيك" لعدة أيام، حيث كان "سان لو" في إجازة طويلة، وقد جاء مع زوجته التي لم يكن يبتعد عنها في البداية مقدار خطوة واحدة. لقد أعجبت بتأثير "راشيل" الواضح على "روبير". إن عريساً جديداً كانت له عشيقة لفترة طويلة، هو الوحيد الذي يعرف نزع معطف زوجته قبل الدخول إلى المطعم، ويعرف كيف يعاملها بالتقدير والاحترام اللازمين. لقد تلقى خلال علاقته التربية التي يجب على الزوج الصالح معرفتها. على مقربة منه، وعلى طاولة مجاورة لطاولتي، كان يجلس "بلوخ" (Bloch) وسط مجموعة من الجامعيين الأدعياء الشباب، متظاهراً كذباً بأنه على سجيته، وهو ينادي عالياً أحدَ أصدقائه ويمرر له بتباه لائحة الطعام بحركة أدت إلى وقوع إبريقي ماء : "لا، لا يا عزيزي اطلب عنّي! طوال حياتي لم أعرف كيف أختار وجبة. أنا لم أطلب في حياتي!"، كرّر في تفاخر غير صادق، مازجاً بين الأدب والشراهة للطعام، ثم وافق بسرعة على زجاجة شمبانيا كان يحب أن يراها وهي تزيّن الحديث "بصورة رمزية تماماً". أما "سان لو" فكان يعرف ماذا يجب أن يطلب. كان جالساً بالقرب من "جيلبرت" الحامل (والتي لم تتوقف فيما بعد عن إنجاب الأولاد له) وكان ينام بالقرب منها على سريرهما المشترك في الفندق. لم يكن يكلم إلا زوجته، وباقي من في الفندق بدا وكأنه غير موجود بالنسبة إليه، ولكن في اللحظة التي كان يقترب منه صبي الفندق ليسجل طلبه، كان يرفع بسرعة عينيه الفاتحتين ويرميه بنظرة لا تستمر أكثر من ثانيتين، ولكنها بوضوح بصيرتها كانت تشهد على نمط من الفضول والبحث المختلفين تماماً عن الدافع الذي يحرك أي زبون آخر حين ينظر مطولاً إلى صياد أو بائع متجول لكي يكوّن عنه انطباعات هزلية يرويها فيما بعد لأصدقائه. إن هذه النظرة القصيرة واللامبالية كانت تدل على أن الصبي قد لفت انتباهه بحد ذاته، وكشف للأشخاص الذين كانوا يراقبونه أن هذا الزوج المثالي والعشيق الذي تدله في حب "راشيل" في السابق، كان له في حياته مخطط آخر أهم بكثير من هذا الذي يقوم به بحكم الواجب. ولكن الأمر لم يكن يظهر إلا أثناء ذلك. فقد

عادت عيناه إلى "جيلبرت" التي لم تلحظ شيئاً، فعرّفها على أحد أصدقائه بشكلٍ عرضي ثم ذهب للتنزه بصحبتها. لكن "ايميه" حدثني عن زمنٍ أقدم أيضا، زمن تعرفت فيه على "سان لو" عن طريق السيدة "فيلباريسي"، هنا في "بالبيك".

قال لي، ـ أجل يا سيدي، إنه معروف في كل مكان، وأنا أعرفه منذ زمن بعيد. في السنة الأولى من إقامته في "بالبيك" كان السيد المركيز يختلي مع صبي المصعد بحجة أنه يريد تظهير صورة السيدة جدّة السيد. لقد أراد الصبي أن يشتكي، وقد واجهنا مشقة كبيرة لخنق القصة. إن السيد يتذكر بلا شك اليوم الذي أتى فيه للغداء في المطعم بصحبة المركيزِ "دى سان لو" وعشيقته التي كان يتخذها كستار له. وربما يتذكر السيد أيضاً أن المركيز قد غادر مفتعلاً سورة من الغضب. أنا لا أريد القول إن السيدة على حق، فقد كانت تريه نجوم الظهر. لكنْ في ذلك اليوم لا يمكن لأحد إقناعي بأن غضب السيد لم يكن مفتعلاً وأنه كان بحاجة لإبعادِ السيد والسيدة. "ولكن في ذلك اليوم بالذات إذا لم يكن "ايميه" يكذب متعمداً، فقد كان مخطئاً من البداية وحتى النهاية. لقد تذكرت تماماً الحالة التي كان عليها "روبير" والصفعة التي وجّهها للصحفي. وكذب عندما تكلم أيضاً عن بالبيك" : إما أن صبي المصعد كان يكذب أو أن "ايميه" قد كذب. على الأقلِ هذا ما اعتقدته، ولا يمكنني التوصل إلى يقين تام. إننا لا نرى إلا جانباً واحداً من الحدث، ولو أن هذا الموضوع لم يؤلمني إلى هذه الدرجة، لكنت وجدت في الأمر بعضِ الجمالِ، بينما كانت مهمة صبِي المصعدِ عند "سان لو" بالنسبة إلي، الوسيلة المريحة لكي أوصل له رسالة وأستلم رده؛ أما بالنسبة له، فقد كان مناسبة للتعرف على شخص قد أعجبه. في الواقع، إن الأشياء مزدوجة على الأقل إن لم نقل أكثر. حول أسخف فعل نستطيع أن نفعله، يسهب رجل آخر في سلسلة من الأفعال المختلفة كلياً. من المؤكد أن مغامرة "سان لو" وصبي المصعد، في حال أنها قد حدثت فعلاً، فإنها لم تكن لتمثل لي أكثر من إرسال رسالة عادية، كما يكون الأمر بالنسبة لشخص لا يعرف من أعمال "فاغنر" (Wagner) إلا ثنائي "لوهنغرين" (Lohengrin)، فلا يربط بينه وبين استهلال "تريستان" (Tristan). ومن المؤكد أن الأشياء لا تظهر للناس إلا عدداً محدوداً من خصائصها اللامعدودة، وذلك لضحالة حواسهم. إنها ملونة لأننا نمتلك أعيناً. كم من الخصائص تفقد قيمتها لو كنا نمتلك مئات الحواس؟ بيد أنه من السهل أن نفهم هذا المظهر المختلف الذي تستطيع الأشياءِ اتخاذه، إذا اعتبرنا أن أصغر حدث يمر معنا في هذه الحياة وعرفنا جزءاً منه ولكننا اعتبرناه الكل،

فنظر إليه شخصٍ آخر فرآه عبر نافذة أخرى مفتوحة من الجهـــة الأخـرى للمنزل ومطلـــة على مشهد آخر. في حال أن "ايميه" لم يكن مخطئـــا، فـــإن احمرار وجه "سان لو" عندما حدّثه "بلوخ" عن صبي المصعد لم يكن ســـببه الوحيدِ هو أنه كان يلفظ كلمة "صبي المصعد" بشكل خاطىء. لكنـــي كنـت مقتنعا بأن تطور "سان لو" النفسي لم يكن قد بدأ في تلك المرحلة وأنه كان لا يزال يحب النساء فقط. وأكبر دليل على ذلك، أني عندما أعود إلى الـــوراء أستطيع أن أميّز الصداقة التي أبداها لي "سان لو" في "بالبيك". فهو لم يكـــن يقوى على القيام بصداقة حقيقية إلا لأنه كان لا يزال يحب النساء فقط. وبعد ذلك، وخلال فترة من الزمن على الأقل، كان يتجاهل الرجال الذين لم يكونوا يثيرون اهتمامه بشكلٍ مباشر، وكان صادقاً جزئياً في تجاهله لهم علـــى مـــا أظن، لأنه غدا بارداً جداً وكان يغالي في موقفه ليظـــــهر أنـــه لا يـــهتم إلا بالنساء. ولكني مع ذلك تذكرت أنه في أحد الأيام في "دونسيير"، عندما ذهبت للعشاء في بيت عائلة "فيردوران" (Verdurin) ، وبعد أن نظـــــر مطـــولا إلـــى "شارلي" (Charlie) قال لي: "يا للغرابة، لقد أخذ هذا الصغير شيئاً من ملامـــــح "راشيل". ألا يدهشك ذلك؟ أرى أنهما يتماثلان في عدة أشياء. على أية حـــال هذا لا يعنيني." ومع ذلك فقد بقيت عيناه طويلاً ساهمتين فـــي الأفـــق كمـــا يحصل لنا عندما نفكر قبل أن نستأنف لعبة ورق أو قبل الذهاب للعشاء فـــي المدينة، فنتذكر أحد تلك الأسفار التي نعتقد أننا لن نقوم بها قط والتي مع ذلك شعرنا للحظة بالحنين إليها. ولكن إذا كان "روبير" يجد في "شارلي" شيئا مـن "جيلبرت"، فإن "جيلبرت" كانت تسعى للتشبه ب"راشيل" لكي تعجب زوجها، فكانت تضع مثلها في شعرها عقدة من الحرير الأحمر الفاقع أو الزهـري أو الأصفر، وتسرح شعرها مثلها لأنها كانت تحسب أن زوجها لا يزال يحبـــها وكانت تغار منها. من الممكن أن حب "روبير" كان في بعض اللحظات يقـــع على الحدود التي تفصل حب الرجل للمرأة عن حب الرجل للرجل. على أيـة حال فإن ذكرى "راشيل" لم تكن تلعب في هذا الصدد إلا دوراً جمالياً. ومـــن المرجح أنها لم تلعب فيما مضى أدواراً أخرى. ذات يوم طلب إليها "روبـير" أن ترتدي زي رجل، وأن تترك إحدى خصلات شعرها الطويلة متدلية، ومع ذلك فقد اكتفى بالنظر إليها دون أن يشبع. وبارغم من ذلك كله لم يخفف مـن تعلقه بها وظل يسديها بدقة الريع الهائل الذي وعدها به، وهذا لم يمنعه فيمـا بعد من أن يؤمنه لنفسه بأبشع الأساليب. لم تكن "جيلبرت" لتتألم من كرمــــه تجاه "راشيل" لو أنها علمت أن مرد هذا الكرم كان فقط الوفاء بوعـــد ليـس للحب أية علاقة به. أما عن الحب، فقد كان بعكس ما يتظـــاهر بـــه تجـاه "راشيل". يمكن للمثليين أن يكونوا أفضل الأزواج في العـــالم لـــو أنـــهم لا

يتظاهرون بحب النساء. وعلى أية حال فإن "جيلبرت" لم تتذمّر بسبب ذلك. فقد اعتقدت لفترة طويلة أن "راشيل" كانت تحب "روبير" وهذا ما جعلها ترغب فيه، وجعلها تتخلى من أجله عن فرص أجمل لها بكثير، لقد بدا بزواجه منها وكأنه يقدّم لها نوعاً من التنازل. وفي الحقيقة أن المقارنة بين المرأتين لم تكن في الفترة الأولى (وكانتا متباينتين جداً من حيث السحر والجمال) لصالح "جيلبرت" اللذيذة. ولكن تلك الأخيرة كانت تكبر بعين زوجها في حين كانت مكانة "راشيل" تتناقص بشكل ملحوظ.

وهناك شخص آخر قد كذّب نفسه ألا وهو السيد "سوان". إذا بدا "روبير" قبل زواجه بالنسبة ل"جيلبرت" محاطاً بالهالة المزدوجة التي خلقتها من جهة حياته مع "راشيل" التي كانت تكشفها باستمرار شكاوى السيدة "دى مارسانت"، ومن جهة أخرى افتتان والدها الدائم بعائلة "غيرمانت" هذا الافتتان الذي ورثته عنه، فقد كانت السيدة "دى فورشوفيل" تفضل بالمقابل زواجاً أكثر طنطنة، وربما زواجاً أميريّاً (فقد كانت هناك عائلات ملكية فقيرة تقبل بالمبلغ ـ الذي هو أقل بكثير من الثمانين مليون الموعودة ـ والذي نظفه اسم "فورشوفيل") وبصهر لم يفقد حظوته إلى هذه الدرجة بسبب الحياة التي قضاها بعيداً عن العالم. لكنها لم تستطع التغلب على إرادة "جيلبرت" فاشتكت بحرارة للجميع وفضحت صهرها. وذات يوم تغيّر كل شيء وغدا الصهر ملاكاً ولم يعد أحد يسخر منه إلا خفية. ذلك لأن تقدم العمر أزال عن السيدة "سوان" (التي أصبحت السيدة "دى فورشوفيل") ميلها القديم بأن تعيش على حساب أحدهم، ولكن بسبب ابتعاد معجبيها عنها فقد حرمها من إمكانية تحقيق هذا الميل. كانت تحلم كل يوم بعقد جديد وثوب جديد مرصع بالأحجار البراقة وسيارة أكثر فخامة ولكنها كانت تملك ثروة صغيرة لأن لقب "فورشوفيل" قد ابتلع كل شيء ـ أي طالع يهودي يا ترى كان يتحكم بـ"جيلبرت"؟ ـ كان عندها ابنة رائعة، ولكنها شديدة البخل، تعُدّ المال لزوجها، أكثر مما تعدّه طبعاً لأمها. ولكنها فجأة اشتمّت هذا العشيق ووجدته فيما بعد بشخص "روبير". ولأنها لم تعد صبية شابة فلم يكن الأمر مهماً بالنسبة لصهر لا يعشق النساء. كل ما كان يطلبه من حماته هو أن تذلّل هذه العقبة أو تلك بينه وبين "جيلبرت"، فيحصل على موافقتها في أن تدعه يسافر مع "موريل" (Morel). وما إن تباشر "اوديت" بمسعاها، حتى تكافأ بياقوتة رائعة. ومن أجل ذلك توجب على "جيلبرت" أن تكون أكثر كرماً مع زوجها. وكانت "اوديت" تعظها بذلك بحرارة شديدة لأنها كانت هي المستفيدة من ذاك الكرم. وهكذا وبفضل "روبير" استطاعت وهي على أعتاب الخمسين

(والبعض يقول الستين) أن تبهر كل مائدة أكلت عليها وكل سهرة بدت فيها بأناقة لا توصف وذلك دون أن تحتاج، كما في الماضي، إلى "صديق"، إذ لم تعد الآن تستطيع إيقاعه بجمالها أو تسييره إلى حيث تريد. وهكذا دخلت على ما يبدو مرحلة العفة النهائية ولم تعرف في حياتها أناقة أكثر من أناقتها الآن.

لم يكن الخبث وحده أو حقد الفقير القديم على سيده الذي أثراه (كان هذا في طبع السيد "دى شارلوس" أكثر مما هو في مفرداته) والذي أيضا أشعره باختلاف مكانتيهما، هو الذي دفع "شارلي" باتجاه "سان لو" لكي ينكل بالبارون. ولكن ربما المصلحة كانت السبب في ذلك. شعرت بأن "روبير" كان يسخى عليه بالمال. وعندما التقيت به في إحدى السهرات قبل أن أذهب إلى "كومبري"، وبسبب الطريقة التي يتعمد أن يظهر فيها إلى جانب امرأة أنيقة يظهرها وكأنها عشيقته، ويلتصق بها، بحيث يشكل معها كائنا واحدا، ويتغطى بتنورتها على الملأ، كل هذا ذكرني وربما بشيء أكثر عصبية وأكثر ارتعاشا، بنوع من التكرار اللاإرادي لحركة قديمة كنت قد لاحظتها عند السيد "دى شارلوس"،الذي كان يغلف نفسه تماما بمحيط السيدة "موليه" (Molé)، وهو يرفع راية حب النساء مع العلم أنه لم يكن هكذا، وكان يحب ذلك دون وجه حق، إمّا لأنه وجد فيها حماية وإما لأنه وجدها جميلة، فذهلت بالمقابل لرؤيتي هذا الفتى الذي كان كريما جداً في فقره والذي أصبح الآن مقتصدا. أن يتعلق المرء بما يمتلكه فقط، وأن يدّخر آخر الذهب الذي نادرا ما كان يستطيع امتلاكه، كل هذا يشكل بلا شك ظاهرة عامة، ولكني رأيت أنها اتخذت هنا شكلاً خاصاً. لقد رفض "سان لو" استئجار عربة، ورأيت أنه احتفظ ببطاقة نقل في الترامواي. لا شك أن "سان لو" كان يظهر هنا، ولغايات مختلفة، المواهبَ التي اكتسبها خلال علاقته ب"راشيل". إن الشاب الذي عاشر طويلا إحدى النساء ليس عديم الخبرة كالفتى البكر الذي تكون زوجته هي المرأة الأولى التي عرفها. في المرات النادرة التي اصطحب فيها "روبير" زوجته إلى المطعم، كان يكفينا أن نرى الطريقة الماهرة والمحترمة التي يأخذ فيها أغراضها، وفنه في طلب العشاء، وكيف يخدم نفسه على المائدة، والاهتمام الذي يبذله وهو يمسد أكمام "جيلبرت" قبل أن تعيد ارتداء سترتها، كي نفهم أنه كان لفترة طويلة عشيق امرأة أخرى، قبل أن يصبح زوج هذه المرأة. وكما كان يهتم بأدق تفاصيل بيت "راشيل" لأنها من جهة، لم تكن تفقه شيئا في هذا المجال، ولأنه من جهة أخرى وبسبب غيرته أراد أن تكون له الكلمة الأخيرة في الأمور المنزلية، فقد استطاع عن

طريق إدارة ممتلكاتِ زوجته والعناية بالمنزل أن يستمر في لعب هذا الدور الماهر، وربما أيضاً لأن"جيلبرت" لم تكن تحسن القيام به فتخلت له عنه طواعية.لكنه بلا شك كان يقوم بهذا الدور لكي يستفيد "شارلي" من أدنى المدّخرات، فيستطيع بذلكِ أن يصرف عليه بسخاء دون أنٍ تنتبه "جيلبرت" لذلك أو تتألم. ربما أيضاً لاعتقاده بأن عازف الكمان مبذر "كحال جميع الفنانين" (هكذا كان "شارلي" يلقب نفسه بغير قناعة ولا فخر لكي يعتذر عن عدم الرد على الرسائل بسبب العديد من الأخطاء التي كان يعتقد أنها تشكل جزءاً أكيداً من سيكولوجية الفنانين).أما أنا شخصياً فقد كنت أرى أن الأخلاق لا دخل لها في مسألة شعورنا بالمتعة مع رجل أم مع امرأة كما أنه من الطبيعي والإنساني جداً أن نبحث عمن نحب وحيث يمكن أن نجده. فلو لم يكن "روبير" متزوجا لما كانت علاقته مع "شارلي" لتزعجني في شيء. ومع ذلك كان يداخلني شعور بأن إحساسي سيكون بنفس الحدة لو أن "روبير" بقي عازباً. على أية حال، لم يكن يعنيني ما كان يفعله. ولكنني كنت أبكي عندما أفكر بأني شعرت فيما مضى تجاه "سان لو" المختلف، بعاطفة عميقة وأشعر أنه الآن بحركاته الجديدة الباردة والبعيدة لا يبادلني هذا الشعور، فمنذ أن غدا الرجال قادرين على إثارة رغباته، لم يعد بإمكانهم أن يثيروا مشاعر الصداقة لديه. كيف ولد ذلك في رجل طالما أحب النساء ورأيته يائسا لدرجة خشيت فيها أن يقتل نفسه لأن "راحيل التي ذكرها الرب" أرادت أن تتركه؟ إن الشبهَ بين "شارلي" و"راشيل"ـ الذي اختفى عن أنظاري ـ كان كان تلك النقلة التي أتاحت الفرصة لـ"روبير" كي يتجاوز أذواق أبيه ويصل إلى أذواق عمه، وذلك ليكمل التطور الفيزيولوجي الذي ظهرعند هذا الأخير أيضاً في مرحلة متأخرة؟ ومع ذلك فقد كانت عبارات "ايميه" تقلقني أحياناً؛ تذكرت "روبير" تلك السنة في "بالبيك"، كانت طريقته في التحدث إلى صبي المصعد دون أن ينتبه إليه، قد ذكرتني كثيراً بطريقة السيد "دى شارلوس"عندما كان يخاطب بعض الرجال. ولكن يمكن أيضاً أن يكون "روبير" قد أخذ ذلك عن السيد"دى شارلوس"،لاسيما من تعاليه على بعض الوضعيات الفيزيائية الخاصة بعائلة "غيرمانت"وليس على أذواق البارون نفسها.وهكذا فإن دوق "دى غيرمانت" الذي لم تكن لديه تلك الميول، كان له نفس طريقة "دى شارلوس" النزقةَ في تدوير معصمه، كما لو أنه يشدّ حوله كمّاً من الدانتيل، وكذلك كانت في صوته تلك النبرة الحادة والمتصنعة، كل هذه التصرفات التي أعطاها "دى شارلو" دلالةً مختلفة، كان يعطيها هو نفسه دلالة أخرى، فالفرد يعبر عن خصوصيته بواسطة هذه الملامح غير الشخصية والموروثة التي ما هي إلا خصائص قديمة ومتأصلة في الحركة والصوت. وبحسب هذه

النظرية الأخيرة التي تنحصر في مجال التاريخ الطبيعي،لا يمكن اعتبار السيد "دى شارلوس" فردا من عائلة "غيرمانت" أصيب بعلة وكان يعبر عنها جزئيا بواسطة ملامح الـ"غيرمانت" وإنما دوق "غيرمانت" هو من وجد في عائلة منحرفة، وهو ذلك الشخص الاستثنائي الذي لم يصبه هذا المرض الوراثي والذي فقدت آثاره الخارجية عنده كل معنى لها. أذكر أنني عندما لمحت "سان لو" للمرة الأولى في "بالبيك"، كان كثير الشقرة، شقرة مصنوعة من مادة ثمينة ونادرة، ووجدته، وهو يلوح بنظارته أمامه، على شيء من التخنث الذي لم ينجم بالتأكيد عن الذي عرفته عنه الآن، وإنما عن العذوبة الخاصة التي تميز بها آل "غيرمانت"، إنها رقة بورسلين مدينة "ساكس" (Saxe) التي صنعت الدوقة منها أيضا. وأتذكر كذلك مودته لي، والطريقة اللينة والعاطفية التي كان يعبر بها عن هذه المودة، إن هذا الأمر الذي يمكن أن يخدع كل الناس ، كان يعني شيئا آخر، حتى أنه كان يعني نقيض ما عرفته اليوم. ولكن إلى متى يعود ذلك؟ إذا كان يرجع للسنة التي عدت فيها إلى "بالبيك"، فكيف لم يأت ولو مرة واحدة ليرى صبي المصعد؟ لماذا لم يحدثني عنه أبدا؟ أما بالنسبة للسنة الأولى، فكيف كان بإمكانه أن يلتفت إليه وهو الذي كان يعشق "راشيل" ويتيم بها؟ في تلك السنة الأولى، وجدت في "سان لو" شخصا خاصا، كما هي حال آل"غيرمانت" الحقيقيين. ولكنه كان أكثر خصوصية مما حسبته. ولكن المسائل التي لم نعرفها بحدسنا المباشر وإنما علمنا بوجودها عن طريق الآخرين فقط، لم تعد لدينا، بعد فوات الأوان، أية وسيلة لنعلم روحنا بها، لأن اتصالها بالواقع قد أغلق، وهكذا لم يعد بمقدورنا الاستمتاع بالاكتشاف، إذ تأخر الوقت. على أية حال لم استطع أن أستمتع روحيا بهذا الاكتشاف، لأنه آلمني كثيرا. لا شك أنه بعد ما قاله لي السيد "دى شارلوس" في بيت السيدة "فيردوران" في باريس، تيقنت من أن حالة "روبير" تلك هي حالة العديد من الأشخاص الشرفاء وحتى أذكاهم وأفضلهم. لم أكن لأبالي بذلك لو عرفته عن أي شخص آخر، لكن باستثناء "روبير". لقد لطخ الشك الذي تركته في نفسي كلمات "ايميه" كل الصداقات التي عشناها في "بالبيك" وفي "دونسيير"؛ ومع أني لا أومن بالصداقة ولا أعتقد أبدا أني شعرت بصداقة حقيقية مع "روبير"، إلا أنني عندما أتذكر قصة صبي المصعد وقصة المطعم الذي تناولت فيه طعام الغداء، مع "سان لو" و "راشيل" فإني أبذل مجهودا كبيرا لأمنع نفسي عن البكاء.

simple image de ce que [illegible]
multiplie en un instant [illegible]
pourrais apporter [illegible]

Autres [illegible] le [illegible]
Cours de ce récit [illegible], dans le [illegible]
trompeuse d'un [illegible] milieu qui
redessiner [illegible] en entier [illegible]

décrire les hommes [illegible]

[illegible] comme

il faut donc [illegible]

comme occupant [illegible]

une place [illegible] prolongée

celle si restreinte qui leur est réservée
une place au contraire prolongée [illegible]
dans le Temps [illegible] puisqu'ils touchent
[illegible] tant de jours sont venus se placer [illegible]
les époques [illegible]

Fin.